صولو

Solo

نور عبد المجيد



نور عبد المجيد

صولو
solo



الطبعة الورقية الأولى، 2014

الطبعة الإلكترونية، 2014

ISBN-978-614-425-651-0

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 5342/113.

الرمز البريدي: 6114 - 2033

هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@



دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى حبيبي:

خذلت أنا جميع الرجال. لم أستطع أن أحبَّ أحدهم!

لا رجل قبلك. لا رجل بعدك أبداً مثلك!

إلى عبد المجيد خطاب

رحمه الله عدد لحظات الحب والفراق

عدد شهقات الميلاد والاحتضار

وأكثر!

في ألم كبير بلا حدود أخذ يراقب وجهها الجميل النائم على المقعد المقابل له. هل أخطأ عندما هرب بها؟

إلى أين يأخذها؟ لكن أين أيضاً كان يمكن أن يتركها؟

ماتت أمه قبل موت أمها. ليته هو من مات. ماذا بقي يفعل على وجه الأرض؟!

شاب قوي في الخامسة والثلاثين لكنه فقير. كفّاه تشققتا من العمل في أراضي الغير.

مذ ماتت "بياضة" زوجته وهو تائه... لو لم تنجب بدرية لقتل نفسه.

صعيدي يقتل نفسه؟! كفر وعار أن يفعل. لكن هو يشعر أن العار الحقيقي ألا يفعل. ترك بياضة تموت. تركها تذوب يوماً بعد يوم أمام عينيه وهو يبكي كنساء المآتم.

كيف ماتت بياضة؟! كانت فتية وقوية، لم يسمعها يوماً تشكو. لم تشك قطّ من فقره أو قلة حيلته.

كان يظن فقره أقوى من أمراض الدنيا، ومن يصبر عليه لا يسقط أمام المرض أيا يكن اسمه أو أعراضه.

لم ير يوماً دمعة في عينيها كأنها تركت البكاء له وحده...

كيف ينسى بكاءه كلّ عيد، وطفلتهما الصغيرة تسأله عن ثوب جديد أو "عيدية" كتلك التي يتلقاها الأطفال.

هو ينظر إلى وجهها ويبكي. هي تبتسم ثم تمسك بيد الصغيرة وتنهرها في حزم، ثم تردّد عليها ما تقوله دائماً: ماذا تعني كلمة ملابس جديدة؟! بعد ارتدائها بلحظة تصبح قديمة. ماذا تعني عيدية؟! هي مجرد أوراق لا قيمة لها.

لا يذكر عيداً واحداً استطاع فيه أن يحضر لإحداهما جلباباً أو يضع في كفّ إحداهما مليماً.

لكن ما سمعها يوماً تتذمّر أو تشكو، حتى وهي مريضة. كان يراها تذوي، تتآكل، ويسألها لتردّ عليه باستنكار من أين له بهذه الأفكار الغريبة؟

شهور وهي تقاوم. شهور وهو يراها تنثني على بطنها من الألم ثم تعتدل لتقسم له أنها لا تشكو من شيء.

تلك الليلة المشؤومة لم تستطع أن تكتم صرختها أو تبتلعها. استيقظ كالمذعور على صراخها، لكنها أيضاً لم تكن تبكي.

معها عرف طريق "المحروسة". معها دخل القاهرة، وقف بباب معهد الأورام والقصر العيني.

كأنّ الله أراده أن يرى بعينيه أنّ فقره لا يزال أهون كثيراً من ذلّ المرض وإذلال الأطباء وغرورهم.

لم تحتمل سوى عشرة أيام في القاهرة. أخبروه أنها تموت. تأخروا كثيراً. المرض انتشر في جسدها.

كيف ينتشر شيء في جسدها وهي شابة لم تبلغ الثلاثين بعد؟

عادوا إلى نجع الملاوي بالمنيا. إلى البيت الصغير. والطفلة التي تركها لدى أخته وجدها هزيلة حزينة. اعتدى عليها واصف، زوج أخته، أكثر من مرّة بالضرب.

بدرية يضربها أحد؟!

رغم الألم والانكسار لم تقل زوجته شيئاً، بل شكرت واصف كثيراً على استضافته الصغيرة.

أعدّت لهما يوم عودتها بعض اللقيمات، وجلست تضمّ ابنتها ذات الخمسة أعوام إلى صدرها وهي تخبرها أنها لن تتركها أبداً وحدها، وإن فعلت يوماً فستتركها فقط في صحبة عمران أبيها.

تلك الليلة، قبل أن ينام، رآها تعتدل في فراشها جالسة تعضّ على شفتيها لتكتم صرخات الألم قدر استطاعتها.

قالت له تلك الليلة إنها تعلم أنه يحبها، وتعلم أنه أرقّ رجال الصعيد قلباً، وأيضاً تعلم أنها تموت. استحلفته ألا يلقي بابنتها أبداً إلى بيت أحد من أقربائه أو أقربائها.

اعتدل هو أيضاً في فراشها وأخبرها، وهو يواسيها، أنه سيعاتب واصف، لكنه لم يشأ أبداً أن يفعل أمام

زوجته.

أمسكت بكفه تقسم أنها ليست غاضبة من زوج أخته لأنها تعلم فظاظته حتى مع أبنائه.

كيف ينسى تلك اللحظة التي أمسكت فيها بكفه، كأنها رجل، تأخذ عليه عهد الله وميثاقه ألا يترك الصغيرة تبيت ليلة بعيداً عن ناظريه؟ كيف ينسى دمعاتها وهي تخبره أن بإمكانه أن يمزقها، إن شاء، قطعاً صغيرة ويرمي بأشلائها في البئر، لكن لا تريده أبداً أن يدع كفاً سوى كفه وحده تفعل.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها دمعاتها حين عادت تخبره أنّ يد الأمّ وأصابع الأب من قسوتها يخرج الحنان ومن إذلالها تولد الكرامة.

"لا أحد سواك يضربها. امنحني عهد الله. لا أحد سواك حتى إن تزوجت بعدي وكانت امرأة طيبة حانية. لا أحد يمسّ جسد ابنتي سواك. امنحني عهد الله".

ضمّها إلى صدره تلك الليلة وبكى. أخبرها أن يده لن تلامس جسد أنثى بعدها حتى الموت!

ماتت بعد شهور من صرخات الألم واستجداء ثمن الأدوية والمسكّنات. ماتت بعدما أصبحت الصغيرة عجوزاً تنتفض من الخوف كلما سمعت أمها تبكي من الألم.

دفنوها كأنها جرو صغير، وعاد إلى بيته الذي خلا من امرأة كانت في حياته الرجل والأنيس والرفيق.

عاد ليجد طفلته في فراش أمها تتحسس بكفها وسادتها البالية وتضمّها إلى صدرها في فزع كبير.

اغتال الحزن طفولتها.

وقف يراقبها في صمت. لماذا ولدت فتاة؟ لو أنها ذكر لكان خوفه أقل. لأخذها معه إلى الأراضي الزراعية أو ألقى بها في أحد المقاهي الصغيرة على أطراف ملاوي. لكنها فتاة صغيرة تبلغ من العمر خمسة أعوام.

كيف يحمّمها وكيف ينشّف جسدها الصغير؟ كيف يعقص لها شعرها الطويل جديلة كهذه التي تنسدل على ظهرها؟

ماذا يفعل عندما تصبح أنثى؟ ماذا يخبرها، وكيف يتركها وحدها في الدار، وكيف لا يتركها؟!

كيف تطهو أو كيف يطهو هو لها؟

كان يراقبها وهو لا يصدق أنّ أمها رحلت ومعها مفاتيح كلّ هذه الأسرار الصغيرة وتركته وحده يقف أمام طفلته كأنه هو أيضاً طفل في جلباب رجل.

دموعه كانت تنهمر في ألم كبير، ورفع كفه يستند بها إلى باب الغرفة المتهالك، ثم ألقى برأسه على تلك الكف الخشنة المتشققة من آثار الفأس والمعول.

كانت زوجته تضحك من خشونة كفه دوماً وهي تخبره أنها تعلم ماذا تفعل هذه اليد لتعود كلّ يوم بقروشها ولقيماتها.

ما عاد هناك من ينتظره. ما عاد هناك من يجفف دمعاته ويخبره أنه رغم انحنائه على الحقول كلّ صباح، ورغم أكوام الأتربة التي يحملها فوق رأسه كلّ غروب، يبقى سلطاناً تضعه تاجاً فوق رأسها...

رفعت اليتيمة رأسها تلك اللحظات، ومن خلف دموعها راحت تحدق في وجهه لحظات، ثم وضعت الوسادة على الفراش لتتقدم نحوه في هدوء كأنها أدركت كلّ ما كان يدور في رأسه. حين أصبحت أمامه أمسكت جلبابه بكفها الصغيرة وقالت ما كانت تسمع أمها دوماً تردده لحظة دخوله البيت:

استرح قليلاً وسأعد لك شيئاً تأكله!

رجل وامرأة يلتقيان ويتزوجان، بل ربما يتزوجان من دون أن يلتقيا مرة واحدة حتى الموت. ورغم هذا يقرران الإنجاب لأنّ كلّ من تزوجوا أنجبوا، فإن لم يفعلا اعتبرا فاشلين يستحقان الرثاء ولاحقتهما الأسئلة.

فلتكن تلك قضيتهما وقصتهما. هذا لا يؤلمها، كما لا يؤلمها أيضاً أنها ولدت من أبوين ككل هؤلاء المنتشرين على الأرصفة والطرق الذين يتزاوجون وينجبون ثم يلعنون اللحظة التي فعلاها فيها.

أبداً ليست هذه قضيتها الكبيرة. ولدت نادية ويكفيها أنها تعلم علم اليقين أنها لم تختر أن تولد منهما، بل تعلم أنها لم تختر أن توجد على هذه الأرض، لكنها موجودة. امرأة في السابعة والخمسين من عمرها.

امرأة لم تختر أن تولد لكنها ولدت. لم تختر أن يكون والدها شفيق مكرم ذاك الموظف الذي تدرجت به الأيام حتى مات وهو في منصب مدير عام الشؤون القانونية في وزارة المعاشات، أو تكون أمها نانسي عبد الشهيد.

لم تختر قطّ أن تتزوج وهي في الثانية والعشرين من عمرها من محب وجيه لا لشيء إلا لأنه طبيب

ولديه عيادة ويمتلك عمارة ورصيداً في البنك.

لم تختر شيئاً في حياتها. هي حتى لم تختر أن تكون أمّاً.

لم تشعر بشيء تغيّر في حياتها أو حتى في جسدها لتجد نفسها أمّاً بعد أقلّ من عام من الزواج.

أصبحت حرم الدكتور محب وأم وحيده ناصر. أصبحت تحمل على كتفها طفلاً لا تعلم كيف تكوَّن وجاء. وتضع في إصبعها محبس زواج تعلم أنها لن تخلعه حتى بعدما مات من قيّدها به.

أصبحت تفهم بعد صراع الأعوام أنّ كلّ شيء تمّ من دون رأيها أو مشورتها، وبالطبع من دون موافقتها!

لم يعد يعنيها شيء أو ما عاد شيء يشكّل فارقاً.

الأعوام ركضت.

زوجها رحل. وكانت المكافأة أن كتب هذه العمارة باسمها. ناصر لم يعترض لكنها تعلم أنه ينتظر موتها لتصبح ملكه. رشا أيضاً تنتظر موتها. مسكينة لا يكفيها ما تركه الأب لزوجها.

مسكينة رشا لو تعلم أنّ الموت الذي تتمناه لها هو أحلى أمانيها وأغلاها!

جميعهم رحلوا وتركوها بعدما تخرّج وحيدها في كلية الطب كما أراد له والده. يومها أحضر لها رشا مقار وقال في هدوء هذه هي الفتاة التي سأتزوجها.

حتى زوجة ابنها لم تخترها.

لطمت نادية رأسها بكفها.

ماذا تريد؟ قصة كلّ يوم؟ نعم، تعلم أنها ولدت وشابت من دون أن تختار شيئاً.

نهضت عن مقعدها في هدوء وتقدمت نحو نافذة صالة البيت الكبيرة فوقفت أمامها تنظر إلى سماء شارع الدكتور أحمد الحاسب بالروضة في ألم عميق.

عندما شعرت بدمعة صغيرة تنحدر على خدها عادت ترفع عينيها إلى السماء وهي تخاطب ربها.

ما زالت ترى نفسها تلك الطفلة التي أحضروها إلى الحياة رغماً عنها. أصبحت في السابعة والخمسين، ربما لهذا هي ضعيفة أمام الأطفال.

سبع وخمسون عاماً لم تختر فيها شيئاً حتى وحيدها ما كانت تريد له اسم ناصر.

الآن، وبعد أكثر من نصف قرن، هي تريد شيئاً واحداً، لكنها لجبنها، لضعفها، لأنها ما اعتادت أن تختار أو تقرر... لكل هذا لا تعلم كيف تحصل عليه، لكنها تريده وتريد أن يكون بيدها.

تريده يؤخذ ولا يُمنح. يؤتى به ولا يُلقى عليها.

إمنحها القوة لتختار وتقرر أن تمدّ أصابعها وتحصل على أجمل شيء في الحياة.

الموت!

لماذا تعذِّبه كلَ صباح، لماذا؟ وهي تعلم أنه سيحدثها وهو في طريقه إلى المستشفى، وأمامه أكثر من عملية جراحية عليه أن يجريها. أخبرته أنها لا تعلم موعد وصول عمران بالتحديد لكن يجب أن يلقاه.

مسكينة أمه. تخشى أن تلتقي "بوّاباً" قادماً من الصعيد للعمل لديها، وتنتظر منه هو أن يلقاه ليحدد له راتبه ويوضح له مسؤولياته وأعباء وظيفته.

فلتجب على الهاتف إذن. يكره ضعفها وحيرتها وترددها الكبير. لا يذكر يوماً أنه سمعها تعترض على شيء أو تقرره، ورغم هذا يشعر كثيراً بالتوتر من التعامل معها.

يجب ألا يغضب. هو طبيب ويعلم أنها مريضة، بل هو نفسه من اصطحبها إلى طبيب الأمراض العصبية. وحده يتابع علاجها. هي لا تأخذ الدواء إلا إن أرسل لها رسالة أو حادثها ليذكرها به. يكاد يراها على سماعة الهاتف تهزّ رأسها وتقول جملتها التي لا تتغير: "حاضر يا ناصر".

اقتربت من الستين وهي لا تقول سوى "حاضر".

فليرحم الرب أباه، كان قوياً. وحده من كان يحدّد كلّ شيء.

كان الدكتور محبّ يستيقظ في الصباح ويحدّد كلّ شيء حتى وجبة الإفطار البسيطة. حتى ساندويشات المدرسة التي كانت تضعها له في حقيبته كان يحدّد محتواها وهو يرتشف فنجان قهوته الصباحي.

الصغير يذهب إلى المدرسة وهي تنفذ تعليمات الكبير ليتلقى معها عند عودته وعودة والده تعليمات المساء.

لا يعلم كيف يشكر الرب لأن والده لم يمت إلا بعد تخرجه في كلية الطب والتحاقه بالعمل.

كيف ينسى يوم مات ذاك الرجل؟ أحد أكبر أطباء الرَمد في مصر. وقفت أمه تسأله في هدوء ماذا تفعل... وكأن ناصر هو محب جديد، ومن مات شخص لا يجمعها به سوى تعليمات تنفذها.

ظنها تتغير بعد موته. ظنها تخرج إلى صديقاتها أو إلى حياة تنتقل فيها بمفردها بعدما قاربت الستين لكن منذ وفاة والده منذ عامين لم يسمع أنها خرجت إلى مكان.

حتى الكنيسة إن لم يخبرها أنه سيمر لاصطحابها إليها لا تخرج إليها ولا تغادر بيتها.

أوقف سيارته في جوار المستشفى الذي يعمل فيه ونظر في ملل كبير إلى هاتفه الصغير. ما زالت لا تردّ.

لا وقت عنده اليوم. يجب أن ينتهي من عملياته ويعود إلى زوجته ليصطحبها هي وابنته لتناول الغداء لدى عائلتها.

بعدما أغلق سيارته مضى في هدوء وهاتفه ما زال في يده كتب لها رسالة صغيرة قال فيها:

"ماما... عندما يصل البواب أدخليه إلى غرفته وأخبريه أني سألقاه عند حضوري إلى العيادة في المساء. لا تنسي الدواء أرجوك"...

ما زال طبيباً صغيراً للعيون لكنه ناجح. والده وضعه على أول الطريق. حتى المستشفى الذي يعمل فيه هو من اختيار والده.

تنهد في صمت.

محب وجيه لم يمت بعد. ما زال هو من يحرك أيامه وأيام أمه.

أدخل يده إلى جيب جلبابه وأخرج الورقة الصغيرة المطوية.

نعم موجودة لكنه لا يحتاج إليها. هو يعرف جيداً طريق العمارة التي لم يتخيل أنها ستصبح سكنه يوماً من الأيام.

طيبة هي تلك السيدة. يوم ذهب إلى القاهرة بصحبة زوجته كان يحمل في طيات جلبابه ذات الورقة.

أخبره محرم بك كبير النجع أن الدكتور ناصر هو ابن أعز أصدقائه. أخبره أنه حادثه وأنه قام بإعداد كل شيء من أجل بياضة.

عندما رأتها السيدة نادية ورأت كم كانت ضعيفة وتتألم أصرت أن تمنحها غرفة حارس العقار.

غرفة صغيرة في الدور الأرضي يهبط إليها بدرجتين أو ثلاث لا يذكر، لكنه يذكر جيداً أنها تواجه مدخل العقار، وأنه لكي يصل إليها يجب أن يحني ظهره حتى لا يرتطم رأسه بسقف سلم المبنى الواقع فوقها.

وضع كفه على رأس بياضة لحظة دخولها إلى الغرفة خوفاً عليها. ذات الكف التي تحمل ورقة العنوان.

ابتسم في مرارة وهو ينظر من نافذة القطار الذي يجلس فيه، ثم طوى الورقة وأعادها إلى جلبابه في ألم كبير حين أفاق منه عاود النظر إلى كفه السمراء الكبيرة الخشنة ما عادت هذه الكف تلمس ذلك الرأس.

تحلل رأسها تحت التراب وأصبح ذرات صغيرة لكن رائحته ما زالت عالقة بين شقوق كفه السمراء.

عاهدها ألا تمس كفه امرأة سواها. ليس فقط حباً أو وفاء لكن عجزاً وزهداً.

أكثر من عام مرّ على رحيلها. أكثر من عام وهو يعمل في الحقول والأراضي الزراعية أجيراً يومياً لا يرفع عن الأرض ظهره ولا يترك الفأس من يده.

عام عاد في نهاية كل يوم من أيامه إلى البيت ليجد هذه الصغيرة وحدها في الدار الصغيرة بانتظاره.

ما عاد الصعيد كما كان أيام كان هو طفلاً. من يصدق أن شقيقته الوحيدة ما جاءت يوماً تتفقد أحوال ابنته رغم علمها أنه يغيب عنها اليوم بأكمله.

في أول أيام رمضان دعتهما إلى الإفطار لديها.

كيف ينسى أن واصف هو الذي ألقى في رأسه بذرة الرحيل إلى القاهرة...

شهر رمضان كان سبباً رئيسياً لخروجه من الصعيد. كان يعود كل يوم قبل الإفطار بدقائق في ذاك الهدوء المخيف الذي يجتاح نجع الملاوي بأكمله.

كل سكان النجع في بيوتهم يستعدون لتلك اللحظة التي ينطلق فيها مدفع الإفطار. موائد وأقارب وأصدقاء وهو وحده مع الصغيرة.

لماذا لا يحبه أحد؟! ولمَ لا يحب ابنته طفل أو طفلة من أطفال النجع؟

لا يعلم... بل هو لم يرفع يوماً وجهه لينظر في وجه أحد ليعلم إن كان يحبه أم لا.

هو دائماً منكس الرأس.

اعتاد انحناءة ظهره على تربة الحقول وطينتها لكن ما الذي نكس رأسه؟

الفقر؟! الخجل من بياضة وابنته؟!

صعب هو شهر رمضان من دونها. صعب جداً أن يعود كل يوم بأرغفة الخبز وكيس صغير من حبات الفول أو أقراص الفايش التي يشتريها من إحدى النساء اللاتي يبعنه.

صعب أن يجلس وأمامه ابنته يزدردان الطعام وكلاهما منكس رأسه من خجل عجزه عن فعل شيء للآخر.

حادث محرم بك مالك الأرض التي يعمل فيها. أخبره في نهايات شهر رمضان أن يحادث السيدة نادية ويخبرها أنه يريد العمل حارساً في العقار الذي تملكه والذي استضافته فيه.

لم يمانع الرجل كأنه لا يعنيه أن يبقى أو يرحل.

وهل يهتم أحد لأحدب لم ير أحد ظهره مستقيماً ولا رأسه مرفوعاً؟

حين أخبره بعدها بأيام أن الدكتور ناصر أعلن موافقته أخبر هو صغيرته وهما على مائدة الإفطار أنه سيأخذها إلى القاهرة.

بأعوامها الستة ووجهها الجميل الرقيق سألته هل يتركون البيت الذي كانت فيه أمها تضمها وتقبلها وتحكي لها فيه القصص؟

من دون أن يرفع عينيه عن صحن الفول أجابها أن أمها أيضاً عاشت أياماً في الغرفة التي سيأخذها إليها.

كأنها بياضة أخرى.

نهضت عن المكان الذي افترشاه أسفل فراش أمها وهي تحمل صحن الطعام الصغير وقالت:

غداً أجهز كل شيء للرحيل.

شهور مرت قبل هذه اللحظة التي يجلس فيها على مقعد القطار في طريقه إلى الروضة.

ما اسم الشارع؟!

من دون وعي مدّ يده إلى ثنايا جلبابه لكنه عاد وابتسم ابتسامة مريرة. هو لا يعرف القراءة.

نظر إلى الوجه النائم أمامه.

جميلة. شعرها ناعم من دون كسرة واحدة. أنفها صغير معتدل وشفتاها ناعمتان مستقيمتان رغم نحولهما. يشهق كلما ارتطمت عيناه بوجهها كأنه يراه للمرة الأولى.

لماذا حقاً لا ينظر إلاَ أسفل قدميه؟

رفع وجهه يبحث عن وجهها الأسمر الصغير.

ما زالت نائمة وشعرها الناعم يسقط على وجهها وكتفيها.

ناداها في حنان. يجب أن تستيقظ. القطار على وشك الدخول إلى محطة مصر وهي يجب أن تفيق.

ليست كالأطفال في شيء... كان في زياراته لصفية يراها تعاني كثيراً لتوقظ أحد أبنائها، لكن بدرية دوماً تفتح عينيها بعد نداء أو اثنين على الأكثر.

عاد ينادي اسمها بصوت أعلى ليراها تفتح عينيها العسليتين في تثاقل كأنها تحاول أن تتذكر أين هي بالتحديد. وقالت بعد لحظات:

وصلنا؟!

أشار لها بكفه العريضة لتنهض عن مقعدها وتجلس إلى جواره وهي تسمعه يقول:

أمامنا دقائق. أما زلت حزينة لتركنا ملاوي؟!

كانت عيناها تتابعان في لهفة ما تراه من نافذة القطار وأجابت:

هل أنت حزين؟!

بكفه السمراء الكبيرة ربت على فخذها في حنان قائلاً:

لا شيء لي هناك سواك. فعلام الحزن إذن؟!

رآها تضع كفها فوق كفه وعيناها ما زالتا تركضان على النافذة، ثم قالت في هدوء:

أحضرت ملابس أمي معنا. هل ما زال في إمكاننا أن نزورها في الأعياد؟

عاد عمران يربت على فخذها كأنه يواسيها. رآها وهي تطوي ملابس الراحلة.

جلبابان لا شيء سواهما وقميص نوم. حتى هي لم تغسلهما مرة واحدة، ودوماً يراها تضع أحدهما إلى جوارها وهي نائمة كأنها تحتضن أمها.

ترى ماذا بقي منها تحت التراب؟

يعلم أن لا شيء بقي منها هناك. ليس لأنها تحللت لكن لأنها كما هي باقية هنا في أضلع هذه الطفلة وأضلعه!

لماذا يدلل وحيد غلا إلى هذا الحد ويقسو على ياسر إلى هذا الحد أيضاً؟

ثلاثة عشر عاما وهي زوجته ولم تفهم كيف يفكر أو ماذا يريد حقاً.

أغمضت مروة عينيها وهي تشيح بوجهها إلى نافذة السيارة تنظر خارجها.

تعلم أن وحيد مهندس عبقري. حين حصل على شهادة الدكتوراه من أمريكا في بداية زواجهما كان الجميع ينحني له. حين ولدت ياسر على أرض بلاد العم سام وتلته بمولد علا بعد عام واحد تغير كل شيء.

تبدل زوجها عند حصوله على شهادة الدكتوراه. تبدل حين عرضت عليه الجامعة هناك أن يبقى ويعمل أستاذاً فيها. تبدل حين انتقلوا إلى الحياة في بيت كبير وأصبح له سيارة رائعة ودخل كبير... بل تكاد تجزم أنها تعلم أنه تبدل أكثر وأكثر في تلك اللحظة التي حمل فيها الوافدة بين ذراعيه.

نظر في عينيها ولم يقل سوى كلمة واحدة: "علا".

تكاد تجزم أنه كان يحب امرأة لها الاسم نفسه.

تنهدت في صمت. هل أخطأت عندما أصرت على العودة إلى مصر منذ عام؟

عارضها كثيراً وكاد يتهمها بالجنون. هل تترك الحياة في فيرجينيا لتعود إلى شارع الدكتور أحمد الحاسب في الروضة؟ هل ترفض المدراس الأمريكية التي قضى فيها الطفلان أعوامهما الدراسية الأولى لتعود وتبحث عن مدرسة لن تكون في معدل أدنى من مدارس واشنطن العامة؟

قادت حرباً كبيرة. كانت تختنق. كانت تراه يقسو على ياسر ويدلل علا في جنون وهي وحدها هناك.

رغم كل المصريين حولها. رغم كل العرب من كل الجنسيات، بل ورغم حتى العائلات الأمريكية التي أحبتها وأحبت نساءها وأطفالها شعرت أنها تختنق.

شعرت أن طفليها يضيعان منها.

لغتهما العربية الركيكة. أفكارهما الأمريكية المجنونة. اشتياقها لأشياء صغيرة تريدهما أن يعتاداها ويعتادا رائحتها كل صباح على أرض مصر.

هي لم تتزوج وحيد لتنجب طفلين أمريكيين.

ما زالت ابنة الشيخ كامل رفعت الذي كان إماماً لجامع الحسين لأعوام طويلة.

ياسر في عامه العاشر كان يذهب إلى الكنيسة مع رفاق المدرسة، وعلا في عامها الثامن كانت تحدثها عن

لهفتها للوصول إلى المرحلة الثانوية لتنفرد بصديقها الذي ستحبه وتخرج للرقص معه.

كاد زوجها يموت ضحكاً عندما أخبرته بذلك. أخبرها أنها مجنونة. هل تخشى على طفلة في الثامنة من حلم يراودها وتحققه فقط عندما تبلغ السادسة عشرة؟ صاح فيها يذكرها بأنها هي نفسها كانت تصطحب زوجة الدكتور محب مالك العقار الذي يقطنونه في مصر إلى الكنيسة.

بكت يومها كثيراً وهي تخبره أنها كانت تذهب إلى الكنيسة مع نادية وهي امرأة زوجة لكن أن يذهب صغيرها كل أسبوع إليها وهو طفل، ولا يصطحبه والده مرة إلى الصلاة في مسجد فهو الجنون بعينه.

أرسلت إلى والدها رسائل كثيرة ثم أعلنت العام الماضي أنها ستأخذ الطفلين وتعود بهما وحدها إلى القاهرة أو إن شاء تتركهما له وتأخذ ربها عوضاً فيه وفيها.

بعد معارك شرسة قدم وحيد استقالته وأخبرها أنه سيعود بهم إلى الحياة في مصر وهو يعلم أنها ستندم وسترجوه العودة إلى أمريكا مرة أخرى.

قاسية كانت الشهور الأولى. قاسية عليهم جميعاً وأكثر قسوة عليها هي فهي في أعينهم جميعاً المسؤولة عن هذا القرار المدمر.

علا تلومها ووحيد يلعنها. نعم يلعنها رغم التحاقه للعمل في إحدى الجامعات الخاصة، ورغم افتتاحه مكتباً استشارياً كبيراً بدأت صفقاته ومشاريعه تفرض نفسها واسمها على سوق الهندسة والعقارات. وحده ياسر حبيبها يخبرها أنه يؤمن أن لها في قرارها حكمة يؤمن بها.

استدارت تنظر إلى النائمين على مقعد السيارة الخلفي في هدوء.

لماذا لا يحب وحيد ياسر كما يحب علا؟!

ربما لكي يفسد الطفلين. آه من فساد البنات وتدليلهن بهذا المجون.

والدها يعينها على تربية ابنها والحديث إليه في كل أمور الحياة، لكنه يشعر بها تتحاشى زوجها وابنته.

فيهما غرور أحمق وتعالٍ مجنون كأنهما يشعران أن لهما دماء غير الدماء، وعروقاً غير العروق.

والدها يوصيها بالصبر. زوجها رغم كل شيء ليس سيئاً. ليس فيه أبداً ما يستوجب هدم البيت وتشتيت الأطفال.

ضحكة صغيرة مريرة خرجت من شفتيها!

ترى ما الذي يستوجب هدم البيوت وتشتيت الأطفال في عيون الآباء ورجال المساجد؟

يومها سألت والدها الذي نكس رأسه لحظات وقال:

وحيد ليس بخيلاً أو مدمناً أو سكيراً. هو لا يؤذيها ويحترمها.

لا يؤذيها؟!

أليست وحدتها وغربتها بين ذراعيه أذى؟!

أليس تقسيم البيت إلى حزبين جريمة؟!

أليس تدليله ابنته وقسوته على ابنه جريمة؟!

أليس استعلاؤه عليها أذى؟ هو دوماً يسفّه آراءها ويسخر من مشاعرها إن هي يوماً استمعت إلى أغنية أو حتى رآها تقف على سجادة صلاتها.

في الأولى يميل على أذني ابنته ساخراً ليطلب منها أن تنصت إلى الأغاني والألحان العجيبة التي تختارها أمها. وإن رآها تصلي ربَت على كتفيها وهي بين يدي ربها وتمتم كلمتين يخبرها أنها يجب أن ترى نفسها وهي ترسم على وجهها الخشوع.

ترسم الخشوع؟! على من ترسمه ولمن تدّعيه؟!

على الله؟ أولا يعلم الله إن كان قلبها خاشعاً أم مرسوماً، وما الذي يعنيه؟!

حين تعاتبه يقول إنه يمازحها.

أوليس مزاحه هذا أذى كبيراً؟!

الشيخ كامل حين تشكو إليه يطلب منها أن تصلي بعيداً عنه إن كان هذا ما يؤذي خاطرها.

نعم.

هكذا أصبحت تصلي بعيداً عن زوجها وتبكي وتغني وتضحك أيضاً بعيداً عنه وعن علا أيضاً.

أصبحت تفعل كل شيء بعيداً عنه ووحدها، رغم أنها دوماً معه وإلى جواره.

أفاقت على صوته يسألها إن كانت تريده أن يقف لشراء شيء يحتاجون إليه قبل الدخول إلى شارع الملك عبد العزيز بالروضة والمؤدي إلى البيت، لكنها أومأت برأسها بما معناه أن لا.

استدارت توقظ طفلها لتسمعه كعادته يقول:

حبيبتي وصلنا.

نظرت إليه نظرة سريعة خاطفة غاضبة لكنها عادت تضع كفها على فخذ ولدها الذي أتم عامه الثاني عشر منذ أيام تربت عليه لتوقظه.

فتح ياسر عينيه في حنان ورآها كعادتها تقول كأنها تكاد تبكي:

حبيبي... نحن في جوار البيت.

حين ترجلوا جميعاً من السيارة رأت رجلاً في جلباب صعيدي ويمسك بيده طفلة صغيرة يتحدث إلى زوجها الذي قال:

نعم هو العقار رقم 4... من تريد؟!

كانت الطفلة تنظر حولها في ذهول. جميلة رقيقة يبدو أنها هي الأخرى عائدة من غفوة أو نوم.

وسمعت الرجل يقول:

أريد السيدة نادية شفيق. أعلم أنها تسكن الدور الرابع. كنت هنا منذ أكثر من عام.

هي وطفلاها كانت أعينهم مسلطة على الصغيرة التي أمسكت بجلباب أبيها بين أصابعها في ذهول كبير.

شعرت بياسر يخطو نحو الصغيرة وهو يقول باسماً في حنان في عربيته الركيكة:

ما اسمك؟!

زاد التصاق الصغيرة بجلباب أبيها وهي تنظر إليهم جميعاً في خوف، ثم قالت في صوت خفيض:

بدرية عمران!

أكثر من أسبوع وهو يراقبها. كلما نزل في الصباح لانتظار باص المدرسة مع أخته يجدها تقف إلى جوار والدها تغسل معه سيارات السكان وتنفض عنها الأتربة، وكلما عاد في الظهيرة من مدرسته يجدها إما على هذه الأريكة الخشبية الموضوعة أمام باب العقار أو تجلس على إحدى درجات سلالم العمارة في هدوء.

أكثر من أسبوع وهي ترتدي ذات الجلباب المزركش الذي رآها فيه يوم جاءت أول مرة.

لا ينسى تلك اللحظة التي وقف فيها والدها يسأل والده عن رقم العقار. ياسر لا ينسى أبداً كيف قبضت بكفها الصغيرة على جلبابه وهي تحتمي بساقيه حتى أنها كادت تختفي بين طيات ثوبه.

غريبة ثيابه. غريبة جداً ثياب هذا العمران.

ابتسم في هدوء. أخبرته أمه أن يدعوه "عم عمران".

حين سألها لماذا لا يقول "أنكل" إن كان لهما نفس المعنى ويكفيه حرف العين في كلمة واحدة فهو حرف يصعب عليه نطقه.

أجابته أنه من الممكن أن يقول كلمة "أنكل" أو "جراند با" حين ينادي أعمامه أو جديه لكن عندما

نحادث حارس عقار أو رجلاً بسيطاً في مصر فنحن نسبقها بكلمة "عم"!

كاد عمر سكناه في مصر يقترب من العام وما زال يرى المصريين أناساً يختلفون كثيراً عن كل أصدقائه ومعلميه في واشنطن.

اشتاق إليها ولم يكن يريد أبداً أن يتركها، لكنه أبداً لا يبوح بهذا. أمه تريده وتريد أن تحيا هنا بل ياسر يراها منذ حضورها هنا وهي أكثر هدوءاً وحناناً عليه.

أخذ ينظر من نافذة باص المدرسة. عشرون دقيقة تقريباً ويصل إلى البيت. إن رآها اليوم تجلس على السلم الداخلي للعمارة يعطي حقيبته المدرسية لأخته لتصعد بها إلى بيتهم ويتحدث مع بدرية قليلاً.

يريد أن يسألها عن أشياء تشغل رأسه.

يريد أن يسألها متى تذهب ومتى تعود من مدرستها.

يريد حقاً أن يسألها لماذا لا تبدل هذا الجلباب وترتدي شيئا سواه؟

حتى إن لم يجدها سيسأل عنها "عم عمران".

يعجبه كثيراً ما يرتديه هذا الرجل وخاصة تلك القبعة البيضاء المستديرة التي يضعها على رأسه.

ليست قبعة. أخبرته أمه أن لها اسماً آخر.

يبدو أن القادمين من ذاك المكان الذي اسمه "الصعيد" كل أسمائهم وأشيائهم يكثر فيها حرف العين.

الرجل اسمه "عم عمران" ويضع على رأسه "عمَة" أخبروه في دروس اللغة العربية أن التاء المربوطة للتأنيث.

هل "عمة" هذه التي فوق رأسه هي حقاً مؤنث "عم" التي يجب أن يسبق بها اسمه؟

لن تسخر منه إن نطق اسمها. إسمها لا يحتوي حرف العين الذي ما زال يعجز عن نطقه.

غداً أو ربما هذا المساء وعندما ينهي أداء فروضه المدرسية سيكتب إلى أصدقائه في فيرجينيا يخبرهم عنها وعن والدها وعمامة رأسه البيضاء.

كان باص المدرسة يقف على باب بيتهم في اللحظة التي صاحت علا فيها "دادي".

نظر ياسر من نافذته في حزن. لماذا جاء والده مبكراً اليوم؟ لن يستطيع أبداً أن يتحدث إلى بدرية. رأى أخته تركض نحو باب الباص لتخرج منه، وابتسم ابتسامة صغيرة مريرة. لو كان يحبه كما يحبها لربما ركض مثلها نحوه ونسي أمر بدرية وعمامة والدها.

نهض في تثاقل عن مقعده وحين هبط رآها تقف إلى جوار والدها بذات ثوبها المزركش والمنديل الذي تحجب خلفه نصف شعرها.

وقف ينظر إلى والده وهو يحتضن أخته بين ذراعيه كأنها غابت عنه شهراً.

مد وحيد يده بتلك المشتريات إلى عمران لتلتقط بدرية بعضها، ورآها تنظر داخل كيس صغير فيه خبز "البيتي بان" الساخن. كان بخار حرارته واضحاً وجلياً.

وحيد حتى لم يره ولم يرد على التحية التي ألقاها عليه. اكتفى بأن أخذ ابنته بين يديه واستدار نحو بوابة العقار يتبعه حارسها في سكون.

وحدها الصغيرة كانت تراقب كيس الخبز الساخن بين يديها وياسر يقف بعيداً عنها.

رآها تضع كفها السمراء الصغيرة بداخله وتلتقط إحدى قطعها وتخرجها في هدوء.

حبس أنفاسه وهو يفكر: ما تراها تفعل به؟!

استدارت هي الأخرى تأخذ طريقها إلى داخل المبنى، ومن خلف ظهرها رأى والدها يستدير هو الآخر يناديها.

في تلك اللحظة التي كان عمران أمامها وياسر خلفها كانت هي تحاول أن تضع رغيف الخبز الساخن الصغير في جيب جلبابها.

رغماً عنه ابتسم... هذا الجلباب الغريب له جيب أيضاً لكنه في لحظة، بل أقل من لحظة، رأى عمران يحكم كفيه حول عنقها كأنه يكاد يخنقها وهو يصيح:

بدرية؟!

كانت معلقة بين أصابعه حيث رفعها والدها بغضب عن الأرض واستدار ياسر ينظر حوله في جنون.

المجنون يقتلها لأنها وضعت رغيفاً صغيراً من الخبز في جيبها.

ركض نحوه في ذهول وهو يصيح بعربيته الركيكة وحروف العين تتراقص على لسانه قائلاً:

أنا من أعطيتها إياه.

العم لم يسمعه. كان يحملها في قسوة بين كفيه وحين وصل إلى جوار المصعد رمى بها من بين أصابعه يأمرها بانتظاره في غرفتهما، واستدار يضع رغيف الخبز مع الأرغفة الأخرى ليدخل المصعد.

شعر أنه يرتعد خوفاً عليها. في عيني الرجل الساكنة غضب كبير يلوح بأصابع سوداء كالتي رفع بها الصغيرة عن الأرض وحملها إلى هنا.

شعر أنه سيعود من بيتهم إليها وقد يؤذيها.

وأخذ يفكر في جنون... ماذا يفعل؟!

رآه عمران وهو يدخل المصعد وقال وأنفاسه ما زالت من غضبها لاهثة:

تفضل معي. أم تريد أن تصعد وحدك؟!

لم يجبه بل ركض نحو سلالم البيت في جنون. هذا العمران الأحمق سيمنح أمه الأشياء ويعود إلى ابنته ليقتلها. رأى ذلك في عينيه واضحاً لكنه لن يتركه أبداً يحدث.

ركض حتى الدور الأخير ثم أخذ يقرع بابها في جنون ومن دون توقف، وبعد لحظات فتحت بابها.

هو يحبها لأن أمه تحبها كثيراً. هو أيضاً يحبها لأنها اصطحبته إلى الكنيسة معها أكثر من مرة.

ابتسمت في حنان رغم دهشتها الواضحة لتلك الطرقات المجنونة وأيضاً لأنفاسه اللاهثة المتقطعة وقالت:

حبيبي هل أنت بخير؟!

صاح يقول:

آنت... إفعلي شيئاً... هذا الرجل سيقتلها!

يجب أن تنتظر المصعد لكنه يريدها أن تركض معه على السلالم.

حاولت أن تخبره أنها ليست في عمره لتفعلها وأن عمران ليس مجنوناً ليقتل ابنته، لكنه ركض على السلالم يسبقها.

جميل في حنان مروة ونقائها. تغيرت مروة كثيراً بعد أعوام الغربة. عادت منها بطفلين ولمحة حزن عميقة جلية على كل قطعة في وجهها وجسدها، لكنها ما زالت طيبة حانية.

تحبها. تحبها مذ تزوجها وحيد وجاء بها إلى شقة والديه. رأت في عينيها طفلة صغيرة لا حيلة لها. هي ضعيفة أمام الضعفاء ولا ضعفاء كالأطفال. بكت كثيراً يوم سافرت مروة مع زوجها. كانت تأنس إليها. النساء دوماً أرحم لأنهن أضعف. حين عادت الغائبة بعدما أصبحت نادية وحيدة التصقت بها أكثر عندما رأت انكسارها أكبر. أصبحت تشرب معها قهوة كل صباح. وأعلنت مروة أمام ناصر أنها ستتابع دواءها ولن تترك يوماً يمر من دون أن تتأكد من أنها تناولته.

لماذا تأخر المصعد هكذا؟!

هل يؤذي عمران ابنته؟!

لا تعتقد... هو الآخر على وجهه وملامحه لمحة حزن عميقة.

المتألمون لا يؤذون أحداً!

يبدو أن محب وجيه يوم اشترى العقار رقم 4 بشارع الدكتور أحمد الحاسب تلا عليه آيات حزن تستقر في قلوب كل سكانه.

عندما دخلت إلى المصعد نظرت إلى مرآته وابتسمت في مرارة كبيرة.

أحياناً لا يكون للحزن سبب واضح. هناك بشر يولدون وحزنهم معهم. يكبر كلما كبروا وحين يشيخ يقتلهم.

شاخ الحزن في قلبك يا نادية لكنه ما زال عاجزاً عن فعلها وعاجزة أنت عن الحياة به!

عندما وصلت إلى الدور الأرضي كان ياسر هناك يقف مواجهاً تلك السلالم التي تقود إلى غرفتهما. كان واضحاً أنه يحاول استراق السمع إلى ما يحدث في داخلها ومن دون وعي كتمت أنفاسها تحاول مثله أن تفعل وسمعته يهمس قائلاً:

هي تبكي!

نادت اسمه أكثر من مرة لكنه لم يجبها وقالت:

لا أستطيع الإنحناء والنزول إليهما. أدخل أنت وأخبره أني هنا أريده.

في لحظة رأته يهبط السلالم التي تقود إلى الغرفة الصغيرة وهو يناديه.

هذا الصغير الطيب وذاك الكبير الأحمق هو وابنته الجميلة الحزينة هي الأخرى.

نفضت نادية رأسها وهي تنظر حولها إلى بهو العمارة الواسع في ضيق شديد!

كيف تنفض عن هذا العقار رياح الحزن التي تشعر بها منتصبة في زوايا أعمدته؟

نحن لا نكذب. لست أنت من منحها رغيف الخبز أستاذ ياسر... هي من...

لم يستطع أن يكمل جملته. سقطت من عينيه دمعة أمام السيدة وطفل صغير يحاول التستر عليها.

أدار رأسه ينظر في لوم إلى وجه ابنته التي تقف إلى جواره وعض شفتيه قائلاً:

نحن لا نسرق أبداً!

تحرك صدرها بالألم.

طفلة أخرى يتم تعذيبها. طفلة أخرى تُغتال كما اغتيلت هي ومروة يوماً. وبلا وعي صاحت نادية في عمران تتوعده إن أذاها أو أهانها. رغيف خبز لا يعني أبداً أن يحملها من عنقها ويخيفها ويخيف طفلاً آخر.

في نهاية صراخها أخبرته أنه إن عاود الإعتداء على ابنته ستطرده من العمل.

وفى لحظة أفاقت من صراخها وأرخت رأسها. ربما لم تكن القصة تستدعي كل هذا. التقطت بدرية بعينيها صمت السيدة وشعرت بأنها ترضى الموت بكف أبيها لكنها لا ترضى أن يهينه أحد. وبجنون طفولتها وغضبها قالت:

لا تصرخي في وجه أبي أبداً... سأحزم أشياءنا ونرحل من هنا!

أصابها شعور غريب لا تعرف كنهه أو تفسيره.

أتدافع هي عنها وتتوعدها الصغيرة رغم هذا؟

لم تشعر أبداً بالغضب منها بل شعرت بإعجاب كبير يسيطر على أنفاس روحها.

طفلة صغيرة تكاد تكون سرقت رغيف خبز صغيراً وتهاجم المرأة التى دافعت عنها وتأويها هي وأباها فى بيتها...

رغم الإهانة التي كان يجب أن تغضب لها إلا أنها تمنت لو تأخذ الصغيرة بين ذراعيها.

صغيرة يتيمة جذبت والدها من كفه ومضت به واتخذت عنه وعنها قراراً بالرحيل!

كلتاهما جريحتان بذات السكين... كلتاهما تفكران في نفس القضية.

نادية ترخي رأسها وترتشف من فنجان قهوتها السوداء وتعيد في انبهار على مسامع مروة بقية القصة، وكيف وقف ياسر يرجو الصغيرة ألا تسافر. وأبوها بقيت كفه في كفها معلقة حتى أعلن في النهاية أنه سيبقى وأنها لن تغادر الغرفة أبداً ولن تساعده حتى في مهام الصباح الباكر.

أعادت الفنجان إلى صحنه الصغير وأمسكت بالصليب المتدلي على صدرها وقالت:

لم أر ولدي يوماً يدافع عني بهذا الغضب رغم أني يوماً لم أعامله بهذه القسوة.

ترقرقت دمعة في عيني مروة وهي تتذكر ابنتها، ثم قالت وهي تربت على كف نادية الطليقة:

ناصر رجل وربما له بعض الحق، لكن ألا تنظرين إلى علا؟ لا يسعدها على الأرض شيء سوى أن تتحد مع والدها في انتقادي وتعنيفي.

عادت نادية تقول في ألم:

علا وحتى بدرية طفلتان... ولدي رجل أب وطبيب وما ضمني يوماً. يكتفي بالمرور بي أو إرسال الحارس ليسألني إن كنت أحتاج إلى شيء.

أشاحت مروة بوجهها بعيداً. ماذا تقول، وأيّ فائدة تحصدها الكلمات؟

ليست القسوة كلمة السرّ وعمران لا يقسو على بدرية أبداً.

وحيد لا يقسو على علا بل هو يتبعها كما يتبع عمران ابنته.

وحيد؟!

أين هو منها وأين هو من ياسر بل وحتى من علاه؟؟

لن تقول شيئاً أبداً. بالأمس تناثرت دمعاً وحزناً أمام والدها وهي تشكو له إهماله وتعمده إهانتها كأنه ما زال يعاقبها على عودتهم إلى مصر.

إن تعطل يوماً في إشارة مرور. إن تأخر لحظات في البحث عن مكان يصف فيه سيارته بل إن تذوق شيئاً لا يعجبه، نظر إليها في لوم وأخبرها وهو يستشهد بابنته أنها وحدها حرمتهم من حياة كريمة من أجل أوهام في رأسها وطفولية حمقاء يدفعون ثمنها بل يدفع وحده ثمنها بدءاً من مصاريف المدارس الباهظة رغم تدني الخدمات المقابلة ومروراً بالتلوث السمعي والبصري والغذائي.

نصحها والدها بالصبر. "الصبر مفتاح الفرج".

هي لا تبحث عن الفرج. هي عن الصبر تبحث. أغمضت عينيها تستغفر مع دموع سقطت في ألم لتنتفض نادية وهي تراها حيث وضعت كفها على يد مروة في ألم وهي تهمس:

حبيبتي

وقالت مروة من دون وعي:

طنط نادية... وحيد يخونني.

متى عقدا هذا الاتفاق؟!

لا هو يعلم ولا هي أيضاً، لكنه أصبح روتيناً يومياً تنتظره ولا يتأخر هو عنه يوماً.

في الثامنة كل مساء وحين يذهب عمران بعد صلاة العشاء لشراء قائمة المشتريات اليومية للدكتور ناصر وباقي سكان العقار يتسلل هو من السلم الخلفي الذي ينتهي بباب صغير في غرفة عمران وابنته لتخرج إليه ويجلسان معاً على درجات السلم ويبدآن درسهما اليومي.

متى قرر أن يعلمها كل ما يعلمه إياه مدرّس اللغة العربية الذي أرسله جده لأمه له هو وأخته؟ لا يعلم بل حتى هو لا يذكر متى اتفقا على هذا. هو فقط يحمل كتاب اللغة العربية الذي أحضره الشيخ يونس ويجلس إلى جوارها يحاول أن يعلمها الحروف العربية وأن يجعلها تمسك بالقلم بين أصابعها وتتعلم رسم الحروف.

لم يصدق نفسه عندما أخبرته أنها تحفظ الكثير من القرآن الكريم الذي يفشل هو كثيراً في حفظ آية واحدة من الآيات الكثيرة التي يصر الشيخ يونس على تحفيظه إياها.

هي تتلو عليه الآيات وهو يرددها خلفها، وهي تحاول ترديد الحروف ورسمها وعندما ينجحان أو يفشلان يخرج لها من جيبه ذاك الكتاب الصغير الملوّن الذي أحضره معه من أمريكا ويعلمها حروف اللغة الإنجليزية وكلماتها. لا تحاول أن تكتب الحروف الأجنبية أو تستذكرها لكنه لا يتركها ليلة من دون أن تحفظ كلمة وتعرف معناها، وحين تفعل يخرج لها من جيبه قطعة الشيكولاتة اليومية التي تضعها له أمه في وجبته المدرسية والتي يعود بها ويخفيها حتى المساء ليقتسمها معها على سلالم التخديم الخلفية.

متى اتفقا؟ كيف فعلاها ومتى بدءا اتفاقهما؟!

لا يعلم ولا هي تعلم لكنه أبداً لم يتأخر عنها ليلة ولم تمتنع عن خروجها إليه ليلة.

أكثر من مرة سألها لماذا لا ترتدي شيئاً كالذي ترتديه أخته أو كل من معه في المدرسة، لكنها في كل مرة تخبره أن هذه هي ملابسها لا تملك غيرها ولا تعرف كيف ترتدي سواها.

ليت أخته تحضر معه ليجلس ثلاثتهم ويستذكرون دروسهم، بل ربما كانت للفتيات قدرة أكبر على الشرح والتدريس. يتمنى لو تتمكن من القراءة والكتابة مثله. يريد أن يقرأ معها القصص التي يحب قراءتها أو على الأقل أن يقرأها عليها من دون أن تضحك وهي تسأله

كيف ينتظر منها أن تفهم قصة باللغة الأجنبية وهي بالكاد تفهم العربية الفصحى؟

كم مرة سأل أمه لماذا لا تذهب بدرية إلى المدرسة، وإلى متى تظل حبيسة غرفتها، وهل حدث كل ذلك بسبب تلك الليلة ورغيف الخبز ذاك؟

وعدته أمه أن تحادث عمران في الموضوع، بل أخبرته أنها ستطلب منه أن يسمح لها بأن تكون موجودة في الحفل الكبير الذي يعده وحيد لأصدقاء علا في عيد ميلادها الذي يقيمونه في بيتهم بعد يومين.

أخبرته أنها تحب عطفه عليها وإشفاقه على حالها وحبسها.

عاد ينظر إلى وجه بدرية وهي تزم شفتيها الصغيرتين وتحاول أن تضغط بأصابعها على القلم لتكتب الحرف الذي هو ذاته يجد صعوبة في كتابته وسمعها تقول:

علمني كيف أكتب اسمك!

لأول مرة تراه بهذه الحماسة. بل لأول مرة وحيد لا يذهب إلى مكتبه الهندسي ويبقى في البيت ليتابع الإعداد لحفل عيد ميلاد ابنته.

طلبت منه أن يقيماه في "ماكدونالدز" القريب أو حتى "لارين" المجاور لهم لكنه رفض. لا تصدق أنه وقف يتابع بنفسه تنظيف البيت وقائمة الطعام وكعكة الاحتفال.

حتى وهو يرتدي ملابسه أخرج أكثر من ستة من قمصانه الباهظة الثمن ليقلب فيها ولا يعلم على أيها يرسو اختياره.

أخبرته في ذهول أن في إمكانه الذهاب إلى مكتبه. كل الزائرين أطفال وإن جاء أحدهم بصحبة أحد فسيكون بصحبة أمٍ، ووجودها وحده يكفي لكنه أبداً لم يعرها اهتماماً.

هو فقط اكتفى بالنظر إليها ساخراً وهو يراها تضع حجابها على رأسها وسألها إن كانوا كلهم نساء فلمَ تصرَ على ارتداء حجابها إذن؟!

لا يحبها محجبة ولا ينظر إلى رأسها وهو عار من حجابه.

لا تذكر يوماً مرّ بأصابعه على شعرها.

اعتدلت بجسدها أمام المرآة تحدق فيها. هي أنيقة جميلة. في أمريكا ذاتها كان كل أصدقائهم يطرون جمالها وأناقتها.

الحجاب الذي ترتديه تشعر به يزيدها بهاء. هي دوماً تختار له ألواناً تنعكس على بشرتها الخمرية الناعمة حتى تكاد تشعر أن كل قطعة في وجهها تصطبغ بضياء خافت يعلن عن امرأة جميلة حانية.

هي لا تخبئ شعرها لأنه "أكرد" أو يحتاج إلى تصفيف متكرر كبعض نساء الحجاب.. تخبئه لأنه جميل، غزير ناعم تخشى عليه من الأتربة والشمس والعيون.

تخبئه لأنها تريده لرجل واحد يغفو على كفيه ويستيقظ على لمساته. بل تخبئ جسدها بأكمله خلف ملابس أنيقة ملونة لا تكشف عن صدرها أو ظهرها لأنها تريد كل هذا لعيني رجل واحد وأصابعه.

هكذا علمها والدها إمام جامع الحسين. هكذا أخبرها يوماً حين اشتد عودها وأصبح جمالها جلياً لا تخطئه عين بل تشتهيه العيون وتتابعه.

كانت في الخامسة عشرة حين وضع كفه الطيبة على يدها ونظر في عينيها السوداوين الواسعتين وقال إنها لؤلؤة يسجد لله عليها شكراً في كل صلاة. أخبرها أن

لؤلؤته خلقها الله جميلة فقط لتبصرها عين والدها وزوجها يوم يشاء لها الله.

هي أغلى من أن تكون مشاعاً لكل العيون.

مروة أجمل من أن تكون مباحة لأحد إلاّ لرجل واحد. رجل يكره حجابها ويسخر من دمعة تلوح في عينيها وهي تصلي ويتهمها بادعاء الخشوع.

كم مرة تمنت لو تخبره أن دموعها وهي تصلي ليست سوى شكوى إلى ربها من جموده وقسوته. دموعها وهي تصلي استغاثة تعلنها خمس مرات يومياً وتطلب فيها من خالقها أن يمنحها القوة والصبر لتبقى تلك اللؤلؤة المكنونة غير المشروعة لأحد إلاّ لرجل واحد وإن كان في ظلم وحيد زيدان وقسوته.

حتى بعدما علمت أنه يخونها هي تستغفر الله له ولها.

أشاحت برأسها تهزّه في عنف أمام مرآتها حيث استقرت عيناها على القميص الأبيض الذي ترتديه وأحكمت غلق جميع أزراره في هدوء كأنها تحاول إطباق شفتيها على صرخة تود إطلاقها.

إسمها هبة. عشر صفارات رسائل متتالية خرجت من الهاتف ذاك اليوم الذي كان مشغولاً فيه مع علا في غرفتها ونسيه على طاولة الصالة أمامها.

أمسكت لحظتها بالهاتف بين يديها لا لتقرأ ما جاء فيه، هي أبداً لا تفعلها.

كما علمها والدها الحجاب علمها الأدب واحترام الغير. التقطت جهاز "الآي فون" فقط لتسكت صوته حتى عودته، وفي تلك اللحظة التى أنارت فيها شاشته الخارجية وجدت عليها كلمة "اشتقت إليك".

الرسائل تظهر على الشاشة الخارجية.

عشر رسائل بعشر كلمات أقلها مجوناً هي كلمة اشتقت اليك وجميعها من هبة.

أعادت الهاتف إلى مكانه في جنون، وابتلعت أنفاسها وأصبحت تراقبه في هدوء.

أخبرت والدها. نهاها عن الشك والظن. أخبرها أنه ما أدراها أنها ليست عميلة لديه في مكتبه وتطارده برسائلها وهو لا يملك أن يفعل شيئاً حتى تنتهي بينهما صلة العمل؟

أخبرها أن هناك ألف قصة يمكن أن تكون. أخبرها أن واجبها أن تفترض حسن النية وتقترب منه أكثر.

تقترب؟!

كيف تقترب؟!

هو لا يراها. يشعر بها ضئيلة في كل شيء لأنها عشقت مصر وكرهت الحياة في واشنطن.

يراها مجنونة يهزأ منها مع ابنتها ويقسّم البيت إلى طائفتين طائفة ترى نفسها فوق الأخرى.

كيف تقترب؟!

كم مرة وضعت رأسها على صدره في فراشهما، وفي كل مرة كان يخلع نظارته ويطبق الكتاب الذي في يده ويزيحها عن صدره في هدوء وينام.

كرهت أن تفعلها، وأقسمت أن رأسها لن يمس صدره إلا بأصابعه.

هل يحاسبها الله على ذلك، وهل يقر الدين أن تتسول حنانه أو لمساته؟!

تهرب أحياناً من جواره وتذهب لتغفو إلى جوار ياسر، فقط لتشعر أنّ في إمكانها أن تجد كفاً تحتضن كفها أو جسداً تلقي بذراعها عليه.

في المرآة رأت عينين سوداوين واسعتين جميلتين على وجه هادئ كل ملامحه رقيقة ساكنة، وابتسمت ابتسامة صغيرة ظهرت من خلفها أسنانها البيضاء المنتظمة.

فلتخرج. سمعت جرس الباب يدق. ما زال عيد مولد طفلتها. لم يسألها حتى عن الهدية التي يحضرانها لها في المناسبة.

أخبرها أنه أحضر لابنته "الموبايل" الذي أرادته.

من نقودها التي كسبتها من عملها سنوات في أمريكا خرجت بالأمس واشترت لها هدية صغيرة.

رصيدها ليس كبيراً، ووالدها ليس ثرياً، وزوجها معها أيضاً ليس بخيلاً لكنه ليس سخياً.

ياسر كتب البطاقة ووضع اسمه واسم أمه إلى جوار الهدية التي انتقتها بعناية، لكنها تعلم ما سيحدث حين يضعانها في كف علا.

"كفاك تشاؤماً. افترضي الأجمل ليحدث".

هذا ما يردده والدها الطيب.

في طريقها إلى خارج غرفة نومها عادت تلتقط صورتها في المرآة... جميلة وستفترض الأحلى هذا المساء.

علا ستفرح بالهدية ووحيد سيضم ابنته ويقبلها بعد إطفاء الشموع ويستدير ليضم ياسر ويقبله ثم يستدير ليعانق أمهما التي تفترض الأحلى وتتمنى حدوثه هذا المساء!

حضرت هي وناصر بعد انتهاء موعد العيادة ومعهما هدية جميلة. أكثر من عشرين طفلاً وطفلة وما زال وحيد يرفض إشعال الشموع لاحتمال حضور آخرين.

نادية مالت على أذنها تخبرها أنها يجب أن تتناول دواءها وتأوي إلى الفراش، ولم تعلم مروة ماذا تقول... غير أن نادية نهضت تخطو إلى جوارها نحو المطبخ قائلة:

لستُ ضيفة أو غريبة. اقتطعي لي جزءاً من الكعكة وأحضريه معك في الصباح. فقط دعيني أراها. أحب مشاهدة كعكات أعياد الميلاد.

ابتسمت مروة في حرج وهما على باب المطبخ.

حين دخلت نادية كان ياسر يقف أمام الكعكة الكبيرة التي اختارت علا تصميمها هي ووالدها وحدهما منذ أيام.

كان ينظر إليها وإلى جواره تقف بدرية كأنها تمثال من رخام أبيض شاحب.

ثم عادت تميل على أذن مروة تطلب منها إحضار ثوب من ثياب ابنتها لترتديه الصغيرة عوضاً عن جلبابها

المزركش الذي يقف أسفل ركبتيها، وترتدي أسفله بنطلوناً من اللون الأصفر الفاقع.

لا ترتدي سوى هذين الجلبابين، لكن دوماً هي وأبوها يبدوان كأنهما غادرا للتو ماء حمام ساخن خرجا من تحته في كامل نظافتهما ونظافة ثيابهما.

ركضت مروة لتعود بما أخبرتها به نادية التي وقفت تراقب الطفلين المصلوبين أمام الكعكة الكبيرة وتنهدت.

ماذا تخبئ لهما الأيام؟!

ترى ماذا يكون مصيرهما وكيف يكون شعورهما إن وقفا أمام كعكة كهذه عندما يصبحان في عمرها؟

لن تكون هنا لتعرف. امتدت أصابعها تعبث بالصليب الصغير المتدلي على صدرها.

ستكون ميتة. تأخر قدوم الموت كما تأخر إطفاء شمعة هذا الإحتفال.

حاولت أن تخرج من أفكارها وتستعيد الطفلين من ذهولهما وصاحت تقول:

ماذا تفعلان؟!

انتفضت الصغيرة كأنها تعود من قرون مظلمة قطعت فيها رحلة طويلة، وخرج صوتها محشرجاً في خجل يقول:

لم أر شيئاً عالياً هكذا.

وابتسمت نادية تقول:

انتظري حتى تتذوقيه.

كانت مروة قد عادت وفي يدها ثوب أزرق اللون من ثياب ابنتها القديمة. مدت به يدها تطلب من الصغيرة أن ترتديه لتتمكن من إطفاء شمع الاحتفال معهم.

وحده تقدم نحو أمه يلتقط منها الثوب في فرحة جلية ومنحه إلى بدرية يرجوها أن تفعل.

بعد لحظة تردد قصيرة تجولت فيها عينا بدرية الجميلة بين الجميع حيث وقفت لحظة أطول على ابتسامته الحانية، أرخت رأسها والتقطت منه الثوب في استسلام ثم تبعت أمه إلى غرفتها لتبدل ملابسها.

في اللحظة التي كانا يعبران فيها صالة البيت المكتظة بالأطفال وبعض الأمهات رأت مروة زوجها ينتفض ليفتح باب البيت. شيء في خطوته في ركضه نحو الباب من دون حتى أن يلمحها وهي تخطو إلى جواره وبدرية إلى جوارها جعلها تشعر أنه يعلم من يقف بالباب، واستمهلت الصغيرة بين كفيها ووقفت تراقبه يفتح الباب.

كأنّ ضجيج أكثر من عشرين طفلاً حولها سكت فجأة.

كأنّ صورهم جميعاً غابت عن عينيها وهي ترى امرأة لها شعر أشقر رخيص مصبوغ بكامل زينتها تقف على

الباب تحمل صندوقاً صغيراً ملوناً وإلى جوارها طفل في السابعة تقريباً.

كان وجهها يرقص وشفتاها ترتعشان، ورأته يميل على وجنتها يطبع قبلة سريعة ثم يحمل عن يدها صندوق الهدية ثم أخذ ينادي ابنته بصوت صاخب رغم خروجه مبحوحاً ضائعاً وهو يقول:

علا... قبّلي آنت هبة وولدها هادي.

نسيت بدرية في لحظة، وتقدمت نحو الزائرة في هدوء ورفعت عينيها تنظر إليها حيث سمعت زوجها يقول من دون اكتراث:

والدة علا... السيدة هبة والدة هادي زميل علا في المدرسة.

مدت القادمة كفها تصافحها في هدوء وعيناها تجوبان وجهها وجسدها قطعة قطعة.

ابتسمت ابتسامة صغيرة ورأسها يردد "والدة علا"... لم يستطع الدكتور وحيد أن يقول أمامها "زوجتي"!

خفضت عينيها لحظة كأنها تترك للقادمة أن تكمل رحلتها على تفاصيل ملامحها، ثم ابتلعت أنفاسها قائلة في ألم:

أهلاً وسهلاً... تمنيت لقاءك كثيراً.

صاح وحيد يقاطعها:

حان وقت الإحتفال يا شباب. هيا يا علا نحضر الكعكة ونشعل الشموع.

كان الثوب ما زال واقفاً بين أصابعها وهي تقف في مكانها لا تفهم لماذا اندفع الجميع فجأة خلف الرجل وابنته.

كلّ شيء كان يحدث بسرعة كبيرة. وحيد يحمل الكعكة، وهبة تضع الشموع عليها، والأطفال ومن معهم يلتفون. حتى نادية خرجت لتساعدهم.

وحدها هي تقف في مكانها غارقة في ألمها وذهولها. لم ينادها أحد ولم يستدعها أحد.

أطفأوا المصابيح وأشعلوا الشموع وهي في مكانها. وعلى بعد خطوات تكتم أنفاسها في ذهول، والثوب الأزرق يهتز بين أصابعها.

ياسر خرج إليها من تلك الدائرة الكبيرة المغلقة وأمسك بيدها وذهب إلى أمه. وقبل أن يقول كلمة واحدة أو يخطو بالمنسيتين إلى دائرة الغناء والشموع، أطفأت علا الشموع وأضاؤوا المصابيح من دون أن يشعر أحد بغيابهم.

قبّل وحيد ابنته وأمسك بصندوق هدية هبة يمنحه لابنته لتكون أول هدية تفتحها، واهتز جسدها وهي تسمع بدرية تخاطب ياسر في ذهول قائلة:

لماذا كانوا يحاولون حرق الكعكة بالشموع؟!

في تلك اللحظة رأتها تقف بعيداً، واستدارت تنظر في دهشة إلى وحيد وتنادي علا تطلب منها أن تستدعي أمها إلى جوارهم.

من دون اكتراث، وبمجون دلال علا وكل ما زرعه فيها والدها من غرور الأطفال وحماقتهم استدارت تنظر إلى أمها، وحين رأت الثوب الأزرق بين أصابع بدرية تركت كف والدها لتتوجه إليها في غضب قائلة:

ما هذا؟

نادية قالت في حدة:

أمك منحتها اياه!

بقسوة الأطفال اختطفت الثوب من يد اليتيمة وقالت كأنها تصرخ:

لم يستأذنّي أحد ولم أدعها إلى عيد ميلادي ولا أريدها فيه.

غامت الأرض في عيني مروة وهي تسمع كلمات ابنتها وصوتها الحاد الذي يخلو من لمحة احترام أو مسحة حب واحدة.

تقدم وحيد من ابنته يحاول أن يُسكتها كأنه يخشى أن تسمع زائرته ما يحدث.

في غيظ مكتوم نظر إلى عيني الزائرة قائلاً:

عودي إلى غرفتك وسأرسل لك أنت ووالدك قطعة من الكعكة.

بطرف عينها رأتها تنظر إلى عينيها وتبتسم ساخرة كأنها تُعلمها أنها الأقوى رغم أنها زائرة في بيتها...

أحضرها لتعلم أن له زوجة لا تحمل من صفات الزوجات إلا "أم علا".

زوجة لا تملك التحكم في ثوب صغير من ثياب ابنتها، وليس لها الحق في استضافة طفلة صغيرة يتيمة يحمل والدها مشترياتهم كل يوم ويسهر على حراستهم كل مساء.

كل شيء في روحها كان يضطرب. في لحظة تمنت لو ترفع كفها وتهوي به على وجه ابنتها، لكنها كانت تعلم أن وحيد لن يتردد في مزيد من إهانتها أمام شقرائه وطفلها.

أغمضت عينيها تحاول أن تبتلع أنفاساً وتستدعي أخرى أقلّ اضطراباً وسواداً، لكنها أفاقت على صوت بدرية تقول في صوت ممزق لكنه ثابت:

لا أريد شيئاً من أحد. أنا وأبي لا نتناول طعاماً أحرقتموه بشموعكم المشتعلة، بل أنا لن أدخل هذا البيت ثانية!

كأنه ما كان يركض هنا وهناك كبلبل حائر. كأنه ما كان يحمل مقاعد ويضع طاولات ويحكم إسدال ستائر البيت. ما إن انتهى حفل عيد الميلاد حتى ضمّ ابنته إلى صدره وأخذ طريقه إلى غرفة نومها ليضعها في فراشها ككل ليلة.

نظرت مروة حولها في ذهول. نظرت إلى كم الفوضى التي عاثوها في المكان. من يعيد هذه المقاعد الثقيلة إلى أماكنها؟ من يحمل كل هذه الصحون إلى المطبخ؟ استدارت في ذهول تناديه وتسأله أن يساعدها، لكنه استدار نحوها وأرسل إحدى نظراته الساخرة الباردة قائلاً:

أفضّل أن تعيدي ترتيب المكان في الصباح بعد خروجي إلى الجامعة.

لا أريد ضوضاء الآن. أما إن دعاكِ جنونك المعتاد إلى إنهاء كلّ شيء قبل النوم فليكن، ولكن من دون صوت.

لم تتركه أبداً يدخل إلى الغرفة. تقدمت نحوه في جنون ثورة تحاول أن تطبق عليها بين ضلوعها لكنها تشعر أنها لقوتها واشتعالها ستفجر ضلوعها ضلعاً تلو الآخر.

تقدّمت نحوه هو وابنتها تصيح:

ولا حتى كلمة اعتذار؟! ولا كلمة من أي نوع... كلمة خجل... كلمة حق أو عدل؟!

علا أمسكت بكفّ أبيها تحتمي به. صوت أمها الجريح... عيناها الثائرتان أشعلتا في صدرها خوفاً وتوقعات لعقاب جائر. هي تعلم أنها أساءت الأدب... تعلم أنها اخطأت، لكن لم تعلم أبداً أن أمها تستطيع أن تكون بهذا الغضب.

حين أصبحت الغاضبة أمام زوجها شدّ على كفّ الصغيرة وقبل أن يمضي قال:

هذا هو الجهل الذي ما استطاعت أعوام أمريكا أن تحرّرك منه. لم تستطيعي أبداً أن تدركي أننا لا نأخذ شيئاً من أبنائنا من دون استئذانهم. تحمّلي تبعات جهلك وإصرارك على الحياة بمنطق حي الحسين الذي أخطأت حين أخرجتك منه.

"حي الحسين"!

أغمضت عينيها حين اختفيا عن ناظريها وهي تكرر الكلمة أكثر من مرة...

حي الحسين رجاله يحترمون نساءهم وأطفاله يقدسون أمهاتهم.

ذاك الحي لا تدخل فيه امرأة إلى بيت حبيبها متحدية وجود زوجته وأبنائه في المنزل.

نعم أخطأ حين تزوجها من حي الحسين، فهناك ينشئون بناتهم على آخر شيء يستطيع هو أن يفهمه ويتعامل به. شيء اسمه "المبادئ والأخلاق"!

كانت دموعها تسقط في هدوء حين انتفض جسدها على ذراعين تضمانها، لكنها هدأت في نفس اللحظة... من سواه يضمها؟ من سواه يحنو عليها؟ وهدأت على ذراعيه الفتيتين وهي تسمعه يقول:

لن أنام قبل عودة أصغر مقعد إلى مكانه. أنت تجلسين وأنا أفعل كلّ شيء وإن كان هناك شيء لا أستطيع فعله سأستعين بعم عمران.

أجهشت بالبكاء على كتفيه... أصبح في مثل طولها تقريباً...

والده يلومها لأنها أخذت ثوباً قديماً من ثياب ابنتها لتمنحه إلى طفلة صغيرة فقيرة. ثوباً، علا نفسها أخبرتها منذ أيام أنها ما عادت تريده.

يلومها لأنها فعلت من دون إذنها.

حياته في المجتمع المتحضر لم تعلمه أبداً أن إهانة أمّ أمام طفلتها سلوك خاطئ. أن تعإليه في التعامل معها أمام طفليها سلوك مدمّر... دعوته لامرأة يحبها وتحبه هو التحضر... بكاء طفلة يتيمة وخروجها من بيتهم على تلك الصورة هو التحضر.

ليت أرض مصر كلها تكون حيَ الحسين، وليت رجالها جميعاً خرجوا منه!

ليت والدها زوجّها لمؤذن أو حتى عامل من عمال نظافة المسجد الكبير، لربما اتقى الله في إحساسها وكبريائها أكثر مما يفعل الأستاذ الجامعي المتحضّر!

ثلاثة أيام وناصر يعدها أن يرسل لها سائق البيت وسيارته لتخرج. وفي الصباح يرسل لها على هاتفها رسالة يعتذر فيها لأن رشا تحتاج إليه أكثر. لم تدخل سيارته منذ أكثر من عام. أخبرته أنها ستستقل التاكسي هي ومروة، لكنه في كل يوم يؤكد لها أن السائق سيكون لديها في الصباح التالي!

زوجته لا تخرج في الصباح كثيراً، لكنها تعلم أنها رسائل قصيرة موجهة تخبرها بها أنها أخطأت حيث كان يجب أن تطلب منها لا من وحيدها سيارة البيت وسائقها.

تكاد تجزم أنها إن فتحت هاتفها الآن ستجد رسالة الإعتذار الرابعة. ستذهب وحدها بسيارة تاكسي ومن دون مروة.

تخجل من أن تخبرها أنه يعتذر لليوم الرابع.

نهضت عن مقعدها تلتقط هاتفها. لم تفتحه لحظة استيقاظها أو حتى قبل ارتداء ملابسها أو بعده. أرادت ألا تترك أمام نفسها خياراً آخر سوى الخروج.

أرادت ألاَ تجد أمامها مفرّاً من اتخاذ قرار صغير بالتحرر من محب وجيه حتى بعد وفاته. كان يمنعها

من الخروج وحدها. لم تخرج وحدها منذ ليلة زفافها، كانت تظن أنها تتحرر من قيود والدها، لكن أرادت لها السماء أن تعلم ما هي القيود حقاً وكيف تكون.

مات زوجها وترك باسمها عمارة تبعد عن نيل مقياس القاهرة عدة أمتار لكنه ترك لها فراسخ عميقة من الضعف والجبن وقلة الحيلة.

أصبحت عجوزاً ليس في رأسها حتى عشر شعرات سوداء، ولا نقطة ضوء واحدة في قلبها تساعدها على اتخاذ قرار أو إبصار موضع قدميها.

تسرَب صوت الهاتف يعلن وصول رسالة، وابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تلتقط حقيبتها وتمضي نحو الباب.

ستخرج. ستلوِّح بيدها لسيارة تاكسي أو حتى ليحضرها لها عمران وتذهب إلى حيث تريد. إن اختطفها سائق التاكسي، إن قتلها، ستدعو له في صدرها كثيراً لا لأنه سيحقق لها أغلى أمانيها فحسب بل لأنه سيترك في قلب وحيدها شعوراً بالذنب والألم.

سقطت دمعة صغيرة على وجنتها.

لهذا أحبها محب وجيه وتزوجها ومنحها عمارة مكافأة عند موته.

لأنها ساذجة غبية.

تظن ولدها يحزن أو يشعر بالذنب إن ماتت.

حقاً ما من امرأة في سذاجتها. وفتحت الهاتف الصغير تقرأ الرسالة لتجد كلماتها تقول:

"طنط... ناصر طلب مني أن أخبرك أن السائق لا بدَ أن يقوم بصيانة السيارة هذا الصباح. نعتذر، ولكن ربما في صباح الغد. سأرسل لك رسالة في المساء إن أنهى صيانتها اليوم".

حتى كتابة سطور الإعتذار أصبحت عبئاً ثقيلاً تحمله عنه رشا.

أغلقت باب البيت في هدوء ودخلت إلى المصعد تنظر إلى مرآته في ذهول. كيف لم تشعر بكل هذه الدموع التي تغطي وجهها؟

فتحت حقيبتها تخرج منديلاً تمسح به دمعاتها وتراقب إصبعاً مرتعشاً وقف كثيراً على زرّ الدور الأرضيَ لكنه عجز عن لمسه!

لن تستطيع أن تخرج وحدها... أبداً لن تستطيع.

عادت بذات الإصبع المرتعش تضغط على مفتاح الدور الثالث.

حين فتحت مروة لها الباب، حين وقفت تنظر إلى وجهها الغارق في الدموع لم تقل شيئاً سوى أنها ارتمت على صدرها وبكت هي الأخرى لحظات طويلة.

لحظات، صمتها يبوح بالخفايا والأسرار.

حين دخلت وجلست وتحركت شفتاها بالكلمات تخبرها عن وحيدها، عن قسوته، عن جبنها، مسحت مروة دمعاتها في هدوء وغابت تفكر...

لماذا تجبن النساء عن اتخاذ قرار يحييهن وهنّ يعرفنه ويستطعنه؟

هل تبقى كالمسمار في هذا البيت حتى تصبح في عمر طنط نادية لتفيق وهي عاجزة حتى عن الخروج وحدها؟

بل هي منها أفضل حالاً. نادية طرقت بابها لكن عندما تبلغ هي عمرها لن تجد باباً تطرقه.

لماذا هي خائفة إلى هذا الحد... لماذا؟!

والدها لن يغلق بابه في وجهها... إن أخبرته أنه يخونها ويهينها لن يطلب منها الصبر. المؤمن لا يصبر إن أهين أو كره.

المؤمن لا يصبر إن رأى سواه يمحوه قطعة وراء الأخرى حتى يتحول إلى شبح يطرق أبواب الغرباء ليبكي على صدورهم.

لماذا تشعر إذن بكل هذا الجبن والخوف؟ لماذا تحتمل الذل وهي تعلم طريق الخلاص؟

من أجل ياسر؟! تأخذه معها. والده لن يمانع. من أجل علا أو ما تحاول هي إنقاذه منها ولكن إن سقط فيها هي نفسها كلّ شيء من ينقذ الثلاثة؟

بقاؤها هنا وتحللها وانتظارها أن تصبح نادية أخرى لن يساعد أحداً سوى الظلم والعتمة.

كانت أنفاسها تتلاحق وهي تتبع دمعات الباكية بعينيها وتتمنى لو تطلق صرخة كبيرة تهتزّ لها جدران هذا المبنى بأكمله.

ربما كانت على حقّ يوم أخبرتها أن عمارة الروضة طبع عليها زوجها قبل رحيله تعويذة ضعف ومذلة على كل امرأة تحيا بين جنباتها!

أفاقت على صوتها من جديد وهي ما زالت تحكي كيف لا تغيب صورة بدرية عن عينيها وهي تصيح في وجه الدكتور وحيد. ولا تغيب يوم صاحت في وجهها هي تنهاها عن تأنيب والدها. كانت تبكي وتعلن أنها ليست حتى في قوة طفلة. ليست في جرأة قروية في السادسة من عمرها. ليست في صلابة ابنة بواب!

أرخت مروة رأسها في صمت تربت على فخذي الباكية وهي لا تعلم هل تشفق على امرأة ضاع عمرها أم على الأخرى الراقدة في صدرها وعمرها في طريقه إلى الضياع؟ لكنها تماسكت ونهضت تقول:

لن ننتظر سائق ناصر أو سيارته. سنأخذ الصغيرة ونخرج وحدنا. فلتساعديني وأساعدك علّنا نساعد طفلة تعلم كلتانا أنها أقوى منا معاً!

كانت نادية تنظر إلى وجه مروة وهي واقفة أمامها. كم تحبها وكم ترثي لها.

لا، هي متعبة. ستعتذر وتعود إلى بيتها. ما زال في إمكان الصغيرة أن تنتظر يوماً أو أياماً أخرى. الطفلة حتى لا تعلم أن المرأتين قررتا اصطحابها لشراء ثياب جديدة لها بعد تلك الليلة وإهانة علا وطرد وحيد لها.

لا تشعر أبداً برغبة في الخروج. لا تريد إثارة مشاكل لمروة. فهي لم تخبر زوجها، وهو أيضاً لا يسمح لها بالخروج وحدها.

عادت مروة تقول بصوتها الباكي وهي تمدّ كفها نحوها:

فلتعدّي أنتِ القهوة بينما أرتدي ثيابي. أرجوكِ ساعديني واتركيني أساعدك.

وقفت عينا نادية على كف مروة المرتعشة وهي لا تعلم هل تستند عليها وتنهض إلى بيتها أم إلى المطبخ؟

قرار كبير وصعب!

ثلاثة أيام منذ تلك الليلة المشؤومة.

لماذا صعدت إلى بيتهم؟! لماذا وافق والدها على صعودها إليهم؟

أصبحت تكرههم جميعاً.

نعم جميعاً.

ألقت برأسها الصغير على ركبتيها وهي تبكي. يقتلها الغيظ من نفسها. كيف وافقت على ارتداء ثوب قديم؟

من أجل ياسر. نعم وحده السبب. بل من أجله صعدت إلى بيتهم.

بيتهم...

أخذت تنظر حولها في الغرفة التي تحيا فيها هي وعمران.

غرفة صغيرة مربعة. لا شيء فيها سوى سرير النحاس القديم هذا وثلاجة قديمة وسجادة مهترئة.

بيتهم؟!

فيه غرف يبدو أن عددها كثير، فلقد رأت حين دخولها ومرورها إلى المطبخ أكثر من باب.

حاولت برأسها أن تتذكر عددها.

مطبخهم وحده أكبر من هذه الغرفة. ترى ما كان ذاك الشيء الذي يطلق صفارة بعد كل صحن تضعه فيه مروة؟

عندما سألته قال لها اسماً عجيب قال "مايكروويف" اسم عجيب حقاً بل كل شيء في بيتهم عجيب، لكن أعجب الأشياء جميعاً تلك التي يسمونها "كعكة".

مجانين. نعم سكان "المحروسة" مجانين. يشعلون شموعاً ويضعونها على كعكة ويتركون دخانها يلتصق بها ثم يغنون أشياء بلهاء لم تفهم منها كلمة ثم يطفئونها ويأكلونها.

كانت تتمنى لو تأكل منها قطعة؟!

بلا وعي أشاحت برأسها عالياً في كبرياء. لم تكن لتأكل شيئاً احترق بدخان الشموع.

ابتسمت ابتسامة صغيرة جميلة. لن تكذب على نفسها. هي تعرف مذاقها وهذا ما يثير جنونها.

في المطبخ حين شهقت تسأل ياسر عنها، مسح سبابته في ركن منها ووضعه داخل فمها.

تشبه طعم الشيكولاته السوداء التي يحملها لها كل يوم. كان طعمها رائعاً. بل لقد تركها تضع إصبعها هي أيضاً في موضع آخر فيها وقامت بلعقه.

سعيدة لأنها هي وياسر تذوقا من تلك الكعكة قبل القميئة علا أو والدها، بل وقبل أن يحرقوها بشموعهم.

لكنها حزينة لأن أباها لم يتذوقها. حزينة لأنها ليست فقط شيكولاته بل رأت في صحون الأطفال شيئاً آخر وألواناً مختلفة عن ظاهرها.

تململت في مكانها. فلتذهب كعكتهم وبيتهم إلى الجحيم، بل ليذهبوا جميعهم إلى النار ويكتووا فيها.

"إلاّ ياسر يارب".

بعينها رمقت الباب الصغير الذي تتسلل منه إلى سلم التخديم لتلقاه كل يوم.

ما زال يحمل لها قطعة الشيكولاتة اليومية ويعلمها الحروف ويقرأ لها القصص.

هو أيضاً لا يحب أخته ولا حتى أباه.

يحب أمه كثيراً لكن هي نفسها تحبها. كانت رقيقة معها لكنها أخطأت حين منحتها ثوب علا القديم.

ليتها تستطيع العودة بوالدها إلى ملاوي. أبداً لا تحتمل أن يهينه أحد... هي أمه وزوجته.

حاولت بعد تلك الليلة أن تطلب منه العودة إلى الصعيد. حاولت وهي تعلم أنها إن أصرّت سيفعل لكنها لم تستطع. ما زالت لا تريد أن تُحرم منه.

هو الوحيد الذي تفتح عينيها كل صباح لتركض خارج الغرفة وتقف من بعيد تراقبه وهو يصعد إلى باص مدرسته. الوحيد الذي تنتظر خروج والدها لشراء مستلزمات الدكتور ناصر وهي تعلم أنه يقف في شرفة

بيته ينتظر خروجه إلى الشارع ليهبط إليها ويقضي معها الوقت الذي يقضيه كل يوم.

جميلة هي الكتب الملونة التي يحملها لها. جميلة هي الحروف التي يعلمها إياها.

كل شيء معه جميل، فكيف كان يمكن أن تصرّ على الرحيل والابتعاد عنه؟

في ضيق كبير زفرت أنفاسها الصغيرة الهادئة وهي تسأل نفسها:

لماذا ليست علا مثله، ولماذا فعل معها الدكتور وحيد ما فعله؟!

كانت تريد أن تعرف طعم الكعكة، بل أيضاً كانت تريد أن ترتدي ثوب علا القديم. بدا في عينيها رائعاً.

أرادت أن ترتدي ثوباً ككل الفتيات اللاتي رأتهن يومها في الإحتفال. ربما ليس من المفروض أن تغضب كما غضبت.

من يعلم؟ ربما كانت الفتاة تحب ثوبها ذاك ولا تريد أن يرتديه أحد.

وتحسست بأصابعها "جلباب" أمها الذي تغفو إلى جواره كل يوم في ألم.

الخطأ ليس خطأها. هو خطأ مروة التي أحضرت لها ثوباً تحبه ابنتها.

هي غاضبة وحانقة عليهم جميعا بل وربما حانقة على نادية أكثر.

وحدها التي دخلت المطبخ. لو أنها ما فعلت لربما أخذت مسحة أخرى من كعكة الإحتفال، وأيضاً ما كان ليحدث شيء مما حدث.

هذه السيدة الغريبة وحدها كانت صاحبة فكرة الثوب وخروجها من المطبخ.

كان يكفيها أن تبقى داخله وهي تعلم أن ياسر ما كان ليتركها وحدها أبداً.

جميعهم حمقى.

هي يكفيها أن تكون معه ليغوص بأصابعها في تلك الشيكولاتة، بل حتى من دونها، من دون الكعكة اللعينة.

كانت تريد أن تبقى معه بجلبابها ذاته وفي مطبخ البيت.

هو ياسر من تريد أن تكون معه في كل وقت وبأي ثوب وفي أي مكان!

بذات العناد والتمزق بين ما لا تعرف أنه يسمى كبرياء وبين سعادتها، بإغراء العرض الكبير الذي يخبرها به عمران، كانت تتلوى وتزمّ شفتيها الصغيرتين.

حتى هو حائر لا يعلم ماذا يقول، لكنه يعلم أن السيدة التي لم يرها منذ حضوره تغادر البيت سوى مرتين إلى الكنيسة، الآن تقف على مدخله ومعها السيدة الجميلة مروة في انتظار خروج ابنته معهما لتشتريا لها بعض الملابس، فكيف يردهما إن كان هو نفسه لا يذكر متى أو كيف جاء هذا الجلباب الذي ترتديه.

عاد يرجوها أن تخرج إليهما.

لماذا تعاند؟ يرى في عينيها فرحة واضحة جلية، فلماذا تعارض، وهل من الخطأ حقاً أن يرغمها على الخروج؟

وتذكر السيدة التي يعلم أن الوقوف طويلا يؤلمها فعاد يقول في صوت حاد:

لن نترك سيدة في عمرها واقفة طويلاً. إذهبي معهما ولا تشتري شيئاً.

نهضت من مكانها وهي تقول:

هل تدفع لهما ثمن الملابس الجديدة؟!

رفع حاجبه الأسود الكثيف في دهشة. كيف لم يفكر في هذا من قبل؟ وأمسك بيدها قائلاً:

سأطلب من السيدة أن تقتطع ثمنها من مرتبي الشهري.

عندما خرج الاثنان إلى السيدتين الواقفتين، وعندما أمسكت مروة بكفها الصغيرة بين أصابعها، شعر بشيء كالغصة في صدره ومن دون وعي قال في ألم:

سيدة مروة...

رفعت عينيها تنظر إليه. لم يكن في حاجة إلى الكلمات. عيناه كانتا مستقرتين على وجه ابنته وفيهما شيء كالرجاء، وشيء يتكوّر كالدمع. وابتسمت مروة قائلة:

لا تخف. هي في منزلة علا وياسر.

دق قلب الصغيرة وهي تسمع اسمه. لماذا يسعدها كثيراً أن تسمع اسمه أو تراه أو حتى تتخيل نفسها وهي ترتدي الثوب الجديد وتجلس إلى جواره هذا المساء على سلم التخديم؟

لأنه صديقها الوحيد.

السيدة الكبيرة جلست إلى جوار السائق. المقعد الأمامي يمنح ساقيها راحة أكبر. بعينه رأى عمران مروة وهي تدخل ابنته إلى المقعد الخلفي في سيارة الأجرة التي أوقفها وأحضرها لهما على بوابة المبنى، ورآها

تغلق خلفها الباب وتدور لتدخل إلى جوارها من الباب الآخر.

كانت ابنته تنظر إليه وهي تبتسم، والسيارة تسير بعيداً لكنه لم يستطع أبداً أن يبادلها الابتسامة كأنه حقاً يدرك أنها ليست في طريقها إلى التسوق.

شعر أن ابنته الصغيرة في طريقها إلى عالم آخر قد لا تعرف أو يعرف هو كيف يستعيدها منه!

من محلات عرفة ودجاني بشارع قصر النيل في قلب القاهرة اشترتا لها ثوبين، ومن محلات طلعت حرب حذاءين.

كانت بدرية كالمسحورة بالشوارع والمحال الكثيرة المتراصة أحدها إلى جوار الآخر. لم تكن عنيدة أبداً بل تركت لنادية ومروة اختيار الألوان والتصاميم.

كانت كل منهما سعيدة بالطفلة بشكل يختلف عن الأخرى.

نادية كانت تراها أملها الوحيد في امرأة قوية لا تخشى أن تقول ما يجول في خاطرها وإن كان ما تقوله أو تفعله أكبر من حجمها وامكاناتها.

كانت تشعر بقلبها يدق سعادة كلما شعرت أنها تكاد ترفض شيئاً، أو تلوح بأصابعها السمراء المنمنمة إلى محل وتطلب دخوله وتتمنى لو تمد نحوها ذراعيها وتضمها كلما سألتها عن مرتب والدها وكيف ستقتطع منه ثمن هذه الاشياء. في كل مرة تسألها كانت تشعر أنها أبداً لن تخبرها أن مرتبه لن يمسّ أو يحسم منه قرش واحد من ثمن الأثواب، فقط من أجل تسألها من جديد وتنتشي هي أكثر بسؤالها وتفكيرها وعنادها.

مروة لم تقاوم. حين وقفت بها أمام محل "قويدر" واشترت لها آيس كريم الشيكولاتة ورأت وجهها الصغير يغرد فرحاً وهي تلعقه بلسانها كقط سقط على بحيرة حليب، ضمّتها إلى صدرها في حنان كذاك الذي تتمنى لو تتركها علا تمنحها إياه وتدفئ هي به أوصالها الباردة وعروقها الجافة المحرومة من كل شيء إلا ذراعي والدها وياسر وحنانه عليها.

تمنت لو تطلب منها أن تناديها "ماما". تمنت حقاً لو تسمعها من شفتي فتاة كما تسمعها من شفتي ياسر، أو كما تسمع علا تقول "بابا". لكنها في اللحظة الأخيرة امتنعت إكراماً لذكرى والدتها، وخوفاً من عنادها وما قد تقوله من كلماتها التي تبدو أحياناً قاسية، لكن تراها هي تعبيراً عن كبرياء وكرامة فقدت هي نفسها القدرة والشجاعة على التمسك بهما والثأر لهما.

أخبرتهما أن التعب أصابها وأنها تريد الجلوس قليلاً أو العودة إلى البيت إن كانتا لا تمانعان.

عدن بخطواتهن إلى محل "قويدر" ليجلسن جميعاً إلى إحدى طاولاته الصغيرة، وانسلت بدرية في هدوء من جوارهما لتقف وتراقب قوالب الحلوى التي تعلم كلتا المرأتين أنها لا تعرف حتى أسماءها.

بطرف عينيها رأتها مروة تقف أمام كعكة شيكولاتة تشبه إلى حدّ ما كعكة عيد مولد علا وتطيل النظر إليها

في دهشة ممزوجة بالألم.

وتنهدت في حزن عميق. لا بدّ أن الصغيرة تستيعد أحداث تلك الليلة، وكيف حرمت تذوق كعكة الإحتفال. وسمعتها تقول:

أريد أن أفعل لهذه الصغيرة شيئاً ما. في حضرة هذه الصغيرة يدور شيء في عروقي لم يدر منذ أكثر من خمسين عاماً.

وفي حماسة قالت مروة بعد تفكير:

نتكفل بتعليمها. الثياب والأحذية لن تدوم. غداً أذهب إلى بابا وأطلب منه أن يجد من يتكفل بمصاريف تعليمها، وأصطحبها إلى إحدى المدارس القريبة، ولنر ماذا يقولون؟!

وضعت كفها على كف مروة وقالت في تصميم ارتجف قلبها للشعور به:

أنا من ستفعل. أنا. علّي أن ألتقي الرب وأنا أفضل حالاً وأرفع مكانة. أو ربما أحيا حتى أصل بها إلى الجامعة.

من خلف دمعة رقصت في عينيها وهي تراقب المصلوبة أمام كعكة الشيكولاتة، وبعد لحظة صمت أرخت عينيها لتسقط دمعتها، أكملت قائلة:

أو فلنقل قد تجعلني هذه الصغيرة ورسالة تعليمها أتمسك بالحياة ولا يصبح الموت هو أمنية حياتي!

رائع أن تحدد ما هي أكبر متعة تسعد روحك وقلبك. بل الرائع حقاً أن تمتلك ثمن هذه المتعة وقت تشاء وكيف تشاء... وحيد زيدان متعته الكبرى هي النساء.

التنقل بين النساء يشبه رحلة نحلة جميلة على أزهار حقل كبير. ما دام في جناحيها قدرة على الطيران. وما زال في الحقل أزهار فلتنتق من أزهاره ما شاءت، ولتمتص من رحيقها كيفما أرادت، ولتنتج عسلاً رائع اللون والرائحة.

الأرض حقله. لا امرأة تقاوم نحلة مثله. جناحاه نقود وهدايا وكلمات غزل رخيص أو ثمين.

كل زهرة ولها ثمن. هو فقط يتنقل ويمتص منهن ما شاء ويفرز عسلاً يشربه وحده ليصبح أكثر شباباً وسعادة.

زهرة واحدة لا يطيق الوقوف عليها طويلاً ورغم هذا يحتفظ بها.

زهرة صبار حمقاء اسمها "مروة". هي أرخص الأزهار وأكثرهن نفعاً له.

يوماً سيتخلص منها. يوماً سيلقي بها أشلاء صغيرة ممزقة خارج حقل حياته.

أخطأ حين تزوجها. ليس خطأ فادحاً. هي طاهية وخادمة وراعية بيت يأتمنها تماماً على مقتنيات بيته وحياته بأكملها.

حين تحصل ابنته على الثانوية العامة يرسلها للحصول على شهادتها الجامعية من أمريكا التي أخرجته منها مروة وأعادته إلى هنا... فلتدفع ثمن اختيارها من كبريائها وأنوثتها.

أمر ياسر لا يعنيه كثيراً. هو متفوق، هادئ، ملتصق بمروته، لكنه يعلم أنه سيغادرها أيضاً إلى أمريكا قريباً.

سيلفظها حين ينتهي دورها. لن يموت وهي زوجته.

لن ترثه ولن تقول أبداً: كان ذاك العظيم زوجي.

حمقاء غبية تهتم بابنة بواب ولا تعلم كيف تركع وتصلي شكراً لخالقها لأن رجلاً مثله يقبل وجودها في حياته.

مرّ عام تقريباً وهي تلاحق فيه الفتاة وتستذكر لها دروسها وتهتم بشؤونها.

بماذا تطمع؟!

بالثواب والأجر من الله؟

هو أيضاً ينال ثواباً كبيراً لإبقائها في بيته، وأيضاً لسماحه بدخول بدرية إليه.

هذه هي ابنة مؤذن المسجد لا تجد نفسها إلا مع من هم مثلها.

لو كان في إمكانه أن يعيدها الآن من حيث جاءت. لكنها تسهّل له أموراً كثيرة...

تغسل ثياباً وتطويها. تطهو طعاماً، وتتابع أطفالاً، وتعدّ دعوات عشاء يقررها هو.

بل هي حتى لا تمانع أبداً في أن يأخذها وقت يشاء.

استدار على مقعده الكبير في مكتبه الهندسي يواجه نافذته الكبيرة المطلة على ميدان الشيراتون في هدوء.

متى كانت آخر مرة عبر فيها على جسدها؟ منذ شهور ما زال لجسدها طعم آخر يفتقده أحياناً.

كم امرأة سواها في هذا العام عرف؟ ما عاد يذكر حتى كم جسد تجوّل عليه، لكن ما زال لجسدها رائحة تختلف.

تمنحه نفسها في صمت، بل يشعر بها تراقبه كأنها تعلمه أنها تعلم أنها أفضلهن جميعاً.

يعلم أنها ليست ساذجة... تعلم أنه يتنقل بين النساء.

هذا يجعل الأمور أسهل كثيراً. يتمنى أحياناً لو يصرخ في وجهها ويخبرها أنه يوماً سيلقيها خارج حياته. يتمنى لو يفعل ويراقب ما ستفعله. يظنها لن تبالي.

يكره جمودها ونظرات عينيها التي تطارده بها في هدوء حتى وهي بين ذراعيه.

لا يعلم أبداً كيف يشكر خالقه لأن وحيدته ليست مثلها.

لن يتركها لأمها لحظة أبداً لتأخذ أي صفة من صفاتها.

علا متفتحة منطلقة. تركض وتصيح وتتأنق. تحب الحياة وتعلم أن الحياة يجب أن تكون في بلاد ليس فيها دخان موروثات غبية كالتي تحملها أمها بين ضلوعها.

لماذا يفكر فيها الآن؟!

لأنها هذا الصباح، وقبل مغادرته البيت، جذبت مقعداً وجلست عليه أمامه وهو يتناول كوب قهوته، ثم قالت في هدوء:

"أخبر سلمى ألا تتصل بي مرة أخرى".

لماذا تلعثم، لماذا ارتبك؟ هو لا يخشاها. هو حتى ينشيه إيلامها. لكنه تلعثم وارتبك. وبعد لحظات صمت وضع أصابعه على كفها في قسوة وسألها في غضب مبحوح: من هي سلمى؟!

لم تجب. سحبت يدها من تحت كفه وهي تبتسم ابتسامة صغيرة ثم مضت إلى داخل البيت.

حادث سلمى عند وصوله المكتب. أنكرت طويلاً، لكنه يعلم أنها حادثت زوجته. علّمته علاقاته أن كثيرات

منهنّ يفعلن ظناً منهنّ أن زوجته ستغضب وتترك لها مكانها.

سلمى تريد الزواج به؟ حمقاء!

لا نحلة تقيد جناحيها إلى زهرة واحدة. هذا هو عيب نساء مصر. بعضهن ترضيهن الهدايا والنقود، لكن ما زال هناك منهن من تريد الزواج.

أعوام ويلقي بمروة إلى الحسين ويذهب هو وعلاه إلى أمريكا من جديد. هناك الحقول لها قوانين أخرى!

طلبت منه ألا يغادر البوابة. أخبرته أن لديها دعوة عشاء كبيرة يقيمها زوجها مساء الغد وأنها ستعود بمشتريات كثيرة تريده أن يحملها لها.

كم هي جميلة ورقيقة. لكنها أيضاً دوماً حزينة.

لماذا تحزن امرأة مثل مروة؟ لديها زوج وسيم يملك سيارة فارهة أصبح يعرف أن اسمها "مرسيدس". المرسيدس لها في عالم السيارات شأن كبير. كل زواره وضيوفه يملكون سيارات مثلها وأخرى لا تقل عنها شأناً.

لديها طفلان جميلان يتحدثان لغة أجنبية لا يعرفها. لديها بيت وعائلة لكنها مهمومة حزينة. نادراً ما يراها تبتسم.

أحيانا تقف في مدخل المبنى تناديه أو تنادي الصغيرة لتأخذها معها إلى بيتها لتراجع لها دروسها. هذا العام بالتحديد تفعلها كثيراً ودوماً تخبره أنها أصبحت في الشهادة الإبتدائية.

الشهادة الإبتدائية! ستة أعوام تقريباً مرت يا عمران مذ هجر وإياها الصعيد. ما زال يذكر نافذة القطار التي

كان يجلس إلى جوارها يراقب وجهها النائم ويسأل هل حضوره بها إلى القاهرة حقاً قرار صائب؟

أسند مرفقيه على ركبتيه ملقياً برأسه بين كفيه. أصبح معه نقود ودخل لا بأس به.

الدكتور ناصر يمنحه مرتباً شهرياً لقاء تنظيف العيادة اليومي قبل حضوره وتسوقه اليومي له في المساء.

الدكتور وحيد أيضاً يمنحه راتباً شهرياً لقاء حراسة المرسيدس وتنظيفها اليومي وانتظاره باص المدرسة وصعوده بابنته إلى أمها.

نادية لا يقبل أن يأخذ منها قرشاً واحداً سوى مرتبه الشهري. كيف يفعل ووحدها تتكفل بمصاريف ابنته المدرسية بل وتشترى لها في الأعياد ملابس جديدة؟

أصبحت بدرية تحبها، بل وفي كل مرة تذهب إلى مروة لاستذكار دروسها، تمر بمنزلها بل هي كثيراً ما تتابع أداءها المدرسي.

يعلم أنها أحياناً تقوم بعمل بعض الأمور المنزلية لها. فهي أكثر من مرة تغسل لها صحونها، وتطوي لها ثيابها، لكنه يثق أن نادية لا تفعلها لقاء ذلك. لكن بدرية تفعلها لأنها حقاً أصبحت تحب المرأتين.

رحم الله "بياضة". أكرمها الله بابنتها. أصبحت طالبة مدارس، وجميلة ناعمة كأنها زهرة ياسمين.

أعواماً قليلة، ربما عندما تصبح في السادسة عشرة، سيذهب إلى ملاوي ويتحدث إلى واصف ويسأله إن كان يرغب في تزويج أحد أبنائه بها.

نعم سيزوجها في السادسة عشرة ليطمئن عليها. ما زال القلق هنا يأكله عليها. لكن إن زوجها حقاً وعادت إلى الصعيد ما عساه يبقى هنا يفعل؟!

هل يتزوج؟!

ابتسم ابتسامة صغيرة مريرة وهو يخلع عمامة رأسه البيضاء ويضعها على فخذه.

ربما يأخذها إلى زوجها ويعود بامرأة من الصعيد.

من بعدها يهتم به؟!

مذ جاء بها وهي في السادسة من عمرها، لم يرتد يوماً عمامته أو جلبابه إلا وهما ناصعا البياض. لم يغف يوماً تحت سريرها مفترشاً الأرض إلا على أغطية نظيفة وأرض لا ذرة تراب واحدة عليها.

بارك الله فيها. لم يشعر يوماً أنها طفلة. لم يشعر يوماً أنها في حاجة إلى رعاية. وحدها ترعاه وترعى نفسها حتى عندما انطلقت أولى إشارات أنوثتها لم يشعر بها ترتبك أو يصيبها الخوف.

في غرفتهما الصغيرة كل شيء واضح ومكشوف. في ذاك اليوم رآها تخرج من حمام الغرفة الضيق وتخبره أنها ستذهب إلى السيدة نادية.

نظر في عينيها لحظات وأرخى رأسه في هدوء يطلب منها ألا تتأخر.

عادت بعد أقل من نصف ساعة وهي تحمل في يدها كيساً أسود صغيراً دخلت به إلى حمام الغرفة من جديد.

فتاته الصغيرة أصبحت امرأة، لكنها ما كانت يوماً طفلة أبداً.

رفع وجهه ينظر إلى السيارات القادمة نحو الشارع. تأخرت السيدة. يريد أن يدخل إلى العيادة وينهي تنظيفها. يريد أيضاً أن يضع إناء الطهي على الموقد. أخبرته بدرية أنه في حاجة إلى ساعة كاملة لينضج وقد اقترب موعد عودتها من المدرسة.

طفلة هي. نعم ما زالت فيها طفولة واضحة. ما زالت كل يوم تجلس على سلالم التخديم رغم عتمتها.

أكثر من مرة يعود فلا يجدها، ويفتح الباب ليناديها وتهبط إليه بعد لحظات وهي تخبره في خجل أنها تحب الاستذكار على سلالم التخديم.

لا شيء يفسر ذلك سوى طفولتها. الغرفة خاوية ولا تجلس فيها. سلالم العمارة الكبيرة الداخلية لديها، وأيضاً لا تجلس فيها بل كل يوم تتسلل إلى سلالم التخديم وتعود وكتبها بين ذراعيها.

ما عاد يعلم إن كانت طفلة أم لم تكن. ما يعلمه أنها ابنته وحبيبته التي سيتخلى عنها بعد أعوام قليلة ويمنحها لرجل ويعود إما وحده وإما بصحبة امرأة تتولى مهماتها ومهمة رعايته. هل حقاً يتزوج؟!

ألم يعد زوجته ألا تمسّ كفه امرأة سواها وابنتها؟ لكن ستمس ابنته كف رجل آخر. رجل سيصبح هو نفسه مع وجوده غريباً وزائراً بل قد تصبح زيارته نفسها إلى ابنته غير مرغوب فيها.

ما زال قوياً. ما زال شاباً في الأربعين. بل هو وسيم ويعلم هذا جيداً.

لكنه إن تزوج فلن يتزوج أبداً لوسامته أو رجولته الحبيسة، سيتزوج فقط ليعود ويعمل ويمنح ابنته أجره. لن يدع زوجها يذلها أو يدع الفقر يذلهما معاً، كما أذله عمراً مع زوجته.

وشعر بشيء يتحرك في صدره وروحه.

لا يستطيع أن يتخيل أن تصبح ابنته بين ذراعي رجل يفعل بها ما كان هو يفعله مع بياضة، ولا يتخيل أيضاً أن يعود هو بامرأة تعبث بجسده كما كانت الراحلة يوماً تفعل.

طول الحرمان أحياناً يجعل أجسادنا محرمة على اللمسات، وأكبر حتى من أن نغمض أعيننا ونراها تمارسها.

لماذا يفكر في هذه الأمور كثيراً اليوم؟ ما زالت ابنته في عامها الثاني عشر. ربما لأنه حين رآها هذا الصباح ترتدي ثياب مدرستها ارتطمت عيناه من دون قصد بصدرها.

تكوّر صدرها. أصبحت أنثى صغيرة.

رفع رأسه في ضيق يردد: "اللهم احفظها، اللهم احفظها يارب".

وعاد ينظر حوله في ضيق. تأخرت السيدة مروة كثيراً.

وضع عمامته البيضاء على رأسه من جديد وقرر النهوض. لن ينتظرها.

سيدخل إلى العيادة ويبدأ بتنظيفها. ما زال في إمكانها أن تحادثه على الهاتف الصغير الذي أحضرته له السيدة نادية.

حقاً كيف نسي هذا؟ جميعهم يحادثونه إن طلبوه.

ربما كان أجمل ما في هذه العمارة أنَ سكانها قليلون. فيها شقق كثيرة مغلقة وخاوية. لقد تحدث أكثر من مرة إلى الدكتور ناصر يخبره أن كثيرين يمرون يسألون عن شقق مفروشة خاصة في الصيف بل وفي الشتاء أيضاً. أخبره عمران أن يؤثث الشقق الخاوية وأنه سيتابع له تأجيرها مع سماسرة الحي، لكن الآخر دوماً يخبره أنه لا يريد أبداً أن يؤجرها لأن لديه لكل شقة في

العمارة مشروعاً آخر في رأسه لكنه ينتظر الوقت المناسب.

ما عساه الوقت المناسب أن يكون؟!

أن تموت السيدة نادية؟ في أحيان كثيرة يشعر أن ولدها لا يحبها. حتى زوجته وحفيدته قليلاً ما تزورانها، وإن فعلتا يرى زوجة ناصر دوماً تغادر وهي متجهمة الوجه عابسة كأنها خرجت من إناء أشعلوا تحته ناراً حامية. حتى إن كان هذا ما يدور في رأس ناصر، وكان حقاً ينتظر موتها، فماذا يفعل بالدكتور وحيد زيدان؟

لماذا يسأل عمران نفسه وهو يعلم؟ لقد أخبره الرجل أكثر من مرة، وأثناء لحظات غضبه حين عودته في يوم مزدحم لا يجد فيه مكاناً لسيارته أو تأخر عن ضيوف لديه... أخبره أنها أعوام ويرحل بعدها عن الشارع بل عن هذا البلد الملوث بأكمله!

العمارة باسم السيدة. هذا هو السبب الوحيد الذي يقف بين ناصر ومشروعه الكبير الذي لا يعرف عمران عنه شيئاً.

تمتم بصوت خفيض يدعو لها بالعمر الطويل. فقط حتى تبلغ بدرية السادسة عشرة ويزوجها. بعدها إن ماتت هذه المرأة ستكون في مأمن من أمرها. هو لن يضلّ أبداً. ما زالت كل الخيارات وقتها في يديه. إن شاء عاد إلى الصعيد، وإن شاء بقي هنا في أي صورة

اختارها الدكتور للعمارة، أو حتى يلتحق هو بأي عمارة مجاورة. له سمعة طيبة ومظهر حسن في الحي بأكمله.

في اللحظة التي نهض فيها عن أريكته الخشبية الثابت مكانها على رصيف العمارة، واستدار ليدخل إلى عيادة ناصر، سمعها تناديه قائلة:

عمران... أنا وصلت.

ها هي وصلت في سيارة تاكسي. كان يبدو عليها التعب وقطرات من العرق تتصبب على وجهها الجميل. وأرخى عينيه بسرعة وهو يقول:

إصعدي سيدة مروة. سأحضر أنا كل شيء.

كعادتها لم تدخل أبداً ويدها خاوية. حملت معه بعض الأكياس ووضعتها أمام باب المصعد واختفت بداخله وبقي وحده يفرغ سيارة الأجرة التي جاءت بها.

بعدما وضعها جميعاً داخل المصعد، عاد يحمل آخر الأكياس حين سقط أحدها من يديه وأحدث سقوطه صوتاً يعرفه عمران جيداً.

هي أوانٍ زجاجية تحطمت ورأى محتوياتها السائلة تنسكب على الأرض، وأصبح في حيرة كبرى من أمره.

كيف يترك المصعد وفيه كل هذه الأشياء، وكيف أيضاً يترك قطع الزجاج الكثيرة التي تناثرت في مدخل البيت الذي اصطبغ رخام أرضه بألوان زيوتها وعسلها وحلواها؟

أخرج أحد الأكياس ليضعه عائقاً يمنع به إغلاق المصعد وتحركه بما فيه، ثم عاد يركض مسرعاً ليعود بأدوات تنظيفه يمسح عن الأرضية ما انسكب عليها، ويجمع قطع الزجاج في أحد الأكياس. قطعة كبيرة من الزجاج شقت كفه اليمنى ولم يصدق أنها تسببت له بهذا النزف الكبير. لكنه لم يبال.

يجب أن ينتهي من تنظيف المدخل. السيدة دوماً تخبره أن رخام "الكرارة" الأبيض لا تختفي عنه البقع والزيوت.

كلما مسح جزءاً من الأرض تلوّن ببقع من دمه وأزاح عمامته عن رأسه وفردها بسرعة ليلفها حول كفه بقوة وعاد يمسح الأرض.

يجب أن ينتهي بسرعة. لا بدّ أن السيدة تريد المشتريات لتبدأ الإعداد لدعوتها، أو حتى لترتاح قليلاً قبل عودة أبنائها من المدرسة.

سمع الهاتف يدق إلى جوار صدره، لكنه لم يخرجه من جيب جلبابه الداخلي. لا أحد يحادثه سوى السكان. إما ان تكون مروة تسأل عن المشتريات أو نادية تريد إغلاق باب المصعد، وكل هذه الأمور حلها الوحيد أن ينتهي مما يفعله بأقصى سرعة.

حين انتهى وعاد إلى المصعد ودخله ليرفع كفه ويضغط على مفتاح دور السيدة مروة، رأى عمامته

الملفوفة حول كفه قد أصبحت حمراء.

إلى هذا الحد ينزف؟!

كأن مروة سمعت المصعد يتوقف وينفتح أمام باب بيتها فأسرعت تفتحه وهي تقول:

تأخرت يا عمران حادثتك أكثر من مرة!

انحنى ليحمل أكبر قدر من الأكياس ويدخل به إلى بيتها وهي تقف في منتصف بهو البيت تراقبه في تعب.

تريد أن تضع كل شيء في مكانه وتستلقي على فراشها قليلاً. ما زال أمامها عمل طويل وشاق في المطبخ هذا المساء. لا يمكن أن تتذكر دعوة الغد ولا تجول بعينيها دمعة.

إلى متى وهي ترضى وتقبل دعوة أصدقائه ومعهن عشيقاته؟

سحبت من صدرها نفساً عميقاً وهي تراه ينتصب قائلاً:

آسف. سقط مني أحد الأكياس وتحطمت إحدى القوارير.

في ألم تنهدت. هل كسر إناء "الصويا صوص" الذي ستستخدمه في الطهي؟ ما عساها الآن تفعل؟ السوبر ماركت القريب لا يبيع النوع الذي تستعمله. هل تحطم إناء المستردة الفرنسي هو الآخر؟ في أي شيء ستضع قطع الدجاج إذن؟!

كان يقف أمامها في صمت ورفع يده قائلاً:

فضلاً، اكتبي لي أسماءها وسأشتريها وأدفع ثمنها. هو خطإي وحدي.

نظرت إليه في فزع. كف عمران ملفوفة بوشاح أحمر تتساقط منه نقاط دم وصرخت:

أنت تنزف؟!

رمق كفه بيده. الدم لم يتوقف وأرخى رأسه قائلاً:

سأضع عليها قليلاً من "البن" وأعود. فضلاً، أعدّي الورقة.

قاطعته مروة قائلة:

بن؟! أدخل. أدخل معي إلى المطبخ الآن.

حاولت كثيراً أن توقف النزف، لكن كان واضحاً أن جرح كفه في حاجة إلى خياطة، وأن قطعة الزجاج مرّت إلى جوار وريد أو شريان.

لم تمنحه فرصة يفكر. طلبت منه أن يبقى ضاغطاً على الجرح بكفه اليسرى بكل قوته، والتقطت مفاتيح بيتها وخرجت به إلى أقرب مستوصف في شارع الملك عبد العزيز. هناك أخبره الطبيب أنه لن يستطيع تخديره إلاّ بمخدر ضعيف لذا يجب أن يحتمل الألم قليلاً.

وقفت مروة تراقب الطبيب كأنه يحوك ثوباً في كف عمران، ورأته يتألم لكن من دون آهة واحدة تخرج من فمه.

كان وجهه يتلون بالألم كلما عبرت إبرة الجرّاح كفه وخرجت منها ليعضّ على شفتيه وينظر إلى وجهها المذعور ويحاول أن يبتسم كأنه يشفق عليها هي من مراقبته وألمها.

أربع غرز وثمان زيارات للإبرة داخل كفه. مرة دخولاً ومرة خروجاً، وفي كل مرة هي تتألم وهو يحاول أن يبتسم.

رفض أن يدعها تدفع النقود، لكنه عندما سمع الرقم أرخى رأسه في خجل يخبرها أنه سيدفع لها عند عودته إلى البيت.

ابتسمت وهي تخطو إلى جواره خارج المستوصف قائلة:

ستأتي بعد الغد. أنا من ستنظف لك الجرح كما شرح الطبيب. هل فهمت؟

ابتسم ابتسامة صغيرة ورمقها بطرف عينيه بسرعة.

جميلة السيدة مروة. جميلة حقاً وأجمل ما فيها هو هذا الحنان!

فيها من حنان أمه الكثير، لكن فيها شيئاً يختلف. شيئاً يشتاقه... يناديه... ينبض في عروقه كلما أصبحت لديه حصيلة قصص أو حكايات. شيئاً تكتمل به فرحته وتتضاءل به أحزانه.

ما عاد يكفيهما لقاء سلالم التخديم في المساء رغم أنهما عليه باقيان. أصبح مهماً جداً أن يلتقيا في الركن المظلم الذي ينتهي عنده مقياس النيل، ويجلسا على سور الكورنيش المنخفض ويدليا سيقانهما فوق سطح النيل، ويحكي لها عن كل شيء وتحكي له عن كل شيء.

فارق كبير بين مدرسته ومعلميه وزملائه وزميلاته، وبين معلميها ومدرستها وزميلاتها. فارق كبير حتى بين دروسها ودروسه. بين كتبها وكتبه. لكن كل الفوارق تذوب وهي تضحك تخبره عن صديقاتها البنات، ويضحك عالياً وهو يخبرها أن الفتيات في مدرسته يحاولن إقامة علاقة معه رغم أنه يكاد يكون في الخامسة عشرة من عمره.

يضحك؟ نعم يضحك فقط وهي إلى جواره. في البيت لا يضحك أبداً.

في البيت يراقب والدته وهي دوماً تكاد تبكي، ويخبرها أنه يعتقد أن قسوة والده عليه هي سرّ حزنها.

عندما ترفع بدرية حاجبيها في دهشة وتخبره أنها لا تصدق أن يقسو أب على ابنه، وخصوصاً إن كان في روعته، يتنهد ويخبرها أن والدها ليس مهندساً ولا يملك مكتباً كمكتب والده أو ثروة كثروته لكن لديه كنزين كبيرين: "قلبه وبدرية".

كادت تسقط في النيل يوم قال لها أول مرة إنها كنز. ضحكت حتى دمعت عيناها.

تمايل جسدها حتى كادت تسقط في النيل. أمسك بذراعها في جنون. شعر أنه كاد يفقدها. ما كانت لتغرق. سباح ماهر هو لكن يذبحه أن يتصورها تفزع أو تتألم.

لماذا هو قريب منها إلى هذا الحد؟! ولماذا أخته بعيدة عنه إلى هذا الحد؟!

بدرية فيها شيء يختلف. لا ترتدي ثياباً كالتي ترتديها زميلاته في المدرسة حين يلقاهن في الحفلات أو على حمام سباحة النادي أو في المدرسة. لا تتحدث كما يتحدثن، ومفرداتها في الإنجليزية قليلة لا تشكل إلا جملاً محدودة تعلمتها منه وعنه. ما زال يرى شعرها مختفياً خلف منديل ملون وهي تتجول داخل العمارة أثناء صعودها إلى طنط نادية أو حتى خروجها معها.

ما زالت ترتدي ثياباً تختلف عن ثياب أخته وزميلاته. لم ير على جسدها يوماً قميص "بيربري" أو "تومي هيلفجر" لكنه دوماً يراها أكثر جمالاً ورقة منهن.

هي صديقته التي تعرف عنه كل شيء ويعرف رائحة ولون كل نسمة هواء تعبر صدرها أو صدر والدها.

لماذا هي صامتة اليوم؟!

في اللحظة التي استدار ينظر إليها كانت هي تستدير لتنظر إليه وفي ذات اللحظة قال كلاهما معاً: "لماذا لا نتحدث؟". عادا يضحكان من جديد. تتكرر هذه القصة معهما كثيراً.

نعم كثيراً ما يقولان الشيء نفسه في اللحظة نفسها.

هذا هو الصديق. شخصان بروح واحدة. ابتسم وانطلق يحكي عن كل شيء، وانطلقت تحكي عن كل شيء.

صاحت تقول:

غداً أذهب والسيدة نادية الكنيسة. هل تأتي معنا؟!

كانت ترفض في البداية أن تذهب إلى الكنيسة لكنها كانت تفعل مضطرة لإرضائها. أصبحت تحبها كثيراً. أمضى أياماً طويلة في العام الماضي على سلالم التخديم يخبرها أنه يصلي كل فروضه مع مروة، ويوم الجمعة كان جده يأخذه قبل وفاته إلى جامع الحسين لأداء صلاة الجمعة، لكنه أيضاً يحب الكنائس. يحب

رائحتها وجمال مبانيها. أخبرها أنه يوماً سيأخذها إلى أمريكا، بل سيأخذها يوماً إلى باريس ويدخلان معاً كنيسة "النوتردام". كم يتمنى لو يشاهد معها فيلمه المفضل "أحدب نوتردام" لتعلم لماذا لهذه الكنيسة عنده مقام كبير.

ذاك اليوم صاحت في غيظ:

نحن مسلمون يا ياسر! أذهب معها فقط لكبر سنها ومرضها.

أخبرها لحظتها أنه سيذهب معهما إلى الكنيسة. مروة لن تعترض.

حين ذهبوا جميعاً، وعلى مقاعد الكنيسة أخبر في بساطة طنط نادية عن مشاعر بدرية. كادت تقتله بعينيها ونظراتها لكنه ضحك وهو يراها تبتسم قائلة:

أخبر أمك أن تأخذني معها إلى مسجد الحسين متى ذهبت للصلاة فيه.

رفعت الصغيرة حاجبيها بذات الطريقة التي اعتادها منها، وقبل أن تنطق بكلمة واحدة مدت ذراعيها حول الطفلين قائلة:

الرب واحد وإن اختلفت الصلوات وأماكنها.

منذ ذاك اليوم هدأت وأصبحت لا تتأفف أبداً من اصطحاب نادية لها في زيارة الكنيسة.

وقال ضاحكاً:

سأذهب معكما غداً... أمي لن تمانع أبداً.

لماذا لا يعودان معاً إلى العمارة؟ لا يعلم ولا هي تعلم.

دوما تسبقه بخطوات وتدخل وحدها ثم يدخل هو.

لقاء النيل وسلالم التخديم سر أسرارهما. لم ينههما أحد عن اللقاء أو الاجتماع، لكن شيئاً خفياً في صدر الطفلين قرر لهما السر وعيّن عليهما الاحتفاظ به لهما وحدهما.

لم ينتظر ياسر طويلاً اليوم بعدما غادرته. يجب أن يعود بسرعة. لديه بحث يجب أن ينهيه. حين وصل إلى مدخل العمارة وجد عمران ينحني ليمسح أرضيته ووجد أمه تصيح قائلة:

عمران... خمسة أيام لم تأت فيها لتنظيف الجرح. أترك ما في يدك حالاً واصعد معي.

واستدارت تعاتبه قائلة:

استخدام المياه قد يلوّث الجرح أو يعفّنه.

في هدوء نكس ياسر رأسه وهو واقف مكانه ينتظر أن تجفّ الأرض حتى لا يعبرها بحذائه ويضطر عمران إلى مسحها من جديد. لكن بدرية بردود أفعالها غير المتوقعة أحياناً والتي اعتادها قالت في غضب لا يفهمه:

ألم أقسم عليك بالله أن لا تمسح الأرض ويدك مربوطة؟! إذهب مع السيدة مروة. وحدي سأنظف

الأرض.

واستدارت الثائرة تنظر إليه قائلة في الغضب ذاته:

إنتظر مكانك لحظة!

لا بدّ أنها كرهت أن ترى والدها ينحني ويمسح أرض المدخل أمامه وأمام والدته. لكنه عمله. عمل لا يختلف أبداً عن عمل والده. لكل إنسان عمل يستطيع إنجازه وبدونه يضطرب المجتمع. هكذا يخبرونه في المدرسة، فلماذا هي غاضبة، ولماذا هو ينكس رأسه متمنياً لو أنه تأخر لحظات؟

لوّحت له أمه تستبقيه في مكانه. لا بدّ أنها هي الأخرى شعرت بألم بدرية، وفي اللحظة التي فتحت فيها باب المصعد وأمرت عمران بالدخول، انحنت الأخرى تمسك بقطعة القماش المغموسة في الماء تعتصرها وتمرّ بها على رخام الأرضية قائلة في قسوة تلطم بها وجه ياسر ووجهها:

من الآن وصاعداً لن يمسح الأرض سواي. هو عمل ابنة البواب!

بعدما وصلت إلى كفه قالت وهي تتنهد في ألم:

أنا لست طبيبة يا عمران، لكن هذا الورم ولون كفك لا ينبئان بالخير أبداً. لماذا لا تأتي كما اتفقنا؟!

نظر إلى باطن كفه الجريح وأغمض عينيه في شيء من الخوف. الغرز مكانها حقاً داكن اللون متورم وقال في خجل:

وكيف أحضر سيدة مروة؟!

بقطع القطن المغموسة في محلول "البيتادين" مرّت على راحته أكثر من مرّة ولم تشعر به يتألم حتى. وعادت بالقطن تضعه جوارها على طاولة المطبخ المستديرة وأمسكت بكفّه بين يديها ومرّت على موضع الجرح بظهر مشط يدها في هدوء كأنها تريد أن تتحسّس الجرح. هل هو حقاً لا يشعر بيده؟ وما إن مرّت بأصابعها على راحة يده حتى شعرت به ينتفض، ومن دون وعي رفعت عينيها فالتقتا عينيه للمرة الأولى. في عينيه رأت شيئاً، وفي أصابعها التي ما زالت على موضع جرحه غافية شعرت مروة بالانتفاضة ذاتها تسري في عروقها. أعادت النظر إلى عينيه في حيرة من

جديد كأنها تبحث فيهما عن تفسير لما حدث لهما معاً، لكنها وجدت نفسها تحدق في وجه عمران.

وسيم وجهه، حانٍ، وعيناه المذهولتان عميقتان وجميلتان كعيني ابنته.

تركت كفه وهي تغمض عينيها كأنها لا تصدق. لا تصدق أبداً ما شعرت به أو ما تظن أنها رأته في عينيه.

هو أيضاً نهض عن مقعده كأنه يترنح أو كأنّ دواراً أصابه.

انتفض جسدها من جديد وهي ترى مقعد المطبخ يرتطم بالأرض وينحني ليعتدل به قائلاً:

شكراً... غداً أذهب إلى الطبيب.

لحظات وهي تحاول أن تستعيد سيطرتها على نفسها ورأسها وعروقها المرتعشة. لحظات كاد هو يخطو فيها خارج باب المطبخ حين صاحت تقول:

غد أرجوك. سأربط لك يدك. لن تمضي وكفك عارية أبداً.

لم يستدر نحوها بل تسمّر على باب مطبخها كأنه يعجز هو الآخر عن مواجهة وجهها وعينيها من جديد. لكنها عادت تناديه بصوت بدا أكثر حسماً، فاستدار منكساً رأسه كما كان دوماً قبل تلك اللحظات، وجلس يمد يده إليها.

ابتعلت أنفاساً كثيرة تلاحقت في صدرها وهي تنظر إلى كفه المعلقة في الهواء، وكل أصابعها تقاوم أوامر رأسها. لا تستطيع أن تمدَ أصابعها وتلمس هذه الكف الخشنة مرة أخرى.

كان يرى أنفاسها وهي تتلاحق، ويرى عينيها تنظران إلى كفه، وأصابعها تعبث بقطع الشاش الملقاة على الطاولة، لكن لا هي تحملها إليه ولا تتوقف عن لمسها.

ما الذي يحدث. ما الذي يدور؟!

قبل أن ينهض من جديد رأى أصابعها ترتعش ثم تستقر على كفه.

كيف أصبحت أصابعها في لحظة كأنها أصابع جليد أخرجوه للتو من سيارة ثلج كالتي تمرّ بباب العمارة أحياناً؟

لم ينطق حرفاً، لكن عينيه ما فارقتا رعشة أصابعها وهي تلفَ حول كفه قطعة الشاش الكبيرة في دوائر حتى انتهت، ووضعت كفه على الطاولة لتقص قطعة من شريط طبي لاصق وضعته على نهاية قطعة الشاش في هدوء صاخب. رفع عينيه ينظر إليها وقبل أن يفتح فمه بكلمة شكر واحدة رأى دموعاً كثيفة تسقط على وجنتيها الجميلتين.

ماذا يريد منها؟ هي ما عادت تريد منه شيئاً.

حتى سيارته ما عادت تستخدمها. حتى سائقه الجديد الذي التحق بالعمل لديه منذ أكثر من عام لا تعرف اسمه ولم تر ملامحه.

بالأمس، وبعد انتهائه من عيادته صعد إليها. تمنت لو يضمها أو يقبلها، لكنها وجدته إلى جوارها في فراشها يحاول أن يبتسم. حتى ابتسامته ما عادت تحبها.

وضعت كفها على يده وسألته في هدوء ماذا يريد وقد تأخر الوقت؟ أخبرها أنه جاء يطمئن عليها.

ضحكت ضحكة صغيرة وهي تخبره أنه يعلم أنها بخير.

عمران معها. ابنته معها وأيضاً مروة.

أصبح يغيظه كثيراً أن تذكر أسماءهم، ودوماً يخبرها أن الرجل وابنته لو قبّلا قدميها ما كان ذاك كافياً لردّ صنيعها ومعروفها.

أي صنيع وأي معروف يتحدث عنه وحيدها الأحمق؟!

إنها تدفع مصاريف مدرسة حكومية لهذه الطفلة. إنها تشتري ثلاثة أو أربعة أثواب في أعيادهم.

لم تمنح بدرية العمر الذي منحته. لم تمنح عمران اللحظات والدقائق، ولم تتبعه ككلب مقيّد بسلاسل من حرير تجره أنامل عابثة مثل رشا زوجته أو حتى عالم جليل مثل والده.

ذاك الرجل الذي جعل منها مسخاً مسخَراً لخدمته هو ووحيده، وحين كبر ناصر ورحل أبوه، جاءت رشا لتعيد القصة نفسها.

ربما كان هذا هو انتقام الرب من محب في ولده، لكن على أي شيء تعاقب هي؟

لم تشعر أنها تحيا إلا مع هذه الطفلة. عندما تمسك بكفها وتخرج معها. عندما تصطحبها لتختار ثيابها أو تأتي إليها وهي تحمل شهادة نجاحها وتنظر إليها في كبرياء مخلوط بالرجاء في انتظار هدية نجاحها أو حتى كلمة تقدير وتهنئة.

دفعت لناصر أضعاف أضعاف ما تمنحه لهذه اليتيمة ولم تأخذ يوماً سوى التعليمات واللوم. تنهدت وهي تتذكر سر زيارة ناصر لها بالأمس.

أخبرها أن دخل العيادة الكبير وأتعاب عملياته ومستشفاه ما عادت كافية. يريد أن يقوم بتأجير شقق العقار المغلقة إما مكاتب أو "مفروش" للسياح العرب ممن يحبون منطقة الروضة. أخبرها أن من العبث أن تترك كل هذه الشقق مغلقة.

في غيظ مكتوم نظر ناصر في عينيها وهي مستلقية على فراشها تحدق في وجهه وتتمنى لو يلقي برأسه على صدرها مرة واحدة قبل أن تموت. لماذا لا يرى فيها ناصر صدراً أو ذراعين؟!

ذبحها حين قال في غيظه إن صبره طال وسكوته طال لكن إلى متى؟!

ينتظر موتها إذن، وهي تتمنى الموت، لكن بدرية في هذه الأعوام الستة التي قضتها معها جعلتها لا تفكر فيه كثيراً. ما زالت تتمنى حضوره لكنها لم تعد أبداً تسعى إليه. ما عادت ترى رأسه الأسود حتى على أواني الطهي وفناجين القهوة.

ما عادت تتلو صلواتها كل ليلة وهي تدعو لو كانت المرة الأخيرة التي تصلي فيها.

بالأمس شعرت وللمرة الأولى في عمرها أنها أقوى.

بالأمس، ورغم أن دمعة غادرت عينيها، إلا أنها أخبرته في تحدٍ واضح أنها لن تموت ولن يدخل إلى العمارة ساكن غريب. طلبت منه أن يخبر رشا أنها قررت أن تبقى على قيد الحياة حتى تتخرج بدرية من الجامعة. طلبت منه أن يخبر زوجته أنها لن تذبحها مرتين!

لماذا تستعيد ليلة الأمس؟!

ذهب زائرها والدهشة تأكله، لكن من دون رنة حزن أو نظرة ألم على دمعاتها التي سقطت أمامه. ذهب وهو ينظر إليها في غضب كأنه يخبرها أنه سيذهب هذا الصباح إلى الكنيسة ويضيء للعذراء شموعاً ويركع ويخشع ويطلب لها الموت.

أحمق كبير إن ظنها ما زالت على قيد الحياة!

قتلها أبوه كما تقتل رشا بداخله كل ما يربطه بفصيلة الإنسان.

تجاوزت الستين، لكنها بفضل الرب لم تسقط، وإن سقطت فلن تكون يد ناصر أو رشا من تلتقطها أو تستند إليها.

بخطوات أصبحت أثقل، وربما زادت ثقلاً بعد زيارة الأمس، نهضت نحو باب بيتها. ستذهب إلى مروة.

تغيّرت حالها منذ أسبوع. أصبحت دوماً تبكي من دون انقطاع، ولا تتحدث رغم أن نادية تعلم أنها تحبها وتثق فيها.

حملت بين أصابعها صحن "البسكويت والقراميش" التي تحبها من يدها. تعلم أنها ستبتسم حين تراها تدخل به إليها، لأنها ستقدر كثيراً قيامها بطهيها وهي تعلم أنها انقطعت عن ذلك منذ أعوام لضعفها ووهنها.

مروة ستقدّر؟!

رفعت نادية رأسها في ذهول.

"التقدير"!

نعم التقدير هو صانع الحب وهو قاتله.

العرفان، الشكر يجعلانك تمنح أكثر.

لو أن ناصر يقدّر حبها وأعوام عمرها وصمتها، لو قال لها يوماً إنه يعلم كم تحبه وكم تحملت من أجله. لو مرة شكرها، لعاشت في غرفة عمران ومنحته بيتها مع بقية الشقق الخاوية ليصنع بها ما يشاء.

لو أن وحيد قدّر مروة يوماً وشكرها على كل ما تصنعه من أجله وأبنائه، لو أن علا الصغيرة فعلتها مع أمها لما وصلت المسكينة إلى حافة الانهيار التي تراها ترقص عليها منذ أيام.

نمنح عمراً وحباً وعافية ولا يمنحون كلمة أو نظرة.

نطلب ما لا ثمن له لقاء أثمن الأشياء ولا يفعلون.

كلمة التقدير هي "المفتاح"!

أحكمت وضع منديل أبيض على صحن آخر صغير وضعت فيه بعض القطع لبدرية ووالدها ومضت نحو باب البيت في هدوء.

كأنها غادرت ساحة حرب كبرى. عيناها متورمتان فمن الواضح أنهما لم تعرفا النوم طوال الليل. حتى شعرها الأسود الطويل كان ثائراً حول كتفيها.

هل رآها زوجها على هذه الحال وتركها؟! ألم يفزع أحد أبنائها لهيئتها هذه؟

كيف لا يرانا أقرب الناس إلينا ونحن نحتضر، ويمد الغرباء فقط أيديهم نحونا للعون والإنقاذ؟

أفسحت لها الطريق في صمت لتدخل والصحن في يدها وتجلس على أول مقعد صادفته.

كان واضحاً أنها تبكي بكاء مريراً، ربما انتظرت خروج الجميع لتطلق سراحه. كان واضحاً أنها حتى لم تر الصحن الذي جاءت به لتضعه على فخذيها، ونكست رأسها تنظر إلى غطائه الأبيض في ألم.

تكره أن ترفع عينيها وترى وجه مروة على صورته هذه وتكره أن تهرب من مواجهتها. وبعد لحظات من الصمت قالت:

أنت امرأة جميلة. طيبة. أنت أجمل أم وأجمل جارة وصديقة. منذ عودتك من أمريكا وأنت تكرمين العمارة وسكانها.

كان صوتها يتهدج بحزنها عليها وعلى زيارة ناصر ليلة الأمس، لكنها غالبت دموعها وحاولت أن يخرج صوتها ضاحكاً فقالت:

هل تذكرين "قراقيش" طنط نادية؟ أعوام طويلة مرّت وأنا أظنني لن أعدها يوماً. اليوم استيقظت في الخامسة. طهوتها وجئت أحملها إليك أشكرك لأنك بحبك وحنانك جعلتني أشعر، وللمرة الأولى في عمري، أني لست عاجزة. أنت من فعلها يا حبيبتي!

رفعت عن الصحن غطاءه الأبيض والتقطت إحدى القطع الغافية عليه، ومدت بها كفها نحو الباكية ورفعت عينيها لتجد مروة مغلقة العينين تعض على شفتيها في قوة كأنها تحبس جيش آهات ودمع وقالت:

قد لا يكون لها المذاق القديم نفسه، لكن أنا أحبك أكثر مما كنت أفعل في ذاك الزمن القديم. هل لك أن تتذوقيها وتخبريني كم هرمت وفشلت؟!

ما كان من الممكن أن تلتقط شيئاً بكفها. كفها التي تريد أن تمدها نحوها هي وحدها التي فتحت عليها باب الجحيم وأسقطتها فيها يوم لمست بأصابعها أصابع حارس بيتها.

بكت... بكت في جنون كأنها تتناثر قطعاً أصغر من قطع "القراقيش" التي جاءت بها.

حملت الصحن بعيداً عن فخذي القادمة، وسقطت على ركبتها لتلقي برأسها مكانه وقالت من بين دمعاتها:

ضاع كل شيء... كل شيء... عقلي... روحي... عمري... ولم يشعر بي أحد!

حين وضعت نادية كفها على رأسها تمسح عليه في حنان كأنها تعيد كل شعرة فيه إلى جوار الأخرى بعد خروجها عن طاعتها وسكناها إلى جوارها، قالت ودموعها تنحدر:

أشعر بك يا ابنتي... ألا يكفيك هذا؟! خذي حماماً ساخناً بينما أعد القهوة... أرجوك.

رفعت مروة عينيها تنظر إليها في ذعر. كيف حقاً لم تغتسل بعد كل ما حدث ليلة الأمس؟ كيف؟ ولكن لماذا تطلب منها ذلك؟ هل أصبحت واضحة على جسدها ووجهها آثار الليلة السوداء إلى هذا الحد؟!

ارتمت بين ذراعيه في حب كبير وأوثقهما حول جسدها الصغير هامساً في أذنها:

وجبة الغداء ستكون في البيت الكبير سعادة الأميرة. ستجدين "كوكيز" شكولاتة في انتظارك. هل هناك تعليمات أخرى سيادتك؟!

تملصت من ذراعيه بعدما تظاهر أنها وحدها استطاعت التخلص منهما، ولوحت له وهي تضع حقيبتها على كتفيها وهي تترجل من السيارة قائلة:

أخبر كيكي أني وحدي سأعد "الكوتن كاندي".

راقبها وهي تدخل إلى روضتها، ثم أطفأ محرك سيارته ونظر إلى أشجار النخيل العالية حول سور المدرسة في حزن.

ما زال قلبه يتألم كلما سافرت ندى إلى دبي. أعوام وهي تقضي خمسة عشر يوماً كل شهر بعيداً عنهما.

ما زال في كل مرة يراها تغلق حقيبتها يشعر بقلبه يسقط في ألم سحيق.

أخبره أبوه ألا حلّ آخر أمامه. إما أن يكف عن الشكوى من هذه القصة أو يفرض على زوجته ألا تفعل.

كيف يفعل؟!

كيف يبقي امرأة في بيتها إلى جوار ابنتها التى ما زالت فى رياض الأطفال وإلى جوار زوجها وهي لا تريد؟!

كيف يطلب من امرأة أن تكتفي بدخل زوجها وهي لا تراه يكفي حقائب "الشانيل" و"اللوي فيتون" التي تمتلئ بها خزانة ملابسها ورحلات أوروبا الصيفية؟

كيف يقنعها أن نومها بين ذراعيه وأنفاسها على وجهه وحول وسادته أهم من هذه الآلاف التي يمنحها لها والدها كل شهر لقاء تنقلها بين فروع شركاته السياحية هناك وفي مصر؟

كيف نغيّر قناعات إنسان ونعيد ترتيب أولوياته؟!

كيف نفرض عليه الحب إن كان لا يراه يستحق التضحية؟

ربما هو من يجب أن يتغير.

لكن كيف؟ ومن يستطيع أن يفرض عليه التغيير؟ وكيف يعيدون ترتيب أولوياته هو الآخر واحتياجاته؟

هل أخطأ في اختيار شريكة عمره؟!

أبداً. كانت عاشقة شابة مثله. أقسما ألا شيء في الحياة يهم سوى أن يكونا معاً.

هو ليس فقيراً. بدأت معه الحياة في فيلا جميلة في إحدى أجمل ضواحي القاهرة.

بعد عام واحد من الحب والزواج عرض عليها والدها المقيم في الإمارات المتحدة أن تتولى إدارة فرع شركته السياحية في القاهرة.

تناقشا طويلاً، لكن القرار كان محسوماً في رأسها قبل بدء النقاش.

ستذهب إلى الشركة كل صباح في الوقت ذاته الذي يتوجه هو فيه إلى عمله في شركة والده الكبيرة للبناء والمقاولات.

سيعودان معاً، ولكن هي يجب أن تعمل. لم تخلق للنوادي وانتظار الحبيب. أيضاً هو لم يخلق أبداً لأن يفرض رأيه على أحد وإن كانت زوجته.

الزواج شركة تتساوى فيها مكانة الطرفين. ليس فيها رئيس يقرر ومرؤوس ينفذ.

هذه هي قناعاته ولا يريد حتى أن يغيرها. هو يحترمها ويحترم حقوقها في أن ترسم حياتها كما تشاء ما دام الحب والاحترام أعمدتها.

جميلة، قوية، وأيضاً محترمة. لا يشك لحظة في قوتها ووفائها والتزامها بقواعد الشركة، لكن ما زالت أولوياتهما مختلفة.

بعد شهور أخبرته أن والدها طلب منها التنقل بين دبي والقاهرة.

أخبرته في خجل أن منتصر سلام، والدها، أفنى عمره في تربيتها وإنشاء شركته الكبيرة التي أصبحت من أكبر شركات السياحة في الشرق الأوسط من أجلها وحدها، وأن واجبها أن تتابع هذا الصرح العظيم وتحافظ عليه.

لا موظف آخر له الحق في أن يحل محلها، ولا ابن أو ابنة للرجل سواها.

منتصر استقر هناك، ولا يزور القاهرة إلا مرة أو مرتين في ميزانية الشركة السنوية.

وحدها تفعل كل شيء في فرع القاهرة، وأيضاً تتابع معه كل شيء في فرع دبي خلال الأسبوعين اللذين تقضيهما هناك.

حاول كثيراً أن يخبرها أنه لا يقوى على أن يفتح عينيه خمسة عشر يوماً ولا يجد رأسها على الوسادة التي بجواره.

أخبرها أن ياسمين تبكي كل صباح عندما لا تجدها. أقسم لها أن المربية حنون، والطاهية ماهرة، والخادمة رائعة لكن كل شيء لا طعم له من دونها.

ابتسامة مريرة ارتسمت على شفتيه وهو يعاود النظر إلى أشجار النخيل العالية متذكراً إجابتها. ماذا قالت له؟

قالت:

ياسمين ابنة عام واحد لكن أنت رجل ويجب أن تكبر.

ما زالت الكلمات تجرحه. ما زالت تطن في أذنيه كزلزال يضرب كيانه بين وقت وآخر!

حبه لها طفولة. تمسكه بها وبأنفاسها رعونة. تنسمه لأنفاسها وتحسسه لجبهتها وهي نائمة صبيانية يجب أن يتخلص منها ويتخطاها.

كيف يقولون إن النساء لا يذبحهن إلا العاطفة والمشاعر؟

زوجته ترى العاطفة والمشاعر هي الحماقة والطفولة التي يجب أن يروض نفسه وابنته على التحرر منهما.

وقد كان...

تحرر كريم. مع الأيام، مع الشهور، اعتاد النوم على وسادته من دون أن يتحسس وسادتها. بل في الأعوام الأخيرة أصبح يشعر بها ضيفاً عابراً على فراشه وذراعيه. ضيفاً حتى على ياسمين الصغيرة. ضيفاً بعد أسبوعين من كل شهر سيحمل حقيبته ويرحل، ثم يعود بها مليئة بالهدايا لكنها خاوية من دفء المشاعر.

ما زال يحبها ويعلم أنها تحبه. ما زال وفياً لها ويثق أنها لا تخونه، لكن شيئاً كبيراً تحطم. شيئاً في قلبه يكسوه الجليد وتغطيه الخيبة والانكسار.

ياسمين هي رفيقته. حبيبته. هي امرأته الصغيرة التي يبذر داخلها بذوراً صغيرة من الحب والحنان.

يراها بعينيه شابة أولى أولوياتها الدفء... الحب... لكن ماذا لو تزوجت ياسمين رجلاً مثل أمها؟

هل تصبح عندها ابنته كما هو اليوم؟

الحياة ابداً لا تقبل التقاء طرفين لهما الاحتياجات نفسها.

هذا هو سر العناء وأيضاً سر البقاء.

نعاني ونبقى بالأمل نبحث وأبداً لا نصل.

أفاق من أفكاره على صوت هاتفه الصغير لترتسم ابتسامة أكبر على وجهه الأسمر الوسيم وفتح خط الهاتف قائلاً:

صباح الخير يا أحلى النساء. بيان من الأميرة الصغيرة. أنت تعدين "كوكيز" وهي عليها "الكوتن كاندي". أنا؟! أيّ شيء يخرج من تحت أصابعك له عندي طعم السكر!

أدار محرك سيارته وتلا بعض الآيات القرآنية كأنه يحصن بها المدرسة بأكملها، وكيف لا يفعل وفي أحد الفصول وعلى أحد المقاعد تجلس أميرة قلبه الصغيرة؟

تلفتت حولها في خوف وتنهدت في حيرة وألم. إن كانت خائفة لمَ لا تكمل طريقها إلى المدرسة وتنسى القصة؟

تنسى؟ كيف تنسى حلمها؟ حلمها أن تدخل إلى السينما. كل زميلاتها في المدرسة يتحدثن عن السينما. وحدها هي تلزم الصمت ولا تبادلهن الحوار لئلا تعلم إحداهن أن بدرية ما وطئت قدماها ما اسمه السينما.

ياسر سيأخذها إلى السينما. اليوم عنده إجازة. لا تعلم كيف يكون في إجازة ولا تكون هي أيضا، لكن مدرسته مدرسة دولية إجازاتها تتبع أمريكا.

أمريكا؟ قصة أخرى حكى لها عنها كثيراً.

السينما الآن هي القضية. هربت من المدرسة.

سينتظرها بجوار سينما فاتن حمامة. أخبرها أن الفيلم يبدأ في العاشرة. ما زال لديها ساعتان حتى العاشرة.

في جيب زيها المدرسي عشرة جنيهات كاملة هي مدخراتها مما تمنحه إياه نادية هانم أو طنط مروة إن أرسلتها تشتري لها شيئاً تحتاج إليه.

ماذا لو رآها أبوها؟ السينما قريبة جداً من البيت.

كيف يراها؟ هو في الصباح مشغول دوماً بسيارات العمارة وقضاء المشتريات وأحياناً ينام حتى الظهيرة فهو يسهر للحراسة طويلاً.

صرخت بدرية صرخة كبيرة على صوت أحد سائقي السيارات يلعنها قائلاً:

حيوانات تعبر الطريق وإن قتلناكم يظنونكم بشراً!

لامس ثيابها بسيارته. ليس مخطئاً هي التي لم تنتبه له. عبور شارع الروضة جنون في هذا الصباح الباكر. هل يعاقبها الله لأنها تخدع والدها وتذهب إلى السينما؟

وما يضيره إن ذهبت بدرية إلى السينما؟ ياسر أخبرها أنها مكان عام. غرفة كبيرة يدخل إليها أشخاص كثيرون ليشاهدوا أفلاماً تعرض على شاشة كبيرة أكبر من الشاشة المعلقة على حائط منزلهم التي تقف مشدوهة أمامها كلما صعدت إليه.

التقطت أنفاسها وهي تنظر حولها لتعبر الجسر الصغير الذي تقع إلى جواره سينما فاتن حمامة.

لماذا لم تنتظر عند ركن النيل الذي يلتقيان فيه كل مساء حتى يهبط ياسر ويأتيا معاً. لقد طلب منها ذلك لكنها رفضت خشية أن يراهما أحد.

هو أيضاً لم يصر كثيراً... والده يخرج في هذا الوقت إلى العمل.

أخبرها أنه أخبر أمه أنه سيذهب لقضاء النهار مع أحد أصدقائه الذين يقطنون شارع الملك عبد العزيز.

حتى هو يشكو تغيّر أمه كثيراً. ما عاد له حديث في الأيام الماضية سوى والديه.

أصبحت عصبية وفي الوقت ذاته ساهمة تبكي كثيراً. هو حزين جداً لما يحدث لها، لكنه لا يعلم كيف يساعدها أو حتى بمَ يفسر ما يحدث لها.

ضحكت بدرية حين أخبرها أول مرة وهزت ساقيها فوق سطح النيل تخبره أن كل شيء يحدث لهما معاً في ذات التوقيت وبنفس القوة.

عمران أيضاً ليس هو والدها الذي تعرفه. يشرد كثيراً برأسه. تحادثه ولا يسمعها. تناديه نادية طويلاً وهي تقف إلى جواره ليرفع رأسه بعد أن يرتفع صوتها وينتفض يتمتم بكلمات الاعتذار ويقسم أنه لم يسمع.

ياسر يظن أمه مستاءة من تصرفات علا وجموحها. وبدرية تظن والدها قلقاً على اختبارات الشهادة الابتدائية الوشيكة بعد أيام.

تركت المراجعة وتذهب إلى السينما؟ أي جنون؟ لماذا لم ينتظرا حتى الاجازة؟ امتحاناتها لن تستغرق أكثر من أسبوع.

لأن أجازتها تختلف عن إجازته. لأن امتحاناته نفسها ما زال أمامها أسابيع حتى تبدأ، ولأنها أيضاً لن تستطيع

أبداً أن تجد عذراً تبرر به لوالدها خروجها أربع ساعات كاملة في العطلة المدرسية.

أيضاً الفيلم الذي سيشاهدانه لن يكون موجوداً بعد أيام.

أخبرها أنه فيلم "مدغشقر" وأنه من ديزني وأيضاً ثلاثي الأبعاد.

غداً تذهب إلى مدرستها وتقفز أعلى مقعدها الصغير وتحكي لكل الفتيات كيف ذهبت وشاهدت فيلماً ثلاثي الأبعاد. لكن ماذا لو كان يجب أن ترى أولاً أحادي وثنائي الأبعاد لتستطيع استيعاب الثلاثي الذي ستراه اليوم؟

سيشرح لها كل شيء.

كل هذه الأعوام تحياها في الروضة. كل هذه الأعوام ومسافة قصيرة تفصلها عن مبنى السينما الكبير ولم تقترب يوماً منه أو تنظر بداخله...

انتفضت وهي تسمعه يصرخ في أذنيها يعلمها بوصوله، وصاحت في فزع: "ياسر"...

جذبها من كفها وهو يصيح:

سنفطر أولاً.

تبعته وهي تكاد تقع على وجهها، وحقيبة مدرستها ما زالت معلقة على كتفيها.

خطوات وهو يركض بها حتى وصل بها إلى مكان ما. رفعت عينيها محاولة أن تقرأ المكتوب على اللافتة الكبيرة، لكنها لم تستطع وياسر لم يمنحها الوقت الكافي لتتمكن من القراءة.

دفع بيديه باب مقهى "ستار بكس" الزجاجي ودخل بها وكفها ما زالت معلقة بين كفيه وأمام ثلاجة العرض الزجاجية وقفت تراقب ما بداخلها وأنفاسها تتلاحق في جنون.

عشرات الكعكات الصغيرة والكبيرة كتلك التي تقتطع لها مروة منها جزءاً في كل عيد ميلاد لياسر أو أخته ترقد داخل الثلاجة.

شوكولا تلمع، وأخرى لا تبرق، وأشياء أخرى مستديرة في أوراق.

ما هذا؟! كيف لا تعرف أن شيئاً من هذه الأشياء موجود على كوكب الأرض؟

استدارت تنظر إليه في ذهول وهو يسألها ماذا تريد؟!

مالت عليه في هدوء تخبره أن معها عشرة جنيهات ولا تريد أن تفقدها بأكملها.

ضحك يخبرها أنها ستعود بها كاملة وأنه أصبح رجلاً ولن يدعها تنفق مليماً واحداً من نقودها.

بإصبعها الأسمر الدقيق أشارت إلى أكبر شريحة من شرائح كعكة "الفادج" كأنها لا تجد ما هو أكبر أو أكثر بريقاً في عينيها.

سمعته يطلب من الرجل الأنيق الرابض خلف العلبة الزجاجية الكبيرة أن يضيف لهما "صوص الشوكولا".

اختار مقعدين في ركن منزو في المقهى الزجاجي وأجلسها على أحد المقاعد، وفي طريقه لإحضار كوبي العصير وقطع الفادج خلع عن رأسها، وهو يخطو، حجابها الذي تذهب به إلى المدرسة.

لم تستطع بدرية حتى أن تصيح، فكل ما فيها كان فاغراً فاه من الدهشة. لكنه قبل أن يبتعد ألقاه عليها من بعيد.

التقطت حجابها ولم ترتده. هي طفلة. حتى عمران لا ينهرها أبداً إن خرجت من غرفتهما وتجولت في العمارة أو ذهبت لقضاء حاجة أحد السكان من دونه.

عندما وضع الصحون البيضاء على الطاولة، وقبل أن يستدير ليجلس أمامها، ضرب بكفه ضفيرتها السوداء المعلقة خلف ظهرها في مرح وهو يقول:

هل أنت سعيدة؟!

أمسكت بالشوكة بين أصابعها كما يمسك بها وتسللت بها إلى قلب الكعكة السوداء ووضعت القضمة الأولى بين شفتيها وهو يراقبها.

ما زالت كيوم رآها بجلبابها عند حضورها مع والدها أول مرة. ما زال يراها أجمل وأغلى عنده من كل زميلات وصديقات مدرسته الدولية.

أغمضت عينيها في نشوة... لم تذق شيئاً أجمل من هذا وقالت بشفتيها الصغيرتين:

رائعة!

ضحك يصيح:

مذ كنا نحيا في فيرجينيا لا أتناول سواها. كيف اخترتها كأنك تعرفين كل ما يدور في رأسي وكل ما يحبه قلبي؟

اتسعت عيناها العسليتان الجميلتان وانطلق كعادته يحكي لها وهي تسمع وتفهم وتحاول أن تفهم أكثر.

أصبح صوته مختلفاً. أصبح أكثر غلظة لكن ما زالت تحبه.

ضحكت وهي ترى على وجهه آثار شارب خفيف يتكون. وعندما قال لها:

أصبحت رجلاً... وحدك الطفلة... هل تصدقين عندما تصبحين في الشهادة الإعدادية سأكون أنا في "الهاي سكوول"؟

لم تسأله أبدا عن معنى الكلمة. علمها كلمات كثيرة من اللغة الإنجليزية بل وجملاً قصيرة وطويلة، فهما ما زالا على سلم التخديم يلتقيان ويقرأ لها قصصه.

تكاد تجزم أنها في العام المقبل، وعند بداية دراستها للغة الإنجليزية، ستكون أكثر تفوقا من كل زميلاتها في هذه المادة.كيف لا ومن علمها أمريكي حقيقي!

بعدما أنهيا إفطارهما، وفي طريقهما إلى خارج المقهى استدار ينظر إليها قائلاً:

ضعي المنديل على رأسك. لا أريد أن يرى كائن سواي شعرك الجميل!

كانت تركض إلى جواره عند خروجهما من مبنى السينما وهي تستعيد أحداث الفيلم في جنون. كانت النظارة الثلاثية الأبعاد ما زالت في يدها. أخبرها أنه يمكنها الاحتفاظ بها.

وضعتها على عينيها وهي تركض. تريد أن ترى الدنيا بها كما رأت الفيلم. تريد أن تلمس السماء والعصافير كما كانت تفعل وهي ترفع يدها في قاعة السينما كأنها تتحسس فراشات الفيلم وحيواناته بأصابعها الجميلة الدقيقة.

أخبرها أنها لن ترى شيئاً كما رأته داخل السينما، لكنها كانت تركض وهي تقسم أنها تفعل وأن الخلل في عينيه لا في عينيها.

كل شيء في عينيها بدا أجمل وأقرب مما تتصور، وهي تركض وهو يركض خلفها ويمسك بكفها ليعبرا طريق السيارات الهادر باتجاه البيت، وحين وصلا قرب الشارع سكنت حركاتهما وهدأ جنونهما.

حانت لحظة الفراق.

كيف يقترب أحدهما من الآخر إلى هذا الحد وهما بعيدان عن البيت، وكيف يبتعدان إلى هذا الحد إن

وصلا إليه؟

كل منهما يجب أن يذهب وحده. كل منهما إن وصل إلى باب العمارة يجب أن يتظاهر ألا صداقة تجمعهما ولا قصصاً ولا حكايات.

هو يجب أن يدخل ويصعد إلى بيته الأنيق في الدور الثالث حيث والده الدكتور المهندس وحيد زيدان، وهذه الرقيقة الجميلة الصغيرة يجب أن تهبط إلى غرفتها أسفل سلالم البيت حيث والدها عمران حارس العقار وخادم سكانه!

أنفق أكثر من مائة جنيه كاملة لكنه تمنى لو وضع في جيبه أكثر.

لا شيء على الأرض يسعده كما تسعده ضحكات بدرية. في مدرسته الدولية يرى الفتيات يضحكن بل ويغرقن في الضحكات والنكات، لكن وجوههن أبداً لا تتبدل. وحدها إن ضحكت يتغير وجهها ويصبح لها ملامح أخرى. على أطراف عينيها غمازتان عميقتان لا تظهران إلا عندما تضحك. أسنانها البيضاء الجميلة لا تظهر إلا عندما تضحك وتتسع أطراف شفتيها الصغيرتين الجميلتين.

لماذا تتباهى الشقراوات في مدرسته ببياض بشرتهن ولون أعينهن؟ منذ نشأ في أمريكا وهو يراهن جميعاً باهتات ويتباهى بجمال أمه إن زارت مدرسته أو مرت لاصطحابه والعودة به إلى البيت.

المرأة السمراء أجمل. هناك شيء في البشرة السمراء والعيون الداكنة تنبض بالروح وتدغدغ عيون من ينظر إليهما وقلبه. شيء يتحرك. شيء يثير طمأنينة وسلاماً.

تنهد في هدوء ينتظر أن تفتح له باب البيت. سيضمها بين ذراعيه ويخبرها أن هذا الصباح كان أجمل

صباح منذ أعوام. ليته يستطيع أن يخبرها أنه اصطحب بدرية إلى السينما وتناولا معاً كعكة الفادج في "ستار بكس" لكن شيئاً ما يمنعه. شيئاً لا يعرفه. رغم أنه يعلم أن أمه تحبها وكثيراً ما يرى بدرية تجلس إلى طاولة الطعام وأمه تراجع لها دروسها قبل الامتحانات. رغم أنه يعلم أنها تحب عم عمران ووحدها أخذته إلى المستشفى لخياطة جرح يده منذ أيام طويلة. رغم كل هذا كلما رأى صديقته في بيتهم تجلس لمراجعة دروسها ينكس رأسه ملقياً تحية صغيرة ويعود إلى غرفته.

لماذا لم يفتح أحد الباب؟!

عاد يقرع الجرس من جديد، وبعد لحظات فتحت علا الباب واختفت من أمامه. لم لا تحييه أخته؟ لم لا تتحدث إليه ودوماً ترمقه بهذه النظرة كأنها تتمنى لو لم يكن موجوداً؟ لو كان والده الواقف على الباب لصاحت وارتمت بين ذراعيه وهللا معاً في ضحكاتهما.

يكره أن يكونوا فريقين في هذا البيت، لكنه حتى الآن لا يعلم قرار مَن أن يكون هو رفيق أمه وحبيبها وتكون أخته رفيقة والدها وحبيبته، وينظر كل فريق إلى الآخر كأنه يتهمه بالغباء والعته؟

ما عاد حتى التوصل إلى إجابة عن هذا السؤال يغير شيئاً.

صاح يناديها لكنها لم تجب. وتوجه إلى المطبخ يبحث عنها لكنه أيضاً لم يجدها. أواني الطهي على الموقد ورائحة الطعام تملأ المكان. رائعة في كل شيء حتى في طهيها كأن بدرية قطعة منها.

قبل أن يدخل غرفته فتح باب غرفتها بعد طرقة صغيرة على بابها ورآها حين دخل تجلس على فراشها تضم ركبتيها إلى وجهها بذراعيها ورأسها ملقى عليها لا يراه وصاح:

عاد حبيبك يا فاتنة.

لم ترفع رأسها نحوه كعادتها، لكن صوتها كان مرتعشاً ينتفض كانتفاضة جسدها التي بدأ يلمحها وهي تقول:

أتركني وحدي أرجوك.

لا شك. هي تبكي... كيف تبكي وهو سعيد، وكيف يتركها؟

تقدم نحوها ووضع كفه الشابة على شعرها الملقى حول كتفيها وعاد يقول:

أنت بخير؟!

بكل ما استطاعت من قوة حاولت أن يكون صوتها ثابتاً، لكنه خرج أكثر ضعفاً من المرة الأولى قالت:

أخرج... أرجوك...

حين نكس رأسه وخرج متجهاً إلى أخته ليسألها، رغم علمه ألا إجابة منها ستصله بل ربما مشادة حادة

قد تنتهي بعقاب من وحيد عند عودته لا يعلم له سبباً. حين أغلق خلفه باب غرفتها، وحين سمعت صوت مزلاج الباب يغلق، رفعت رأسها تنظر نحو الباب وتجهش في بكاء حاد.

لماذا طلبت منه أن يغادر الغرفة؟ لماذا لم تضمه إلى صدرها وتبكي على كتفيه؟ من لها سواه تبكي على ذراعيه؟ لم يعد صغيراً. في طولها. أصبح رجلاً وهي لا رجل لها سواه.

رحل والدها وزوجها ميت منذ أعوام.

هي بلا رجل.

عادت تنظر حولها بجنون. ربما لهذا حدث ما يحدث مع عمران.

لأنها امرأة بلا رجل.

فضّت اشتباك كفيها حول ساقيها، ونظرت إلى كف يدها اليمنى. ما زالت تشعر بكفه وخشونتها على أصابعها. منذ تلك الليلة وكف حارس بيتها تشعل في قلبها نبضاً وفي جسدها حرائق وفي رأسها خجلاً وذلاً لا يفارقانها.

ليست طفلة أو مراهقة. هي امرأة وأم وزوجة.

بطرف عينيها نظرت إلى مكان زوجها الذي ينام فيه.

هل هي حقاً زوجة؟! أبداً. ابنة الشيخ الجليل خادمة لدى زوجها وأطفالها. حتى ابنتها تعاملها على هذا

الأساس.

ربما لأنها حقاً خادمة لجأت إلى كف "البواب" تتحسسها بذاك العطش والجنون.

ليست أبداً حاجة جنسية. ما زال زوجها يأخذها من آن إلى آخر، وما زالت تستلقي في هدوء تراقبه يمارس الحب معها في وجوم كأنها إحدى عشيقاته. مرة تراه يظنها هبة أو ماجدة أو تلك التي أحضرها في دعوة العشاء الأخيرة. لكن من يقول إنه يراها أحداهن؟ هي تعلم أنه يستمتع بهن واحدة تلو الأخرى ويأخذها فقط ليخبرها أنه ما زال رجلاً.

بالأمس دخلت إلى جواره في الفراش. قررت أن تقترب هي منه. قررت أن تنسى كل شيء وتأخذ كف زوجها بين يديها.

كفه ملوثة وملطخة بآثار عشرات غيرها، لكن ما زالت أطهر من كف عمران. ما زالت كفاً حلالاً. ربما أراد الله أن يحدث ما حدث لتستعيدها وتستعيد شعورها بها.

اقتربت منه. وضعت كفها على ظهره وطلبت منه أن يستدير نحوها. حين فعل كانت تبكي. كانت دموعها تنحدر على وجنتيها في صمت. أخبرته أنها تحتاج إليه تريد أن يضمها وأن يقترب منها. أخبرته في وضوح

وهي ترفع كفها اليمنى المشتعلة أمامه أنها تريد أن يلمس يدها ويتحسس أصابعها...

كان الكتاب الذي يقرأه ما زال معلقاً في يده اليسرى.

أغلقه في هدوء وألقاه جانباً ثم عاد ينظر إلى دمعاتها. حاولت أن توقف دموعها لتفسر نظرته إليها. هل كان فيها حب... دهشة، أم هو تشفّ من بكائها؟

سقطت بكفها التي لم يلتقطها وألقت برأسها على ضلوعه وبكت في ألم وهي تقول:

ساعدني يا وحيد... أرجوك...

شعرت به يربّت على ظهرها، وأغمضت عينيها كأنها حقاً تنتظر منه شيئاً تقبل به وتحاول أن تتفاعل معه. في تلك الثواني التي كان يربت فيها على ظهرها كانت تعد نفسها لأن تحكي له ما حدث يوم كانت تطهر جرح عمران. كانت تعدّ نفسها لإخباره أنها شعرت بأنها ما زالت امرأة، لكنها ما زالت أيضاً تريد أن تشتعل وتهدأ بأصابع زوجها، لا بغريب عابر يعمل بواباً في بيته وبيتها.

ماذا فعل بعدها؟ قال كأنه يستعرض علمه وثقافته ويندد بجهلها وغبائها. قال:

مروة... هي أزمة منتصف العمر... لو كنا في أمريكا لطلبت منك التوجه إلى أخصّائي يساعدك. شيء طبيعي يحدث عندما تقترب السيدات من سن اليأس.

ثم أردف في هدوء:

مشتاقة لممارسة الحب يا صبية؟!

كل شيء فيها هدأ. كل شيء فيها أغلق شفتيه عن الصراخ وعينيه عن البكاء.

رفعت عينيها ونظرت إليه، وبابتسامة كسيرة قالت:

الفرق... أنك ترى أننا نمارس الحب وأنا أرى أن الحب وحده هو الذي يجب عليه أن يمارسنا!

ضحكة بلهاء صغيرة أطلقها كأنه يسخر من كلماتها. تعلم أنه يرى كل ما تقوله أحمق ملوناً برائحة حي الحسين القديم ولا يستحق حتى أن يفكر في معناه، لكنه مدَ كفه يحاول الوصول إلى جسدها قائلاً:

ما زال لك كل الحق في أن...

عادت بيده إليه تقاطعه:

شكراً... أنا بخير... هي سن اليأس...

استدارت تغمض عينيها على جيوش الدمع تستمهلها قدوم الصباح وخروجه من البيت لتطلق سراحها.

نعم هو اليأس وليست سنه!

الأستاذ الحاصل على شهادة الدكتوراه من الولايات المتحدة الأمريكية الذي له في كل شهر عشيقة، لا يعلم كيف يحتوي ابنة الحسين البسيطة ولا يفهم معاناتها ولا يظنها تبحث سوى عن الجنس لأنها تخشى بلوغها سن اليأس!

أصبت يا رجل... هو اليأس... قتل كل شيء... أطفأ فيها كل شيء حتى ما بقي بين جفونها شيء تنام عليه إلا كف عمران من جديد.

كالمجنونة هذا الصباح بعدما خرج وحيد وتبعه ياسر إلى صديقه، شربت قهوتها وعلا نائمة في غرفتها. لم تحاول أبداً أن تستعيد ما حدث على فراشها بالأمس. دخلت مطبخها وأعدت طعام الغداء وهي تعلم ما تنويه وما قررته.

حادثت عمران بعد انتهائها من شؤون مطبخها وبيتها. حادثته بعدما أخذت حمامها وبدلت ملابسها. طلبت منه أن يحضر لها أشياء تريدها، وحين سمعت جرس الباب انتظرت أن تفتح له علا الباب وارتدت جلباب صلاتها فوق ملابسها وصاحت تخبرها أنها بالمطبخ وليدخل لها بما أحضره.

كانت تتظاهر بأنها تغسل بعض الأكواب حين دخل.

استدارت تنظر إليه وإلى جلبابه الأبيض النظيف، وأغمضت عينيها في ألم. وسيم هو أو هكذا تراه.

لم يرفع عينيه إليها بل قال في هدوء:

المشتريات... والفاتورة...

نفضت يدها من الماء وتوجهت إليه. في هدوء وحسم طلبت منه أن يجلس على ذات المقعد وهي تقول:

الضمادة يومياً.

رأته يغمض عينيه وهو يقول في صوت مرتعش:

نعم. هناك ممرضة أذهب إليها كل ليلة بعد انتهائي من أعمال العمارة.

هل تراه يخبرها هو أيضاً أنه لا يريدها أن تلمس كفه؟ شعرت أن قلبها يئن وانحنت تلتقط كفه كأنها تتحداه وتتحدى ابنتها التي تغني في غرفتها وقالت:

لا حاجة بك للذهاب... ساتولى أنا هذا الأمر.

لم تكن قد أحكمت غطاء رأسها، وكان عطر حمامها يهبّ حول وجهه، وبدأت تشعر بأنفاسه تفقد انتظامها وخوفها يعلو صوته في عروقها.

ماذا تفعل وماذا تريد؟!

حين أصبحت كفه عارية بين يديها رأت غرز خياطتها وقد أصبح لونها أفضل من المرة السابقة وقالت:

هل وصف لك مضاداً حيوياً؟

وفي هدوء قال:

نعم... وأتناوله بانتظام.

وضعت كفه على الطاولة ومرت بالمطهر عليها، ورفعت رأسها وهي تشعر بخصلات من شعرها تسقط حول حجابها.

اعتدلت لتخفيها عنه وهي تقول:

فلننتظر حتى يجف.

نهض يخبرها أنه سيكمل في غرفته، لكنها قالت كأنها ترجوه:

وحدك لن تستطيع.

هذه هي اللحظة التي تريدها.

تريد أن تتحسس باطن كفه بأصابعها مرة أخرى. تريد أن ترى هل حقاً ستشعر بكل ما شعرت به تلك المرة؟ ربما كرهت خشونة كفه. ربما تقززت منها وليتها حقاً تفعل!

بظهر أصابعها مرت على باطن كفه. وكما توقعت... دمعات صغيرة تكورت في عينيها تمنت معها لو أنها حقاً تضع شفتيها على باطن كفه وتقبّل هذه الكف السمراء الخشنة التي تُشعرها أنها ليست في سن اليأس ولا حتى اقتربت منه. هي امرأة كاملة لا تريد جنساً بل تريد لمسة وإحساساً وحناناً...

لم تقَبل كفه لكنها أخذت تدور حولها بطبقات الشاش التي كانت أعدّتها قبل حضوره في صمت.

كانت دمعاتها تنساب في هدوء وهي لا تعلم إن كان ينظر في وجهها أم لا يرى دمعها.

كانت تبكي لكن حتى دموعها ما كانت كدموع الأمس. وحين انتهت قالت:

غداً صباحاً تعود.

نهض كأنه لا يعي ما يحدث، وقال كأنه يذبحها:

استأذنت السيدة... سأذهب أنا وبدرية إلى الصعيد يومين قبل بدء امتحاناتها.

لم يمهلها حتى تفهم. لم يمهلها حتى تسأل كيف يأخذ ابنته وهي تراجع لها دروسها يومياً فامتحانات الشهادة الابتدائية بعد أسبوع واحد.

لم يمهلها شيئاً يذكر من الوقت، بل قال قبل أن يمضي كأنه يصفعها:

أريد زيارة قبر زوجتي. اشتقت إليها كثيراً!

مذ خرج وحده في هدوء وهي تبكي على هذا الفراش.

ملعون وحيد. هو وحده من صنع بها كل هذا. وحده من جعل عمران يهرب منها إلى قبر امرأة ميتة. لكن أليست هي أكثر من الموت موتاً؟!

لماذا يذهبان إلى الصعيد في هذا التوقيت؟! لماذا لم يخبرها إلا عند عودتها من المدرسة؟! نظرت بدرية إلى وجه أبيها النائم على مقعده إلى جوارها في القطار في خوف.

هل تراه علم أنها لم تكن في المدرسة هذا الصباح؟ هل علم أنها ذهبت إلى السينما مع ياسر ابن الدكتور وحيد؟

شهقت شهقة صغيرة حاولت أن يبتلعها صدرها حتى لا توقظ بضجيجها الغافي إلى جوارها.

يبدو أنه حقاً فعل، لهذا رفض رجاءها أن تصعد إلى السيدة مروة وتخبرها بسفرها. كادت تبكي وهي تقسم له أنها كلفتها بكتابة بعض التمارين وأنها ستسلمها إياها من على باب البيت ثم تعود إليه، لكنه رفض في حزم وأخبرها أنه سيصعد إليها مرة أخرى ليأخذ نقود المشتريات التي أحضرها لها ويخبرها. رفض حتى أن تصعد هي وتحضر له النقود.

هل يأخذها إلى "ملاوي" ليعاقبها على خروجها مع ياسر بعيداً؟

هل يضربها أو ربما يقتلها؟

لماذا يقتلها؟! ذهبت إلى السينما وتناولت قطعة من الكعك، وفي كل قضمة تذوب بين شفتيها كانت تتمنى لو تقتسمها معه ويتذوقها!

من يخبر ياسر أنها سافرت؟! قد يهبط إلى سلم التخديم ككل ليلة بحثاً عنها. ليتها كتبت له رسالة ووضعتها على تلك الدرجة التي يجلس عليها.

عادت تنظر إلى وجه أبيها وإلى عينيه المغمضتين. لماذا تشعر أنه ليس نائماً؟ قسمات وجهه ليس فيها استرخاء النائمين. وجهه غارق في الألم والحزن.

علم بما فعلته. شعرت أنها تختنق. لو كانت هذه النافذة مفتوحة لألقت بنفسها من القطار.

كيف تبرر له كذبها عليه وكيف تشرح له؟

كانت عيناها الصغيرتان اللامعتان حائرتين تتراقصان في عربة القطار حتى ارتطمت بالحقيبة الصغيرة التي أحضرها معهما وهدأت أنفاسها قليلاً.

لم يعرف شيئاً. نعم لم يعرف شيئاً. لقد اشترى بعض الهدايا لعمتها وزوجها وقطعاً كثيرة من البسكويت وشوكولا "كورونا" لأبنائها.

ما كان ليفعل هذا وهو غاضب منها أو ينوي قتلها.

انتفض جسدها وهي تسمع صوت موسيقى وتنبهت تنظر حولها لتجد الصوت آتياً من مذياع يحمله أحد

رفقاء الرحلة. شعرت به ينتفض إلى جوارها وعيناه تتسعان في دهشة.

ماذا أصابه؟!

كان يحدق وهو يستمع إلى صوت محمد ثروت يغني:

"لما تسلم عليّ حاسب على قلبي حاسب لحسن قلبي في إيديّ"

رأته يتلفت حوله قائلاً في ضيق كبير:

فضلاً، أغلق هذا الجهاز الملعون!

ليس في حالته الطبيعية. ما الذي يثيره في صوت أغنية؟ وأدارت وجهها إلى النافذة تحاول أن ترتب أفكارها وتعد ما ستواجه به ما سيفعله بها والدها الذي كان يراقب وجهها في حزن بالغ وهو يسأل نفسه ذات السؤال.

ماذا أصابك يا رجل؟!

حين حادثته السيدة مروة صعد إليها ليأخذ ثمن المشتريات. هي من فتحت له الباب. مدت كفها إليه بالنقود. كان وجهها غارقاً في الحزن، وما زالت آثار دمعاتها واضحة على جنباته.

لماذا تبكي كلما اجتمعت به؟ هل تشفق عليه إلى هذا الحد؟!

لماذا تنساب دموعها في كل مرة تضمد له جرح يده، ولماذا تصرّ على أن تفعل إن كان هذا يؤلمها إلى هذا الحد؟

لماذا يذوب قلبه كلما مرت بأصابعها الناعمة الجميلة على باطن كفه؟!

"أستغفر الله العظيم... أستغفر الله العظيم"...

في ذعر استدارت بدرية تسأله لماذا يستغفر الله.

أشاح بوجهه بعيداً عنها. ماذا يقول لابنته؟ ماذا يقول لصغيرة في الثالثة عشرة من العمر؟

يخبرها أن أباها... حاشا الله أن يقول أو يفعل.

شيء يتحرك في صدره كأنه أمواج تفور في عروقه.

السيدة أجمل من أن يحلم بها. هي زوجة الدكتور وحيد الذي يملك أغلى السيارات ثمناً في الشارع بل وربما في الحي بأكمله.

هي أنيقة... متدينة، وأيضاً تخرجت في الجامعة كما علم.

تسكن الأدوار العليا وهو تحت قدمي بيتها يقبع وابنته ينتظران إحسانها عليهما بالوقت والمال والكلمة...

كيف جُن إلى هذا الحد؟! كيف يتخيل أصابعها التي ترتعش على كفه تفعل إلا إشفاقاً عليه وعلى تشقق

يديه الذي لم يلتئم رغم الأعوام الطويلة بعيداً عن الفأس والمعول؟

هذه الأغنية اللعينة... متى تنتهي؟!

هل يصبح قلب الإنسان في كفه حقاً؟

هل شعر محمد ثروت بهذا الإحساس الذي يشعر هو به؟

حينما امتدت يده تأخذ منها النقود وعيناه تتجولان على وجهها الجميل وعينيها الدامعتين، لحظتها قال رغماً عنه:

سيدة مروة... أنت أطيب وأكرم وأحن نساء الدنيا.

تلك اللحظة التقت عيناهما حين نظرت إليه.

أنت تعلم أن شخصاً أمامك يبكي عندما ترى دموعه تهطل من عينيه، لكنه في تلك اللحظة رأى دمعها وهو يتكون ويسقط.

شعر بجسده الطويل يترنح كأنه يتمنى لو يقبل رأسها ويديها ويرجوها ألا تبكي.

كيف لسيدة جميلة رقيقة مثلها أن تبكي كل هذا البكاء ومن دون صوت؟

لكنه ما فعل شيئاً سوى أنه نكس رأسه ودخل إلى مصعد البيت ليمضي بابنته إلى القطار.

هل هو العشق؟! وهل يستسلم له؟

هو الجنون ويجب أن يقاومه. هي الخسة أن يفعل مع زيدان الذي يجزل له العطاء رغم تعاليه وغروره.

هي الدناءة أن يسمح حتى لخياله أن يحلم بها ويتنسم أنفاس امرأة تمنح ابنته الدروس والطعام والملابس من مال رجل يطعنه هو بكل نظرة يختلسها إلى وجهها ورأسها وجسدها.

ليس خسيساً ولا خائناً.

فقير... معدم... كفاه مشققتان لكن قلبه سليم ورأسه ما زال سليماً.

ليس عشقاً... هو فجور... هو شيطان لن يستسلم لأيهما. وفي ألم قال كأنه يئن:

دعينا نحيا في ملاوي. معي من النقود الآن ما يكفي لتأجير غرفة. سأعاود العمل لدى محرم بك. أرجوك لا تدعينا نعود. أريد الحياة بجوار قبر أمك.

شهقت بدرية في جنون.

هل يعلم؟ هل يذبحها لأنها ذهبت إلى السينما؟

لن تذهب إليها مرة أخرى. لن تذهب حتى إلى المدرسة. لن تفعل شيئاً ولن تأكل شيئاً ولكن كيف لا تعود؟

كيف لا تعود؟!

نظرت إليه في ذعر كبير ومن دون وعي منها بكت، ورأى دموعها تسقط كدموع مروة من دون كلمات... من

دون حرف واحد تنطقه، لكن في صدرها الصغير كان سؤال كبير يقتلها: من بعدها يجلس إلى جوار ياسر على سلالم التخديم؟! إلى من سيفضي بأسراره وحكاياه عن المدرسة... عن أخته... قسوة أبيه... بكاء أمه؟...

قرر والدها أن لا يعود بها إليه. لماذا أخذها إذن إليه؟

أخذ ينظر إلى دموعها في ذهول، والصغيرة تتمنى لو تجد كلمة تقولها، لكن ما عساها تقول وما عساه هو أيضاً أن يقول؟ كأنهما عبدان سقطا في غرام سيديهما، ومتى كان حتى الحديث والتعبير للعبيد والسبايا مباحاً؟

عند حمام السباحة الأنيق كانت كاميليا تجلس إلى طاولة مستديرة بجوار وحيدها في انتظار قطع الشواء التي يقوم عبد الهادي بإعدادها ويرفض أن يقترب أيهما منه أو منها.

كانت تنظر بطرف عينيها إلى ياسمين وهي ترتدي مايوه من اللون الوردي مطبوع عليه دميتها المفضلة "باربي".

كل شيء في رأس هذه الجميلة الصغيرة وقلبها له علاقة بهذه الدمية التي طال عمرها، ورغم هذا يعلو ثمنها وحب الفتيات لها.

كانت تسبح في الجزء الصغير الضحل من حمام السباحة الذي بناه عبد الهادي خصيصاً لها، وكيف لا يفعل وهي ووالدها وحدهما يجعلان لحياتهم ووجودهم على الأرض قيمة ومعنى؟

ابتسم عبد الهادي ابتسامة صغيرة وهو يراقب وجهها الباسم الجميل وتساءل: عندما يكون أولادنا صغاراً نتمنى أن تمر الأيام ليكبروا ونتنسم حياتنا وحريتنا ثم نستجدي عودة صغارهم وبقائهم معنا عندما نكتشف أن بهم وحدهم نتنسم الحياة!

كان كريم يجلس إلى جوارها وكفه تمسك بيدها في حنان، لكن عينيه وروحه مع قلبه تتابع الصغيرة في الماء.

أجمل طفلة. وكيف لا تكون وأمها من أجمل النساء وأبوها أيضاً أكثر الرجال وسامة وحناناً.

هم جميعاً سعداء. وحده ولدها ليس سعيداً لأنه دوماً يفتقد زوجته ووجودها، يفتقد فيها حنان كاميليا ودفء مشاعرها.

تشعر بالذنب؟! تشعر بذنب كبير لأنها، ومنذ طفولته، وحدها كانت تضمه كل ليلة وتهمس في أذنه أن الحب والعناق وكلمات الحب هي أغلى كنوز الدنيا.

أخطأت حين فعلت ذلك لأنها نسيت أنها ليست كل نساء الأرض. ندى ليست مثلها. جميلة، رقيقة، ومن عائلة طيبة. تحب زوجها، بل مجنونة به، لكنها لا تجيد العشق والعناق وكلمات الهوى. ليس هذا عيباً فيها. العيب في كاميليا التي جعلت من وحيدها قلباً لا يهدأ إلا بين ذراعين، ولا يغفو إلا على صدر ينبض بقلب لا يهدأ، وها هو يعيد القصة نفسها في هذه الجميلة الصغيرة.

ياسمين هي كاميليا جديدة وكريم آخر.

تكاد تقسم أنها ترى الصغيرة بعد أعوام زوجة لشاب رائع لكنه كندى لا تمنحه روعتها إلا بؤساً وشعوراً

بالوحدة والجفاف.

هي الحياة لا تجمع متشابهين ولا يقبل أحد أن يلاعبها بذكاء!

أفاقت من أفكارها وكفها ما زالت غافية بين أصابع ولدها على صوت زوجها يصيح:

كل شيء جاهز.

انتفض في لحظة ليذهب نحو أميرته الصغيرة، وأخرجها من حمام السباحة بعدما وضع حول جسدها النحاسي الصغير "برنس باربي" أنيقاً ثم حملها على ذراعيه كأنها هبطت من طائرة بعد رحلة طويلة، وغاب بها داخل البيت لتأخذ حمامها، ليعود بها بعد لحظات وقد ارتدت "شورت" جميلاً فوقه "تي شيرت" بيضاء أنيقة.

أجمل اللحظات هي التي يقضونها معاً. كم مرة رجت كريم ورجاه أبوه أن يبقوا معهم طوال فترة غياب ندى لكنه رفض بوضوح وتصميم.

لن تنشأ صغيرته كأمها، وحقيبة ملابسها دوماً مفتوحة تتنقل بها من بيت إلى بيت ومن مكان إلى مكان.

حين دق جرس الهاتف صاحت الصغيرة: "مامي"...

حادثت ندى الجميع فالجميع يحبها، وبعدما أنهت ياسمين قائمة ما تريده منها أعادت الهاتف إلى والدها

الذي أخبر زوجته الغائبة أن كل شيء بخير وأنهم في انتظار عودتها. أغمض عينيه في ألم وهي تهمس في أذنه أنها تحبه واشتاقت إليه.

حتى كلمات الحب والشوق تخرج من شفتيها في صورة أرقام ميزانية أو عدد أفراد فوج سياحي رغم أنه يعلم ويثق أنها تفعل.

الحب أحياناً ليس هو المهم، لكن الطريقة التي نمارسه بها هي التي تصبح أكثر أهمية!

حين تعلقت بعنقه وأحكمت ساقيها حول خصره، نظر في عينيها الرماديتين الجميلتين في عشق كبير وهمست في أذنه:

هادي... أريد أن أنام في حضنك.

استدار الرجل بوجهه الهادئ الوقور نحو ابنه كأنه يرجوه أن يقضيا الليلة عندهما، لكن ككل مرة أعاد كريم الجملة ذاتها وهو يمد ذراعيه يحمل ياسمين عنه:

لا أحد ينام خارج بيته أبداً.

ابتسم الجد في ألم وهو يطبع على خدها قبلة قائلاً:

كريم... أصبح الأمر أشبه بعقدة نفسية.

مال كريم يقبل والده وهمس في أذنه مبتسماً:

بل أريدها أن تكون عقدة.

في الطريق إلى البيت وياسمين تثرثر بصوتها الدافئ عن كل ما دار وحدث في بيت جديها، كان هو ينظر إلى

المقعد الخاوي بجواره. هو لا يسمح أبداً لابنته أن تجلس على مقاعد السيارات الأمامية. الخلف أكثر أماناً لها، ودوماً المقعد المجاور له خاوٍ.

لحظات ويصلان إلى البيت. هو يسكن في "الكومباوند" نفسه الذي يسكن فيه والداه. الذي اشترى فيه عبد الهادي سليمان فيلاه كما اشترى لوحيده أخرى ليكون قريباً منهما.

لحظات ويصل لترتدي الأميرة البيجاما الوردية ويضعها في فراشها وتبقى على كتفيه حتى تنتهي الحكاية وتنام، ليذهب هو إلى فراشه وينظر إلى الوسادة الخاوية ويتألم ككل ليلة.

كم مرة أخبره والده أن سفر زوجته وغيابها أجمل وأفضل وأن شوقه إليها أجمل. من يعلم لو كانت تغفو إلى جواره كل ليلة كما يريد لربما سكن أوصالهما الملل ودبت بينهما المشاكل.

يحاول أن يقنع نفسه بهذا، لكن شيئاً في قلبه يخبو ويموت تجاهها مع كل ليلة وكل شهر وكل عام تستمر فيه الحياة كما هي عليه.

لا هو يستطيع وقف هذا الموت الزاحف ولا هي تفهم وتقتنع!

إلى أين يا ندى... إلى أين؟!

لا أحد على وجه الأرض يعلم إلى أين أو إلى متى؟!

ألقت بهاتفها الصغير في ضجر إلى جوارها من دون حرف واحد تقوله، وما عساها تقول؟ كلمات ناصر واضحة. هي حمقاء كبيرة.

أضاعت نقودها ستة أعوام هباء. بل تخلت عن حلمها الكبير هباء. كيف نسيت الموت وكيف نسيها؟ تكاد تقسم أنها في الأعوام الستة الأخيرة كانت أكثر شباباً من صباها.

كل هذا كان وهماً كبيراً. أخبرها أنها حمقاء، وأنه كان يراقبها وهي تتبع طفلة صغيرة لتصنع منها شيئاً له قيمة، وها هي الطفلة لن تعود. أخبرها أن عمران حادثه معلناً أنهما لن يعودا إلى القاهرة مرة أخرى. كان سعيداً وهو يتحدث في شماتة جلية.

لم تصنع شيئاً سوى أنها أضاعت نقوداً هو وزوجته أولى بها.

في تثاقل شديد نهضت عن مقعدها وخطت نحو نافذة غرفتها تنظر إلى شارع الدكتور أحمد الحاسب. لن تعبره بدرية مرة أخرى. لن تقف أبداً خلف هذه النافذة وتراها من الدور الرابع تخطو لتحضر لها شيئاً أو حتى لتختفي عند النيل وتستذكر دروسها هناك.

لم تصنع شيئاً.

لكنها تشعر أنها صنعت أشياء... بدرية وأبوها لا يملكان وحدهما القرار.

يوم جاءت كانت ترتدي جلباباً مزركشاً يعلو بنطلوناً كالح اللون تحتمي بساق والدها، واليوم هي أنثى صغيرة تقرأ وتكتب وترتدي ثياباً أنيقة.

هي صنعت كل هذا ومروة أيضاً معها. لهذا ليست ملكاً لنفسها أو لأبيها فقط. مصيرها ليس قرارهما وحدهما.

هل تستسلم لجنون أحمق مثل عمران، أم تراها هي الحمقاء فعلاً كما ألمح لها ناصر على التليفون؟!

تعلقت أصابعها بستائر نافذتها. تشعر أنها تكاد تسقط. شاخت مرة أخرى كأن اليتيمة وحدها أحضرت معها الروح والقوة وعادت بهما إلى الصعيد.

خرجت بها ومعها. ذهبت إلى الكنيسة والمحال والشوارع. قرأت كتب المدرسة وراجعت مع مروة اختباراتها. علمتها كيف تصنع البسكويت والقراقيش التي يحبها ياسر وأمه.

أشعلت الصغيرة في بيتها حياة وفي جسدها روحاً ليس من حقها أبداً أن تأخذ وحدها القرار وتضعهما في قطار الصعيد وتحرمها كل شيء.

لن تستسلم... هذه المرة ستأخذ قراراً كبيراً، ليس بالخروج إلى الكنيسة أو الذهاب إلى مدرسة بل قرار بالحياة. تريد ألا تموت وإن ماتت فلن تموت أبداً لأن صعيدياً جاهلاً قرّر أن يهدم صرحاً شيّدته وحلماً عاشته وأملاً أحياها.

لن تضيف إلى أسماء قتلتها إسماً جديداً.

أبداً لن تسقط. ستذهب إلى الصعيد وتعود بها.

مرة واحدة ستفعل شيئاً كبيراً.

في خطواتها المتراقصة سارت نحو باب البيت ستأخذ جارتها معها وتذهب.

بعد وقوفها بباب جارتها لحظات طويلة لم تجب فيها أو تفتح، أخرجت هاتفها من حقيبتها تطلب رقمها. لكن هل تخرج من دون أن تخبرها؟

هل حقاً تغير كل شيء فجأة وفي لحظة؟ لماذا لا تجيب، بل كيف لا تجيب؟ ألا تعلم أنها وحدها في البيت الخاوي إلا من أنفاس محب التي ما زالت تخنقها؟

ما زالت لا تجيبها. ألا تخشى أن يكون مكروه أصابها وهي وحدها في هذا العقار، خاصة بعد سفر عمران وابنته؟

تحالف الجميع ضدها. هل تعود إلى بيتها وتخلع ثيابها وتجلس على مقعدها تنتظر عودتها؟ أم تعود هي

وتنساهم جميعاً؟

كل شيء كان في جسدها يفور... كل شيء. وللمرة الأولى بعد أكثر من ستين عاماً يدعوها لأن تفعل شيئاً كبيراً وستفعل.

في هدوء توجهت إلى مصعد البيت. ستخرج. ستأخذ سيارة أجرة وتذهب إلى محطة مصر لتستقل قطار الصعيد المتجه إلى ملاوي.

انتفض الجسد الخائف!

الصعيد؟ ملاوي؟ وحدها؟!

وإن وصلت، فكيف تهتدي إلى بدرية؟ عمران ترك الهاتف في الغرفة. هكذا أخبرها ناصر. ما زال أمامها طريق.

نعم... محرم بك هو من أرسله إليها وهي تعرف رقمه وتحتفظ به على هاتفها.

إن وصلت إلى ملاوي ستحادثه من محطة القطار ليأخذها إليهم.

إن لم تصل إلى ملاوي ستموت... ما الفارق؟

حتى الموت سيكون أجمل لأنها ستلقاه وهي تفعل شيئاً وتنفذ قراراً وتحاول إحياء فتاة صغيرة يحاول أحمق أن يجعل منها نادية أخرى.

حتى لا تحتاج إلى مروة معها.

معها نقودها وهاتفها وعقلها وما بقي من صحتها.

مرة واحدة في العمر ستفعل بها شيئاً تريده. شيئاً تؤمن به إيمانها بالرب والمسيح!

على أحد مقاعد الدرجة الأولى ألقت بجسدها في إنهاك شديد. كان يجب حقاً ان تستمع إلى نصيحة والدها وتسافر في الغد. كان يوماً طويلاً وشاقاً لكنها أصرّت على أن تكون هذا المساء بين ذراعيه.

حتى هو نفسه طلب منها ألا تعود حتى الغد عندما أخبرته كم هي متعبة منذ الصباح الباكر، لكن شيئاً في صدرها كان أقوى من الإرهاق.

شيئاً في عروقها يريد العودة إليه.

ليست القضية أن غداً عيد مولدها. قضت هذا اليوم بعيداً عنه في أعوام كثيرة سابقة وحدها. ليست طفلة حتى تقيم احتفالاً وتدعو ضيوفاً وتتلقى هدايا.

القضية أنها تريد ذراعيه. تريد أن يضمها إلى صدره وربما يأخذها إلى جسده.

لماذا لا ينتقل للحياة معها في دبي؟! عرض عليه والدها منصباً كبيراً. والده لا يحتاج إلى وجوده لكن والدها يحتاج إلى كليهما. حجم شركاته أكبر ومشاريعه أكبر في اتساعها ورأس مالها.

ما الذي يعجبه في الحياة على أرض مصر إن كان دوماً يردد أنها وحدها من تجعل لمصر لوناً ومذاقاً

ورائحة؟

زوجها طفل كبير... لكنه حبيبها. تتعامل مع ألف رجل كل يوم. رجال من مصر ومن دبي والخليج وأحياناً كثيرة من الغرب.

تعلم أنّ ما من رجل في نقائه وحنانه وأيضاً عناده وثباته على آرائه وتمسكه حتى بأخطائه.

أخبرها أنه لا يفرض عليها رأياً، وهي تعلم أن أزواجاً كثيرين يفعلون لكنه ما عاملها يوماً على أنها زوجة. هي امرأة وشريكة كما يقول دوماً، لها حق القرار كيف شاءت ولكن بعد الحوار والمناقشة.

أعوام ومناقشتهما لا تهدأ. هو يريد عودتها وهي تتمنى اصطحابه معها.

كل شيء هناك أجمل وأسهل.

كيف لا يفهم أن عودتها مستحيلة حتى إن أخبرها والدها أن في إمكانه تسيير الأمور وحده. ليست أموراً. هي صرح واستثمارات بالملايين. هي تاريخ ومؤسسات. كيف تتخلى عن كل هذا، وكيف لا ينضم زوجها إليها ويساندها؟ في النهاية كل هذا سيكون ملكاً لها وله ولابنتهما.

ياسمين!

كم مرة أخبرها أنه يتمنى لو يصبح لياسمين أخ أو أخت. فكلاهما علم معنى أن يكون طفلاً وحيداً.

أشاحت بوجهها الجميل إلى نافذة الطائرة في هدوء، وأغمضت عينيها في ألم.

كيف يمكنها أن تنجب طفلاً جديداً؟

كيف تكون حاملاً وتنتقل بين الفروع وترتاد الطائرات وتترأس الاجتماعات؟

وكيف تضع طفلاً وتتركه رضيعاً بين يدي زوجها ووالدته وتغلق حقيبتها الصغيرة وتمضي؟

حتى إن أصبحت الحال كما يريد أن تكون، لن تنجب أبداً بل ربما هي حقاً لا تريد الإنجاب.

الأطفال عبء كبير. أكبر من أن تضمه إلى أعبائها.

نعم لديها من النقود ما يكفي لتعيين فريق كامل يهتم بعشرة أطفال، لكن ليست لديها الرغبة أبداً، ولا ترى في إنجاب أكثر من طفل واحد في الأسرة شيئاً سوى جنون وحماقة، ويبقى زوجها لا يرى هذا ولا يفهمه.

الشركاء في أي مكان يفسدون المكان حتى إن كانوا أطفالاً وأشقاء.

طفل واحد يأخذ كل الاهتمام ويرث كل ما يملكه أبواه ويسّيره كيف شاء من دون تضارب بينه وبين أشقائه. في النهاية تضيع الثروة والحب!

لو لم تكن هي طفلة وحيدة في حياة أبيها ما نجح هذا النجاح وما استطاعت هي التحكم في زمام أمور

عمله بهذا التفوق.

حتما كانت ستضيع الأمور بين الأشقاء وتتمزق الآراء ويسقط والدها تحت ضغط إرضاء كل شقيق على حساب الآخر، بل وعلى حساب صفاء ذهنه واهتمامه بعمله.

حتى زوجها نفسه لو لم يكن ابناً وحيداً ما حقق والده نجاحاً ولا استطاع فتح شركة، ولا حقق رصيداً أو ثروة.

هو وعائلته لا يشعرون بالألم لشيء قدر عجز كاميليا عن إنجاب طفل سواه ولا يحلمون بشيء سوى أن تنجب هي أطفالاً سوى ياسمين.

لن تنجب مرة أخرى وستبقى تعمل وتنتقل وتحاول أن تقنعه بالسفر معها، لكن هذه الليلة هي فقط تريد أن ترتمي بين ذراعيه.

شوق غريب يجتاح صدرها، وحاجة كبيرة إلى لمساته الرقيقة الحانية عليها.

ما زالت تحبه كأنها حقاً ما خرجت من رحم أمها بل من أحد أضلعه خلقت من دون رجال الأرض جميعاً.

فقط لو يرى الحب كما تراه. لو يفهم الحياة كما تفهمها هي.

تسللت بعينيها إلى ساعة يدها "الشوبار" الأنيقة في هدوء.

اقتربت الطائرة من مصر، بل اقتربت الطائرة من ذراعي رجل تتمنى لو تتمكن من رأسه كما تمكن كلاهما من قلب الآخر، لكن يكفيها حبه ووفاؤه. يكفيها أن تجده دوماً مفتوح الذراعين وفي انتظارها وحدها من دون شريك في قلبه وأيامه هو وابنتها!

أحيانا يحتد عليها. أحيانا يصيح ويلقي بكلمات ثائرة مجنونة، لكنها تعلم أن ما من امرأة على الأرض سواها بيدها مفاتيح قلبه، وهل هناك حقاً امرأة في جمالها وبصيرتها وعقلها؟! وأيضاً حبها واحتمالها لطفولته التي لم تفارقه لحظة بعدما أصبح رجلاً قارب منتصف الثلاثين من العمر؟

اشتاق إلى زوجته! هي أيضاً اشتاقت إلى والدها.

لو كانت زوجته على قيد الحياة ما عرفته ولا رأته، ولو كان والدها هي حياً ما كانت رؤية هذا البواب الأسمر ستشكل في حياتها أي فارق.

لماذا مات والدها وتركها وحدها وحيدة لا أب ولا عائلة ولا نقود ولا حتى بيت يضم أشلاءها؟

كيف سقطت بهذه السهولة أمام كف بواب شعر منها بالاشمئزاز حتى أخذ ابنته لزيارة قبر زوجته؟

أين تذهب ولمن تشكو؟ منذ الصباح الباكر، وبعد خروج زوجها وولديها وهي تتجول في حي الحسين وبالتحديد في الجمالية حيث ولدت ونشأت.

تعبت ساقاها من المشي وتعب قلبها من خجله منها وتعبت عيناها من البكاء.

وقفت كالغرباء أسفل البيت الذي نشأت فيه.

استردت مالكة البيت تلك الشقة الصغيرة التي كبرت فيها مروة بعد وفاة والدها المفاجئة.

رجتها كثيراً أن تترك لها البيت. أخبرتها أنها ستمنحها كل ما ادخرته من عملها في أمريكا لقاء أن تترك لها

البيت، لكن سعاد أخبرتها أنه القانون والحق. هي زوجة وتركت البيت منذ أعوام طويلة.

الخمسون ألف جنيه التي تملكها لا تساوي ثمن غرفة في حي الحسين.

أين تذهب؟! في النهاية ستعود إلى زوجها. ستعود إلى سيدتها علا وحبيبها ياسر وأيضاً إلى رؤية عمران بعد عودته.

لمَ تجلد نفسها إلى هذا الحد؟ لم تفعل معه شيئاً. مشطت كفه بأصابعها.

شعرت برعشة تسري في أوصالها.

إلى أين تأخذها قدماها؟ إلى جامع الحسين، المسجد الكبير الذي قضى فيه والدها أعواماً يخطب في الناس ويقيم فيهم الصلاة ويعظهم بالخير والحب؟

آه لو تستطيع الوقوف على المنبر ذاته الذي وقف عليه والدها أعواماً لوقفت وصاحت حتى يصل صوتها إلى السماء.

في داخل المسجد الكبير كانت تقف وتصلي، وحين انتهت من صلاتها سمعت صوته يخرج من صدرها.

صوت رفعت يتلو آيات قرآنية "قل يا عبادي الذين أسرفوا لا تقنطوا من رحمة الله... إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم".

هي لم تسرف.

ما زالت بنقائها... تلك الكف لم تثر فيها أكثر من الرثاء لنفسها وحالها.

ليتها ما كبرت. ليتها بقيت تلك الطفلة الصغيرة التي كثيراً ما دخلت هذا المكان الطاهر لتبحث عنه ويمسح على رأسها بكفيه.

ليتها ما تزوجت ولا أنجبت ولا عرفت لون الحياة خارج هذا الحي الذي يكرهها وحيد فقط لأنها ابنته.

حائرة... تائهة لكن علمها والدها أن هناك طريقاً مفتوحاً لا يغلق.

هناك كبير لا يهدأ ولا تنام عيناه عن الضعفاء لحظة واحدة. كبير يحب من يخطئ لأن الخطأ وحده يوقظ الضمير، وسقطت تسجد على أرض المسجد الكبير وهي تهمس:

"إن رحل والدي... إن ظلمني وحيد وظلمتني نفسي وأغوتني، فأنت باق لتهديني ومن ضلالها تنجيني!"

خذ بيدي يا الله!

هي المرة الأولى في كل شيء لو تجاوزناها لما عاد هناك صعب. كالقبلة الأولى واليوم الأول في العمل، في الزواج، في الألم، بل ربما في الخطايا.

وحدها الخطيئة الأولى أصعب الخطايا. ما يليها يأتي سهلاً أو على الأقل أقل ألماً وخوفاً وتأنيباً.

كيف تأخرت المرة الأولى إلى هذا الحد؟!

كيف جاءت في نهايات العمر؟ لا يهم. كان من الممكن ألا تأتي أبداً وتغمض عينيها إلى الأبد من دون أن تفعلها.

لم يكن الأمر صعباً. كان أسهل من أشياء أخرى كثيرة ظنتها السهولة بعينها.

سفرها إلى ملاوي وحدها. وصولها إلى هناك، وحتى التقاؤها عمران كان أسهل من حياتها مع محب وجيه.

تحررت من الخوف. من الغد ستخرج وحدها. من الغد ستفعل أشياء تمنت أكثر من ستين عاماً لو تفعلها... سقطت دمعة صغيرة على خدها وهي تراقب نافذة القطار في طريق عودتها إلى القاهرة.

هناك أشياء تأتينا الجرأة لصنعها لكن بعد انقضاء أوانها.

لو دخلت بدرية حياتها منذ أعوام... لو أحبتها منذ عشرين عاماً وخرجت إلى الصعيد وحدها للبحث عنها وإعادتها لعرفت أن الصعب والمستحيل هما فقط ما يصنعه الخوف وضياع الثقة.

لو جاءت اليتيمة منذ عشرين عاماً لتركت زوجها، أو على الأقل، لرفعت هي عينيها ونظرت في وجهه مرة واحدة وهو يملي عليها تعليماته وقالت كلمة واحدة ما قالتها يوماً.

لكن ما زال في عمرها بقية يعلمها الله. كل لحظة فيما هو آتٍ ستفعل فيها شيئاً تريده.

وحدها من دون خوف. وحدها من دون حاجتها إلى يد تمسك بيدها أو لسان يؤكد عليها أن ما تريده ليس خطأ أو خطراً أو مستحيلاً.

كان الأمر سهلاً وعلمت أنها حمقاء.

وصلت إلى ملاوي. حادثت محرم بك صديق المرحوم الذي قتلها زمناً. وصلت إلى بيته وأرسل في استدعاء الأحمق الذي جاءها يبكي.

أخبرها أنه لا يريد العودة، لكن ابنته محمومة تكاد تموت مذ علمت بقراره. أخبرها أنه يراها تكبر وتزداد شباباً وجمالاً وقوة بينما يزداد هو وهناً وضعفاً.

المدارس التي أرسلتها إليها نادية ومروة ستفسد ابنة الصعيد وقد لا يقوى على إصلاحها.

المجنون سقطت دموعه وهو يقول إنه هو نفسه رجل الصعيد الكبير يشعر أنه بدأ يفقد نفسه وقدرته على السيطرة عليها.

كيف تنسى صوتها وهو يهدر في قوة عندما صاحت في وجهه تخبره أنه لا يملك بدرية.

أنجبها لكنه لا يملكها. لن تتركه أبداً يجعل منها مجرد تابع له ثم تابعاً لرجل آخر يضعها في يده ليقتلها كما فعل وجيه يوماً.

أخبرته أن ابنته من حقها أن تريد وتختار وتقرر ما دام كل ماتريده يقرّه الله والعقل.

يحرمها من العلم الذي يدعو إليه الله والمنطق. يحرمها من السيدتين وقد وضعهما الله في طريق الصغيرة لتأخذا بيدها.

من هو ليفعل؟ من هو ليراها محمومة ترفض ما صنعه بها ويكتفي بالحيرة والبكاء؟

أنجبها لكنه لا يملكها.

متى نفهم ألا أحد على الأرض يملك أحداً؟

بقيت تتحدث وكانت سعيدة بصوتها، منتشية بكلماتها.

لم تتركه حتى وعدها بأن يعود في الغد ومعه بدرية.

هي من ربتت على كتفيه قبل خروجه من دار "محرم بك" في قوة قائلة:

لم تعد بدرية ابنتك وحدك. هي ابنتي وابنة مروة. فوق كل شيء هي إنسان له كل الحق في الحياة والعلم. هيأ لها الرب الفرص. عمران لا تخف. حتى اللحظة الأخيرة في عمري سأبقى معها!

لا قوة كتلك التي نشعر بها عندما نشدّ على كفّ تائه.

اليوم فقط أدركت أن محب الذي تخيلته ما يقارب النصف قرن عملاقاً مخيفاً، كان قطاً ضئيلاً جباناً لأنه عندما لم يستطع احترام انسانيتها قتلها!

نظر إليها في حب وهي تفتح ذراعيها وتضمه إلى صدرها قبل عبوره الباب. هي أيضاً حزينة، بل ربما كانت أكثر منه حزناً، يعرف بدرية أكثر منها. يعرف أنها ستعود. طالت الأيام أم قصرت ستعود. يثق في قوتها وقدرتها على الإمساك بزمام الأمور وتعديل جميع مسارات تفكير والدها. ما كان يحزنه فقط أنها قد لا تلحق باختبارات الشهادة الابتدائية، لكن أخبرته والدته في الصباح عما فعلته نادية وأنها عائدة اليوم.

كم يتمنى ألا تعود وهو في المدرسة. يريد أن يراها لحظة دخولها العمارة كما رآها منذ ستة أعوام.

لماذا أمه حزينة إلى هذا الحد؟!

كم مرة أخبرها في غياب الصغيرة أنها أقوى مما تتخيل، لكن هو نفسه ما التقط أنفاسه إلا حين عادت نادية بخبر عودتها.

عاد من جوار باب المصعد إليها حيث ما زالت على باب البيت المفتوح تقف مكانها تنتظر خروج علا التي مرّت من جوارها من دون قبلة أو تحية، بل أخذت تصيح وتطلب منه أن يعود ليدخل معها المصعد لكنه طبع قبلة ثانية على وجنة أمه قائلاً:

عند عودتي سأجد تلك الابتسامة الجميلة على هذا الوجه الجميل. هل تفهمين؟!

انتفض جسدها لسماع الكلمة الأخيرة في شيء يشبه الذعر.

ما عادت تفهم شيئاً. ما زالت تتذكر الأشياء في خوف كأنها لا تصدق أن كل هذا يحدث لها ومعها وبها وهي لا تفهم أو تعلم.

حين ألقت بجسدها على مقعدها داخل البيت أخذت تستعيد أحداث المساء المتأخرة. كان صياح ناصر أمام باب عيادته مجنوناً عالياً حين رأى أمه تدخل في حوالي العاشرة مساء.

كانت هي ووحيد معه في العيادة لا يعرفون من أين يبدأون البحث عنها.

شعرت أن زوجها وناصر يلومانها لأنها خرجت إلى الحسين من دون أن تخبر نادية. شعرت أنهما يحملانها مسؤولية ضياع المرأة أو ربما موتها إن ماتت، وخصوصاً عندما أخبرتهم أنها وجدت رسائل باتصالات عديدة منها في الصباح.

لماذا تتحمل وزر كل شيء؟! ألا يكفيها يقينها بأنها المسؤولة عن غياب بدرية وعودة أبيها بها إلى الصعيد؟ ألا يكفيها إحساسها بمسؤوليتها عن خروجها عن النقاء

والطهارة باشتهائها حارس عمارتها وتحسس كفه الجريح بجوعها وشعورها بالضياع؟

حتى غياب نادية يلقون به على كتفيها؟

عادت الغائبة في العاشرة لتدخل عيادة ولدها وتجد الثلاثة في صالة انتظار المرضى غارقين في الحيرة والألم.

حين رآها ناصر لم يضمها. لم يقل كلمة واحدة تعبر عن حب ابن أو خوفه على أم هاتفها مغلق وغابت يوماً بأكمله وحدها وهي التي تحتاج إلى من يضع قرص الدواء في كفها.

صاح يتهمها بالجنون. صاح يشير بكفه إلى مروة وزوجها يسألها إن كانت سعيدة بهذا الذعر الذي سببته للجميع.

نهضت مروة عن مقعدها وحاولت أن تعانقها لكنها انفجرت كعاصفة تخبره أنها لا تريده ولا تريد مخاوفه. لا تريد أبداً إبناً غابت أمه فقام بعقد اجتماع لجيرانها في صالة مرضاه.

هل فكر حتى بالتجول بسيارته في الشوارع بحثاً عنها؟!

هل استغل وظيفته كطبيب ليجوب المستشفيات أو حتى يطرق باب المشرحة سؤالاً عن جثتها؟!

صاحت في وجهه طويلاً وكثيراً. قالت أشياء كثيرة عنه وعن زوجته وعن إرث برودة قديمة وتسلط عجز عن ممارسته على أحد سواها.

كانت تصرخ في جمل واضحة وقصص قديمة وجديدة تصوبها إلى صدره من دون نسمة أمومة واحدة.

وقفت بالأمس تسمع وتراقب وتتمنى لو يأتي اليوم الذي تفعل فيه ما فعلته نادية.

تمنت لو أمسكت بتلابيب زوجها الماجن وألقت في أذنيه بكل ما تريد أن يعرفه، وعلى رأس كل القصص قصتها مع عمران.

لكن نادية أقوى منها. نادية أفرغت كل ما في جعبتها وأخبرت وحيدها أنها لا تريد أن تراه، وأنها تمنحه ثلاثة شهور ليجد لعيادته مقراً آخر.

أخبرته وهي تتوجه نحو المصعد أنها تملك العمارة وهو لا يملك فيها شبراً واحداً، ولا حتى عقد إيجار لعيادته.

نادية أقوى لكنها ما عرفت أنها قوية إلا بالأمس.

مروة تعرف أنها ضعيفة. لو أفرغت ما في صدرها يلقي بها زيدان إلى الشارع.

حتى عندما حاولت اللحاق بها رفعت كفها تخبرها ألا تدخل معها المصعد وأن تنتظر زوجها ليذهبا إلى بيتهما.

أخبرتها في هدوء وثقة أنها ستنام وتراها في موعد الصباح.

كانت هادئة واثقة لأن لها بيتاً وجدراناً تضمها.

أما هي فما عاد لها شيء بعد رحيل والدها.

ما عاد عندها سوى ظلم وحيد وتسلط شيطانها عليها واشمئزاز عمران وهربه منها.

ألقت بوجهها بين كفيها تبكي في جنون. لم تفعل شيئاً يستحق هذا العذاب. وحيد يتمرغ بين أجساد النساء ولا يتألم.

ربما أبناء "الحسين" وحدهم من يعرفون هذا الذي اسمه "الألم"!

ملَت بكاءها وأفكارها وتسرّب الأيام من كفيها. لم تنم لحظة واحدة كأنها تخشى أن تغلق عينيها فتغيب عنها صورة نادية وهي تصرخ في وجوههم بذاك الإصرار والثقة.

من أين تأتي الثقة بالنفس؟ من أين يأتي الإصرار وهدم جدار الخوف؟

من اليأس والألم.

هل هناك امرأة يائسة أكثر منها؟ لا أمل لديها في زوجها أو ابنتها. لا ألم أكبر من ألمها وهي تدخل فراشها كل ليلة إلى جوار رجل تعلم أنه يتنقل بين أجساد النساء لتغسل له ملابسه وتمتد أصابعها لتأكل من طعام

بنقوده اشترته وبدمها ودمعها طهته وسكبته في الصحون.

أيَ ألم على الأرض أكبر من ألم امرأة تستجدي لمسة من كفَ بواب العقار الذي تسكنه؟

أيَ ألم يذبحها عندما تذكر كيف حمل الرجل ابنته التي تحبها ليحرمها مدرستها وحياتها ويلقي بها من جديد في قلب الصعيد حيث لا أحد يحنو عليها سوى الوقوف بقبر أمها؟

أيَ يأس وأيَ ألم تريدين أكثر يا مروة لتنفجري كما انفجرت نادية؟!

سيريحها كثيراً أن تنفجر، لكن ما يشغل بالها أين تذهب بأشلائها بعد الانفجار؟

مات أبوها ولم يعد لديها غرفة تستطيع أن تبعثر فيها شظايا اللغم الذي في صدرها.

انتفض جسدها وهي تسمع جرس الباب يدقَ، وحين تحاملت على ساقيها وفتحته كانت أمامها تبتسم قائلة:

صباح الخير. هل تناولتِ قهوة الصباح؟!

لم تفسح لها الطريق. لم تضمها. لم تفعل شيئاً سوى أنها بقيت تحدق في وجهها.

من أين جاءت بهذه القوة؟

في هدوء أزاحت ذراعي مروة عن الباب ودخلت تقول:

ما زلت غاضبة مني؟! كنت متعبة. كان الحزن يقتلني بحمى الصغيرة وعناد والدها.

حين وصلت إلى مقعدها استدارت تنظر إلى مروة التي ما زالت على الباب تقف وقالت في دهشة:

ما بك حبيبتي؟ هل حدث شيء؟ هل خابرتك بدرية؟ هل أخلف أبوها وعده؟ ألن يعيدها؟ ما بكِ؟!

أغلقت اليائسة بابها وتقدمت نحو الزائرة في هدوء وانثنت على ركبتيها أرضا لتنظر في عينيها بذهول قائلة:

هو لن يعيد بدرية. ضاعت الصغيرة. الرجل هرب مني أنا يا طنط نادية.

ابنة ذاك الرجل الجليل إمام مسجد الحسين هرب حارس عقارها بابنته خوفاً منها. لأني غازلته. هل تظنينه يسلم ابنته لي. هل يأتمنني عليها؟! أنا من أضعت مستقبل الصغيرة التى تحبين... أنا!

أجهشت في البكاء على ركبتي السيدة التي وضعت كفها على شعرها في ذهول تربت عليها وهي تتمتم:

أدركينا يا عدرا... أدركينا!

يبدو أنه القطار ذاته والنافذة ذاتها، لكن لا هو هو ولا هي هي.

بدرية تنتفض. ما زالت تعاني من الحمى. ماذا فعل بها حين أخبرها أنهما لن يعودا، وماذا فعل بها حين أخبرها أنهما عائدان بعد زيارة الأمس؟

يعلم أن نادية على حق. هو جاهل لكنه ليس أحمق.

ابنته في غرفة الحارس حالها أفضل من ملاوي. توردت. تفتحت. أصبحت تعرف كيف تقرأ له أظرف الرسائل التي ترد إلى سكان العقار. أصبحت تحلم. حتى أنها حدثته عن ذهابها يوماً إلى الجامعة.

بدرية تذهب إلى الجامعة؟

كيف قرر أن يحرمها كل هذا ولماذا؟ حاول في أسبوع بقائهما في ملاوي أن يحمل الفأس، لكن الفأس أنكرته. ما عادت ذراعاه تقويان عليها. اعتادتا حمل الأكياس والمشتريات وأدوات التنظيف.

ستة أعوام لم يرشق في التراب فأساً فكيف ظن أنّ في إمكانه أن يعود ولا تخونه ذراعاه؟

نكس رأسه في هدوء كأنه كان في انتظار كلمة من نادية أو الدكتور ناصر ليعود.

صفية وزوجها بدآ يتململان من وجوده هو وبدريته في دارهما. اعتاد مصر. اعتاد رائحة ترابها وشوارعها حتى قبر زوجته ما عاد يغريه البقاء أمامه أكثر من دقائق.

لكنه خائف... خائف حتى الموت.

بعينيه رمق كفه الجريح. ما زالت آثار ندبات الخياطة واضحة المعالم عليها، لكن أصابع السيدة مروة ودمعات عينيها تقتلع روحه من جذورها ليكره عودته إلى الروضة ويتمناها في الوقت نفسه.

لا يريد أبداً أن يواجه نفسه بما حدث.

لا يريد أن يصدق العبث الذي يدور في صدره ويحاول شيطانه أن يقنعه به.

السيدة حانية طيبة تشفق عليه وعلى ابنته.

يوم بكت. يوم مشطت باطن كفه بأصابعها البضة الناعمة، فعلتها إشفاقاً، لكن لدناءته أصبح بها هائماً.

كيف ينظر إلى وجهها؟ كيف يمد أصابعه ويأخذ من زوجها ما يتركه له من إكراميات ونقود؟

لا... لن يعود إلى عمارة الروضة.

رفع وجهه في ألم إلى ابنته. سيخبرها أنهما سيذهبان إلى أحد العقارات تحت الإنشاء في الشارع الموازي لعمارتهما.

ألحّ عليه مالك العقار أن يعمل لديه. أخبره أنه سيضاعف له الأجر الذي يأخذه، لكنه رفض.

من هناك يرعاها ويوإليها؟!

عمارة السيدة نادية آمنة لا شيء فيها يخشى منه على ابنته التي بدأت تصبح امرأة.

في اللحظة ذاتها التي نظر فيها إلى وجه ابنته أغلق شفتيه قبل أن يفتحهما.

ستتهمه نادية بالدناءة والخيانة إن فعل.

سيحرمها من موالاة مروة لها. لن يخذل ابنته.

سيقتلع عينيه بأصابعه إن هما ارتفعتا في وجه حرم الدكتور زيدان.

حرام أن يحنو أحد على من هم مثله لأن كل من هم على شاكلته إن حنوت عليهم فجروا.

"بواب" أنت تنحني لتمسح تراب أحذيتهم. أبداً لا تنس.

كأن ناراً اندلعت في قلبه وهو يتخيل حذاء مروة يعبر مدخل البيت. حتى آثار حذائها تثير في قلبه ورأسه الجنون. ومن دون وعي منه صاح كأنه يستغيث:

بدرية!

استدارت بوجهها المرهق الغارق في آثار الحمى والشوق والخوف تنظر إليه.

هي أيضاً لا تصدق أنها تعود. بكت كثيراً وصرخت كثيراً حين أخبرها بقراره. عمتها صفية صفعتها على وجهها وهي تخبرها أنها ستعود وإن اضطرت للعودة وحدها.

سقطت بعد تلك الصفعة مريضة محمومة. لم تخبر أباها.

رغم غضبها منه إلا أنها لن تعترف بيدٍ أذلتها أو أذلته وإن كانت يد أخته.

على مقعد القطار تجلس، وبيدها اشترت تذكرتي العودة، لكنها ما زالت لاتصدق أنها ستعود إلى كتبها وأقلامها ومدرستها وامتحاناتها القادمة بعد ليلة واحدة.

لن تصدق أنها عادت إلا حين تراه.

معه تعلم أن كل شيء أصبح بخير.

ياسر هو المدرسة والأقلام والنجاح... هو كل شيء!

هل افتقدها؟ هل هو من أقنع السيدة بالسفر إليها؟ لو أنها فقط تجده على رصيف محطة القطار لو تجده لاستردت قوتها وجفت دمعتها...

عاد صوته يهزها وهو يكرر: "بدرية"...

اقتربت بجسدها من مقعده ومدت كفها الصغيرة إلى يده وقالت:

صدقني... ما عاد لنا سوى غرفة الروضة... وحدها ولا شيء سواها!

حتى عمي واصف كان يكره بقاءنا لديهم. عاهدني. فلتقسم لي برحمة أمي أن تتركني أنهي تعليمي. ضربتني عمتي لأني فقط قلت أريد العودة إلى المدرسة. وروح أمي لا تأخذني يوماً إليهم أبداً!

ضربتها صفية... كان يبكي وهو يوصيها بها... لماذا؟!

السيدة العجوز المريضة تسافر لتعود بابنته، وشقيقته تضربها في بيتها؟

لو يعلم فقط كيف يخرس شيطان أفكاره وجلاد خجله من نفسه وأفكاره.

هل دخوله بها القطار منذ ستة أعوام كان هو الخطأ، أم إن عودته بها اليوم هي الخطأ الكبير؟

لا يعلم سوى أنه يحبها ويحب أصابع سيدة بحنانها وشفقتها أضرمت في ضلوعه ناراً لا يعلم على من ستأتي وتجهز ألسنتها!

لم تدخل غرفتهما. لم تفكر حتى في غسل كفيها أو وجهها كما علمتها نادية أن تفعل كلما عادت من الشارع.

لن تغسل شيئاً وهي العائدة من الصعيد. يكفيها أن الدمع غسل وجهها ألف ألف مرة طوال الأيام السابقة.

وقفت في بهو العمارة تنظر إلى باب المصعد. تريد أن تنطلق وتصعد إلى نادية أو إلى منزل وحيد. تريد أن ترى ياسر ويراها. لا بدَ أنه يموت هماً وحزناً على فراقها.

عادت ولن تذهب إلى قطار الصعيد أبداً وإن مزقها أبوها أو أقسم لها أنها مجرد زيارة عابرة.

حتى قبر أمها لن تزوره أو تقف به. بياضة في قلبها، وملابسها ما زالت معها، ورائحتها عالقة بأنفها... لم يعد باقياً منها شيء على تراب ملاوي ووجوه سكانها.

في بهو العمارة وقفت كأنها استردت شيئاً من قوتها ونظرت إلى وجهه الحزين قائلة:

سأصعد إلى السيدة نادية، وأيضاً سأمرَ على السيدة مروة. الامتحانات بعد الغد.

نار أمسكت بزوايا قلبه وهي تنطق اسمها، لكنه نكس رأسه قائلاً:

لا تتأخري... سأنظف المدخل حتى عودتك. إياك أن تفكري في إجهاد نفسك. ما زلتِ محمومة.

كأن عينيه معها داخل المصعد خافت أن يراها بهما تتوجه إلى الدور الثالث قبل مرورها بالسيدة نادية، لكن ما إن فتحت باب المصعد ونظرت إلى بابها لم تستطع أبداً أن تقاوم، لم تستطع أبداً أن تكون نادية هي أول من تراه.

تعلم أنها وحدها التي أعادتها، لكن ماذا بعد العتاب والعناق والحديث، بل ربما أيضاً احتاجت إلى أن تعدّ لها شيئاً أو ترتب لها المنزل.

ستفعل كل هذا، لكن تريد فقط أن تراه. لا بدّ أنه عاد من المدرسة. تريد فقط أن يعلم أنها عادت.

ركضت على سلالم البيت ودقت جرس الباب وهي تدعو الله أن يفتح هو لها الباب.

بعد الجرس الثالث فتح لها الباب. كأن دهراً مرّ من دون أن تراه. أصبح أكثر طولاً وبهاء ووسامة في الأيام الستة التي غابتها عنه.

سقطت دموعها من جديد وهي تتذكر أنها لا ترتدي أفضل ثيابها ولم تغسل وجهها، لكنه كان ينظر إليها في حنان ودمعة ترقص في عينيه.

لماذا يحب بدرية؟ هي طفلة في الثالثة عشرة من عمرها. لماذا لم يستطع استذكار حرف واحد من كتبه

منذ عودته من المدرسة وعلمه أنها آتية؟

لا يفهم! لم يعد طفلاً. يعلم أن هذا هو الحب، ولكن هي طفلة صغيرة لم تحصل بعد على شهادة الابتدائية وهمس رغماً عنه:

أخيراً... عدتِ!

كانت دموعها تسقط في هدوء على وجهها وهي تراقب ابتسامته الحانية.

نعم عادت... الآن فقط عادت...

سمعته يصيح منادياً أمه وعادت تهمس:

أراك على النيل في موعدنا!

عندما رأتها مروة أخذتها إلى صدرها في حنان، وبكتا معاً كأن كلاً منهما تعتذر للأخرى عن شيء في صدرها.

بدرية كانت تحتمي بمروة، والأخيرة كانت تحاول أن تمنحها ما يمحو شعورها بالذنب ومسؤوليتها عن هذا الغياب.

في لحظة ظهر وحيد ينظر إليهما في سخرية واضحة ثم قال في هدوء:

عدت يا بدرية... فضلاً، لا داعي للاستذكار في البهو... هناك زوار قادمون.

في غيظ مكتوم كأنها لم تسمعه قالت مروة:

أحضري كتبك ولنلتقِ عند طنط نادية. ليس لدينا وقت... أسرعي.

لا تعلم لمَ يكرهها لكن تعلم جيداً لمَ هي تفعل.
تكرهه لأن ياسر وأمه لا يحبانه أبداً!

ضمتها نادية إلى صدرها ولم تتركها تبدأ درسها أبداً حتى قامت بقياس حرارتها ومنحتها قرصاً مخفضاً للحرارة مع بعض الساندويشات. تحبها الآن أكثر وتشفق عليها أكثر بعد قصة مروة التي حكتها هذا الصباح.

كأنهما ثلاث ريشات يتأرجحن في ريح الظلم والحرمان. ما زال لدى مروة متسع من الوقت وبدرية ما زال العمر كله أمامها. وحدها نادية ما عاد لها أمل سواهما.

إن ساعدتهما قد تحيا قبل أن تموت.

جلست تراقب مروة وهي تستذكر للعائدة دروسها وتراجع معها كل ما استذكرتاه قبل الرحيل.

تحب أن ترى رأسها من دون حجابها. شعرها الجميل ووجهها الرقيق. لن تتركها أبداً تغرق في الخوف والألم.

ما زالت لا تصدق كيف بكت وهي تخبرها بمشاعرها تجاه عمران. تحبه... تشتهيه...

أخذت نادية تعبث بأصابعها بالصليب المتدلي على صدرها كأنها تستغيث وتستغفر.

ممَّ تستغفر؟! ألأنّ عمران بواب؟ هو رجل كامل ووسيم. ألأنه جاهل فقير؟

هو أمين طيب.

محب كان طبيباً ثرياً لكن زوجته ما أحبته يوماً ولا اشتهته.

دمرها وحولها إلى تابع سقيم مسطح. وحيد مثله يسحق كرامة زوجته ويفتت كبرياءها، فهل تلومها إن كرهته ورأت في عمران ملاذاً لها؟

في شبابها كانت تتمنى لو تعشق رجلاً آخر. كانت تتلفت حولها في صلاة الأحد وتبحث في كل الوجوه وتتمنى لو تصيح "أما من رجل ينقذها؟". ربما لهذا كانت تستسلم لسجنه. ربما لهذا كانت تخشى حتى الوقوف في نافذتها... بداخل أعماقها كانت تعلم أنها إن وجدت رجلاً فلا شيء ينتظرها سوى الإثم والخطيئة.

في دينها لا طلاق. في دينها لا تحرّر. مع سجّانها اعتادت أن تغمد روحها ومشاعرها في كعب أحذيتها حتى صدقت أنها لا تستطيع أن تخطو خطوة من دون تعليماته، لأنها إن يوماً تبعت تعليمات رأسها وقلبها فلا طريق أمامها سوى الإثم والكفر.

ترى نفسها في بدرية وهي طفلة. وفي مروة شبابها الضائع، لهذا تحبهما حتى الجنون!

ستنقذ طفولتها وصباها. عندها فقط تموت وهي تشعر أنها عاشت ولو يوماً واحداً.

كان الصليب الصغير غائباً بين أصابعها، لكنها نفضت يديها عنه وهي ترى العائدة تنهض عن مقعدها وتقول:

سأقضي الليل كله في الاستذكار... أعدك.

مروة ابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تمد ذراعها نحوها تضمها إلى صدرها في حنان قائلة:

لا تخشي شيئاً يا حبيبتي.

نادية أيضاً أخذتها إلى صدرها وابتسمت ابتسامة عريضة وهي تسمعها تشكرها من جديد.

نعم يسعدها أن تشكرها. لا لتشعر بصنيعها لكن فقط لتشعر أنها ما زالت على العطاء قادرة.

الفارق كبير بين العطاء وتنفيذ التعليمات.

عندما خرجت بدرية وأغلقت خلفها الباب، غابت ابتسامة مروة من جديد وعاودت دموعها الظهور وهمست قائلة:

لا أعلم كيف أضع عينيَ في عينيه...

لم تعلم إن كانت ابتسامة سخرية أم مرارة تلك التي طغت على وجه نادية، لكنها سمعتها تقول:

ليس مهماً أن يرى عمران وجهك أو عينيك... المهم حقاً أن تستطيعي أنت النظر إليها. لا تستسلمي. أخرجي من هذا السجن. إبحثي عن عمل. أطلبي عملاً في مدرسة الأولاد. أنت قادمة من أمريكا وهي مدرسة

أمريكية. سيكون لهذا الأمر اعتبار كبير. صدقيني يا ابنتي. هذا هو الحل!

كانت تتحدث في ثقة، في تصميم ووضوح، وكأن مروة ما فكرت في كل ما تقوله نادية. أخبرتها أنها يجب أن تنشغل.

المدرسة الدولية التي التحق بها الطفلان سيسعدها أن تنضم إليها مصرية أمريكية. سيقدمون لها راتباً جيداً، وأيضاً حسماً كبيراً في مصاريف ابنيها. خصم سشعر هي وحيد أنها صاحبة الفضل فيه. حلها الوحيد أن تخرج... أن تهرب.

كان شيء كالأمل يلوح في عيني مروة، وشيء آخر كاليأس والخوف يحاربه. وأرخت رأسها تسألها ماذا لو رفض وحيد. نادية بذات الابتسامة التي لا تعلم إن كانت مريرة أم ساخرة أخبرتها أنه أبداً لن يرفض ان هي فقط أشعرته بقوتها وتصميمها.

غابت مروة ثم عادت تقول:

لم أعد أريد هذا الرجل. حتى رائحته تقززني. علا أصبحت هي الأخرى قطعة منه، فمن أين لي إذن بالقوة؟ هو يعلم أن لا طريق آخر أمامي. إما وحيد أو الشارع.

نادية وضعت كفها على ذراعها وقالت:

أنصتي جيداً. لم أكذب يوماً فاسمعيني. لن أتركك وبدرية في مهب الريح. سيكون لك ولها بيت. هنا في هذه البناية.

مروة فتحت عينيها في ذهول تشهق وهي لا تصدق إلا صوتها عاد يقول:

هل تذكرين أني أخبرتك عن الشقة المواجهة لكم؟ هي الوحيدة المباعة تمليك لمندور بك رحمه الله. الشقة المواجهة لشقتي هنا خاوية. سأبيعها لكِ.

لا أحرّضك على زوجك ولكن أدعوك إلى التحرر والتخلص من ضعفك.

مروة قاطعتها في ذهول تخبرها أن الشقة يتعدى ثمنها المليون جنيه، لكن نادية أخبرتها أنها ستبيعها لها بما أدخرته من عملها في أمريكا شريطة أن تقتسمها هي وبدرية.

لا تريد أن تكبر الصغيرة ويشتريها رجل بمكان إقامتها أو طعام يومها.

طال النقاش واحتدّ. مروة أضعف من نادية، والأخيرة كلما شعرت أنها على الحوار والإقناع أقدر ارتفع صوت تصميمها وسعادتها.

قبل عودتها إلى بيتها ارتمت بين ذراعيها تقول:

سامحيني طنط نادية. شعور مجنون مع بواب مسكين هو السبب. سامحيني.

أبعدتها عن صدرها، وبتلك القوة التي لا تعلم أيّ منهما من أين جاءت قالت نادية:

ليس البواب هو المشكلة. المشكلة ضعفك ويأسك. اهربي، انشغلي بالعمل.

انشغلي عن نفسك لا عن عمران!

شيء في عينيه يغرّد. شيء في عروقه يرقص.

يجعله يرى وجه أمه الغارق في الحيرة والدمع ورغم هذا لا يتألم.

يجعله يستعيد وجه علا وهي في طريقها إلى باب البيت ليأخذها والدها إلى حفل إحدى صديقاتها من دون حتى أن تمنح أمها عناقاً أو تخبرها بوجهتها أو وقت عودتها من دون أن يغضب.

شيء جميل رائع جعل الأشياء أجمل والألم أقل والحزن له وجه هانئ حانٍ.

هذا هو موعد خروجه اليومي ليركض على كورنيش الروضة. وحتى يخرج عمران لقضاء احتياجات العمارة وسكانها، وخاصة الدكتور ناصر، ويلتقي العائدة التي جعلت عودتها لكل شيء رائحة عطر تسلل إلى رأسه فهدأ وإلى روحه فاستكانت.

كل زميلاته وزملائه في المدرسة يحكون قصص الحب. بل بعينيه رأى أصدقاءه يقبّلون فتيات قبلات طويلة على شفاههن، لكن مازال يشعر أن ما يجمعه ببدرية شيء آخر لا يعرف له اسماً.

أصبح رجلاً ويعلم هذا. كل إشارات الرجولة ظهرت عليه، لكنه يوماً لم يقبّلها. يوماً لم يقل لها إنه يحبها، ويوماً لم يجنّ كجنونه في الأيام القليلة التي مضت حين أخبروه أنها لن تعود.

انتفض قلبه وهو يتخيّل من جديد ألاّ بدرية في أيامه وفي عمارة الروضة. رعب كبير أن تخلو منها الحياة!

انحنى يحكم رباط حذائه الرياضي. يذهب إلى النادي ثلاث مرات كل أسبوع لممارسة رياضة التنس، لكنه أقنع الجميع برياضة المشي والركض التي يمارسها يومياً على كورنيش الروضة ليلقاها.

عبر صالة البيت وأمه في مكانها تحدق في شاشة التلفزيون، وكل من ينظر في وجهها يعلم أنها لا ترى شيئاً. تعب من سؤالها ومن بكائها على صدره.

لن يستطيع أن ينتظر طويلاً أمامها.

ربما عند عودته.

في حنان أخبرها بخروجه، وبهدوء ابتسمت قائلة:

أما قلت إنك مللت الركض على الكورنيش؟!

ابتسم ليعود إليها ويمنحها عناقاً سريعاً. أخبرها أنه لن يتأخر. وأنه يريد ساندوتشات "سومون فيميه" بالجرجير عند عودته. يعلم أنها أيضاً تحب تناولها وهما

معاً خاصة أنهما سيكونان وحدهما من دون منغصات علا وأبيه.

من الزاوية البعيدة المظلمة عند "مقياس النيل" بدأ ركضه. عمران كان على بوابة البيت مما يعني أنها لن تحضر الآن، لكنه لن يكمل دورة كاملة. قد تحضر وهو عنها بعيد. لا يريد لحظة أن تضيع طالما كان في الإمكان أن يقضيها معها.

أسبوع من الغياب كأنه الدهر.

لقاؤه بها في البيت عندما فتح لها الباب ليس لقاء، كان فقط نفحة من الأوكسجين الخالص اغتسلت بها رئتاه. هنا اللقاء له طعم آخر.

في طريق عودته وهو يركض رآها في ذات الركن البعيد المظلم كأنها ما غابت. تجلس وقدماها تتدليان فوق النيل وتأرجح ساقيها في جنون وأسرع بركضه نحوها. ما زال يذكر كيف كادت مرة تسقط في النيل.

كيف يشعر أنها كبرت في الأيام القليلة التي غابتها. لا يعلم. شعرت بوصوله إلى جوارها. شعرت بأنفاسه اللاهثة من دورة ركضه لكنها لم تلتفت إليه. يكفيها أنه هنا!

جلس على الكورنيش إلى جوارها في هدوء، وقبل أن يقول كلمة سمعها تقول في صوت دامع:

اشتقت إلى النيل. ظننت أني لن أرى مدرستي أو أراه.

هدأ صوتها فجأة ولانت قسمات وجهها في شيء كالحزن والاستسلام، ثم استدارت تنظر إليه كأنها منه تملأ عينيها وقالت:

ولا أراك أنت أيضاً.

لحظات قليلة من الصمت اجتاحتهما كأن كلاً منهما ما زال يقنع نفسه أنه حقاً إلى جوار الآخر. وضحك قائلاً:

حتى أمي كانت تموت وأنتم هناك.

من دون وعي ضرب بمرح كفه ليطيح منديل رأسها لتسقط ضفيرتها الطويلة على ظهرها وقال متظاهراً بالغضب:

هل رأى أحد هناك شعرك؟!

استدارت نحوه مرة أخرى وهي تضحك. هو أكبر منها. أطول. أصبح له شاربان خفيفان، لكنه ما زال لا يعرف شيئاً عن الصعيد.

ضحكت وهي تستعيد انطلاقها وسيطرتها التي لا تتعمدها ولا يدركها هو على روحه وكيانه.

بدأت تحكي عن عمتها وعن تلك الصفعة التي ألقت بها على وجهها حين أعلنت تصميمها على العودة. معه تتحدث حتى من دون خوفها الذي لا تفهمه على

كبريائها. معه في صدرها مخزون كبير من القصص والحكايا تريد أن تطلق سراحه، ومعها هو يتنفس ويشعر أنه سعيد.

طفلان لا يدركان أن أقسى وأعنف أنواع الحب هو ذاك الذي لا نعرفه ولا نعترف به ولا نصدق أنه يسكن أضلعنا!

أحياناً يتغير كل شيء رغم أن كل شيء باق على حاله. التغيير أكبر من أن يصدقه رأسها لكنه أجمل من أن تقاومه.

لا يهم أبداً إن تغير إناء الزهور المهم حقاً إن تغير ماؤه ومحتواه. ما أصبحت أبداً تبكي اليوم بأكمله. ما أصبحت تدس أنفها في ملابسه وتبحث عن رائحة العطر والخيانة. ما عادت تتحسر وتستجدي الأمومة من ابنتها.

تغيرت مروة مذ التحقت بالعمل منذ شهور. حتى خطواتها تغيرت. أصبحت تخطو ورأسها مرفوع.

وضعت أوراق تسجيل الطلبة جانباً وأطلقت عينيها الواسعتين الجميلتين من خلف نافذة مكتبها الصغير تراقب حدائق المدرسة وطلابها.

أكثر من شهرين منذ بداية العام الدراسي الجديد. أصبح ياسر في أول أعوام المرحلة الثانوية. أصبح رجلاً حقيقياً يلمس رأسها كتفيه. تفخر به عندما يتحدثون عنه في المدرسة، لكنها بنفسها أكثر سعادة وفخراً.

ما زال زوجها فظاً، بل ربما أكثر فظاظة بعد التحاقها بالعمل فهو إن رآها بعملها سعيدة أخبرها أنها ما كانت لتلتحق به أبداً إن لم تقض أعواماً في أمريكا وتكتسب منها لغة وخبرة من سنوات عملها. وإن رآها يوماً مرهقة وحزينة أرهقها أكثر وكلفها بألف شيء وألف دعوة.

لكن هي تغيرت من داخلها. ما عاد يعنيها أمره.

هنا تشعر أنها إنسان له عزة وكيان. هنا لا يمرّ يوم من عمرها من دون أن يطري على جمالها أحد أو على عملها وحب الجميع لها.

تدين لنادية بالكثير. وحدها أنارت في رأسها الطريق وما زالت تصر على أن تمنحها أكثر...

شهور الإجازة الصيفية، ومنذ ظهور نتيجة بدرية وانتقالها إلى المرحلة الإعدادية، تحاورها كل يوم وهي تهرب منها.

كيف ترضى بأن تبيع لها إحدى شقق العمارة بالمبلغ الزهيد الذي تملكه.

كيف تواجه ناصر وزوجها إن حدث شيء للسيدة. هم يعلمون أنها لا تملك ثمن غرفة لا شقة كاملة...

أخبرتها أن الشقة ستكون مناصفة بينها وبين الصغيرة وهي أمانة تضعها في عنقها.

بدرية؟!

هي أيضاً كبرت فجأة. هي أكبر من كل من هم في عامها الدراسي لكن شيئاً آخر يجعلها تبدو أكثر نضجاً واستدارة.

في الصف الأول الإعدادي لكن لا تشعر أبداً أنها تلك الطفلة التي جاءت من الصعيد.

جميلة سمرتها. جميلة عيناها وضفائرها. جميلة في عنادها وكبريائها حتى وهي تنثني كل يوم لتمسح مدخل العمارة ودرجات سلالمها.

أغلى عندها من علا!

لا أحد أغلى عندك من أبنائك وإن كانوا يسومونك العذاب، لكن ابنتها تفعل ما هو أسوأ.

التجاهل والإحتقار أبشع من العذاب.

مذ أصبحت أمها في ذات المكان، وعلا تراقبها بدهشة كبيرة لا تصدق أبداً أن مروة التي اعتادت هي ووالدها السخرية منها ومن أفكارها، تعمل ويحيطها الجميع بالتقدير والاحترام.

لكن ما زالت إحداهما تتجاهل الأخرى. ما زالت علا ملتصقة بوالدها وهي ملتصقة بياسر.

أصبح قدر العائلة أن تنقسم إلى فريقين.

لن تتحسر أكثر. ستبقى تحاول مع ابنتها، ولكن بتحفظ لم تعد تحتمل أو تقبل المهانة. ما يكيله لها وحيد يكفيها ما بقي من العمر.

أصبح لها عنق منتصب ولن تدليه من جديد.

بلا وعي أمسكت بالقلم بين أصابعها كأنها تهرب من شيء يلاحقها.

ما زال عنقها يتدلى كلما رأت عمران. كل صباح وهي تغادر العمارة، وكل مرة وهو يحمل لها المشتريات أو يقف ببابها مع محصل فواتير.

نعم... يتدلى عنقها كلما وقف أمامها ورأته يحادثها وعيناه في الأرض كأنه يخشى إن رفعهما أن ترى فيهما ازدراءه لها.

ما زال بواب عقارها يحرك في صدرها شيئاً لا تفهمه. حولها هنا ألف رجل ومن أكثر من جنسية وعالم وثقافة ترى في أعينهم الإعجاب لكنها علمتهم جميعاً احترامها.

وحدها ما زالت لا تحترم نفسها.

وحدها ما زالت تنتفض كلما تذكرت كفه.

نادية تخبرها أن القصة لم تكن... هي وهم في رأسها لكنها تعلم أنها ليست وهماً أبداً.

انتفضت وهي تسمع صوت هاتفها الصغير وأمسكت به.

هي نادية سمعتها تقول حين فتحت الخط:

أنا في الطريق إليك. سأنتظرك على باب المدرسة. ستذهبين معي. أرجوك يا ابنتي، أرجوك لا ترفضي... سنذهب.

هل جنت السيدة الطيبة؟ شهور ظنت فيها أن القصة كانت عرضاً عاطفياً مؤقتاً وستنساه. شهور وهي تخبرها أنها لن تستطيع أن تقبل، لكن نادية تُصر بل ترجوها، حدّ البكاء أحياناً، أن تقبل وتذهب معها.

ها هي في طريقها إليها. تأخذها إلى الشهر العقاري. تبيع لها الشقة التي تسكنها. يقتلها ناصر إن علم. تعلم، كما تعلم أمه، أنه ينتظر موتها ليضع يده على العقار بأكمله.

لماذا ترفض ولماذا هي خائفة؟ البيت ملك لها والسيدة بكامل قواها العقلية.

ربما تريد حقاً أن تترك شيئاً لبدرية التى تقضي ساعتين كل ليلة قبل نومها في بيتها تقوم فيها بكل ما تحتاج إليه. وأيضاً تمنحها حباً صادقاً وحناناً بخل به عليها وحيدها وزوجته.

ما زال شيء في صدرها يرفض أن تذهب، لكن عقلها لا يراه عيباً أو حراماً. عقلها يحترم قرار نادية وهي ستكون أمينة على نصيب بدرية.

إن ضاقت بإحداهما الأرض تجد مأوى، وإن ضاقت بهما الحياة معاً أو اختلفتا باعتا الشقة واقتسمتا ثمنها. هذا ما أوصتها به نادية وجعلتها يوماً رغماً عنها تُمسك بالمصحف بين يديها وتقسم على الالتزام به.

لكن شيئاً في ضلوعها يرتجف ويرفض.

حقاً تغير كل شيء رغم أنّ كل شيء على حاله باق.

عاد الهاتف يدق من جديد.

لا مناص ولا مفر. هي على باب المدرسة تقف!

نهضت عن مكتبها بعدما أغلقت أدراجه. لن يرفضوا السماح لها بالخروج.

ستة أشهر منذ التحاقها بالعمل لم تغب يوماً أو تحضر متأخرة ولو دقائق قليلة.

وكيف تفعل وبين جدران هذا المكان ترفع عنقها وتسير بثقة أنساها إياها زوجها بقسوته وخيانته، ويهزها فيها عمران بذكرى كف خشنة سمراء ما زالت لا تعلم لمَ تشتهيها ولمَ لا تستطيع أن تنساها!

كان يراقب أنفاسها المتقطعة في ألم وهو يتشاغل بارتداء نظارته والبحث في الأوراق ريثما تستعيد التقاطها.

بطرف عينيه رمق وجهها الباهت وهي تضع كفها على فخذي نادية في حنان.

شاخت السيدة، لكن شيئاً فيها تغير وهي في نهايات عمرها. منذ متى وهو يعرفها؟

هو حتى لا يعرفها. لم يرها سوى مرات قليلة عندما أتت مع زوجها المرحوم الدكتور وجيه يوم باع لها عقار الروضة. فليرحمه الله... كيف ينساه؟

أجرى أكثر من عملية جراحية لزوجته من دون أن يتقاضى منه مليماً واحداً يوم كان موظفاً صغيراً في الشهر العقاري.

كيف ينساه وما زال يذكر طاقم الأطباء والممرضين ينتفضون منه خوفاً في المستشفى يوم شكا إليه صابر إهمالهم في رعاية زوجته بعد العملية.

رحلت ولاء زوجته بعد أزمة قلبية مفاجئة. ورحل الدكتور نفسه، لكنه لم ينس له صنيعه ومعروفه.

بقي يحادثه على فترات ويسأل عنه، وكثيراً ما كانت السيدة زوجته تجيب على الهاتف إن كان الدكتور نائماً أو مشغولاً.

أصبح صابر مديراً لشهر عقاري مصر القديمة.

حادثته منذ شهور تسأله عما يلزم تجهيزه من أوراق ومستندات لتبيع إحدى شقق العقار.

لم يكن يظن أبداً أنها هرمت إلى هذا الحد، لكن في صوتها وعينيها شيئاً أقوى!

تحسس صابر رأسه. سقط شعره هو الآخر وما بقي عليه سوى خطين نحيلين من الشيب.

وحدها ولاء رحلت وهي في أوج صباها وجمالها.

من خلف دمعة ترقرقت في عينيه رفع وجهه إلى السيدتين وقال في ألم:

سأحضر لك كوباً من الماء.

كانت ما زالت أنفاسها مضطربة. من سلالم المبنى الحكومي العالية والمتهالكة. وقالت مروة في حنان:

ليتك حقاً تفعل.

لكن نادية قاطعتها قائلة:

أرجوك لا وقت لدينا. معي جميع الأوراق والمستندات. معي عقد البيع الذي ساعدتني أنا والمرحوم على استخراجه. معي أيضاً عقد البيع الذي

أعده المحامي للسيدة مروة، والسيدة أيضاً هنا معي أمامك أستاذ صابر.

ابتسم صابر قائلاً:

ما زالت هناك خطوة أخرى. الشقة في حاجة إلى معاينة وتثمين.

شهقت مروة في ذعر... تثمين؟!

في خبرة الأعوام أدرك صابر ما تعنيه شهقتها فأكمل قائلاً:

سيدتي... أياً كان الثمن الذي دفعته، هذا شيء لا يهم ما دام عن تراضٍ بينكما. هي إجراءات شكلية. سأحاول جاهداً أن اختصرها. امنحيني الأوراق سيدة نادية حتى أحضر الملفات وأنهي ما يمكن إنهاؤه.

عندما عاد أحد الموظفين بملفات العقار التي طلبها صابر، وبدأ يتصفح أوراقه، شعرت نادية بوجهه يتلون وعيناه لا تتابعان السطور بل تحاولان التحديق فيها كأنهما لا تصدقان ما تريانه...

كم مرة سألته وكم مرة نظر إليها وعاد ينظر إلى الملفات؟ لا تعلم...

لكن ما لن تنساه ما بقي من عمرها هو تلك اللحظة التي رفع عينيه فيها قائلاً:

أعرف الدكتور ناصر جيداً... لماذا لم يأت إلى مكتبي يوم باع العمارة؟!

في صوت مبحوح سألته:

أيّ عمارة؟!

وفي صوت أكثر ضياعاً قال صابر:

عمارة الروضة... ألا تعلمين؟!

لم يكن أبداً عليها أن تجيب... ما رآه في عينيها كان أوضح من كلمات المعاجم وحروفها. وأكمل في هدوء:

منذ خمسة أعوام كاملة، وبالتوكيل الذي استخرجته له بعد وفاة الدكتور، أنت لا تملكين حق التصرف في أيّ شقة منه.

وضعت مروة كفها على فخذيها في إشفاق كبير وقالت رغم أنها لا تعلم ماذا يمكن أن تقول:

هو بيته في النهاية... أنت وهو شخص واحد.

لا دموع في عينيها... لا حزن... لا شيء سوى فراغ كبير كأن حدقتيها أصبحتا صخرتين من الدهشة والذهول، وصوت خائر ضعيف يهمس:

سيرثني... لا وريث لي سواه... لمَ العجلة؟ لمَ يبيعه لنفسه وهو نفسه الوريث الوحيد؟!

جاء صوت صابر يقول:

لا يا سيدتي... باع العقار لزوجته السيدة رشا مقار!

كان الطريق إلى الروضة أطول من سنين عمريهما معاً وأكثر فراغاً ووحشة منه.

كان زحام السيارت وضجيج أبواقها غائباً عن أذنيهما معاً.

في رأس كل امرأة منهما ما يفوق ضجيج زحام شوارع الأرض بأكملها لحظة ذورتها.

دموعها تسقط في هدوء على وجنتيها وكفها ممسكة بكف نادية في قوة، أو ربما كانت الكف الواهنة هي التي ترقد بين أصابعها في تراخٍ واستسلام.

ليتها تصدقها. هي سعيدة لأن العملية لم تتم. لا تريد أبداً أن تشعر أنها سلبت ناصر حقاً بسيف الحياء والشفقة من والدته. لا تريد حتى أن تتحمل مسؤولية مناصفة الشقة مع بدرية ابنة عمران. هي لا تعلم ما قد يفعله الرجل بابنته إن لا قدر الله ورحلت نادية. ربما قرر أن يعود بها إلى الصعيد. كيف تستبقيه لحظتها وكيف تخبره؟ وهل تبيع الشقة وتمنحه نصف ثمنها؟ أمور لا تريد أن تدخل في دهاليزها. لكن هناك أمراً أكبر يحزن صدرها ويخرسها عن الحديث... هناك امرأة إلى

جوارها تلقت للتو صفعة كبيرة من وحيدها الذي ائتمنته وأصدرت له توكيلاً.

هناك أم ذبيحة إلى جوارها رغم أنها لا تقطر دمعة أو قطرة دم واحدة.

هناك خوف يجتاح صدرها.

لماذا لا تأتي الطعنات إلا من أيدي من نحبهم وأسلمنا لهم أرواحنا وأقدارنا؟

يجب أن تجد شيئاً تخفف به عنها. شيئاً تقوله لها. وللمرة الخمسين أو أكثر تستدير نحوها لتتحدث. ستقول لها إن ولدها لا ينوي بها أذى. إن كان ينوي لأثار الدنيا يوم أنذرته بمغادرة المبنى وإغلاق عيادته. لقد عاد إليها بعد أيام واعتذر في هدوء.

تمنت أن تخبرها أن رشا لن تفعل شيئاً. لا بدَ وأن ناصر يثق فيها. في دينها أيضاً لا طلاق. أي إن رشا لن تهرب بالعقار.

لابد أن عندهما سبباً كبيراً أو أسباباً كثيرة، لكن ليس منها أبداً الخيانة أو الأذى.

كلما استدارت لتتحدث أو تقول شيئاً قتلت نادية بذهولها وصمتها الحروف على شفاهها لتسقط دمعات جديدة من عينيها وتضغط على كف نادية المرتخي بين يدها أكثر وأكثر!!

ليتها تبكي. ليتها تصرخ. عندما فاض بها الحزن والخوف همست قائلة:

طنط نادية... قولي شيئاً أرجوكِ.

لم تسمعها. هي حتى لا تشعر بكفها القابضة على أصابعها، ولا حبات العرق الكثيفة التي تكونت عليها.

نادية تائهة تسأل... هل أخطأت لأنها أرادت أن تبيع الشقة لليتيمتين أم ربما لأن الثمن زهيد؟ لكن باع زوجها الشقة المقابلة لزيدان منذ أكثر من عشرين عاماً إلى أحمد مندور صديقه بثمن بخس ضئيل.

بل اتفقت معها مروة أن تمنحها ألف جنيه شهرياً من راتبها فوق ما ادخرته وحتى موتها أو تركها للعمل.

كانت تحلم نادية بالألف جنيه.

اتفقت مع إحدى الجمعيات الخيرية على كفالة طفلين. طفلتين بالتحديد.

تريد نادية إنقاذ أكبر عدد تستطيعه من الفتيات من الضياع والاستسلام لرجل لقاء الطعام والمسكن.

آه... أرادت أن تلقى الله وقد ساعدت في إنقاذ يتيمتين تعرفهما وأخريين لا تعرفهما.

ما كانت ستمس الخمسين ألفاً التي ستمنحها لها مروة. كانت، رغم كل شيء، تنوي أن تضعها في البنك باسم ناصر مع رسالة تخبره فيها أنها ما عاشت الحياة لكنها أرادت أن تحيا الموت.

هزمها ناصر... وحيدها قتلها.

يوماً حرمها زوجها من الحياة حين أحالها إلى جارية تنفذ تعليماته وتتفض خوفاً وذعراً إن فتحت نافذة بيتها وهو لا يقف إلى جوارها.

لن يحرمها رجل آخر من لقاء الموت بشفتين تبتسمان...

لكن هناك أنثى انتصرت. أنثى قوية عرفت كيف تجعل منه ما صنعه منها وجيه.

رشا مقار هي عقاب السماء لناصر ووالده. لكن على ماذا ترى تعاقبها السماء؟ الاستسلام! نعم استسلامنا للظلم جريمة يعاقبنا الله عليها!

لماذا تبكى مروة وبماذا تهمهم وماذا بعد تريد؟

خذلتها نادية كما خذلها الموت وخانها الأمل.

أفاقها صوتها الدامع وهي تعيد عليها أنهما أمام البيت تقفان.

استدارت تنظر بعينيها الزائغتين.

هو بيت رشا مقار... لا ملجأ لها سواه حتى اللحظة التي تقرر فيها طردها منه.

رأت عمران يقترب وهو يقول في قلق:

هل ثمة أمر... هل السيدة نادية بخير؟!

بصعوبة كبيرة أخرجت ساقيها من باب السيارة لتضعهما على الأرض، ونظرت إلى كف عمران التي مدها

نحوها لتستند إليها.

لماذا أحبت كف هذا الرجل السمراء؟

عاد يرجوها أن تمنحه يدها، ففعلت. وفي اللحظة التي أصبحت تقف أمامها نظرت إلى عينيها قائلة:

ورحمة أبيك في قبره... وقرآنك وربه... عديني أن لا يعلم أحد بما حدث حتى أموت... أقسمي لي.

في اللحظة التي أقسمت فيها أنها لن تنبس حرفاً، وبين ذهول عمران ودموع مروة، سقطت نادية كورقة شجر جافة بين ذراعيه حتى كادا يلمسان إسفلت الشارع معاً!

هل جنّ حقاً ليقطع هذه المسافة يومياً مرة أو مرتين كل أسبوع ليقف في هذا الركن المنزوي المظلم لمجرد أن يراقب طفلين؟

متى بدأت القصة؟! منذ شهر تقريباً. عندما أوصل ياسمين إلى حفل عيد ميلاد في الروضة وأخذ يتسكع بسيارته حتى موعد عودته بها.

وضع أسطوانة لموسيقى "ياني" ورأى ركن المقياس المظلم فوقف بسيارته يراقب النيل.

ذاك اليوم رآهما.

شابان. بل ربما طفلان يجلسان معاً على كورنيش النيل، بعد أن أوليا الأرض بأكملها ظهريهما مقابلين النيل بوجهيهما. رأى الشاب يضرب بيده منديل رأسها لتنساب جديلتها الطويلة على ظهرها.

تمنى ليلتها لو يصطحب ندى عند عودتها ويأتي بها ويجدهما ليجلسا إلى جوارهما ويدليا ساقيهما هما أيضاً فوق سطح الماء.

بقي يراقبهما من خلف زجاج سيارته في هدوء.

لا هو يقترب منها ولا هي تفعل. ساعة تقريباً على تلك الحال.

ما أفاق حتى رأى الفتاة تستدير بساقيها وتحكم منديل رأسها عليها وتركض وحدها بينما تبعها هو بعد لحظات في خطى هادئة.

جميلة الفتاة. ربما كانت في السادسة عشرة أو أقل أو أكثر قليلاً.

راهن كريم نفسه على أن يجدها إن عاد في الغد.

وهكذا أصبح يأتي يوماً أو يومين كل أسبوع في الموعد ذاته. أحياناً يجدهما وأحياناً يجدها ثم يأتي الشاب الوسيم.

شهر أصبح لا يسعده فيه شيء سوى أن يراقب هذه اللوحة الفنية البديعة.

العشق في قلب النيل.

هذه هي المرة الأولى التي يجده هو في انتظارها... أتراها لن تأتي؟!

هل زهدته الصغيرة كما زهدت زوجته الحب والعشق؟

يبدو أن النساء دوماً هنّ اللواتي ينفضن أكفهنّ من الحب قبل الرجال.

لن تأتي الصغيرة، لكنه لن يترك الشاب وحده ينتظرها. سيبقى في انتظار ظهورها أو رحيل الحبيب.

فتح زجاج نافذته كأنه أراد لصوت الموسيقى أن يصل إلى أذني العاشق الذي ينتظر.

دق قلبه حين رآه يخطو في لهفة، وأخرج رأسه من دون وعي من نافذة سيارته ليراها تركض نحوه وسمعه يقول:

بدرية... تأخرت!

قبل أن يبتسم لأنه عرف اسمها، سمع صوتها للمرة الأولى وهي تمر من جوار سيارته نحو ركنهما المظلم. سمع صوتها تبكي في ألم.

لماذا تبكي؟ ولماذا هو هنا يراقبهما ويتلصص عليهما؟

جلس العاشقان حيث مكانهما، وما عاد من الممكن أن يسمع من حديثهما شيئاً.

يعلم أنه لو غادر سيارته واقترب منهما سيكرهان وجوده أو ربما غادرا.

وحده من يجب أن يغادر ويأخذ على نفسه عهداً بالتوقف عن هذا الجنون الذي يفعله.

أغلق نافذته وأدار محرك السيارة ونظر إليهما يودعهما.

لن يأتي أبداً. لن يتجسس عليهما. ورآها للمرة الأولى تلقي برأسها على كتفه وهو يمد ذراعه اليمنى حول كتفيها. ما زالت تبكي.

بدرية تبكي... كم هو سعيد لأنه عرف اسمها، لكن هو بالخجل من نفسه يشعر...

طارد طفلين ما يقارب الشهر لأنه أحمق.

عذرهما أنهما طفلان وعاشقان، لكن أيّ عذر له في أن يقطع ما يقارب السبعين كيلومتراً من سكنه ليأتي بحثاً عنهما؟

يشتهي رائحة العشق والعشاق. يراقب هذه اللوحة البديعة على نغمات الموسيقى.

ليست لوحته ولن تكون.

المرأة التي يريد أن يصطحبها إلى هنا لن تأتي. لن تسمح لثوبها أن يتسخ بجلوسها على كورنيش الروضة المتهالك، ولن تضع رأسها وتبكي يوماً على كتفيه.

العشق ليس له... العشق للأطفال والصغار.

ماذا كان اسمها؟!

بدرية؟!

أدار محرك سيارته في هدوء ونظر إليهما في حنان ودمعة تكاد تسقط من عينيه.

كانت مغامرة رجل أفقده الشوق إلى الحب عقله ووعيه. ربما يأتي بعد شهر آخر... بعد عام.

ربما يجدهما وربما لا، لكنه لن يستسلم لضعف قلبه واحتياجه الأحمق إلى الموسيقى والحب.

كان له مع الموسيقى تاريخ ومع الحب.

التاريخ يبقى تاريخاً. لم ينر أضواء السيارة وهو يبتعد عنهما. لا يريد للضوء أن يجعلها ترفع رأسها عن

كتفه.

يريده أن يسكت دمعها وبكاءها بحنانه كما يحاول هو أن يسكت صوت جنونه وحماقته وظمأه إلى الحب وإلى الأبد!

كيف تنزلق الأيام والشهور من بين أصابعنا كقطرات المطر من دون أن نشعر أو ندري، ومن دون حتى أن تغتسل بها أكفّنا؟

كيف يبدو كلّ شيء متغيراً ومتبدلاً وفي جوهر كلّ الأشياء تكون الأشياء على حالها باقية؟

ثلاثة أعوام كاملة منذ ذاك اليوم تغير فيها كل شيء وبقي أيضاً على حاله.

في هدوء وضعت القلم فوق الملفات الكثيرة الملقاة على مكتبها ورمت بعينيها خارج النافذة.

حتى الذكريات يجب احترام تدفقها وطرقاتها على الرأس.

أصبح لمروة مكتب خاص في المدرسة، وأصبحت محل ثقة الإدارة. تضاعف راتبها لكنها ما زالت كما هي كسيرة. لا هي أمّ كما أرادت ولا هي زوجة أو أنثى كما تمنت.

ما زال وحيد يطارد النساء حتى وابنه على مشارف الجامعة.

ما زال يعود وملابسه مختلطة بعطور رخيصة وغالية. ترى ماذا ترى فيه أيّ امرأة من نساء مغامراته؟

ليس وسيماً ولا كريماً ولا حانياً.

ما الذي يجعل النساء يسقطن في شباكه؟ تزوج بعقد عرفي أكثر من مرة. ضحكت حتى البكاء في كل مرة كانت تحادثها إحداهن لتخبرها أنها زوجة زوجها.

زوجها؟! الأوراق لا تصنع أزواجاً وزوجات. هو رفيق سكن وأب ممول لمشروع إنشاء شابة ثائرة تظنها ابنتها.

أصبحت هي أكثر أناقة وهدوءاً، لكنها بقيت لا شيء في حياة رجل يدعى زوجها وفتاة أنجبتها.

هي فقط حبيبة ياسر... هذا الشاب الوسيم الذي أصبح رجلاً في آخر أعوامه المدرسية.

ما زالت حبيبة له وأمّاً لبدرية، وما زالت كف عمران هاجسها الأكبر وذنبها الذي تحرص أن تجلد نفسها به بل تتلذذ به كل ليلة وهي تغفو على وسادتها.

ثلاثة أعوام تتمنى لو تُجرح يده مرة أخرى ويلجأ إليها لتمر بأصابعها عليها من جديد.

وحدها ذكرى كفه تشتهيها وتدغدغ مشاعرها وتوقظ أنوثتها. لا شيء يتغير.

وهم كبير أن نظن شيئاً يتغير!

طنط نادية لم تتغير رغم انهيار صحتها منذ ذاك اليوم الذي سقطت فيه بين ذراعي عمران على إسفلت شارع الحاسب.

جاء ناصر ورشا لزيارتها مرات. التزمت بيتها ولم تغادره يوماً منذ ذاك اليوم.

كلماتها أصبحت قليلة... حتى الكنيسة ما زارتها يوماً.

هل هذا تغيير؟! أبداً... هي كما يوم رأتها مروة عند عودتهم من أمريكا.

ذات الخيبة والألم وانتظار الموت.

تغيرت بدرية؟!

التف جسدها وأصبحت شابة في الشهادة الإعدادية. أصبحت مثل علا ابنتها أو ربما أكثر جمالاً، لكنها ما زالت تنحني كل يوم لتمسح مدخل العمارة وسلالمها، وأصبحت تتولى جميع أعمال النظافة والطهو في بيت نادية، ورغم هذا ما تغيرت... ما زالت تحمل على ملامحها وملابسها عبق الصعيد وبساطة الحال!

ما زالت عنيدة ترفض تبادل الحديث مع وحيد أو علا.

لا أحد يتغير أبداً!

لماذا تجتر هي الذكريات بكل هذا الألم، ولماذا هذا الصباح بالتحديد؟

ربما بعد عراك الأمس الذي دار بين ياسر وزوجها.

وحيد يريده أن يسافر للالتحاق بالجامعة في أمريكا، ويرفض هو تماماً أن يفعل. لأن وحيد حين فشل في

تهديد ابنه أو إقناعه، استدار يصب لعناته عليها ويتهمها بإفساد آرائه.

لم تطلب منه يوماً أن يحب مصر أو يصر على البقاء فيها. لم تطلب منه لحظة أن يكره أمريكا أو العودة إليها. هي تعلم أن وحيدها أمريكي كما هو مصري.

وُلد على أرضها وتعلم فيها وتعلم أيضاً أن حصوله على الشهادة الجامعية منها أقل تكلفة وأفضل شأناً سواء بقي فيها أو عاد للعمل هنا.

لكن هي لا تدافع عن نفسها أبداً مع وحيد لأنها تعلم أنه أصدر أحكامه على ابنة حي الحسين منذ أعوام.

أحكام لا نقض فيها أو استئناف!

لماذا تتدفق الذكريات من رأسها بهذه الوحشية؟

لأن قلبها تمزق هذا الصباح عندما رأت بدرية تعود بكتبها وزيَها المدرسي إلى غرفتها معلنة أنها لن تذهب إلى المدرسة عندما أخبرها أبوها أن طنط نادية سقطت أمامه على باب بيتها لحظة أحضر لها الجريدة الصباحية.

رائعة هذه الشابة. أكثر ما تحبه فيها عقلها وإدراكها لمسؤولياتها والتزامها بها.

هي تعلم أنها لن تذهب إلى المدرسة ليس حباً في طنط نادية فحسب لكن لأنها تدرك أنه واجب. فوحدها ما زالت تدعمها وتمنحها نصف دخلها وتحثها على

الاستذكار والنجاح. بل هي دوماً تردد أنها لن تموت قبل حصولها على الثانوية العامة.

ترى هل تحيا نادية حقاً ثلاثة أعوام أخرى؟

نوبات الإغماء أصبحت متقاربة وكثيرة. وهنها أصبح أكثر وضوحاً. حتى جمود ناصر أصبح أعلى صوتاً. تكاد ترى في عينيه تمنيه لموتها.

ناصر؟!

تكرهه من قلبها... ليس لأنها تمنّت أن تبيعها والدته الشقة ذاك الصباح أو لأنها تخيّلت أنها هي نفسها تجرؤ أن تغادر وحيد وتحصل على الطلاق، لكنها تكرهه لأنه خائن دنيء...

خان أمّاً وثقتها... خان أمانة وحباً.

نفضت رأسها في هدوء وهي تمسك بالقلم من جديد بين يديها تلتقط أحد الملفات الموضوعة أمامها.

لم يتغير أحد ولن يتغير أحد.

هم جميعاً خونة.

بعضهم خان أمه وبعضهم يخون زوجته وأكثرهم ظُلمة ودناءة من يخون نفسه بالاستسلام للظلم والقهر. هي أكثر الخونة خيانة.

ما دامت تستسلم لدناءة زوجها وتتمرغ كل ليلة في خيالها على كف عمران فهي خائنة تستحق أن تسحقها الأقدار بحذائها أكثر وأكثر.

التقطت سماعة الهاتف. يجب أن تحادث بدرية وتطمئن على أحوالها وطنط نادية. قلق كبير يجتاح صدرها.

نادية أيضاً لن تتغير. عاشت وستموت ضحية. القدر يتلذذ بالانتقام من الضعفاء الذين يستسلمون للألم والصفعات!

أفاقت على صوت بدرية في الهاتف تبكي وتخبرها أنها كانت ستحادثها حالاً.

نادية سقطت في إغماءة عميقة حضر بعدها ناصر ليطلب سيارة الإسعاف، ورفض أن تذهب معها بدرية!

ترى ما الذي يحدث عندما تصبح في السنة الدراسية الأخيرة للمرحلة الثانوية؟

لماذا يغتال القدر جميع أفراحها الصغيرة رغم أنه يعلم أن لا أفراح كبيرة كانت أو ستكون في حياة فتاة من الصعيد تبقى العمر تحمل لقب ابنة حارس فقير؟

عندما كانت تستعد لاختبارات الشهادة الابتدائية كانت مصابة بالحمى، ملقاة على فراش عمتها تصارع شعورها بالذل من تلك اللطمة التي سددتها إلى وجهها، وتصارع خوفها من قرار أبيها بألا يعودا إلى القاهرة أبداً.

اليوم، وبعد الأعوام الثلاثة، تستعد لاختبارات المرحلة الإعدادية وها هي تجلس على مقعد صغير بجوار نادية هانم في المستشفى لتراقبها وهي تحتضر.

وعدتها أنها لن تموت قبل أن تضعها على أعتاب الجامعة.

هل تحصل حقاً على الثانوية العامة لتدخل الجامعة؟ وإن دخلت وخرجت منها...

إلى أين؟!

ستبقى تنحني كل يوم لتمسح أرضية العمارة. ستبقى لا تدخل بيت ياسر إلا خلسة وعند غياب علا ووالدها عنه.

ربما كان أبوها على حق. لو بقيا في الصعيد لكانت الحال أفضل.

هناك لن تكون ابنة البواب. لكن إن بقيت هناك لما تعلمت شيئاً مما تعلمته ولا رأت شيئاً مما تحبه وتراه.

ماذا تحب؟!

لا تحب شيئاً من مصر إلا لحظاتها على جدار الكورنيش المتهدمة وياسر إلى جوارها.

رفعت بدرية وجهها من بين كفيها تنظر إلى وجه الغائبة. لم يسألها ناصر إن كانت تريد الذهاب إلى المدرسة بعد انقطاعها عنها أسبوعاً، وهو يعلم أنها تؤدي الاختبارات بعد عشرة أيام.

لم تحاول رشا زوجته حتى أن تعرض حضورها فترة الصباح.

في حزم أصدر تعليماته لها بمرافقة والدته والمبيت لديها كأنه ما رفض دخولها إلى سيارة الإسعاف ذاك الصباح.

هو فقط لم يرد أن تدخل بدرية مع والدته إلى المستشفى الذي يعمل فيه، لكنه يخبرها بشكل أو بآخر أنه يملك وحده رسم أقدارها وخطواتها.

لا يهم... هي تعلمت الكثير. يهمها فقط ألا تموت نادية. تحبها وتريدها وتعلم أن بقاءها على قيد الحياة وحده يضمن لها وجودها إلى جوار ياسر وحصولها على الثانوية العامة ودخولها الجامعة.

ربما تتخرج منها وتعمل عملاً يجعلها تبتعد بعمران بعيداً عن وعاء الماء وقطعة القماش التي يغسل بها سيارات السكان.

فلتشكر خالقها. سكان العمارة عددهم ليس كبيراً.

انقبض قلبها وهي تنظر إلى عيني نادية الغائرتين.

تحبها وتشعر بحنوها وتمسكها بالحياة. من أجلها تشعر بسعادتها الحقيقية كلما نجحت أو اجتازت عاماً دراسياً، لكنها تشعر أيضاً أنها تفقدها وأنها تضيع.

إن ضاعت نادية قد تضيع بدرية معها.

سمعتها تتأوه فنهضت عن مقعدها لتجلس إلى جوارها وأمسكت بيدها تهمس:

صباح الخير... سأستدعي الممرضة.

أشاحت نادية بوجهها كي لا ترى دمعة تغالبها.

في كل مرة تفتح عينيها... في كل مرة تعود وتعلم أنها ما زالت حية على فراش هذا المستشفى يمزقها الألم، تتمنى لو ماتت وتعود الصغيرة إلى مدرستها وتتمنى لو تبقى لأنها تعلم أن موتها قد يكون نهايتها.

وحدها قد لا تستطيع إكمال المسيرة. ناصر قد يطرد عمران وابنته. كان يثور كثيراً لتكفلها بمصاريفها المدرسية.

الجاحد... تشكوه إلى الرب كل لحظة.

شعرت بأصابع الشابة الرقيقة تمسح على شعرها الأبيض القصير وجاءها صوتها يقول:

هل تتألمين..؟ هل أنت بخير؟!

استدارت نحوها تملأ منها عينيها. جميلة بدرية. أصبحت شابة رغم أنها ما زالت في السادسة عشرة. كل ملامحها رقيقة ناعمة. هل تظنها تبكي من ألم في جسدها؟ تبكي خجلاً منها وحباً لها وحزناً على فراقها وضعفهما معاً. وبصوتها الذي زاده المرض وهناً على وهنه القديم قالت:

أرسلك الله أنتِ ومروة لأعلم كم هو رائع أن ننجب فتاة. اسمعي أرجوك.

قبل أن تكمل كلماتها استدارت تنظر من الذي سيدخل غرفة المستشفى بعد تلك الطرقات الصغيرة.

في لحظة تركت كف نادية التي وضعتها على أصابعها وشهقت شهقة صغيرة وهي تصيح:

ياسر!

وسيم هو الآخر. شعره الناعم وبشرته البيضاء وملابسه الأنيقة تجعل كل قلب يهفو له عند النظر إليه.

وتمتمت نادية كأنها تتلو عليه تعويذة، وسمعته يقول:

صباح الخير... المدرسة مغلقة... كيف حالك طنط نادية؟!

كانت الشابة تنظر إليه في لهفة لا تستطيع أن تخفيها عينا الطفلة ولا تستطيع أن تتجاهلها عينا المرأة النائمة.

كانت في مكانها كالمصلوبة تراقبه وهو يتقدم ليمسك بكف حبيبته بإحدى كفيه ويجلس بها إلى جوارها. إنه يلتصق بها في حنان ويمد يده الأخرى إلى كف نادية قائلاً:

تماثلي للشفاء... عودي إلينا... الحياة هناك لا طعم لها من دونك.

ابتسمت نادية في سكون.

هي المرة الأولى التي تراهما مجتمعين أمامها، لكنها تجزم وتقسم بكل شعرة بيضاء في رأسها أن هذين الطفلين يحب أحدهما الآخر.

من أكبر أخطاء الكبار أن يظنوا أن الصغار لا يكبرون.

ربما كانت تتوهم، بل هي حقاً واهمة. كيف تدعي عجوز مثلها كجذع حطب أنها تعرف ما الحب وما مرَ يوماً بشرفتها ولا سقى يوماً منها ظمأ أو أشبع جوعاً؟

ترى الموت بوضوح هذه المرة. تراه على المقعد الخاوي الذي لا يجلس عليه أحد من زوارها ويكتفون

إما بالجلوس على الأريكة الجلدية السوداء أو الجلوس إلى حافة فراشها.

تراه وفي كل مرة تحاول أن ترفع كفها وتشير إليه لتقدمه إلى زوارها. شيء يسكتها... شيء أقوى منها يجعلها تتأوه في صمت وتغمض عينيها مبتعدة بوجهها عن ابتسامته الصغيرة.

ماذا ينتظر؟!

أسبوع وهي تراه يجلس على المقعد الذي لا يقترب منه أحد. هل تراهم زوارها يرونه هم أيضاً؟!

أبداً لا يرى وجه الموت إلا من جاء هو من أجله. ككل المرات حاولت أن تفتح شفتيها وتخبر أحدهم أنه إلى جوارهم يجلس، لكن ذاك الشيء يمنعها. ذاك الشيء يتجول في عنقها ويمسك بعنق الكلمات في حذر وهدوء.

أطلت مروة من خلف الباب المغلق وعاد ياسر يقول:

هل وجدت مكاناً للسيارة؟

ابتسمت القادمة وهي تهز رأسها بالإيجاب وأخذت بدرية بين ذراعيها حين نهضت عن فراش نادية، والتقطت منها صندوق الحلوى الذي جاءت به.

بطرف عينيها تابعت مروة، وتمنت لو تجلس على المقعد الخاوي، لكنها ككل الزوار عبرت من جواره

جبينها قبلة.

بعد ألم ومحاولات كثيرة اعتدلت في فراشها قائلة:

جمعكم الرب عندي. لن أوصيك ببدرية فهي ابنتك. ولن أوصيك ياسر بمروة فهي في قلبك. بدرية... أريد أن أوصي كلاً منكم بنفسه.

حاولت مروة كثيراً أن تخبرها أنها تبدو أكثر توردا، وأقسمت بدرية أنها ما رأتها تعتدل في فراشها قبل اليوم، ولا كان صوتها بهذا الوضوح والقوة، لكن نادية رفعت كفها بشيء من القوة اندهشت نفسها لها قبل أي منهم وأكملت تقول في هدوء:

سؤال كبير سكن رأسي حتى قبل أن يسكنه الشيب. كنت دوماً أسأل لماذا يصاب المريض بأكثر من مرض، ولماذا تحيط بالتعيس ألف قصة ومشكلة؟ حتى الفاشل نجده فاشلاً في أكثر من مادة ودرس. هل فكر أحدكم يوماً في هذه القصة؟ هل تعلمون لها إجابة؟!

سقطت دمعة من عينيها وهي تستدير نحو المقعد الخاوي كأنها تستمهله بعض الوقت، أو ربما تشكره لأنه منحها القوة التي ما شعرت بها أعواماً طويلة، وعادت تنظر إلى وجه بدرية الذي غاص في الخوف والفزع وأكملت تقول:

الألم ذكي... ذكي جداً يا بدرية لكنه خسيس.

رفعت عينيها الواسعتين الجميلتين في دهشة تنظر إلى وجهها. شيء فيه يختلف. شيء مضيء وفي إضاءته جمال وقوة. في حضوره شهقة وهيبة وفي صوته فراق... ووداع!

سقطت نادية بكفها على أصابع مروة تمسك بها في حزم قائلة:

نعم الألم جبان وخسيس. لا يختار سوى الضعفاء. يضرب ضربة واحدة وينتظر. إن قاومناه... إن رددنا الضربة هرب، لكن إن نكسنا رأسنا يشحذ قواه ويكشر عن أنيابه الدنيئة ويضرب في كل مكان ومن كل اتجاه وبلا رحمة أبداً.

يوماً استسلمت إلى اللطمة الأولى وما أدركت الحقيقة إلا مع اللطمة الأخيرة وأنا عجوز على فراش الموت.

كل الخطايا مباحة. كل الذنوب أمامكم. الرب يغفرها جميعاً إلا الاستسلام.

إياكم والاستسلام لكف خسيس دنيء.

كانت أنفاسها تتهدج وصدرها يعلو وينخفض كأنها ما كانت من لحظة كخطباء المساجد ووعاظ الدروس.

كان زوارها كلّ غارق في كلماتها يفكر فيها وهو يتألم، عدا زائراً لم يبرح مقعده سبعة أيام.

وحده نظر إليها في حنان. أدركت الحقيقة وهي على بوابة الرحيل!

أدركت نادية شفيق ما لا يدركه أحد، وبلّغت به زواراً ثلاثة نظر إلى وجوههم الحزينة وهو يبتسم.

يوماً سيزور كلاً منهم على حدة. يوماً سيرون وجهه كما تراه نادية الآن، لكن هل ثراها وجوههم ذاك اليوم تكون أقل ضياعاً وانكساراً بعد كلمات هذه العجوز الحكيمة؟

لو وعى أحدهم كلماتها. لو فهمها. لو عمل بها. يثق الزائر أن لقاءهم به سيكون له مذاق آخر.

الصمت والاستسلام للألم ولضربات الأقدار وحده يجعلها تتكاثر كالحشائش الجهنمية!

الألم هو الجبان الكبير!

يريدها ليلة تختلف... يريدها بداية وميلاداً.

للمرة الأولى في عمره يترك ياسمين تبيت لدى والديه. لن تشعر بشيء. من جوار حبيبته سيتسلل في الصباح ويذهب إليها ليعيدها إلى البيت أياً كان عدد ساعات نومه قليلاً بل حتى إن لم ينم على الإطلاق.

قرر أن يبدأ ويفعل شيئاً كبيراً مع ندى.

أخبرها أنها لن تجده عند عودتها من المطار. أخبرها أنه في الغردقة لمتابعة أحد مشاريعه الهندسية هناك. لكنه ليس في الغردقة. هو هنا في بيتهم الصغير.

أعدّ لها باقة زهر كبيرة وأشعل موسيقي هادئة ناعمة كخيوط الحب حين يلتف أحدها حول الآخر ليغزل قصيدة لا تموت.

أحضر لها من "فوشون" علبة حلوى، على كل قطعة منها صورة لهما معاً تمت طباعتها في سويسرا.

أحمق مجنون إن دفع ما يقارب الألف دولار ثمناً لعشرين قطعة شيكولاتة صغيرة تمت طباعة صورتهما عليها.

لا ليس أحمق. هو حزين. في روحه شرخ يحاول أن يشتري دواء يرتق به ثقب روحه وتعطشها إلى الحنان

والحب.

سيضمها إلى صدره. سيضع بين شفتيها قطعة شيكولاتة ويهمس في أذنيها أنه هكذا تناولها يوماً لتذوب في أحشائه وتسبح في دمه. يريدها أن تشعر بذات الإحساس. يريد أن تبتلع صورتهما علها تعلم أنهما معاً قطعة واحدة يحرم فصلها.

سيضع شفتيه خلف أذنها الصغيرة ويرجوها أن تبقى، ولينجبا طفلاً آخر. ليصبحا عائلة أفرادها لا يسافرون وإن سافروا يسافرون معاً.

لقد حادث والدها. أخبره أنه يحتاج إلى زوجته. أخبره أنه تعب من مراقبة حقائب سفرها "اللوي فيتون" وهي لا تهدأ ولا تُغلق أبداً.

هو كابنته حاول كثيراً أن يقنعه هو بالانتقال إلى الحياة في دبي، لكن بعد ساعات طويلة سكت الرجل وأعلن أنه يوافق على أن تبقى هي في مصر وتذهب إلى دبي ثلاثة أيام فقط في الشهر.

هذه المرة ستبقى شهراً كاملاً لا أسبوعاً تمضي أيامه وتتسرب بين فرع شركتها في مصر وزيارات أصدقائها ومعارك الموظفين وقضاياهم.

وصلت. عادت لتغفو ويغفو بين ذراعيها من دون خوف أو ترقب. على صدرها سيضع رأسه ويحكي جميع قصصه التافهة والكبيرة. سيحكي لها عن

ياسمين. عن حيرته. عن ذراعيه المفتوحتين، وكم اشتاقت إلى وجودها.

يريدها زوجة لا زائرة.

حين فتحت الباب ورأته أمامها في منتصف البهو الأنيق ابتسمت ابتسامة صغيرة قائلة:

كنت أعلم أنك هنا.

تقدم نحوها وفتح ذراعيه. ليست هذه الكلمات التي يجب أن تقولها زوجة وجدت زوجها في انتظارها، لكن يكفيه أنها عادت لتبقى.

شعر بها تهدأ على صدره. يعلم أنها تحبه، وتعلم أنه يحبها، لكن حتى الحب له ألف لغة وألف لسان إن لم يتقن أطرافه توحيد مفرداته ما فهم طرف الآخر ولا شعر بحبه وإن كان ملء الأرض والسماء.

إن اختلفت لغة كريم يوماً فلقد حزم أمره على أن يعلمها حروفها ومفرداتها وإن طال بقاؤهما على مقاعد الدراسة. يكفيه أنها باقية.

هي أيضاً تشتاق إليه. تحبه. وحده رجلها. فقط يؤلمها أنه ما زال كالمراهقين والمحمومين.

من على صدره فتحت عينيها وأغمضتهما وهي تهمس في شيء كاللوم والعتاب:

اشتقت إليك.

كأنها ألقت عليه قصيدة. كأنها قطعت الرحلة مشياً على قدميها، كأنها أشعلت من أجله قناديل الأرض ومصابيح السماء.

كلمة شوق من حبيب إلى محروم طال انتظاره هي أحلى وأجمل من أزهار الأرض.

بشفتيه تسلل إلى شفتيها وضمها في حنان. لم تقاوم أبداً. لم تخبره ككل مرة أنها في حاجة إلى أخذ حمامها وتبديل ملابسها. لم تردد ذات الجملة عن إجهادها وكيف أنها لم تنم منذ استيقظت وتوجهت إلى فرع الشركة في دبي.

شعر بها تنتزع مكبس شعرها وتلقي به بعيداً عنهما. انتفض قلبه، وشعرها الناعم النحاسي يتناثر على كتفيه. وهمس كأنها عروس:

كل مفردات اللغة في قلبي ما خلقت إلا لتشكل اسمك.

سارت به نحو الأريكة التي تحبها وابتسمت. يعلم أنها تحب إشعال المدفأة التي أصرت على بنائها في البيت.

خلعت حذاءها ومعطفها ورمت برأسها على صدره ورأته يلتقط علبة أنيقة وضعها في كفها. في هدوء حررتها من تلك الشريطة الحمراء ونظرت بداخلها ضاحكة وسمعته يقول:

خذي قطعة، ندى. ابتلعينا معاً. من مثلنا لا ينفصلون.

كالأطفال كريم. مهندس رائع ناجح. نفذ ألف مشروع، لكنه عندما تختلي به تجده كالأطفال. ما زال يهدي الحلوى والزهور والموسيقى، لكنها تحبه بل هي به هائمة.

تناولت إحدى قطع الشيكولا وقالت:

لست في حاجة إلى ابتلاعك. سكنتني منذ الأزل. أنا في حاجة إلى ابتلاع حزني ولساني كي لا أعاتبك على مكالمتك مع بابا.

كان في صوتها مرارة وتهكم. كان في عينيها شيء لا يصدق. كيف ظهر وهي في صدره كانت تغوص منذ أقل من اللحظة وفي هدوء قال:

أنا...

قاطعته وهي تضع في فمه قطعة الشيكولاتة السوداء قائلة:

أليس مهرجان الشيكولاتة والزهر هذا احتفالاً بنصرك؟ ألا تظن أنك أقنعته أن حياتنا تموت إن لم أبق؟

كأنها طعنته... أهكذا ترى الأمر؟

نصر وهزيمة؟!

وضع كفه على أصابعها الجميلة وأخذ يشرح لها... كم يشتاق إليها... كم يريدها. يريد بيتا فيه زوجة وأم. حياة فيها حبيبة حين يطلب رقم هاتفها لا يسمع رسالة

تخبره أنها في بلد آخر ومكان بعيد. ليس في الأمر نصر له أو هزيمة لها.

هو أراد فقط أن ينصر الحب في حياتهما معاً.

كانت ثائرة. لحظات عناقه لم يدم تأثيرها أكثر من دقائق. قطعة الحلوى السوداء التي ابتلعتها حركت بداخلها شعورها بالمهانة لأن زوجها رفع أمر تذمره من غيابها إلى والدها.

في عصبية نهضت عن مقعدها وتوجهت إلى جهاز الأسطوانات وأغلقت صوت الموسيقى، واستدارت تقول في صوت خفيض لكنه ثائر:

أحبك حباً لا أعرف مداه، لكنه يقف عند حدود قراراتي واختياراتي. أعود من أجلك وياسمين وفرع الشركة لكن إن أنت أشعلت شمع الأرض وجمعت زهرها وحلواها لن ترغمني على صنع شيء لا أريده. لسنا أطفالاً. وحدك طفل يركض إلى بابا يشكو ويهدد!

أنا امرأة ولست طفلة ولن يجعلني الحب يوماً أكون!

كيف تحولت الموسيقى الهادئة إلى عاصفة؟ كيف تسخر من كل ما فعل؟

نهض عن مقعده وهو يشعر أنه يبتلع دمعة كبيرة. حاول أن يأخذها بين ذراعيه. حاول أن يضع شفتيها بين شفتيه، لا يريدها أن تقتل أشياء أخرى بكلماتها. لا يريدها أبداً أن تنهزم في قلبه.

ما كان يشكوها إلى والدها. كان يشكو فراقها وشوقه إليها. ما كان يهدده لكنه كان يخبره أنه يحتاج إليها معه مع ابنتهما. هل أخطأ إلى هذا الحد؟!

وإن أخطأ، أما كان من الممكن أن تنتظر حتى الصباح؟ كيف في لحظة أصبح الحب وحده مهزوماً بينهما ويحاول وحده أن ينهض به من تحت حذائها الذي خلعته وتزداد هي إصراراً على ابقائه طريح الأرض.

ما عاد يستمع إلى كلماتها الغاضبة. ما عاد يرى شيئاً سوى شعور عميق بالخجل والأسف من كل ما فعله.

رآها تمرّ من أمامه. رآها تصعد سلالم البيت إلى غرفتهما. ستبقى كما هي.

حبيبته وأم الحبيبة الأخرى لكنها من قبيلة أخرى تتحدث لغة لا يفهمها.

في هدوء انثنى يحمل صندوق الحلوى وسار به حتى أصبح واقفاً أمام المدفأة التي تحبها وأفرغ جميع قطع الشيكولاتة على ألسنة اللهب... قطعة عقب الأخرى!

وقف يراقب القطع وهي تذوب. وجه حبيبته ووجهه يذوبان في صمت ومعهما حب كبير، حتى النار لا تنكر حلاوته وغباءهما معاً في التضحية به!

حين أنهت حمامها ووقفت أمام خزانة ملابسها تخرج أحد قمصانها أسقطت "البرنس" الوردي الذي ترتديه عن جسدها، وبذات الكف الصغيرة الناعمة أسقطت تلك المنشفة التي كانت تغطي بها رأسها لتحميه من الماء.

نظرت إلى وجهها في المرآة وعضت على شفتيها في ألم. وعدت والدها أنها لن تعاتب كريم. وعدته أنها أبداً لن تفتعل معه مشاجرة وتحاوره بهدوء بعد أيام من وصولها. بل كانت طوال الطريق من المطار تحلم بأن يأخذها بين ذراعيه إن كان في البيت، أو تتجه إلى الغردقة في ذات اللحظة من دون حتى أن تبدل ملابسها.

تذوب في هواه. تحبه. تحب رائحته. تعشق ذراعيه القويتين كلما أحكم اغلاقهما حول جسدها. لكنها ما استطاعت. حين وضع بين شفتيها قطعة الشيكولا، حين أغمضت عينيها على الزنابق البيضاء التي أحضرها، شعرت أنه يسخر منها ومن والدها. شعرت أنه يحتفل بانتصاره عليها.

لم تعتد أبداً أن يرسم لها أحد مصيرها. حتى كريم كان دوماً يحترم قراراتها. ليس له الحق أبداً أن يهدم ما

تبنيه وبناه والدها في أعوام فقط ليستبقيها تنتظره في البيت.

تموت إن فعلت. لماذا يعصف بطفولته هذه بحياتهما؟

شعرت بشيء كالقشعريرة تهب على جسدها العاري، وأسرعت تضع جسدها في قميص أبيض ثم انحنت تنفض شعرها إلى الأمام وتعود به إلى الخلف ليستعيد قوامه بعد سجنه تحت الماء.

ألا يكفيه جمالها وحبها ووفاؤها؟ لمَ يريد أن يضعها في قفص إلى جواره؟

كانت تضع زخات من عطر "جيرلان" على عنقها وصدرها وهي تهز رأسها. هو لا يعني أن يسيطر عليها لكن ما يعجز عنه هو السيطرة على مراهقته التي لم تنته.

ألا يكبر أبداً؟ ألا يعي أن ياسمين الصغيرة كبرت؟ ألا يفهم أنه في منتصف الثلاثين؟ لو تعلم كيف تجعل زوجها يكبر قليلاً.

استدارت تخطو نحو فراشها، وقبل أن تلقي بجسدها عليه شعرت بانقباضة في قلبها.

جرحت قلبه. نعم تعلم. فلتذهب إليه. فلتعتذر. فلتبدأ هي مرة واحدة عناقاً بينهما من دون أن يأتيها هو ساعياً بذراعيه وشفتيه.

في اللحظة التي امتدت أصابعها نحو مقبض الباب وجدت كريم يدخل إليها.

كان على وجهه هزيمة وحزن لا يمكن إلا أن تراهما.

لِمَ لا ينظر إليها في لهفته ككل المرات؟ لِمَ لم يتجول بعينيه العسليتين الواسعتين على كل قطعة فيها ولم يرسل ذراعيه تشدانها إلى صدره؟

هي من فعلت به ذلك.

في صوت حانٍ قالت:

قسماً بالعظيم أحبك. اشتقت إليك كثيراً.

لم يعلم أبداً هل أثارت كلمات ندى تلك الابتسامة المريرة التي طافت على وجهه، أم إن المرارة العميقة تلك كانت على حب أطعمه النار منذ لحظات؟ أم تراها على نفسه وحلمه وظنه أنها يوماً تفهمه هيَ أو والدها؟ لكنه أبداً لن يردها. أبداً لن يدعها تقول كلمة حب ويصدها.

اخذها بين ذراعيه ودس شفتيه في طيات شعرها وأرسل قبلات صغيرة كسيرة قال من خلالها:

دعينا نجرب شكلاً جديداً للحب أو لما بقي منه!

أدركت الأمور وأصبحت واضحة أمام عينيها قبل حصولها. على كل شهادة يجب أن تهب عليها عاصفة كبيرة. تريد الأقدار أن تدخل بدرية الامتحانات ورأسها دائما مبتور على صدرها.

لماذا؟! لا تعلم. ربما لأنها ضعيفة كما قالت نادية هانم.

ماتت نادية قبل اختبارات الشهادة الإعدادية بأسبوع.

هو ذاته الأسبوع بأيامه السبعة كان يفصل بين اختبارات الشهادة الابتدائية حين ذهب بها عمران إلى الصعيد وأعلن أنها لن تعود. سقطت محمومة بعد صفعة عمتها تلك حتى عادت بها نادية كأنها فعلت فقط ليعاودها الأمل. وفي اللحظة التي انتصب فيها رأسها من جديد، وقبل أن تدخل إلى الامتحانات، وأيضاً بأسبوع عاجلها القدر بلطمته الجديدة.

رحلت السيدة التي تمنت لو يوماً تقول لها "ماما" أو "طنط" لكنها ما استطاعت.

رغم هذا أدت الامتحانات. كان ياسر يشجعها. كانت أمه من خلف لوعتها على فراق الراحلة ترجوها أن

تستذكر وتنجح.

نجحت وها هي الآن تجلس إلى جوار أبيها على أريكته الخشبية أمام باب العمارة التي لا يعرفان مصيرهما فيها بعد رحيل سيدتها وتسلط ناصر عليهما وتعمده إهانتها وإهانة والدها كلما رآهما. كم مرة يصرخ أنه وفي لحظة سيطردهما. كم مرة وبدرية تحمل له حقيبته وتتبعه إلى عيادته! يتهكم وهو يسألها هل حقاً تدخل المرحلة الثانوية أم تعود إلى رشدها وتتركه يصطحبها إلى بيته للعمل فيه لحاجة رشا إلى خادمة وهي في بدايات حملها؟

تخشاه كثيراً. بل هي تخشى شيئاً واحداً: أن يطردهما. تخشى الابتعاد عن ياسر.

أخبرها والدها صراحة في إحدى نوبات بكائها ونحيبها أنه لن يعود بها إلى الصعيد حتى تحصل على شهادتها الجامعية إن شاءت. أخبرها أنه من السهل جداً أن يذهبا إلى عقار آخر ويمارسا نفس مهامهما إن ضاقت بهما الدنيا.

اختلست نظرة إلى والدها الجالس إلى جوارها. لا شيء في حياته سواها وسوى إناء الماء الذي يغسل به أتربة أحذيتهم عن المدخل والسلالم وتراب القاهرة عن سياراتهم.

ترى ما الذي يحدث قبل اختبارات الثانوية العامة بأسبوع؟!

انتفض جسدها وهي تتخيل موت عمران أو مروة. ما بقي لها سواهما رغم أنها تشعر أن كليهما ما بقي فيه شيء على قيد الحياة بعد رحيل نادية عن الأرض.

شعرت بكفه تربت على فخذها في حنان قائلاً:

كاد المدخل أن يجف. أرجوك أدخلي وعاء التنظيف إلى غرفتنا. لا تحملي هماً لشيء. فليهوِّن الخالق عليك وعلينا فراقها.

ابتسمت في هدوء، وفي اللحظة التي همت فيها بالنهوض، رأى الإثنان سيارة تقف بباب العمارة غادرتها سيدة وقفت تنظر إليهما وإلى المبنى لحظات ثم قالت:

هل هذا العقار هو رقم 4؟!

قبل أن يجيبها أحدهما التقطت عيناها تلك اللوحة الزرقاء المعلقة إلى جوار باب العقار لتكمل حديثها قائلة:

تحرك أنت والتي معك. قم معها احملا الحقائب.

تقدمت بدرية نحوها في هدوء تراقب وجهها المتجهم.

جميلة هذه القادمة من السفر. شعرها مموج فوق رأسها في إهمال. وجهها أبيض وملامحها رقيقة دقيقة،

لكن كان واضحاً أنها عصبية لم تمر على ملامحها يوماً ابتسامة.

كانت تحمل في يدها حقيبة جلدية رقيقة كأنَ في داخلها عصا صغيرة تضمها إلى صدرها لا تتركها تتدلى إلى جوار جسدها الجميل.

من فرط عصبيتها وقسوة كلماتها لم يجرؤ عمران أو ابنته حتى على سؤالها عن وجهتها.

كانت تتقدمهما إلى مدخل العمارة. تتبعها بدرية تحمل حقيبة صغيرة وخلفها عمران يحمل على كتفه الحقيبة الأكبر.

فتحت بدرية عينيها في ذهول وهي ترى الزائرة تضرب بحذائها إناء الماء الذي تركه والدها بعد مسح المدخل لتنسكب المياه راكضة في كل اتجاه.

قبل أن تنطق حرفاً دوى صوت سقوط عمران بالحقيبة التي يحملها عندما انزلقت قدماه تحت خيوط الماء والصابون. صرخت في جنون بعدما ألقت الحقيبة الأخرى من يدها من دون وعي.

كانت تبكي وهي تمد يدها نحوه تحاول أن تساعده على النهوض تسأله إن كان بخير. كان غارقاً في ذهوله كأنه لا يفهم ما الذي حدث أو إن كان حقاً بخير.

قبل أن تهدأ أو حتى يعلم هو إن كان بخير أو كسرت أضلعه من جراء سقوطه ذاك، هدر صوت الزائرة في

غضب يعصف بقلب بدرية. كانت تزأر لسقوط حقائبها في الماء المتسخ. كانت تصيح وتخبرهما أن الخطأ ليس خطأها بل خطأ حماقتهما لتركهما إناء فيه ماء متسخ في منتصف بهو البيت.

من خلف دموعها الجريحة وهي تحاول النهوض بوالدها عن الأرض حدجتها بنظرات مشتعلة من الغيظ والاحتقار وصاحت تقول:

سيعاقبك الله... من أنتِ؟!

لم يكن في عيادة ناصر مرضى فخرج يتفقد أمر تلك الضوضاء، وحين رأى ذاك المشهد نظر إلى وجه الغاضبة التي ما زالت تصيح وصاح هو الآخر يقول:

من أنتِ؟! ماذا حدث؟

كان عمران بالكاد يقف مستنداً إلى ذراع ابنته التي تغالب السقوط به، ونظروا جميعاً إلى الحانقة لتقول دون اكتراث:

كفاكم فوضى وفضولاً.

استدارت تنظر إلى عمران تتفحص وجهه ثم أكملت:

ليس بك شيء. تحرك أنت وهي بالحقائب إلى الدور الثالث.

وسمعت بدرية ناصر يقول في ذهول:

ملك؟ ملك مندور؟!

ما عساه الآن يصنع؟!

لمَ يشعر أن لعنتها ستطارده؟ لن ينسى أبداً كلماتها قبل أن ترحل. كانت تذهب في غيبوبتها وتعود دقائق فقط لتبحث عن بدرية أو مروة. كلما اقترب منها أشاحت بوجهها عنه.

ليلة رحيلها، وحين بدأت أنفاسها تضطرب، تركت له يدها لحظة ثم جذبتها في عنف كأنها ما طاقت احتمال لمسته.

كانت بدرية إلى جوارها تجلس من الجهة الأخرى للفراش تضم كفها اليسرى في حنان. نظرت إليه نادية وأخبرته أن رشا ستذيقه الأمرّين. كيف ينسى كلماتها تلك حين قالت:

"بعت العقار إلى رشا وأنت لا تملكه. يشهد الرب أني أراها تبيعك لأنك ملّكتها عنقك يا أحمق"!

كانت تعلم إذن؟! لهذا كانت تكرهه. لهذا طردته يوماً من العيادة ثم تراجعت عن قرارها لأنها تعلم أنها لا تملك تنفيذه. بل ربما فعلت لأنها أرادته أن يعلن هو الحقيقة. لكن نادية ليست بذاك الدهاء. عاشت أمه كقطعة عجين

صغيرة يشكلها والدها وناصر كيف شاءا. لكنها لم تمت أبداً كقطعة عجين. ماتت كقطعة حنظل بين شفتيه.

تلك الكلمات مرارتها لا تبرح لسانه. كأنها نبوءة ينتظر تحقيقها.

كيف استسلم لزوجته؟ كيف باعها العقار؟ لأنها أخبرته أن أمه مريضة نفسياً ومن الممكن أن تفعل شيئاً أحمق كحماقة حبها لابنة بواب ضئيلة من ديانة أخرى ومن عالم آخر جاءت. لأنها تمسك بزمام قلبه وروحه وتحركه كيف تشاء أم لأنها كما يدعي لنفسه تحبه ولن تضره يوماً؟

لم ير دمعة واحدة في عينيها يوم ماتت أمه لكن هو نفسه لم يبكها.

حين ألقى عليها النظرة الأخيرة وهي غافية في صندوقها على أرض الكنيسة، انتفض لا حزناً ولا لوعة لكن خوفاً من نبوءتها ومن كلماتها الأخيرة.

أقل من أسبوع على موتها يوم أخبرته رشا أنها حادثت الدكتور وحيد واتفقت معه على التنازل عن بيته.

أخبرته أن الرجل أخبرها أن ولده سيلتحق بالجامعة في أمريكا وأنه في نهاية العام الدراسي القادم سيصطحب ابنته بعد حصولها على الثانوية العامة ويعود إلى أمريكا.

وحدها رشا عقدت معه الاتفاق وبدأت تتصل بكبرى شركات العقار تعرض عليها عمارة وجيه للبيع خاوية.

كانت تجري اتصالاتها وتبرم اتفاقاتها كأنها حقاً ملكت العقار أباً عن جد.

في لحظات كثيرة كانت كلمات أمه تقرع أذنيه لينظر إلى زوجته في ذعر شعرت به وأدركته. دوماً تتلوى بين ذراعيه وهي عارية تقسم له بحبها. وكيف لا تحبه وهي تستعد لإنجاب طفل آخر منه؟ كيف لا تراه سيدها وهي تتحمل وحدها مسؤولية بيع العقار والاتفاق مع ساكنه الوحيد لتترك زوجها يمارس عمله في المستشفى والعيادة في هدوء؟

يعلم أنه ليس طبيباً ناجحاً كوالده، ولم يكن ابناً ناجحاً، لكنه زوج مطيع لامرأة يراها تشتعل ذكاء وقوة. كم مرة أخبرها أن هناك شقة مندور المغلقة. الشقة ليست مؤجرة بل هي مباعة. لكن حتى هذه لم تقف في طريق حلمها بالملايين التي يقبضونها.

أخبرته رشا أن عائلة مندور، إن ظهر أحدهم، لن يكون بوسعه أن يفعل شيئاً سوى أن يأخذ منهم مبلغاً من المال لقاء بيته وسيسعد به لأنها ستجزل له العطاء. أكثر من عشرين عاماً منذ هجرتهم إلى أمريكا حيث كانت ملك حينها في عمر بدرية الآن تقريباً.

هل عادت لتبقى؟ وهل حقاً تقبل أن تبيع وهي مالكة والآن أيضا شاغلة للعين... كيف يخبر رشا؟!

ستغضب. بالكاد انتهت من مشكلة زيدان، لكنها قوية وستجد طريقاً إلى ملك رغم جنونها الذي رآها عليه منذ لحظات.

لن يتدخل. ستفعل هي كل شيء.

زوجته على حق حقاً. العقار يجب أن يكون باسمها وكل ما له علاقة بالمال والمنازعات.

لا يريد الدخول في أي مهاترات. سيبقى إلى جانبها يساعدها وينفذ ما تراه.

لن يخشى من كلمات أمه. تلك كانت تخاريف ميت. زوجته على كل شيء منه أقدر. لو فقط يعلم كيف يخبرها بأمر عودة هذه المجنونة ابنة مندور إلى الظهور من جديد.

أدار محرك سيارته وشحذ من صدره نفساً عميقاً.

لا شيء يهم. رحلت امرأة كانت تقف في طريق سعادة رشا، وجاءت امرأة صغيرة مجنونة لكنها أبداً لن تهزم زوجته.

زوجته تهزم كل الصعاب وكل النساء إن لزم الأمر، فهي وحدها في قوة محب وجيه، وناصر ما شعر يوماً بالأمان إلا بين يديه ويديها!

أمامها يوم طويل. لن تترك الفندق الذي حضرت للمبيت فيه. كيف رفضت الحمقاء الصغيرة أن تتولى تنظيف البيت؟ وكيف لم تفكر ملك نفسها باستحالة المبيت في بيت لم يفتح بابه منذ عشرين عاماً؟ حتى الكهرباء تم قطعها عنه. عندما استدارت تسأل عمران عن شقة طنط نادية لتضع حقائبها في بيتها وتمنحه مفتاح البيت ليقوم بتنظيفه هو وابنته، أخبرها الرجل أن السيدة ماتت منذ شهر. تلك اللحظة رأت على وجه ابنته الحمقاء غمامة سوداء ودمعة تكاد تسقط إلا أنها ابتعلتها في قسوة عندما صاحت ملك تأمرها بتنظيف البيت.

الوقحة أخبرتها أنها ليست خادمة العقار، وأن حملها للحقائب ليس لمساعدتها بل من أجل والدها. بل أضافت أن والدها ذاته ليس مفروضاً عليه أن يفعل.

كادت تفتك بها لولا أنه عاد يقول أن لا شيء بإمكانه أن يتم، والكهرباء مفصولة عن البيت.

تركت له المفتاح ونسيت لاشتعال عروقها من ابنته أن تأخذ أي شيء سوى حقيبة يدها ورفيق دربها. عكازها.

مدت يدها تتحسسه داخل حقيبته الجلدية يغفو إلى جوارها على فراش الفندق الوثير. ستتركه هنا حتى تنتهي من متابعة أعمال النظافة وعودة الكهرباء. عندها فقط ستعود لتصطحبه إلى البيت.

نهضت عن الفراش وهي شبه عارية. سترتدي الثياب التي جاءت بها بالأمس وتتناول إفطارها وقهوتها في بهو الفندق وتعود إليه في المساء.

أمام مرآتها نظرت إلى صورتها المنعكسة. تكره أن تكون بتلك العصبية التي كانت بها، لكنها تكره تطاول الخدم ووقاحتهم. عند انتهاء كل شيء واستقرارها في بيت والدها ستتولى تهذيب الشرسة الصغيرة.

ابتسمت ساخرة. جميلة الفتاة، بل وأيضاً أنيقة على أن تكون ابنة بواب في سمرة ذاك الرجل وانكساره. تكره الجمال... نعم... تكرهه.

جمالها أشقاها. جمالها أضاع من عمرها أعواماً. إن كانت ابنة بواب بيتها تظن أن جمالها يمنحها الحق في العناد والوقاحة. ستعلمها أن جمال النساء وحده يكفي لأن يذلهن الذل الكبير.

جمعت شعرها البندقي الجميل من دون اهتمام، وقبل أن تفتح باب غرفة الفندق ربتت في حنان على تلك الحقيبة الجلدية النحيلة ووضعت عليها قبلة حانية كأنها تعدها بعودة سريعة.

الأشياء وحدها تُهوى وتُعشق... الأشياء لا ترحل ولا تخون!

لم تنم لحظة واحدة. لم تغف عيناها ولم تستطع أن تغلقهما أبداً. كلما حاولت أن تفعل سمعت صوت مروة يردد الفاجعة الكبرى.

بعد غوغاء قدوم زائرة الأمس وصياحها فتحت مروة باب بيتها تستطلع الأمر.

القادمة لم تحاول حتى رد تحيتها. كانت تمطر عمران بكلماتها الجارحة عن ضرورة تدبير من ينظف بيتها.

حين أخبرتها أنها ستتصل لها بخادمتها وترسلها لها لم تقل سوى كلمة شكر عابر. هي حتى لم تتأثر بعرضها عليها المبيت لديها.

نقلت حقائبها إلى بيت جارتها، ودخلت إلى المصعد في غضب وهي تحمل ذاك الشيء الذي يشبه العصا الذي لم يفارق يدها منذ خروجها من السيارة التي حملتها إليهم.

مروة رأت دموعاً كثيفة وجريحة في عيني بدرية. أخذتها إلى بيتها وجلست تحادثها وتطلب منها ألا تتسرع في الحكم على الزائرة. أخبرتها أنها لا تعرف أي تفاصيل عنها فيوم تزوجت وحيد أخبرتها نادية أن

أحمد مندور هو من يسكن أمامها وأنه قام هو الآخر بالهجرة إلى أمريكا مع ابنته التي كانت تبلغ السادسة عشرة تقريباً.

بدرية بكت رغماً عنها وهي تنهار تحكي لها عن إهاناتها لها.

أخبرتها أن الأمور ستتضح وأنها سعيدة لأنها أوضحت لها أنها ليست خادمة العقار.

كل هذا لم يقتلها. كل هذا لم يذبحها. ما ذبحها سوى لحظة أخبرتها أنها شهور وتلتحق بدرية بمدرسة الروضة الثانوية وتصبح طالبة شابة في أجمل مراحل الدراسة. وضعت كفها على يدها وأخبرتها أنها ستساعدها ولن تتركها أبداً حتى تدخل الجامعة.

كيف تنسى تلك الدموع الكثيفة التي تكونت في عينيها وهي تخبرها أنها أصبحت أملها الذي تعتمد عليه في انقضاء الأيام بعد سفر ياسر؟

آه. تموج النار في ضلوعها كلما تذكرت.

سيسافر خلال أسابيع للدراسة في أمريكا. ياسر يتركها.

لم تعد بدرية صغيرة. في السادسة عشرة هي. في ملاوي الصعيد تكون الفتاة زوجة وأمّاً في هذه السن. لكن هنا في القاهرة هي لا شيء سوى ابنة عمران

حارس عقار شعرت به ينهار على رأسها قطعة تلو الأخرى بالأمس.

لم تغمض عينيها لحظة.

انتفضت من فراشها تنظر حولها. صعد أبوها إلى منزل ملك يتابع أعمال التنظيف ويراقب الخادمة التي جاءت في الصباح الباكر.

الدكتور وحيد خرج إلى عمله. ستحادث ياسر. ستطلب منه أن يتسلل من باب التخديم في مطبخهم ويلقاها على سلالمه حيث تدخل هي من الباب الموجود في غرفتهم.

تريد أن تعرف لماذا لم يخبرها. وتريد أن يعرف أنها لا يهمها إن سافر أو بقي. لكن كانت فقط تنتظر أن يعلمها هو بأمر رحيله.

من هاتف أبيها حادثته. كعادته أغلق الخط وعاد هو بها يتصل. كان صوته عائداً للتو من النوم، وفي ألم ابتسمت تخبره أن يلقاها.

نام ملء عينيه فما يعنيه من أمرها شيء، لكنها ستلقاه لتعلمه أن رحيله أو بقاءه أمران علمتهما من أمه ورغم هذا لا يشكلان لها فارقاً.

وضعت شالاً على ملابس نومها. قد يعود والدها إلى الغرفة وإن رآها بملابس الخروج تدخل من باب

التخديم قد يثير الأمر في رأسه الأسئلة، لكن بملابسها ستقول إنها كانت تكنس السلالم.

رنة صغيرة على الهاتف أخبرتها أنه وصل. في هدوء تسللت وهي تنثني تحت الباب الصغير، وصعدت بعض الدرجات لتجده يجلس على السلم الحديدي وهو أيضاً ما زال في ملابس نومه وقال في حنان:

صباح الخير.

بحيرة طفولتها. بإشارات عاطفة أنوثتها الصغيرة نظرت إلى وجهه... إلى عينيه.

ليست غاضبة ولا حانقة. هي فقط خائفة حتى الموت من سفره وفراقه.

من يبقى لها إن سافر؟! لماذا تعجّل القدر ضربته هذه المرة؟ ما أفاقت من رحيل نادية بعد.

عاد ينظر إليها في قلق. كان شعرها ثائر، وواضح أنها حتى ما غسلت عينيها المتورمتين. مدّ يده يجلسها إلى جواره على السلالم الحديدية وقال في هدوء:

أخبرتني أمي عن زائرة الأمس. لا تحزني أرجوكِ.

ازداد اتساع عينيها.. ماذا أخبرته أمه، وهل كان واضحاً إلى هذا الحد ذعرها وموتها؟

عاد يكمل:

لا تتحدثي معها أبداً. وعدتني أمي أن تطلب منها الابتعاد عنك. لا تغضبي من أجلي أنا.

سقطت دموعها في ذل كبير. عن القادمة وتطاولها عليها يتحدث. عن إشفاق أمه عليها وتطوعها بالتوسل إلى القادمة هو يتحدث.

لو يعلم أنها لا تمانع أن تضع ملك مندور حذاءها على عنق بدرية ما بقي من عمرها فقط إن كان هذا يبقيه.

خانتها دموعها أكثر، وانفجرت تبكي غضباً من نفسها وهي تتمنى لو تسحق ملك عنقها بحذائها ويبقى هو معها. شعرت بالمهانة لأنها تتمنى ذلك وهو حتى بسفره لم يخبرها.

صاح في إشفاق كبير يضمها إلى صدره قائلاً:

بدرية... لن ندع حمقاء تبكيك هكذا.

هي المرة الأولى التي يضمها إليه. هي المرة الأولى التي تشتم فيها بدرية رائحة ملابسه وتلمس كتفه بعينيها ووجها بل وروحها.

لم تستطع أبداً أن تفهم ما الذي بداخلها يدور. لكن هو شيء أقرب إلى الحب الذي تراه على شاشة الأفلام التلفزيونية وتحدثت عنه فتيات المرحلة الإعدادية طويلاً. هو شيء أكبر حتى من ألم موت أمها ورحيل نادية.

شيء أكبر من شعورها بالذل أمام ملك والدكتور ناصر. شيء يجثم على صدرها ويبقي عينيها مفتوحتين لا يطيق جفن فيها أن يلمس الآخر.

كان نحيبها يعلو وهو يهدهدها ويؤرجحها على صدره ويقسم لها أنها لو شاءت يذهب هو إلى ملك عند حضورها ويقتص لها منها إن شاءت.

ما إن تمالكت شيئاً من أنفاسها واستعادت سيطرتها على حروفها وأطرافها المرتعشة حتى قالت:

أستحلفك بالله... لا تسافر!

في حيرة كبيرة وقفت ملك تنظر إلى جارتها بعدما فتحت لها بعد طرقاتها على الباب.

كانت تحمل صينية كبيرة مغطاة بمفرش أبيض نظيف. أخبرتها أنها أعدت لها وللخادمة وجبة تتناولانها. بقيت تنظر إليها لحظات في وجوم. لا تريد أن تقبل منها طعاماً، ولا تريد أن تفتح باباً للصداقة والحديث والزيارات، لكنها قبلت الاستعانة بخادمتها وقبلت أن تترك حقائبها بالأمس لديها فكيف تفعل؟

بضيق واضح أفسحت لها الطريق، وفي حرج كبير كانت تنظر إليها. كيف تكون بهذا الجمال وأيضاً بهذه الغلظة؟ وضعت الصينية على طاولة الطعام التي ما زالت عليها أكوام من تراب الأعوام، واستدارت لتعود إلى بيتها. لن تبقى معها بعد هذا الوجوم والضيق الواضح على ملامحها.

لم تدعها حتى للجلوس ولم تشكرها بل أخبرتها أنها لن تأكل شيئاً، فلها وجبة عشاء في الفندق ستتناولها عند عودتها لدفع الحساب وإحضار بقية أشيائها.

في اللحظة التي وصلت فيها إلى الباب استدارت تنظر إليها في ثبات كأنها قررت شيئاً وقالت:

العقار خالٍ يا ملك لا سكان فيه سوانا أنا وأنتِ. أنا أمّ وموظفة. أنا في إجازتي السنوية لكن ما زال وقتي ضيقاً. ما جئت تطفلاً ولا فضولاً. كان والدي إماماً لمسجد الحسين. علمني أن أساعد جيراني من دون أن أفرض وجودي عليهم. إن حدث واحتجت إلى شيء، أي شيء، أرجوك لا تترددي، وثقي أني سأفتح لكِ بابي بابتسامة من القلب.

أغمضت عينيها حتى لا ترى الزائرة تأثرها بما قالت. هي لها ممنونة وبها سعيدة لكن لا تريد أبداً أن تفتح باباً قد يصبح من الصعب أن توصده.

خرجت "أم فتحي" خادمة مروة تخبرها أنها انتهت من جميع الغرف وما بقي سوى صالة البيت الواسعة والمقسمة إلى أجزاء ثلاثة. أحدها فيه طاولة طعام والآخر صالون صغير وجزء كبير يطل على النافذة الرئيسية وليس فيه إلا بيانو أسود ضخم.

تنهدت ملك وهي تخبرها أن السيدة مروة أحضرت طعاماً لن تتناول هي منه شيئاً ولتفعل به ما شاءت.

حملت أم فتحي الصينية متجهة بها إلى الداخل وهي تخبرها أن الطعام كثير، وأنها ستأخذ ما يبقى منه معها. سقطت ملك على أحد المقاعد في هدوء من دون أن تبالي بذاك التراب الذي تصاعد حولها كأنه أبخرة دخان لحرائق تشتعل في صدرها. هناك أناس يقتلونها بالغباء والصلافة مثل بواب العمارة وابنته، وهناك أناس يذبحونها بالطيبة والكرم تماماً كهذه الجميلة التي تعلم ملك أنها جاءتها بابتسامة وعادت بألم في القلب. لكنها بما فعلت مؤمنة. أغلقت باباً لا تحتمل أبداً أن تفتحه. بل هي تكاد تكون سعيدة لأن نادية شفيق ماتت. كانت صديقة أمها وما كانت ستتركها وما كانت هي تستطيع أن تصدها.

هي قطعت كل هذه المسافات وجاءت فقط لتكون وحدها.

كانت تراقب المرأة وهي تنفض الأتربة عن النافذة الكبيرة. وبعدما انتهت منها استدارت تحاول أن ترفع ذاك الغطاء السميك الموجود تحته البيانو، ونهضت تأمرها ألا تمد نحوه إصبع. فلترفع عنه غطاء القماش وكفى.

كل قسماتها وملامحها الرقيقة وبشرتها البيضاء الصافية مكسوة بطبقة من الجليد. صوتها الناعم الآمر لا يدع لأحد أمامها فرصة لنقاش أو جدال. أنت تعلم أنها تتحدث لتسمع ما تقوله وتدرك تماماً أن ليس أمامك إلا الامتثال أو الصمت. لا شيء في عينيها الخضراوين الداكنتين يشيع دفئاً أو ترحاباً. لا شيء في صوتها يمنحك أماناً أو حناناً.

أرخت الخادمة رأسها في سكون وانطلقت تضرب بمنفضتها المقاعد. في لحظة كانت ستطلب منها أن تدخل إلى إحدى الغرف بعيداً عن التراب لكنها ما فعلت.

شيء في عيون السيدة يطلب الصمت بل أيضاً يتركك مسكوناً بشعور خفي بالغيظ. فليتطاير حولها التراب. فليسكن وجهها ويتسلل إلى رئتيها علها تسعل أو تستغيث أو تتألم أو حتى تطلب كوب ماء.

لكنها أبداً لم تعترض. رفعت إحدى ساقيها الجميلتين ووضعتها على الأخرى تراقب أم فتحي تضرب على المقاعد وتنفض عن الجدران ترابها في صمت كأنها لا تشعر بشيء. كأنها جسد جميل يجلس وروحه عنه غائبة!

غاص في مقعده بينما طغت على وجهه ابتسامة كأنه خرج للتو منتصراً من غزوة كبرى.

هذا العام سيكون آخر أعوامه في المحروسة. أيام قليلة ويسافر ياسر إلى أمريكا. تم قبوله في كلية الهندسة بإحدى جامعات بوسطن. هذا العام سينهي جميع مشاريعه ويسلمها رغم أنه لن يغلق مكتبه الهندسي. مصر ليست فقيرة. سكانها فقط لا يعرفون كيف يحصدون أموال الأثرياء!

في أعوام بقائه على أرض مصر استطاع وحيد زيدان أن يحصد الملايين من مشاريع المكتب. لن يغلقه بل سيترك أسعد رشدي يديره تحت إشرافه. سيحضر هو مرتين كل عام لمتابعة كل شيء.

لن يبني سد أثيوبيا فى وجه نهر المال والنساء على هذه الأرض.

عندما أصرت زوجته على العودة إلى أرض مصر كان هو نفسه يفكر بالعودة إليها. أثرت الأزمة الاقتصادية هناك عليه. راسله صديقه أسعد رشدي يخبره أن مصر فيها أناس يسعون إلى حياة المنتجعات والفيلات. أخبره أنه سيساعده ويوفر له مقر شركة هندسية يبدآن

فيها مشروعاً كبيراً على أرض كبيرة مساحتها أكثر من خمسين فداناً على طريق مصر اسكندرية الصحراوي يملكها رشدي لكنه لا يثق فى أحد ثقته في وحيد. الله يحبه. عرض صديقه جاء فى الوقت المناسب مع إلحاح مروة وجنونها.

"ميلسا" آخر عشيقاته فى تلك الأرض جنت عندما علمت أنه يقيم علاقة مع جارتها الأرملة. تهدده بإفشاء أمره مع كل امرأة أخرى. كانت تراقبه وتتبعه. صاح مرة يخبرها أنها ستفضح نفسها لكنها ضحكت وقالت تلك فلسفة الشرقيات. هي يهمها أن لا تسقط امرأة أخرى في براثن دنيء مثله.

تركت الولاية بأكملها منذ شهور وانتقلت إلى ولاية بعيدة. ظنت أنها انتصرت عليه وأعادته إلى وطنه الأم.

وطنه الأم هو أذرع النساء.

النساء هناك أكثر هدوءاً فقط إن لم تكن إحداهن مريضة مثل ميلسا التى اعتبرت القصة واجباً وطنياً أن تحمي منه النساء.

الله يحبه. جاء إلى مصر وكسب الملايين مع أسعد. ابتعد عن جنون ميلسا، والآن سيقضي بقية العمر مناصفة بين وطنيه. فقط سيكون أكثر حذراً في الاختيار.

لم يخبرها لحظة أنه كان يريد العودة ليلومها دوماً على حضورهم. ليصب عليها مزيداً من الغضب.

لم يكن يريد أن يتزوجها. والده كان صديقاً لوالدها. أخبره أن لا فتاة تحتمل غروره ونرجسيته كفتاة على المبادئ والدين نشأت.

كاد أبوها أن يسقط مغشياً عليه من فرحته يوم ذهبا لخطبتها.

وكيف لا يفعل. هو أحد الأوائل على دفعته.

هو مهندس والفتاة حمقاء صغيرة دخلت تصافحه من دون حتى أن ترفع عينيها وتنظر إلى وجهه نظرة واحدة لتعلم أي هدية أرسلها لها الخالق.

أخذ منها ما اكتفى منه. كل شيء له دور وكل نهاية لها آوان. نهايتها حانت.

لا يصدق أن كل شيء يسير وفق ما يريد. الدكتور ناصر أخبره أنه سيمنحه مبلغاً من المال لقاء الشقة لأنه يريد بيع العقار بأكمله وسيفعل بعد أن يصل إلى اتفاق مع ملك مندور التي حتماً ستفعل هي الأخرى.

ليس في حاجة إلى المبلغ الذي سيمنحه إياه، لكنه في حاجة لأن يترك الشقة ويسلمها له. يريد ألا يترك أمام زوجته فرصة للمماطلة والبقاء.

حين يخبرها في نهاية هذا العام وبعد الانتهاء من قصة الثانوية العامة أنه باع الشقة ستتبعهم كالجرو

الضال ليس لأنها لا تريد ترك أبنائها فكلاهما يعلم أن كلا الولدين لن يكونا معها.

ستذهب معه لأنه يحتاج إلى وجودها ويتلذذ به. هي أرخص خادمة وأأمن رفيق على بيته وشؤونه. حتى إن رفضت يسعده كثيراً أن يراها بلا مأوى أو سكن.

تنفق كل راتبها على متطلباتها وعلى الحمقاء الصغيرة.

يعلم أنها لا تملك ثمن غرفة على أسطح أي من عمارات الروضة أو حتى حي الحسين إن شاءت العودة إليه..

نعم. أعادته إلى مصر ليكسب ملايين ويتجول فوق أجساد شرقية ملتهبة لم يكن أبداً ليتذوقها لو بقي في واشنطن، لكنه ما زال يتمنى إذلالها.

هو في الحقيقة لا يريد إذلالها. هو فقط يريدها أن تعلم أنها ضئيلة لا قيمة لها في الحياة إن لم تتبعه.

سيكون عاماً مختلفاً. سيكون مسك الختام حتى في النساء.

رأى جارته منذ يومين تقف معه في انتظار المصعد. ألقى عليها التحية فهزت رأسها من دون حتى أن ترفع عينيها نحوه. حين دخلا المصعد معاً سألها إلى أي دور تريد الصعود كأنه لا يعلم أن لا سواهما يقطن البيت.

لم تجب. مدت إصبعها الأبيض الجميل وضغطت مفتاح الدور الذي يسكنانه. ابتلع لعابه وأخبرها أنه جارها وأنه سعيد بعودتها فلا جيران لديه قبلها.

حين فتح لها الباب وطلب منها الخروج هبت نسائم عطرها على وجهه. حتى عطرها جميل لم يشتمه يوماً على إحدى نسائه.

هذا العام سيكون عام ملك وحدها. لن يغادر مصر من دون أن يعبر جسدها الجميل ويطبع على كل قطعة في وجهها قبلة، وتضع هي بشفتيها الورديتين الجميلتين ألف قبلة على كل قطعة في جسده.

يعرف كيف يتعامل مع غرورها وبرودها. كل النساء اللواتي يدّعين هذا الغرور هشات ضعيفات يتمنين السقوط.

هذا الصباح أرسل لها باقة كبيرة من الزهر. باقة منتقاة بكل عناية ومعها بطاقة صغيرة كتب عليها:

"ستصبح الزهور بين يديك أجمل يا جارتي فلا تبخلي عليها بلمسة من أصابعك".

لن تجيب، وربما لن تطلب رقم هاتفه المدون على البطاقة لتشكره. لن يغضب ولن يصاب بالإحباط. بعد الغد سيرسل لها صندوقاً رائعاً من الحلوى.

عنده ألف خطة، لكن هو قرار واحد اتخذه. عامه الأخير هو عامها وحده.

حين حادثه ناصر وأخبره أنه سيؤجل عملية التنازل عن شقته حتى التفاوض مع ملك، أخبره أنه كفيل به بل ربما جعلها تشتري إحدى فيلات مشروعاته، فامرأة مثلها لا يليق بها أبداً أن تسكن في الروضة.

يعلم جيداً أي فيلا بالتحديد سيبيعها إياها وفي أي مجمع.

القادمة هي لعبة العام الأخير وتحديه، ولن يغادر مصر إلا منتصراً.

اعتاد أن ينتصر. هزمته ابنة الحسين مرة لكنه سيهزم من شاء ألف مرة.

تحسس بعض الأوراق بكفه وهو يبتسم. يكاد يراها الآن عندما يطرق الزهر بابها. ستشهق لجمال الباقة وستحاول استعادة ملامحه في رأسها. يراها تمسك بالبطاقة بين يديها وتشعر بالخجل لأنها لم تبادله الحديث.

هل تحادثه وتشكره أم تصطنع مزيداً من البرود والسكون؟ أي طريق تختاره سيرضاه ويسلكه لكنه أبداً لن يعود إلا بعد أن يتذوقها.

تلك الشهية ما زالت رائحة عطرها تملأ أنفاسه وتحرك جسده قطعة تلو الأخرى!

دمعة صغيرة انزلقت من عينيها وهي تراقب وجهه الحزين النائم.

أسبوع واحد ولن يكون هنا. أسبوع واحد ولن ترى شيئاً على الأرض جميلاً.

قاوم كثيراً قرار والده بالسفر إلى أمريكا للدراسة الجامعية. أخبره أنه لا يحب الحياة هناك. بكى بين ذراعيها طويلاً وجففت هي دموعها قبل أن يراها لتخبره أنه قرار صائب وأن حصوله على بكالوريوس الهندسة من هناك هو الصواب سواء أراد بعده الاستمرار أم العودة.

تحادثا كثيراً وطويلاً، لكن أبداً ما أخبرته بأنها تتمنى لو يبقى. أبداً ما أخبرته أن أباه أعلن لها أنه لن ينفق قرشاً على تعليمه إن أصرّ على البقاء في مصر. أبداً لن تخبره أنها رجته أن يترك ياسر يدخل إلى الجامعة الأمريكية أو الألمانية ويعود هو مع علا في العام القادم إلى أمريكتهما لكنه رفض.

لماذا يتلذذ بإذلالها. لماذا حقاً يسعد بحزنها وانكسارها. تعلم أن رجالاً كثيرين يخونون زوجاتهم. في العمل هناك ألف قصة تسمعها من زميلاتها وزملائها

لكن لا أحد فيهم أبداً يريد لزوجته أن تعلم، ولا زوجة أبداً أخبرتها أن زوجها لا يكترث إن عرفت أم لا.

إلا زوجها. أصبح يراودها شعور كبير بأنه يوماً ما قد يحضر إحدى نسائه إلى بيتها ويدخل بها إلى فراشها أمام عينيها لكنه لن يفعل.

ليس إكراماً لها أو تحرجاً بل ثقة منه ومنها أن هذا ما عاد في شيء يعنيها.

أصبحا عدوين يتقاسمان بيتاً وفراشاً، واختصَ كلٌ منهما بابن يحبه.

ضاعت علا منها. وضاع ياسر منه. لا شيء بقي فيها سوى الأمل في العام القادم.

في العام القادم يذهب وابنته إلى أمريكا. لن تذهب معهما. ستبقى وحدها.

راتبها يكفيها. بل ستحاول الادخار ربما استطاعت أن تذهب إلى وحيدها مرة كل عام، فهي تعلم أن أباه لن يمنحه ثمن تذكرة يزورها بها.

أرخت رأسها في هدوء ودمعة تسقط من عينيها لتعود وتنظر إلى وجه النائم في فراشه.

كم ستفتقده. كم ستكون الحياة موتاً بعد رحيله.

تسللت بكفها إلى كفه ووضعته بين أصابعها في حنان.

تعلم أن الله سيرعاه هناك ويرعاها هنا. لن تكون وحدها. بدرية هنا. هي ابنتها.

منذ رحيل نادية وهي ملتصقة بها.

تضاعف انكسار الصغيرة وحزنها منذ تلك اللحظة التي أهانتها فيها ملك.

لا تكرهها بل تكره فشلها في صداقتها. كانت تتمنى حقاً لو تصبحان صديقتين.

لن يكون هنا سواهما في العام القادم.

امرأتان وحيدتان وطفلة شابة وكفّ عمران.

انتفضت وانتفض جسدها . ما زالت لا ترى في هذا الرجل سوى تلك الكفَ التي أشعلتها من دون أن تعرف.

كفَ ما زالت تغمض عينيها عليها ليلاً وتتجاهلها كلّ صباح.

مَن على الأرض يصدق أن امرأة في جمالها وعملها ولقائها بكل هؤلاء الرجال تهوى كفّاً عريضة خشنة تسكن رأسها وتهز أوصالها.

كفَ رجل أسمر لا يعرف حتى القراءة والكتابة. رجل يعمل حارساً لبيت تسكنه. كف يمدها ليلتقط ما تضعه له فيها وهو لا يعلم أنها بعينيها تتجول على خطوطها وتتمنى لو تلمسها كما يوماً فعلت في مطبخ بيتها.

ألا يكفي هذا لتكره رجلها أكثر؟ ألا يكفي هذا لتنتظر سفره وتتمنى أن يكون من دون عودة حتى وإن

اصطحب معه ابنتها؟

ما زالت تراهن على الأيام. يوماً تكبر ابنتها. يوماً تصبح أمّاً وتغمض عينيها وتستعيد هي الأخرى كفَّ أمها التي صدتها كثيراً...

ربما عندها تعود أو حتى تحادثها على الهاتف وتقول لها ،وللمرة الأولى، أنها تحبها وأنها نادمة.

ستعدل الأقدار وتستردهم يوماً.

من دون وعي أو ترتيب دقت رأسها كلمات نادية يوم موتها.

"الأقدار لا تساعد الضعفاء".

اللّه يعلم أنها لا تستطيع شيئاً.

من صدرها سمعت صوتاً يضحك منها ساخراً. هي لم تحاول فعل شيء كبير لترى إن كانت تستطيعه أم لا. ضعيفة هي ومستسلمة ولهذا لن تساعدها الأقدار.

لماذا كل هذه الأفكار؟ دخلت غرفة ياسر لتوقظه. تريد أن تبقى معه كلّ لحظة من لحظات الأيام القادمة قبل سفره وعودتها إلى عملها.

كيف جابت رأسها كلّ هذه القصص؟

رفعت كفه تقبلها في حنان ولوعة تهمس توقظه وتخبره أنها أعدّت طعام الإفطار.

فتح عينيه ونظر إليها. عينا أمه بالدمع مغسولتان ويعلم أن دمعاً أكثر سيفيض بعد سفره، لكن لن يؤلمها

ويعيد ما قاله ألف مرة عن كرهه للسفر والفراق.

رفع جسده عن فراشه وضمها بذراعيه في حنان. كيف يتركها، وكيف يترك حبيبته التي تذوب أمام عينيه هي الأخرى؟ كم يتمنى لو يخبر أمه عن صداقتهما لكنها ستلومه لأنه أخفى أمرها عنها.

لا وقت للوم أو العتاب. هي أيام قليلة فيلكتفِ فيها بالعناق والوداع.

ألا يكفي أنهما معاً سيكونان وهو على أطراف الأرض البعيدة سيقف وحده بعيداً عنهما؟

كانت تشعر بانتفاضه بين ذراعيها، وتعلم أنه يشعر بنزف دمعها على كتفيه، لكنها قالت:

أعددت لك شعيرية بالسكر لن تستطيع إعدادها هناك. فلنفطر معاً.

قبل أن ينهض من فراشه ارتفع دبيب غاضب متلاحق على باب البيت، وانتفضت تذهب إلى الباب من دون أن تضع حجابها على رأسها.

لحقها ياسر ورآها تفتح الباب، وشهد بعينيه شيئاً يطير في سماء ردهتهم.

كانت ملك تصيح وهي تلقي بذراعيها باقة ورد كبيرة بديعة الألوان في وجه أمه قائلة:

أبلغي زوجك أن يبتعد عني. إليك بالشعر الذي أرسله.

بيدها ألقت ببطاقة وحيد التي خط عليها كلماته، وأسرع ياسر إليها في جنون. كادت باقة الزهر أن تصيب وجه أمه وأمسك بذراع الغاضبة بين يديه وهو يصيح:

أيّ كائن أنتِ؟! أبكيت طفلة يوم وصولك وجئت اليوم...اندفعت الأم تمسك بكفه بين يديها قبل أن يكمل حتى كلماته وهي تصيح تأمره بالدخول إلى غرفته.

حررت الغاضبة ذراعها من كفه ونظرت إلى أمه بعينيها الغاضبتين لتراها تنحني تحت قدميها تلتقط البطاقة وتنتصب لتقرأها.

لم تفهم ملك كيف يكون وجه مروة بكل تلك الدموع مسكوناً، ورغم هذا تلوح عليه ابتسامة وإن كانت حتى كسيرة كهذه.

رفعت رأسها وقالت في صوت خفيض:

انا آسفة . لا تغضبي. الدكتور وحيد لا يعني شيئاً مما دار في ذهنك.

كانت تحاول أن تفتح فمها لتصرخ وتخبرها أنه لا يهمها أبداً ما يقصده أو ينويه، وأن كلَ ما تريده أن يبتعد عنها بزهراته وكلماته، لكن أبداً ما لانت شفتاها ولا أذعنتا لها.

شعرت بإشفاق هائل عليها. شعرت بخجل مما فعلته بها، واستدارت تمضي نحو بيتها في غيظ كبير.

تحتمل كلّ شيء وأي شيء إلا أن تشعر أنها ضعفت وأشفقت على إنسان، فهي تعلم أن هذا وحده بداية نهايتها!

يشعر أن اليوم حقا نهايتها. بل هو لم يشعر بها يوماً قبل هذا اليوم.

لم تنم لحظة. استيقظ أكثر من مرة وهو يشعر بفراشه يهتزّ ليفتح عينيه في ذعر ويكتشف أنها من تنتفض وتبكي.

لم يرها على هذه الحال حتى يوم عاد إلى البيت ووجدها تضع الزهرات التي أرسلها إلى ملك في آنية من الكريستال في منتصف طاولة الطعام.

ظنها بذلك تفتعل مشاجرة، أو حتى تبدو غاضبة، لكنها أبداً ما فعلت شيئاً سوى أنه حين جلس إلى المائدة وجد في صحنه تلك البطاقة التي خطّ عليها بيده أجمل عباراته. انحنت تضع له صحن المعكرونة، وهمست تخبره أن في إمكانه أن يستخدم البطاقة مع امرأة أخرى فهو لم يكتب اسم ملك عليها.

حين رفع عينيه ينظر في عينيها السوداوين الواسعتين أكملت تخبره أنه، إن شاء وكانت لديه امرأة جاهزة، ففي إمكانه أيضاً أن يأخذ الزهرات.

ميتة الشعور والإحساس هي، لكنها ليلة الأمس أثبتت أن بمقدورها أن تموت ألف مرّة.

عندما مدّت كفها تهزه في الرابعة صباحاً ليصطحب ياسر إلى المطار رآها كأنها شجرة تدلت فروعها وقاربت على السقوط أرضاً.

ترى هل تعود إلى الانتصاب بعد سفره؟

لا يصدق أبداً أن امرأة على الأرض مجنونة بولدها مثل مروة.

حتى هو الشاب الوسيم الذي يخطو نحو أفضل جامعات أمريكا وأحلى النساء وأعظم البلاد يبدو في عينيه كسيراً كأنه في طريقه إلى حبل المشنقة.

نظر حوله وهم يجلسون إلى مائدة الإفطار التي أعدتها وعاد يقول:

ألم تستيقظ علا؟!

كأنها تحملّه وزراً فوق أوزاره قالت:

حاولنا إيقاظها لتذهب معنا إلى المطار لكنها رفضت!

كعادته كل مرة وكل يوم قال يدافع عنها:

ليس مهاجراً لنودعه جميعاً. شهور قليلة وتلحق به.

لن ترد عليه. لن تخبره أن ابنته ستذهب إلى ولاية أخرى، بل حتى إن التحقت بذات الجامعة فجميعهم يعلمون أنها إلى حزب آخر تنتمي.

بطرف عينيه رآه يضع كفه على كفّ أمه يخبرها أن لا شهية لديه للأكل.

نهض يخبرهم بالنزول إلى السيارة، وهو يسأل عن عمران الذي حادثه على الهاتف ليصعد ويأخذ حقائب السفر.

كان عمران ينتظر على الباب وما إن رآه حتى قال في ألم صادق:

سنفتقدك كثيراً.

لم يتمالك ياسر نفسه بل أخذه بين ذراعيه وهو يقول:

سأعود... سأعود... فقط اهتم بنفسك وببدرية.

في ذهول فتح الرجل عينيه وياسر على كتفيه ليبصر دموع أمه وهي تنزف على وجنتيها. تمنى لو كان يملك لها شيئاً يفعله، وصاح وحيد يأمره بحمل الحقائب فلا وقت بقي عندهما.

دخل الرجلان إلى المصعد مع الحقائب، وبقيت الأم منتظرة عودة المصعد ويدها تقبض على كف ولدها في جنون.

حين هبط إلى مدخل العمارة، وحين غادرا المصعد رأتها تقف وهي مستندة إلى جدار باب العقار في ذهول.

كانت عيناها تقفان على إحدى حقائب ياسر، ووجهها يبدو كأنه خلا من دمائه. وشعرت بكفَ وحيدها تنتفض بين أصابعها وهو يهمس اسمها.

لا تعلم كيف سمعته وهي عنه بعيداً تقف، لكنها رأت بدرية تستدير وتنظر إليه بينما تسمرت عيناها لحظة على وجه مروة لترخي عينيها في صمت لم يتستر أبداً على تلك الدموع التي غادرت عينيها.

شعرت به يغادر كفها وانطلق نحوها ولحقته وهي تقول:

بدرية . ما الذي أيقظك في الفجر؟!

كأنها تئن قالت:

ياسر هو أول من رأته عيناي في هذه البلد. رأيته حتى قبل أن أراكِ أو أرى نادية هانم. كيف لا أستيقظ لوداع من دوماً يذكرني ويحنو عليَ؟!

بكت من جديد وارتفع صوت زوجها يناديها لتخرج إليه، ونظر المسافر إلى صديقته قائلاً:

كم أتمنى لو أعانقك ويكون عناقنا هو آخر ما بيننا لكن...

عاد يناديه ونظر إليها كأنه يتمنى لو يضعها في جيب معطفه أو على سطور جواز سفره، وجالت عيناها بين وجهه ووجه الواقفتين في الشارع، وخلعت منديل رأسها وكورته بين يديه وهي تقول:

لا إله إلا الله.

غاب ياسر وغابت السيارة التي تحمله عن عينيها وهي في مكانها باقية، وعاد عمران يدخل إلى العمارة

ليقف أمام شحوبها ودمعها مذهولاً وقال في صوت جريح:

أين منديل راسك؟!

ما زالت لا تعلم من أين تبدأ. بل هي لا تعلم كيف تبدأ وهي تعلم أنها جاءت مصر لتنتهي.

في ملل أزاحت غطاء فراشها ونهضت عنه. ما زالت الخامسة صباحاً، لكن أين هو ذاك النوم الذي يعترف بالمواعيد؟

يأكلها الملل. تلوكها الوحدة.

هربت من الأصدقاء وضجة العمل والتلاميذ. هربت من بلد الضجيج والمال وعادت إلى وطنها.

أيهما وطنها؟!

أمريكا التي عاشت فيها مذ كانت في الخامسة عشرة وحتى تخرجت في الجامعة، أم دولة قطر التي عملت وعاشت فيها أعواماً طويلة؟

لا بلد منهما شعرت يوماً أنه وطنها. بلاد تتوإلى فيها الهزائم على رأسك هزيمة تلو الأخرى هي غربة يجب أن تهرب منها لكن إلى أين؟

مضى شهر تقريباً منذ وصولها إلى القاهرة.

شهر لم تحادث فيه أحداً سوى كلمات متقطعة لا روح فيها ولا نبض.

تتنفس أتربة وتتجرع مللاً وضجراً. يجب أن تعيد ترتيب أوراقها.

ستعمل. تعلم أنها ستجد عملاً يليق بشهادتها وخبرتها في مجال الموسيقى.

جاءت هنا لتبدأ من جديد. تبدأ شيئاً تحبه. شيئاً يحيي فيها شيئاً آخر.

إلى بهو البيت خرجت وهي تحمل كوب قهوتها بين يديها، وعلى البيانو الضخم وضعته وجلست.

هل تحيا الأشياء بعد موتها؟! وإن كان، هل تحيا الأشياء على أرض ميتة كأرض مصر... أرض قتلها الفقر والتلوث والاستبداد؟

نهضت عن مقعد البيانو الصغير وعادت إليه تحمل في يديها مفكرة صغيرة وقلماً من الرصاص. ارتشفت عدة رشفات من القهوة، ثم مدت كفها نحو المفكرة وبقي قلم الرصاص معلقاً بين أصابعها لحظات وكتبت:

المال... الزواج... الحب... و...

لحظات وهي تحاول أن تكتب الكلمة الأخيرة. لحظات تسقط برأس قلم الرصاص الحاد على الورق لكنها تبتعد عنه من جديد عاجزة عن كتابتها. ثم عادت في النهاية وكتبتها بسرعة كأنها تفعل قبل أن ترى نفسها أو تراها.

رفعت غطاء البيانو ومرت بأصابعها تعزف أحد ألحان موزارت التي تحبها. "سوناتا القمر"...

كانت في البداية بطيئة وأصابعها تعبر المفاتيح التي تحت يدها في تثاقل، لكنها غابت مع مفاتيح البيانو وعلا صوت عزفها. سقطت دمعات كثيرة من عينيها وهي بين لحظة وأخرى ترتطم بكلماتها.

المال... الزواج... الحب...

ترك لها والدها ثروة وبيتاً كبيراً في أمريكا. جمعت رصيداً كبيراً من عملها في قطر. لكن ما أسعدتها النقود لحظة.

أصابعها تهدر بالعزف كأنها فقدت عليها سيطرتها.

الزواج!

هشام عبد الواحد.

صور كثيرة تتقلب أمام عينيها، وتتلوي هي ألماً لرؤيتها، لكن أصابعها تطير فوق مفاتيح البيانو وعزفها يعلو جميلاً هادراً يستدعي مزيداً من الصور.

الزواج خذلها...

صوت الموسيقى يعلو، وأصابعها تتمخض عن موسيقى لم يعزفها يوم أحد. شيء في قلبها يكاد يغادر ضلوعها وهي ترمق بعينيها الكلمة الأخيرة. الأمومة...

أصابعها تنقر بخفة لكن بألم لا حدود له.

نعم هو الألم. هو الألم من تحت كفيه وحده تخرج موسيقى بهذا البهاء.

توقفت في لحظة. لم تستطع أن تحتمل أبداً رؤية تلك الصورة أمام عينيها.

شعرت أنها تختنق. شيء يطبق على عنقها في قسوة.

الأمومة... كم تعذبت لتكون أمّاً وكيف في لحظة ما أصبحت أمّاً؟

بظهر كفها أطاحت فنجان قهوتها.

أنت عندما تتألم تضرب بيد الألم كل ما حولك حتى إن ضربت الأبرياء.

آهة كبيرة جريحة عالية خرجت من صدرها وهي تنتفض كأنها طائر ذبيح.

قبل أن تلقي برأسها على مفاتيح البيانو البيضاء والسوداء وتسقط عليها التقطت عيناها كلمة كتبتها وانفجرت تبكي في جنون.

عندما فتحت عينيها تبحث عن مفكرتها الصغيرة تريد أن تمزقها لم تر على سطورها سوى كلمة قد تكون وحدها الدواء:

"الحب"!

لا يصدق أبداً أن هناك نساء جميلات، ورغم هذا يكنّ بهذه الغلظة والسخافة. بل هو أصبح يوقن أنّ ما من امرأة على الأرض بأكملها وإن كانت قبيحة الملامح في غلظة ملك مندور ودناءتها.

رفضت أن تمنح رقم هاتفها لعمران، وعندما أرسله يخبرها أنه يريدها في شأن يخص العقار، حادثته. طلب منها أن تدعوه إلى فنجان قهوة في بيتها فرفضت، وعندما اعتذر ودعاها إلى القهوة في عيادته أيضاً رفضت.

في برود طلبت منه أن يوجز ويخبرها ما يريد على الهاتف.

بعد تردد أخبرها ناصر أن الدكتور وحيد سيعود إلى أمريكا في نهاية الصيف القادم ويترك له شقته لقاء مبلغ من المال، وأنه قام بالفعل بتوقيع العقد معه. الحمقاء لم تنتظر حتى يتم كلماته لتقاطعه وتخبره أن هذا أمرٌ لا يهمها.

رجاها ناصر أن تسمعه، وأكمل في اختصار أنه سيبيع العقار هو الآخر ويهاجر من مصر. كالكلب كان يلهث

وهو يكمل خشية أن تقاطعه من جديد. يخبرها أنه يعرض عليها أي مبلغ تريده لترك الشقة.

لم يصدق نفسه أبداً وهو يسمعها تخبره أنها فعلاً ستترك الشقة. فالعمارة متهالكة والمنطقة ملوثة بل ووجود ناصر ووحيد وحتى حارس العقار وابنته يزيدون من قبحها وقماءتها.

قبل أن يبتسم وقبل أن يبدأ في تقديم عروضه المالية أخبرته ملك أنها رغم هذا لن تترك البيت أبداً.

حين حاول أن يفتح فمه ويخبرها أن ما سيعرضه من نقود يكفل لها أن تشترى شقة على النيل أو فيلا إن شاءت.

قالت في برود "لو منحتني كامل المبلغ الذي ستتقاضاه نظير العقار بأكمله لن أبيع شقتي. لا تعاود الاتصال بي أبداً وان التقيتك في مدخل البيت مصادفة لا تلقي عليّ التحية. هل فهمت"؟!

أغلقت بعدها الخط في هدوء لتتركه يموج في غضبه. هل تلاعبه؟ هل تخطط لطلب مبلغ كبير؟

لا يعلم. منذ كلماتها تلك وهو ينظر إلى الهاتف في ذهول كبير. رأسه توقف عن التفكير. هو حتى لا يجرؤ على محادثة رشا وإخبارها بالأمر، وكيف يخبرها ما فعلته تلك الحمقاء به وهي وحدها من أصرّت على أن

يحادثها ناصر زاعمة أن حديث الرجل إلى المرأة أسهل من حديث امرأة إلى مثيلتها.

سيحادث المحامي ويترك له الأمر علّه يجد مخرجاً معها.

لماذا كل الأمور معقدة؟ لماذا لا يسير شيء واحد في حياته بهدوء وسلاسة؟!

رفع رأسه ينظر إلى يسري ممرض العيادة وهو يدخل غرفته ويلقي على مسامعه كلمات لم يفهمها، وعاد الرجل يقول:

بدرية تريد المفتاح يا دكتور.

في تململ قال ناصر:

مفتاح السيارة؟! أعطيته لعمران عند وصولي.

عاد الرجل يخبره أن بدرية تريد مفتاح الشقة.

بعد لحظات أمره بإدخالها إليه لينظر إلى وجهها في دهشة.

جميلة بدرية كأنها في العشرين. يعلم أنها أكبر من كل من هم معها في المدرسة، وابتسم ساخراً.

أمه وحدها جعلت منها "إبنة مدارس".

عاد ينظر إلى ثيابها. بسيطة نظيفة لكن ما زالت بمنديل رأسها ابنة بواب. وقال في ضجر:

أيَ مفتاح تريدين يا بدرية؟!

كان وجهها الأسمر حزيناً هادئاً غاب عنه ذاك العناد والضجيج. يعلم أن موت أمه كسر فيها شيئاً كبيراً وأن حتى اهتمام مروة بها لا يحييه. بعد لحظات قالت:

أود أن تأذن لي بتنظيف شقة نادية هانم. منذ...

لم تستطع أن تكمل. لم تستطع أبداً أن تقول منذ وفاتها من دون أن تشعر بالدموع تخنقها، فأكملت بصوتها المرتعش تقول:

مضى وقت طويل وهي مغلقة.

في حدة قال:

تجيدين التنظيف إذن؟ لمَ رفضت طلب رشا هانم إذن بالذهاب إلى بيتنا بعد المدرسة؟!

اشتاقت إلى نادية واشتاقت إلى ياسر. تريد أن تدخل إلى البيت وتمسح عنه أتربته. تريد أن تخدع نفسها وتشعر ولو للحظات أن نادية ما ماتت وياسر ما غاب وسافر. لكن كيف تشرح له؟ في انكسار أخبرته أن ذهابها إلى زوجته سيبتلع ما تبقى من يومها هنا. والدها يحتاج إليها وهي تحتاج إلى وقتها لتستذكر دروسها وتحقق وعدها لأمه. تعلم أنه لا يهتم بأمه أو وعدها. تعلم أنه حتى لا يراها إنساناً يشعر بالحنين أو الألم. هو حتى لم يدعها إلى الجلوس أمامه. لكنها ابتلعت ذلها قائلة:

هناك أطعمة ما زالت في الثلاجة أخشى أن تكون قد تعفنت. سأنهي كلّ شيء وأعيد المفتاح.

بلا تفكير قال في هدوء:

سترسل رشا هانم خادمة من عندها. ما زالت مجوهرات أمي في البيت. أمّا أطعمة الثلاجة فسأخبر الخادمة أن تمنحك إياها.

كأنه بصق في وجهها. كأنه لطمها بحذائه. أغمضت عينيها وغادرت الغرفة.

يخشى أن تسرق مجوهرات أمه، ويظنها ما أرادت من القصة سوى أطعمة مضى عليها ما يقارب الشهرين... لا تلومه... أبداً...

إن لامت أحداً فهي تلوم نادية لأنها ماتت وتركتها. تلوم ياسر لأنه سافر وتركها ولم يحادثها مرة واحدة.

تلوم نفسها لأنها دوماً تنسى أنها أبداً لن تكون يوماً من البشر!

كانت تحمله بين يديها وتخطو به في الشارع الذي يغفو في نهايته نيل منطقة المقياس. شعرت برغبة عميقة في أن تمشي وهي تضمه إليها. بعينيها الخضراوين الداكنتين نظرت إلى الكورنيش. ليس مزدحماً.

القاهرة تخلو شوراعها من سكانها إن لعب فريق الكرة.

ابتسمت وهي تخطو إلى نهاية الكورنيش حيث ذاك الركن الخاوي المظلم المسمى بمقياس النيل.

ركن صغير مهجور مظلم جلست على حجارته المتهدمة المتسخة ورمت بعينيها إلى النيل.

كيف يكون في هذا البلد نهر جميل كهذا ولا يعرف سكان البلد كيف يستمتعون به أو يمنحونه ما يستحق من الاحترام؟

كل العرب حمقى. جميعهم لا يعرفون كيف يحسنون استخدام هبات السماء لهم. تنهدت ملك في هدوء وهي ترفع ساقيها في حذر لتدليهما فوق الماء ويدها ما زالت تحمل كنزها في حقيبته الجلدية.

متى تطلق سراحه؟! مذ جاءت وهي تكتفي بالنظر إليه أو تمر بكفها عليه وتتحسسه في حسرة وحنان.

ما زال هو الآخر يعاقبها! ما زال يسمح لها بأن تحتضنه وتضمه، لكن ما زالت لعنته عليها تقيّد أصابعها ولا تستطيع حتى أن تحرّره من حقيبته.

ونظن أن الأشياء لا تعاقبنا !

استدارت تنظر إلى النيل كأنها تهرب. أجمل مناطق النيل هي المقياس، لكنها أكثرها ظلمة واتساخاً. أليس أجمل ما في الإنسان قلبه وعقله؟

أوليس هما أكثر ما يسيء الإنسان استخدامه؟

حتى في أمريكا... ما رأت أحداً يعلم كيف يعدل بينهما أو كيف يستمتع بهما حقاً...

لكن هل علمت هي نفسها كيف تفعل؟! هل أجادت استخدام قلبها وعقلها؟

زاد ضغط أصابعها على الحقيبة الجلدية الأنيقة إلى جوارها.

رفعت رأسها إلى السماء كأنها تستغيث.

لماذا لم تنصفها السماء؟! أو لماذا لم تنصف هي نفسها؟

بعد أعوام قليلة من هجرتهم تفوّق والدها في عمله وأصبحت له مشاريع كبيرة تدرّ عليه أرباحاً هائلة.

هل عرف كيف يستعمل نقوده لإسعادها أو إسعاد أمها؟ اشترى لهم بيتاً أكبر وسيارة أنيقة. كان يسافر بهم إلى أوروبا كل صيف.

كيف تنسى ملك أنها أصبحت أمريكية جميلة مدللة، لكنّ شيئاً ما كان مبتوراً. شيئاً ما كان ينقصهم.

لا شيء كان يهدئها سوى عشقها للموسيقى الذي أنشأتها عليه أمها منذ الصغر. كانت ألفت عازفة بيانو رائعة وتفوقت ملك عليها. في المدارس الأمريكية كانوا يلتفون حولها ويصفقون كأنها معجزة. ثم سقطت في عشق آلة "الفلوت" كأنها ولدت على يديها من جديد.

ذهبت عشرات المرّات إلى مدرسة زيون كانيون Native Flute School في ولاية "أوتوا". كانت ألفت تصطحبها وتراقب كلتاهما انبهار أعضاء أكبر مدرسة في أمريكا بطفلة من الشرق جاءت.

عرضوا عليها أن تلتحق بالدراسة في أوتوا. عرضوا عليها تحمل نفقات تعليمها بالكامل حتى تخرجها في الجامعة. رفض مندور فهو ما كان في حاجة إلى الثراء. كان في حاجة إلى وجود ألفت وملك إلى جواره. كان يسكنه رعب مجنون أنهما إن تركتاه فلن تعودا.

أصبحت وأصبح لها اسم يتردد في مدارس الفلوت الكبرى، وأصبحت تأتيها دعوات، وتشارك في إقامة حفلات، وأصبح الفلوت عشقها الكبير الذي تهرب إليه من تعاسة أمها ألفت السعدني....

كانت عصبية حادة المزاج، لا شيء يفعله زوجها يسعدها. حتى ملك ما كانت تتذوق أبداً طعم شيء

وهي في ذاك الجو المشحون.

لم تشعر لحظة بالأمان. في كل يوم كانت تفتح فيه عيناها كانت تشعر أنها قد لا تجد والديها زوجاً وزوجة في نهاية اليوم .

أعوام بعد الثراء ولا مطلب لأمها سوى أن تعود إلى مصر، ولا شيء يرفضه والدها سوى تلك العودة.

قبل زواجها أخبرها مرة أنه كان يعلم أن أمها لن تعود إن وطئت قدمها مصر.

صراع لا تجد له مبرراً ولم تجد من الحياة فيه مفرّاً.

لو لم يصبح ثرياً لعادوا ربما جميعاً إلى شارع الحاسب هذا، وما أصبحوا أنصاف عرب وأنصاف أمريكيين.

ثروته كانت لعنة كرهتها أمها حتى سقطت ميتة قبل أن تتخرج ملك.

ماتت أمها من دون أن تزور مصر زيارة واحدة. وتنفس مندور الصعداء بعد موتها. لن تغدر به وتستولي على نصف ثروته.

ماتت رفيقة ملك في رحلاتها إلى ولايات أمريكا للعزف على الفلوت.

ماتت وشعرت بالحزن، لكنها ما توقفت يوماً عن العزف.

أصبحت عصاة الفلوت هي رفيق وسادتها وكتف أمها التي تضع رأسها عليها رغم أنها ما كانت طفلة عند موتها. أصبح أمها وصديقها.

بعد موت والدتها وتخرجها جلست يوماً في غرفتها في بيتهم الكبير في لوس أنجلوس وأمسكت بقلم الرصاص بين يديها وكتبت "المال" ثم وضعت على حروفه علامة "إكس" كبيرة.

ليس المال أبداً ما يسعد القلوب.

أيام قليلة بعدها وجاء والدها يخبرها عن هشام مؤمن. جاء يخبرها أنه يزور عمه في أمريكا وأنه دعاه إلى العشاء.

حين التقته في المساء في ذاك المطعم الفاخر الذي دعاهم إليه والدها استمعت إلى حديثه في انبهار.

وسيم هادئ، يتحدث عن الحياة والموت وكيف يتوه من كل البشر أحياناً أن يحيوا الزمن الواقع بينهما حتى يكاد معظم سكان الكرة الأرضية أن يموتوا قبل أن يعرفوا ما هي الحياة حقاً وكيف تعاش.

أخبرهم أنه يعمل في قطر، وأنه هناك تعلم معنى الميلاد. كلما بدأ مشروعاً، وكلما رأى البلد ذاتها تبدأ مشروعاً على قلب الصحراء ليصبح صرحاً وحديثاً للعالم كله، يفهم ويدرك معنى الميلاد والحياة.

في تلك الليلة وعند خروجهم من المطعم بعد تلك السهرة الرائعة منحته ملك يدها تصافحه وهي تبتسم.

شعرت أنها تريد أن تسلم حياتها لهذا الرجل قبل أن تنقضي ويأتيها الموت وهي بعد لم تحيا.

في طريق عودتها إلى جوار والدها قررت أن تجرب طريقاً أخرى إلى السعادة.

قررت في تلك الليلة أن تتزوج هشام وهي لا تعلم أنه ما كان قرارها وحدها!

عام بأكمله بعد هذه الليلة تردد خلاله على أمريكا أكثر من عشر مرات ليراها ويحمل لها الهدايا ويتنزه بها.

عام ذهب فيه مرتين إلى مدرسة زيون كانيون بأوتوا ليكون ضمن الحاضرين الذين احتشدوا ليستمعوا إلى عزف ملك مندور على "الفلوت". صفَّق لها كثيراً وضمَّها إلى صدره بفخر كما كانت ألفت تفعل يوماً. أخبرها أنه كان يحلم بامرأة رقيقة تهوى الموسيقى والقراءة وتلقي الشعر وتكتبه.

في إحدى زياراته أهداها "فلوت" يتجاوز ثمنه الخمسة آلاف دولار، وأخبرها أنه بين يديها سيصبح بالملايين.

همس في أذنيها أن شفتيها عندما تقتربان منه للنفخ فيه ستهب نسائم سلام على الأرض بأكملها.

صدقته ملك. نعم ولمَ يكذب؟!

ما كان في حاجة إلى نقود والدها ولا إلى جمالها. هو وسيم ثري شاب، أيّ جميلة ثرية على الأرض تتمناه.

اطمأنت إليه. لم تكن بها لهفة مجنونة إليه، لكن هي طمأنينة ظنت أنها إن لم تكن أعلى من الحب فهي على أضعف التقديرات مساوية له!

لا لم تحبه، لكنها أحبت الاقتران به. أحبت أن تنسب إليه وينسب إليها.

في كل مرة كان يودعها ليعود إلى قطر كانت تفتقد الخروج معه والاستماع إلى حديثه وفلسفته لكل الأمور وتبسيطها.

أيقنت وقتها أن السعادة هي الزواج والزواج هو تلك الشركة التي تحيا فيها في نجاح دائم إن أحسنت اختيار شريكك. ولا شريك في بهاء هشام مؤمن.

كيف ظنت أن السعادة في الزواج؟ لو كان الزواج سعادة ما كانت أمها تعسة.

الزواج التقاء شخصين. شخصان يا ملك كلّ منهما يرى الحياة بعينين مختلفتين. كل شخص له قلب والقلوب تتقلب ويسكنها الملل والرؤوس تراقب وتنتقد وتفهم.

الزواج هو أن تحيا مع إنسان حتى تفهمه. ويوم تفهم، كيف بالله تكون سعيداً وكيف تحيا بعدها معه؟

عادت تتحسس بأصابعها كنزها النحيل الذي يجلس إلى جوارها.

كم عاماً مضى عليها من دون أن تفتح حقيبته؟ كأن أفعى لدغتها. قد تقبل كل الذكريات بل هي ترضى أن تحيا كل الصفحات من جديد إلا أن تسمح لصورة واحدة لابنها بالظهور أمام عينيها الآن.

شعرت بصدرها يختنق وبأنفاسها تضيع ونظرت في غضب إلى مياه النيل. شيء في هذا النهر يجعلك تفقد تحكمك في رأسك، لكن إن كان يجب أن تفعل فلتحاول استعراض صور أيَ شيء وكلّ شيء إلا ابنها.

كانت الفتاة الوحيدة التي أقامت حفلي زفاف كاملين بثوبين مختلفين وفي بلدين بعيدين.

أقام والدها حفلاً كبيراً دعا إليه كلَ أصدقائها وأصدقائه الأثرياء، وفي نهاية الليلة طبع هشام على رأسها قبلة وأخبرها أن تنام استعداداً لرحلة السفر إلى قطر. إلى بيتها وإلى حفل زفافها الحقيقي.

قطر... أرض الثراء والرطوبة والجنون.

هربت من ثراء والدها فوقعت في ثراء هشام مؤمن. لكنها لم تتزوجه لأنه ثري، تزوجته لأنها ظنت السعادة في الزواج. حتى أفاقت من انبهارها! متى استعادت شهقتها التي خرجت من صدرها في ليلتها الأولى مع زوجها؟ ربما بعد ستة أشهر كاملة.

ستة أشهر كالغائبة عن الوعي. دخلت قصوراً وحفلات وهي ترى زوجها ينظر إليها قبل خروجها معه كأنه يتفقد لوحة زيتية يهم بعرضها على لجنة اختبارات.

لكن هي دوماً تنجح. جميلة أنيقة وبتلك الملابس العالمية وقطع المجوهرات كانت تبدو أجمل من نجمات هوليوود.

هو أيضاً كان أنيقاً مقبولاً يخطو بها في زهو ويقدمها لكل من حوله كأنه يعلن عن عبقرية اختراع وصل إليه.

عام وهي مسحورة كأنها "أليس في بلاد العجائب"... عام، لم يمرّ فيه يومٌ من دون أن تمرّ على وجهها ألوان وتفوح منها عطور ويصفف لها شعر.

أفاقت ذات ليلة حين أخذها زوجها، ثم همس على كتفيها العاريتين يخبرها أنهما مدعوان في الغد إلى حفل زفاف ابنة أحد كبار مسؤولي الدولة.

في تململ، وهي ما زالت في نشوتها، همست على صدره كلمة صغيرة أفاقتها.

كلمة "لا"!

ابتسامة صغيرة كسيرة لاحت على وجهها.

نجح النيل في ما أخفق فيه أكبر أطباء النفس معها. أمامه وعلى حجار قديمة متسخة تنساب من رأسها الصور وتتلاحق الذكريات...

ترى هل ينجح النيل في الوصول بها إلى تلك اللحظة التي لا تحاول حتى أن تقترب منها برأسها؟

شعرت أنها تكاد تسقط في المياه التي تتكسر تحت قدميها.

لا لن تقترب أبداً. ستكتفي بالتجول في ذكرياتها قبل تلك الليلة.

آه... كل ليإلى عمرك ألم.

حتى تلك الليلة التي أخبرها فيها هشام بحفل زفاف الغد لم تكن تعني شيئاً أكثر من أن تتدلل عليه. لم تكن تعني شيئاً سوى أن تخبره أنها تريد ليلة أخرى بين ذراعيه لا مساحيق فيها ولا عطور.

عندما قالت لا وهي تقبل كتفيه كانت مسحورة بنشوتها. هائمة برحلته في جسدها.

تعترف . كان يتقن كلّ شيء...

إن تحدّث وإن عانق أو قبّل أو تجوّل داخل جسدها، وأيضاً إن كذب...

وضع أصابعه تحت ذقنها الأبيض المستدير ورفع وجهها وابتسم وهو يفتح شفتيه ليتنفس هواء صدرها الساخن المرتعش.

كان دوماً يخبرها أنه يهوى تنفس أنفاسها فلها عطر يفتح رئتيه للحياة.

عندما رأته يفعل أكملت في دلال تخبره أنها قررت أن تكون ليلة الغد ليلة خاصة.

أخبرته أنها ومنذ زواجها لم تنقر أصابعها على البيانو الستانلي الأسود الذي وضعه لها في بهو بيتهما.

أخبرته أنها في ليلة الغد ستعزف له كل الموسيقى التي تحبها وتعلم أنه سيحبها.

طبعت قبلات صغيرة على حبات العرق التي ارتسمت على عنقه القمحي، وهي تهمس أنها اشتاقت إلى "الفلوت" وتشعر به يناديها.

"ستة شهور يا هشام وشفتاي لم تقتربا منه. معك ولك غداً أريد أن أفعل... أنت والفلوت حتى الصباح"!

عاد هشام بخصلات شعرها إلى الخلف. وبكفيه أعاد جسدها إلى الوسائد الحريرية واعتلاها يخبرها أنه الآن، وفي هذه اللحظة، سيمنحها ما تريده منه في الغد، لكنه

أبداً لن يضيع ليلة الغد يراقبها تنفخ في عصاها المجنونة!

كانت أنفاسها تتلاحق وهو يقبلها من جديد. لم تفهم ما قال. تاهت لحظات وهو يتحسس جسدها كأنه ما غادره للتو. أغمضت عينيها وهي تهمس أنها تريده الآن وتريده غداً لكن مع عصاها المجنونة...

كانت تظنه يمزح لكنها علمت أنه يهزأ. كانت تظنه يشتاق إليها، لكنها علمت أنه يقايضها. كانت لا تعرفه، وفي تلك اللحظات وهي بين ذراعيه تذوب رأته وعرفته وفهمته.

حين انتفضت بين ذراعيه وأغمض هو عينيه على صدرها ووجنتاها ما زالتا تحترقان بوهج لقائهما، سمعته يسألها إن كانت تريد شراء ثوب جديد لزفاف الغد.

هل كان يصرَ على أن يفتح عينيها أم كانت هي من تصرَ على إبقائهما مغمضتين؟!

عادت تخبره ضاحكة أنها ما زالت تريده في الغد هو والفلوت والبيانو...

جذبها إلى صدره وقال في برود:

منحتك اليوم ما تريدينه في الغد... في الغد ستفعلين ما أريده وطلبته منك اليوم. فلتنسي البيانو والفلوت. عندما تسافرين إلى والدك اعبثي بهما هناك

في الإجازات. نحن هنا لسنا في إجازة لنلهو بعصا موسيقية حمقاء!

لم يكن من الممكن أبداً ألا تفهم. لم يكن من الممكن أبداً أن تكون غبية وعمياء أكثر من ستة شهور. نعم... فهمت، وكيف كان يمكن أن يبقى كل شيء كما كان إن نحن عبرنا بوابة الفهم والإدراك؟!

حين أفاقت في الصباح علمت أنه لا يمزح. حادثها من مكتبه يأمرها بشراء ثوب جديد. ذهابها بأحد ثيابها القديمة قد يكون شيئاً من عدم التقدير لمدعوي حفل الزفاف.

لم تقل شيئاً. لم تحاول أن تعيد كلمة مما قالته ليلة الأمس. هي فهمت وأدركت...

قبل أن تتوجه لشراء الثوب أخرجت "الفلوت" من خزانة ملابسها وضمته عارياً إلى صدرها.

اعتذرت له عن إهانات زوجها له ولها. ليس عصا تنفخ فيها.

هي أداة تنفخ في ملك الروح. هو هبة من خالقها. هو نعمة اختصها بها.

هجرته شهوراً ستة، لكن لن يضيره أو يضيرها ليلة أخرى.

من الغد ستمنحه حقه، ويجب أن يتعلم هشام كيف يحترم هذه العصا لأن فيها من روحها وعمرها وطفولتها وصباها ما يجب ألاّ ينسى.

ذهبت معه إلى حفل العرس الكبير. جميلة وأنيقة كما هي منذ ليلة دخولها البلاد، لكنّ شيئاً في وجهها تغيّر.

شيء على وجهها من آثار صفعة الأمس لن تمحوه الأيام.

رأت زوجها من على البعد يراقبها كأنه ما زال يؤكد لنفسه أنه كان ناجحاً في اختياره، موفقاً في تربيتها، سعيداً بدرجة استيعابها.

كانت الموسيقى صاخبة، ليست كموسيقاها، وكانت الوجوه تبتسم والرؤوس تتمايل. لا يفهمون في الموسيقى شيئاً سوى جسد وثياب من تغني على رجعها.

الموسيقى عندهم أداة وليست غاية.

كيف لم تر هذا من قبل وكيف لم تسمع الموسيقى وهي تذبح في صالات الاحتفالات الباذخة؟

أغمضت عينيها ترى نفسها على مقعد البيانو تجلس وتعزف قطعة من تأليفها أو تأليف من يعلمون ما هي الموسيقى حقاً والنغمات.

رأت نفسها وهي على مسرح Native Flute School تقف والفلوت بين أصابعها، وشفتاها تبعثان فيه أنفاساً تُخرج منه ألحاناً تصمت لبهائها قاعة تضم أكثر من خمسمائة شخص يكادون يحبسون أنفاسهم حتى تنتهي هي من عزفها وتنحني ما يقارب العشر دقائق لتصفيقهم.

تصفيقهم ليس كهذا التصفيق، ورؤوسهم ليست أبداً كرؤوس هؤلاء ولا كرأس هشام مؤمن!

أرخى عينيه في ألم وهو يراها لا تأكل. لا يعلم ماذا أصابها. بل ربما كان يعلم. مذ رآها مستندة إلى العمود الإسمنتي الكبير في بهو العمارة تراقب ياسر يوم سفره وهو يحادثها، شعر لحظتها أن شيئاً ما بينهما.

ثلاثة شهور منذ سفره وابنته تتحول أمامه إلى كائن آخر. تذهب إلى المدرسة وتستذكر دروسها. تصعد ثلاثة أيام في الأسبوع إلى السيدة مروة لتراجع معها الدروس. تمسح مدخل البيت وسلالمه، لكنّ شيئاً في روحها تغير. شيئاً في وجهها تجمّد...

هل غرّر بها ياسر؟!

ألقى عمران بكسرة الخبز من يده في جنون، ورفع عينيه ينظر إليها. لمَ لا يسألها؟ لم لا يصرخ ويخبرها بما يدور في صدره؟ يخجل منها؟! يشفق عليها؟! يخشى أن يسمع ما يقتله؟!

شابة بدرية، تجاوزت السادسة عشرة. لقد تزوج أمها رحمها الله في هذه السن.

ربما هو يبالغ. ربما هو هذا ما أحدثه رحيل السيدة نادية. لو كانت على قيد الحياة لصعد إلى بيتها وأخبرها بشكوكه وطلب منها الحديث إلى ابنته.

لم يبق في حياتهم نساء سوى السيدة مروة.

لكنها أكثر حزناً من بدرية. هي حتى لا تحادثه. حزنها له تفسيره. السيدة سافر ولدها ولم يبق معها سوى زوجها وابنتها وكلاهما لا يراهما بصحبتها إلا نادراً.

الدكتور وحيد وعلا دوماً في صحبة أحدهما للآخر.

نساء هذه العمارة بأكملها مساكين. بل ربما كل النساء اللائي عرفهن كسيرات لم يرحمهن القدر.

بياضة؟! كم عاماً مرّ على رحيلها؟

كيف تكون مروة بهذه الرقة وتكون بدرية بهذا الحزن وبياضة بذاك الرضا والحنان، ويكون على الأرض امرأة مثل ملك أو فتاة في غلظة علا؟!

علمته ملك أن يستيقظ كل صباح يدعو الله ألا يراها، وأن ينام مبتسماً إن مرّ اليوم من دون أن تعبر من جواره إلى داخل البيت أو خارجه.

دوماً تنتقده. دوماً تخبره أن الأرض مبتلة وإن كانت جافة فهي متسخة، وأن المصعد كان مفتوحاً وطال انتظارها له، وإن وجدته فمرآته في حاجة إلى تنظيف.

عجيبة هي ملك. صوتها لا يعلو كثيراً لكن كلماتها قاسية كرصاص البنادق.

لمَ يتذكرها الآن؟! ربما لأنها أخبرته هذا الصباح أنها اشترت سيارة وستحضرها في الغد. أخبرته أنها لا

تصدق أنه يضع الحجارة يحجز بها أماكن للدكتور ناصر والدكتور زيدان.

نظرت إليه في حزم تخبره أنها تريد هي الأخرى مكاناً.

تدفع له. بل تمنحه أحياناً نقوداً أكثر مما يمنحه إياه الرجلان لكنه يأخذ نقودها خوفاً منها ولو كان يملك الشجاعة لرفض. لا يريد منها نقوداً. يريدها فقط أن تبتعد عنه وعن ابنته.

يخشى أن تحتك بها مرّة أخرى. ابنته يكفيها ما هي فيه.

في ذعر نظر إلى وجهها يسأل نفسه حقاً ما الذي بها؟!

وكيف لا يجرؤ على أن يسألها ماذا بها؟!

بكفه العريضة المرتعشة حمل قطعة صغيرة من اللحم كانت غافية في صحن الطعام وقال:

فلتأكليها إكراماً لي.

وضعت كفها على يده قائلة:

بل تأكلها أنت. تعمل كثيراً وتحتاج إليها أكثر مني. أنا سأستذكر دروسي على سلالم التخديم ريثما تنام قليلاً وأعود لأوقظك.

أصبحت تفتح الباب الصغير الذي يقود إلى سلم التخديم أمامه وتصعد كل يوم للجلوس على درجاته المصنوعة من الحديد. لم يعد الأمر سرّاً تتعمد أن تفعله أثناء نومه أو خروجه.

ما عادت درجات السلم تحتضن جسداً غير جسدها. وحدها الآن تجلس ومعها كتاب وذكرى وأمل ودمعة.

ضمت بعض أوراقها إلى صدرها، وقبل أن تتجه إلى الباب استدارت تقول:

هل تسمح لي باستخدام هاتفك؟ أريد أن استعلم عن شيء من إحدى زميلاتي. إن هاتفك الدكتور ناصر أو أحد الجيران سأعود به إليك فوراً.

من جيب جلبابه الصعيدي الواسع أخرج لها هاتفه الأسود القديم ومنحها إياه قائلاً:

خذي ياحبيبتي. حماك الله وحفظك من أولاد السوء جميعهم!

حين وصلت إلى درجات الدور الأول حيث شقتاه مغلقتان ولا سكان فيهما، أخرجت من طيات كتابها بطاقة صغيرة تشحن بها هاتف والدها ببضعة جنيهات.

ستحادثه. مضى أكثر من أسبوعين لم يحادثها فيهما. لن ترسل له رسالة أو تغلق الخط بعد رنة أو رنتين وتبقى ساعات تتقلب على جمر انتظار أن يطلبها.

ستبقى تطلبه من دون انقطاع حتى يرد. هل هي قلقة عليه؟ هل تخشى أن يكون مريضاً أو ألمَ به أمر؟!

تعلم أنه بخير.

في هدوء تسألها عنه. أخبرتها بالأمس أنه بخير. أخبرتها أنه مشغول ببعض الأبحاث والاختبارات لكنه بخير.

هي التي ليست بخير. تختنق. في المدرسة الجديدة لا صديقات لديها وكيف تصادق، ومن تصادق؟!

كلما سألتها إحدى الفتيات عن عنوانها أو عمل والدها تقف الكلمات على لسانها. ماذا تقول؟!

ليس في فصلها بأكمله فتاة يعمل والدها حارس عمارة.

ليس في مدرستها معلم أو معلمة تشعر بدرية أنهما سيعاملانها كما يفعلان إن علما أنها ابنة "بواب".

ماذا لو زارتها إحدى البنات من دون موعد وجاءت في الوقت الذي تنحني فيه لتمسح رخام الأرض أو تساعد والدها في غسل سيارة أو حمل مشتريات؟

ما زالت ترتجف كلما دخلت بشيء إلى عيادة الدكتور ناصر خوفاً من أن تجد أحد معلميها أو معلماتها لديه.

هي بأبيها سعيدة وفخورة، لكن تكره ما أصبحا عليه. كانت تظن هذا أفضل من حياة الصعيد وزراعة الأرض وحمل الطعام إليه في الحقل، لكن الحياة هناك أكثر كرامة. حتى صفعة عمتها التي ما زالت تشعر بلهيبها على وجنتيها تتمنى لو أنها أفاقتها وبقيت ولم تعد.

عادت لتصبح على مفترق الطرق. لا هي قاهرية كغيرها ولا صعيدية كأهلها...

ماذا صنعت بنفسها يوم تعلقت بياسر؟!

تحبه. نعم هذا هو العشق الذي تتحدث عنه بنات المدرسة بأكملها ولا تفتح هي شفتيها يوماً لتأتي على ذكره...

كلما دخل والده أو خرج أمامها... كلما مرت أخته أو إحدى صديقاتها من بيتهم وإليه، بل كلما دخلت هي بأوراقها وكتبها إلى بيتهم لتأخذها مروة في هدوء إلى طاولة الطعام تراجع لها دروسها ثم تدسّ بين أصابعها بعض الأوراق النقدية لتشتري كتاباً إضافياً أو آلة حاسبة، ثم تهمس كأنها ترجوها أن تأخذها قبل أن تسمع علا أو تلاحظ ذلك، وهي تعلم أنها وضعت نفسها على فوهة بركان.

ألا ليت البركان تبتلعها حممه وتنتهي...

هل يحبها ياسر؟! معه ألف فتاة شقراء ملونات الأعين. فتيات آباؤهن أطباء ومهندسون أو حتى

كزميلاتها عمّال أو سائقو سيارات أجرة لكن أبداً ليس معه ابنة بواب. بل تعلم أن أمريكا بأكملها ليس فيها بواب مثل أبيها لأنه لا فوارق بين الطبقات هناك.

لأن حارس العمارة لم يُحرم التعلم، ولأن الطبيب يعلم أنه كما يحتاج إليه هذا الحارس فهو أيضاً كطبيب لا ينام من دونه في أمان.

هكذا علمها حبيبها، وهكذا أخبرها أنه يرى البشر، لكن من قال إنها وأباها في عيون مصر وسكانها بشر؟

ألم تركل ملك مندور بقدمها إناء الماء وتنظر إليها وهي تنحني لمسح الأرض من جديد؟ تلك النظرة التي تصيح بها إن هذا هو عملها وهذه هي حقيقتها.

ألم تخبرها في حسم أن جزءاً من عملها أن تصعد إلى بيتها وتقوم بتنظيفه؟ ألا يتعمّد الدكتور ناصر إهانتها وإذلالها بعدما رفضت العمل نصف خادمة لدى زوجته؟ بل قد بدأ في إهانتها وتجاهلها مذ رأى والدته تحنو عليها وتأخذها إلى المدرسة كأنه يعلن أن ما تفعله أمه جنون لا يحاسبها عليه أو يثنيها عنه لأنها عجوز ينتظرون موتها وعودة الأمور إلى نصابها الصحيح.

نصاب الأمور الصحيح أنها بدرية عمران.

إن لم يكن المسح والكنس وحمل المشتريات عملها فلن يكون الاحترام أبداً من حقوقها، وإن كانت تلميذة

في المرحلة الثانوية فهي وصلت إليها بصدقاتهم وحسناتهم.

وحده ياسر كان مختلفاً عنهم، لكن يبدو أنه أفاق من جنونه هو الآخر.

طلبت رقمه وانتظرت كثيراً حتى انقطع الاتصال وحده. وقبل أن تطلب الرقم للمرة الثانية وجدته يطلبها. فتحت الخط وقالت كأنها تصيح:

أسبوعان... أين أنت؟!

صاح من ذاك البلد البعيد يعتذر، ويقسم أنه حادثها كثيراً لكن في أوقات غير التي اتفقوا عليها. بل أخبرها أن عمران فتح الخط في إحدى المرّات.

بكت وهي تسمعه يقسم لها، وبكت أكثر وهو يطلب منها أن تراجع قائمة المكالمات على هاتف والدها. هل تخبره أنها تفعل كلَ ليلة، وأنها حقاً وجدت اتصالات بلا أرقام كما يحدث أحياناً من المكالمات الدولية؟ لكنها كذَبت نفسها كأنها تتفنن في تعذيبها وكأن عذاب الفراق وحده لا يكفي.

كانت تحكي وتتحدث وتقسم ألا صديق لديها بعده أو سواه. كانت تقسم أنها تدعو له في كل صلاة وقبل نومها، وحين تفتح عينيها كانت تردد اسمه عشرات المرات، فمعه فقط من حقها أن تقول اسمه.

كانت تتكسر وتُبنى، تموت وتحيا، وهي معه من دون أن تشعر بتلك الأقدام التي كانت تهبط درجات السلم ووقفت تسمع كلماتها في وضوح!

كانت إهانة كبرى لكنه يثق أنه ليس بها مقصوداً.

هذه الفاتنة ليست امرأة. هي جواد بري في حاجة إلى ترويض فارس ماهر وهو الوحيد الذي يعرف كيف يروّض الجياد.

ألا يكفي أن اسمه وحيد!

كل النساء يسقطن بكلمة وابتسامة وهدية صغيرة. يريد أن يختم تاريخه في مصر بانتصار كبير يتحقق بسقوط هذه الشرسة بين ذراعيه.

أصبحت همه الشاغل. أصبحت أنيس قهوته ورفيق وسادته.

يتمنى لو يعلم اسم العطر الذي تتعطر به كلما دخل المصعد أو وقف في انتظاره يشتم عطرها يملأ أنفاسه.

ثرية جارته العنيدة. ثرية جداً.

بالأمس رآها تركب سيارتها الجديدة. جيب BMW6.

واضح أنها تهرب من أنوثتها. وجهها الخالي من الأصباغ دوماً.

بنطلونات الجينز. وقمصان "تومي هيلفجر" التي لا ترتدي سواها.

شعرها المبعثر فوق رأسها عدا تلك الخصلات الناعمة التي تهرب من وثاقها تناديه.

تراها عذراء؟!

ربما كانت هذه عقدتها وسرّ شراستها. لكن إن أرادت فتاة كهذه الزواج من لا يقع تحت قدميها؟

لن يركب طائرته أبداً في نهاية هذا العام إلا وقد اكتفى من عطرها وسحق عنقها تحت جسده. هذا العنق الأبيض الذي ترفعه وهي تخطو كأنها تتحدى سكان العالم.

سيأكلها بأسنانه قطعة قطعة. ربما كانت ملك فعلاً تحتاج منه إلى شيء من القسوة. هناك نساء لا يلنّ إلا بصفعة من رجل.

أخبره ناصر أنها تنوي شراء بيت بعيداً عن الروضة وضجيجها.

سيجعل أحد موظفي مكتبه يحادثها ويخبرها عن مشروعاته ويعرض عليها كل ما تحت يديه من فيلات وعمارات. سيخبرهم أن يقدموا لها كل التسهيلات.

ستأتي... ستأتي إلى مكتبه، وعندها سيشهق شهقة دهشة صغيرة ولن يتركها تغادر هذا المقعد الرابض أمام مكتبه إلا وبينهما موعد واتفاق.

عهداً عليه منذ تلك اللحظة التي وضعت له مروة فيها باقة زهر ملك على طاولة الطعام والبطاقة التي

كتبها في صحنه. عهداً عليه أن يسحق عنقيهما معاً.

مروة برحيله هو وعلاه وتركها دون بيت. وملك بترويضها وسقوطها بين ذراعيه.

لا امرأة تقول لا. فقط عندما يعرف الرجل الطريق الصحيح لكلمة خلقت من أجلها.

كلمة "نعم"!

استدار بمقعده في كسل لينظر إلى وجه صديقه ورفيق نجاح مكتبه الهندسي يدخل إليه قائلاً:

مبروك وحيد. أنهينا مشروع التجمع قبل الموعد المحدد له.

ابتسم وهو ينظر إليه يجلس أمامه ويكمل قائلاً:

أرسل علا إلى أخيها في العام القادم وابق أنت. أكاد أقترب من سن والدك. فلتبق. هذا النجاح في حاجة إلينا معاً. إبق إكراماً لرضوى. هي الأخرى لا تريدك أن تسافر.

ابتسم. رضوى لا تريده أن يسافر لأنها ما زالت تريده. ما اكتفت ولا ارتوت منه، لكن هو اكتفى من كل ضحايا الإهمال والبرود والجوع. كل الزوجات يسقطن بحجة الإهمال والبحث عن الحنان. ملَّ هذه العينة. ملّ العبث من خلف ستار.

يوم تسقط ملك بين يديه سيخرج بها إلى كل الأماكن بل سيدخل بيتها قبل دخوله بيته كل ليلة...

يعدّ لها أياماً وشهوراً ستبقى العمر بعد رحيله إلى أمريكا تحيا وتموت على ذكراها.

وعاد أسعد يقول:

إلى أين وصلت؟!

ضحك وهو يقول:

ما زلت هنا يا صديقي. متى يمكنني أن أتناول بطّاً بالبرتقال لديكم؟!

ابتسم الرجل وهو يقول:

أيّ وقت تشاء. هو بيتك، نحن أصدقاء. لا أنسى فضلك في العمل معك وإحياء أملي في أرض مهجورة كبيرة لم أكن لأفعل بها شيئاً وحدي بعد تقاعدي.

كأن ناراً حمقاء اشتعلت في أطراف ثوبها.

كات تصدق كل شيء وكل النساء إلا رضوى. وحيد يضاجع رضوى زوجة رفيق عمره وصندوق أسراره وصاحب الفضل عليه...

يضاجع زوجة تكبره في العمر بما يقارب العشرين عاماً!

زوجة صديقه الذي يعتمد عليه في كل شيء.

أيّ دنيء تحيا معه وإلى متى؟!

لماذا تطاردها الأنباء؟!

الأشياء تجد طريقها إلى الفارين منها وتهرب دوماً ممن يطاردونها. من قال إنها يوماً أرادت أن تعلم من يحب ومن يفارق زوجها؟

حاشا لله. ما عاد هذا الرجل زوجها. أعلنت له أنها تكرهه وأنها لا تريده.

منذ سفر وحيدها منذ ثلاثة أشهر وهي تنام في غرفته لا تدخل غرفة زوجها إلا إن طرقت بابها وتأكدت أنه لا يبدل ملابسه.

صاح مرة في وجهها عندما رآها تغمض عينيها عندما كان عارياً في طريقه إلى الحمام بأنه لم يطلقها بعد

وأنه شاءت أم أبت هو زوجها.

تنتظر انقضاء العام. تنتظر اللحظة التي تراه يغلق فيها حقائبه ويعود إلى أمريكته!

لن تطلب الطلاق. لا تريد الدخول معه في مهاترات، يكفيها عملها وبدرية.

القدر وإن كان قاسياً فهو دوماً رحيم. الفتاة بدروسها وحنانها والتصاقها بها تمنحها شيئاً مما تبحث عنه.

لا شيء في بدرية يحزنها سوى أنها ابنة الرجل الذي ما زالت تنتفض لذكرى كفّه كلّ هذه الأعوام.

كم رجلاً تراهم في عملها. كم رجلاً تفيض من عيونهم رسائل ودعوات تتجاهلها أو تصدها في قوة إن جاوزت الأعين؟! كثيرون. لكن يبقى لعمران في صدرها مذاقاً آخر.

أحياناً تظن أنها تحلم به لأنه رجل لم يخن زوجته منذ رحيلها.

لم تسمع من بدرية يوماً أنه فكر في الزواج بعدها.

بل ما زالت تذكر يوم أخذها إلى الصعيد في قراره المجنون ذاك. ما زالت تذكر كيف أعلن أنه في طريقه إلى زيارة قبر زوجته لأنه اشتاق إليها.

ليت ابنة كامل تكون في وفائه وإخلاصه.

ولكن لمن تفي وتخلص؟!

لرجل يضاجع زوجة صديق عمره وحتى هو بها لا يكتفي.

نزعت قيمصها ليسقط تحت قدميها، وقبل أن تقف تحت الماء لتأخذ حمامها نظرت إلى مرآة حمامها في ذهول.

تزحف بأعوام عمرها نحو الخمسين. أعواماً قليلة ويتخرج الغائب في الجامعة ويتزوج وربما يصبح لها أحفاد.

ما زالت تشعر أنها تنتفض لذكرى كفَ خشنة تتمنى لو تمرّ على جسدها قطعة قطعة.

في عنف هزّت رأسها ووقفت تحت الماء.

هي أفكار محمومة لامرأة يائسة تُهان في كلّ يوم ألف مرة...

كانت أصابعها تتجول في خصلات شعرها وكلما زحفت قطرات من الشامبو نحو عينيها لاتستطيع أبداً أن تبقيهما مغلقتين.

كلما احترقتا بقطرات الشامبو وأغلقتهما رأت رضوى بين ذراعي زوجها.

تتخيل نساء الأرض بين ذراعي زيدان إلاّها.

رضوى تدخل بيتها وتزورهم. هي امرأة تصوم وتصلي وترتدي مثلها الحجاب عن اقتناع كبير.

لا تصدق...

ما الذي يحدث وكيف أصبحت هذه الأشياء تحدث حولها؟

رحم الله نادية حين قالت إن الأقدار تضرب بشدة وعنف أكبر كلّ من استسلم لها ولم يقاوم.

ما عساها تفعل لتتوقف الأقدار عن لطمها بهذا الجنون؟

في تلك اللحظات التي وقفت ترتدي فيها ثيابها المطوية التي أعدّتها أدارت رأسها من جديد تنظر إلى المرآة لترى عينيها الحمراوين بفعل قطرات الشامبو وربما دموعها...

شعرها المبلل حول وجهها الجميل... صدرها العاري وقلبها النابض...

عن أيّ شيء يبحث زيدان في النساء؟! وأيّ شيء تجد هي في ذكرى كفّ حارس صعيدي لا يعرف كيف يكتب اسمه أو يقرأه؟

تختنق. هذه المياه لن تسكت حرائق رأسها...

حرائق الروح والجسد لا يطفئها إلا الحنان...

غاب عنها كلّ من منحوها الحنان. ماتت نادية وسافر ياسر. ورحل رفعت منذ أعوام...

كانت في طريقها إلى غرفة ولدها التي أصبحت غرفتها، وشعرها المبتلّ ما زال يقطر على كتفيها قطرات حزن وخيبة وماء.

قبل أن تدخل الغرفة سمعت علا تضحك من خلف باب غرفتها، وبلا وعي طرقت مروة الباب ثم دخلت لتجد ابنتها مستندة إلى حافة النافذة بعدما أغلقت هاتفها الصغير وألقته على فراشها.

وقفت تنظر إليها كأنها تستغيث، وعلا تنظر إليها في دهشة. لكنّ شيئاً في صدرها يخبرها أن أمها تحترق. قبل أن تفكر في كلمة تقولها رأت دمعات تسقط من عيني أمها وهي تقول:

إلى متى؟! ما زلت أمك وما زلت أحبك...

لماذا تتمزق علا بين شعورها بالإشفاق على أمها وبين غضبها منها؟ يغيظها أن تشعر أن لها أمّاً حمقاء لم تعرف كيف تحافظ على زوج مثل وحيد، وأيضاً تحتضن بلهاء مثل بدرية.

تكاد تعرف عدد الأيام الباقية على انتهاء هذا العام لترحل عنها وعن هذا البلد الذي تتشدق بطهارة أرضه وسمائه.

شيء في صدرها يدعوها للسقوط بين ذراعي أمها وشيء في وجه أمها يدعوها للهرب منها.

شيء كبير اسمه الغباء.

عادت مروة تقول كأنها تئن:

أرجوك... أنا أحتاج إليك...

انحنت الإبنة على أطراف فراشها تلتقط هاتفها الصغير، ورفعت رأسها لتقول في صوت أجوف:

ألا تكفيك البدرية؟ لم أكن يوماً ابنتك... أو ربما هو الشوق إلى ياسر؟

هل تتهمها بتفضيل بدرية؟ هل تظنها جاءتها فقط لتملأ فراغ غياب أخيها؟

لن تخرج. دخلت إليها ولن تخرج قبل أن تضمها بين ذراعيها...

تقدمت نحوها في هدوء وهي تقول:

قبل بدرية وفي حضرة ياسر. منذ زمن طويل تصرّين على الابتعاد عني. لم يبق لدينا وقت حبيبتي. إن كانت هي التي تقف بيننا. لن أدعها تدخل البيت بعد اليوم . أنت وحدك ابنتي!

ابتسامة ساخرة لاحت على وجه علا تجاهلتها الباكية وهي تبتلع دمعاتها لتقول من جديد:

لا تتركيني أقف وحدي. أنا أمك أرجوك...

كان جسدها ينتفض. تشعر أنها على شفا انهيار كبير. قصة رضوى تذبحها. صوت زيدان وهو يحادثها على الهاتف ويخبرها أنه أرسل زوجها إلى الغردقة يومين ويطلب منها أن تلقاه حيث اعتادا، يذبحها. كلماته الماجنة على الهاتف تسحق ضلوعها.

وجه رضوى الحاني المضيء يسكن حدقتيها. كفّ عمران... ابتسامة ياسر... انكسار بدرية...

جنون يشعل فيها ألف نار. لا أمل سوى ذراعي ابنتها. أليس لها فيهما حق؟

كانت خطوات تلك التي بينهما حين ارتفع صوت الجرس لتركض علا وصدرها يتهدج قائلة:

إبقي مكانك. سأفتح أنا الباب.

تبعتها لتراها وقد فتحت الباب حيث أطلت بدرية تحمل بين يديها أوراق استذكارها وكتبها.

استدارت علا وقد استعاد وجهها كامل قسوته تنظر إلى أمها في تحدّ كبير.

ما زال الطوفان يجتاح مروة وصدرها. في لحظة شعرت أن ابنتها كادت تضمها وأنها قد تهدأ بين ذراعيها.

لماذا الآن يا بدرية... لماذا الآن؟!

بلا وعي قالت في قسوة تعمدتها:

فضلاً، دعينا نؤجل الدرس إلى الغد. أريد البقاء مع ابنتي.

هي أيضاً تعاني من نار ضعف وخوف ظنت أنها تطفئها بصعودها إلى مروة. تلك الكلمات أشعلت ناراً أكبر. نار عار وانكسار كادت تفصل عنقها عن رأسها. وبهدوء، أمسكت بدرية بمقبض الباب لتدفعه في وجه دموعها وتغلقه على علا وأمها.

لم تكن الزائرة في تلك اللحظة تعنيها. تلك الدمعات التي رأتها تسقط من عينيها ليست قضيتها...

تريد ابنتها، وأرادتها أن تعلم أنها حقاً تعني ما قالته. ابنتها أهم من بنات الأرض، لكنها مرّت إلى جوارها وهي تقول:

هل تظنين نفسك حللت القضية؟ فلتذهب واحدة ولتقترب الأخرى. واهمة أنتِ!

كآخر نقطة ضوء تتبعها عين غارق في محيط مظلم ألقت مروة بكفها على كتف ابنتها تحاول استبقاءها قائلة:

ما زلت استجديك... أرجوك...

نفضت كفَ أمها في هدوء وهي تقول:

أنا من ترجوك... دعيني وشأني!

على باب نادية المغلق سقطت بدرية وتناثرت حولها كتبها وأقلامها. طردتها مروة في قسوة وأمام علا ومن أجلها.

ساعات وهي تنظر في ساعتها تنتظر أن تأتي الساعة التي حدّدتها لها لتصعد إليها. لم تحتج أبداً إلى رؤيتها كما كانت اليوم. كانت تحتاج إلى تلك اللحظة التي تضمها فيها إلى صدرها كلما دخلت بيتها قبل جلوسها إلى طاولة الطعام لمراجعة الدروس.

كانت على أكمل الاستعداد لأن تبكي بين ذراعيها. كلّ هذه الدموع التي تسقط على وجهها الآن كانت تحبسها بين جفونها لتلقيها على كتفيها لحظة تفتح لها الباب. بل هي أعدّت الكلمات التي ستبرر بها بكاءها. لن تخبرها أن شوقها إلى ياسر يقتلها. لن تخبرها أن عجزها عن الجلوس على درجات سلم التخديم لا يعادله سوى عجزها عن عدم الجلوس عليه.

لن تخبرها أن الركن المظلم الذي تجلس عليه أمام مقياس النيل أصبح يناديها كل يوم لأن تلقي بنفسها في مياه النيل السوداء وتموت، ولا يمنعها عن عناقه سوى إشفاقها على عمران وأملها في رؤية ياسر.

كانت ستخبرها قصة أخرى. كانت ستخبرها عن حلم الأمس بنادية هانم. كانت ستخبرها عن هناء زميلتها التي سألتها في خبث إن كانت حقاً إبنة عمران حارس عمارة الدكتور ناصر.

كانت مروة أملها، لكن من قال إن لها على هذه الأرض أملاً؟

أملها دُفن في تراب الصعيد مع جسد أمها. أملها يغرق كلّ مساء في إناء المسح الذي تنحني عليه وتضع يدها في مائه الأسود وهي تعتصر بين أصابعها قطعة القماش التي تخرج بها منه وتمسح بها آثار أحذيتهم جميعاً.

بقايا أملها غاب في طائرة كبيرة كتلك التي يزأر صوتها فوق رأسها وهي تجلس على النيل وتقاوم سقوطها فيه واختفاءها إلى الأبد.

برأسها عادت تطرق باب نادية... برأسها تدقه وهي تبكي في جنون...

إن ماتت ماذا يحدث؟!

سيعود عمران إلى الصعيد. مروة لن تذرف عليها دمعة واحدة. ياسر سينساها. إن ماتت عينا هناء لن تطارداها كأنها تهددها بالسرّ.

أخبرتها في كبرياء أن نعم هي ابنة حارس العقار. هناء ربتت على كتفيها في سخرية تخبرها أنها أبداً لن

تخبر أحداً بالسرّ.

كانت تتمنى لو تصيح إنه ليس سرّاً. وإنها بأبيها سعيدة وفخورة، لكنها لم تستطع... لولا بقايا من كبرياء قديم لشكرتها ورجتها أن تبقيه سرّاً.

كانت تبكي في جنون وتحاول أن تكتم صوت بكائها.

نادية رحلت بعدما جعلت منها مسخاً. لا تعلم هل هي طالبة مدارس أم ابنة بواب تطرد من على الأبواب قبل عبورها...

في لحظة شعرت أنها تختنق. روحها تتحشرج في صدرها. تريد بعض الهواء. نسمة هواء واحدة.

نهضت عن الأرض تحمل ما سقط من أوراقها، وركضت على السلالم. وفي بهو المبنى رأت أباها يجلس على أريكته الخشبية وقد رفع أحد ساقيه وأسند ذراعه على ركبته.

ليس أقلّ منها بؤساً أو ضعفاً.

حاولت أن تدخل إلى غرفتهما لكن ما زالت تختنق. تريد نسمة هواء تدخل إلى صدرها.

من خلف الباب الزجاجي رآها أبوها وهي تقف، وتقدمت نحوه لينظر إليها في فزع وهو يرى وجهها الغارق في دمعه قائلاً:

ماذا حدث؟!

ألقت بما بين يديها إلى جواره وأمسك بذراعها بين يديه يصيح كأنه يبكي:

أخبريني...

أمسكت بكفه بين يديها وانحنت تضع عليها قبلة وقالت:

لا شيء. أشعر باختناق. سأمشي قليلاً على النيل وأعود...

يكفيه ذلّ جلوسه على أريكته في انتظار سيارة الدكتور ناصر لينتفض عن مقعده يحمل له حقيبته ثم يعود ليغسلها.

يكفيه ذلّ صبره على كلمات وحيد عند ظهوره ورائحته تفوح بنسائم الخمر.

يكفيه ذلاً ارتضته له بدرية من أجل عشقها لابن مروة التي طردتها من أجل فتاة لا تجيد سوى إهانة أمها والتعالي عليها.

إلى ذات الركن المظلم وصلت.

هذا هو ما بقي لها منه. حجارة قديمة تجلس عليها وتدلي قدميها فوق النيل لتجتر اللحظات والذكريات أو فلتلق بنفسها إلى مياهه ولتمت...

عليها أن تختار الموت أو الذكريات... أحلاهما مرّا!

ارتفع صوت بكائها من جديد.

هناء ستخبر المدرسة بأكملها أن الهادئة المنتظمة ليست إلا ابنة "بواب"...

قد تدّعي أن هذا لا يهمها، لكن هو يقتلها.

"الحقيقة دوماً تقتل"...

الحقيقة أن مروة ليست أمها، وياسر ليس هنا وإن كان فهو ليس صديقها.

الحقيقة أنه حبيبها. نعم تحبه، ولو عاد لطلبت منه أن يخلع عنها منديل رأسها ويضرب بأصابعه ضفيرتها. هذه هي الحقيقة والحقيقة عندما نعرفها تقتلنا.

من خلف دموعها نظرت إلى مياه النيل تتكسر تحت عينيها وترقص من خلف دمعاتها.

لماذا لا تلقي بجسدها إليه؟!

فلتمت. الموت هو الحل.

سيحزن حبيبها.

هل تقتل بجنونها من أحياها؟!

عاد الصوت يناديها في حزم أكبر وهي ما زالت في دمعها غارقة، وشعرت بكفّ تهزها لتستدير وتجد ملك تصيح في غضب قائلة:

ماذا تفعلين هنا؟!

لن تحتمل إهانة أخرى. لن تحتمل كلمة أخرى.

تعرف ملك وقسوة لسانها.

ما الذي جاء بها إلى هنا؟ تركت كورنيش الروضة بأكمله وجاءت إلى هذا الركن المظلم المهجور.

لماذا كل شيء ضدها؟!

أرخت رأسها وابتعدت في صمت، ووقفت ملك تراقبها وأنفاسها تتهدج.

بدرية كانت تبكي. لماذا فعلت بها هذا؟ لماذا أصبحت تتعمّد أن تقسو على هذه المسكينة كلما رأتها؟!

ما ذنب الفتاة وأبيها في قسوتها عليهما؟

ولماذا تقسو على الضعيف؟

لماذا؟!

استدارت تحاول أن تلحق بها. ستناديها وتخبرها أنها لم تتعمد إهانتها، لكن لن تفتح باباً للحديث مع أحد.

فلتكرهها بدرية أكثر وليكرهها الجميع... هي أيضاً تكره سكان الأرض جميعاً...

لو تعلمين يا صغيرة ما بي من الحزن والألم لعذرت وما بكيت دمعة واحدة، وإن كانت أحزانك جبالاً مشيدة...

تسفك دم وحيد ولا تمانع في أن تصفع ناصر لكنها أبداً لا تريد أن تؤلم ضعيفاً.

يوماً كانت ضعيفة. يوماً كانت شظايا بل ما زالت حتى الآن ...

هي قطع صغيرة مشوهة تجمعت خلف وجه جميل وثوب أنيق!

ليتها تستطيع، لكنها ما زالت على السيطرة على جنونها وقسوتها. ما زالت عاجزة!

هل تبكي؟

نعم هي تبكي ولكن لماذا؟!

لأنه غازلها. لم يفعل شيئاً جارحاً ولم تترك له جزءاً صغيراً في كرامته أو كبريائه من دون أن تطالها بأظافرها وتمزقها أمام كل موظفي مكتبه.

لماذا تبكي إذن؟!

مالت بسيارتها بمحازاة رصيف كورنيش كوبري الجامعة وأوقفتها. لن تستطيع القيادة أبداً وهي ترتجف كشاة سلخوها ونسوا أن يذبحوها أولاً.

لا. لم تقتلها كلماته الرقيقة.

قررت قبول التحدي الكبير حين دخلت مكتبه ورأته أمامها، فما الذي حدث؟!

حدث أنها بعد أكثر من شهر من مكالمات المكتب الهندسي اليومية قررت أن تذهب إلى مقرهم لتشاهد نماذج فيلاتهم المعروضة للبيع. سئمت الحياة في عمارة الروضة.

ظنت أن ذكريات طفولتها وفراشها القديم ستشيع الدفء والهدوء في أوصالها، لكنها منذ عودتها وهي تتمزق أكثر.

كلما جلست إلى البيانو الأسود الذي علمتها أمها العزف عليه اشتاقت إليها أكثر. كلما وضعت صحن طعامها على مائدة الطعام تذكرت وجه والدها وهو يجلس على رأس المائدة يخبرهم أنه قرر الهجرة إلى أمريكا.

الذكريات لا تدفئنا. الذكريات جميعها تقتلنا.

ذهبت في ملل إلى الشركة. أمطروها وعوداً وتمجيداً في مجمعاتهم السكنية.

رأت نماذج لفيلات رائعة واختارت إحداها. فيلا صغيرة على هضبة عالية تطل على بحيرة اصطناعية كبيرة. أخبروها أنها جاهزة للتسليم وبدء أعمال التشطيبات.

أعادوا عليها ما لم يكفوا عن ترديده طوال الشهر الماضي عن تسهيلات الدفع والأقساط.

ابتسمت وهي تظهر اهتمامها بما يقولون.

في لحظة كادت تخبرهم أنها ستكتب شيكاً بكامل المبلغ وتوقع معهم عقد البدء في تشطيبات المبنى بعد اصطحابها لمعاينة الموقع.

بلا مقدمات أخبرها المهندس أن مدير المكتب ومالكه في انتظارها.

لم تفهم، لكنها تبعته إليه، وفي اللحظة التي فتحت فيها الباب ودخلت كان الموظف قد اختفى ووجدت

نفسها وحدها أمامه.

وحيد زيدان!

هو مالك الشركة وهذا المجمع السكني الذي لم تظن أن لمثله وجوداً على أرض مصر.

تظاهر بالدهشة وتظاهرت أنها صدقته.

قررت أن تفعل. أعجبها المجمع حقاً ولا يضيرها إن كان مالكه جارها الأحمق الذي أرسل لها باقة زهر وألقتها هي في وجه زوجته يوماً.

ربما كانت مصادفة حقاً.

إلى متى تبقى حمقاء؟! ظنت أنها أصبحت أكثر حنكة وذكاء بعدما مزقها حذاء الألم والتجارب.

طلب لها فنجاناً من القهوة. ترك مقعده خلف مكتبه الأنيق وجلس أمامها يخبرها أنه بنفسه سيصطحبها لمعاينة الفيلا.

ابتسمت ابتسامة صغيرة حين أخبرها أنه سيمدد لها مدة التقسيط بالطريقة التي تناسب إمكاناتها.

وضعت ساقاً فوق الأخرى وأخبرته، في اختصار، أنها إن عاينت وكانت الفيلا حقاً كما رأتها على الماكيت ستدفع ملايينها دفعة واحدة.

أخذ الأحمق يثرثر ويسألها عن سر غضبها يوم أرسل لها باقة الزهر. قال في غباء إنه أرسل وروده لأنه يقدر

الجمال، كما تعد هي بدفع المبلغ كاملاً لأنها أيضاً تحسن تقدير الأشياء الرائعة.

تململت في مقعدها. ليته يعلم أنها لا تملك أبداً التحكم في صبرها وهدوئها طويلاً.

نهضت تمد يدها تصافحه وهي تخبره أنها ستذهب وحدها في صباح الغد إلى المجمع وتنتظر هناك مهندساً أو مندوباً من الشركة.

ضغط على يدها بكفه الباردة الملساء وأخبرها أنه لم ينتظر هذه الشهور ليذهب معها مهندس آخر.

حاولت أن تسحب كفها من بين أصابعه إلا أنه أثار جنونها عندما أخبرها أن الفيلا التي ستشتريها هي فيلا مميزة لا فيلات بجوارها سوى فيلا أخرى اختص بها وحيد نفسه.

ضحك وهو يخبرها أنه سيكون جارها وحده. من دون زوجة أو أبناء.

نظر إلى عينيها نظرة طويلة قال بعدها في ظرف:

ملك. لو لم ينجح المهندس في إقناعك بالحضور لطردته من عمله!

كان ذلك أكثر من أن تحتمله. هي مؤامرة إذن. مؤامرة عمرها شهر وخصص لها مهندساً من مكتبه. مهندساً هدده بالطرد إن لم يأت بها.

فريسة ابتلعت الطعم. فريسة للمرة الثانية.

إلا الخديعة والمؤامرة.

فقدت سيطرتها على نفسها في لحظة. جنت، ضربت بظهر كفها فنجان قهوتها الذي وضعته على حافة مكتبه وصرخت.

صرخت في جنون.

لماذا يتآمر عليها الناس؟!

لا تذكر أبداً ماذا كانت تقول، لكنها تذكر صراخها ودمعاتها التي كانت تفرّ من عينيها، وشيئاً شريراً في رأسها يحاول أن يستحضر أمامها صوراً قديمة لخديعة ومؤامرة كبيرتين كان ثمنهما وحيدها.

لطمت بيدها مقود السيارة في جنون.

ماذا يريد منها هذا الزيدان. ماذا يريد؟!

في طريقها إلى خارج مكتبه رأت كيف تجمّع كلّ موظفي المكتب في حلقة كبرى وحلّ عليهم الصمت كأنهم يكادون يحبسون أنفاسهم علهم يفهمون كلمات هذه الجميلة المجنونة.

مجنونة؟!!

نعم هي مجنونة. أما قضت خمس سنوات في مصحة عقلية؟

صرخت وهي تئن. تركت المصحة وتركت البلاد التي كانت فيها المصحة.

جاءت إلى قارة شهدت طفولتها الجميلة. يوم كانت مجرد فتاة صغيرة وحيدة والديها.

تركت كل شيء لكن لا شيء يتركها.

ماذا يريد منها؟ في لحظة تمنت لو تخلع أمامه ثيابها وتسأله هل جسدها ما يريد؟

في لحظة فكرت أن تريه أنها تخفي لوحاً من الرخام لا قطعة فيه تنبض.

لماذا يجبرونها جميعاً على العودة إلى استخدام مهدئاتها وأدويتها؟

هي تقاوم.

لون القرص الوردي ما زال يشتهيها.

جاءت إلى مصر. إلى الروضة، إلى هذا المبنى القديم وهذه الوجوه الميتة لتحيا معهم في الموت، فلماذا يحاربونها حتى في موتها؟

أدارت محرك سيارتها. الوقوف على كوبري الجامعة مستحيل. أكملت طريقها إلى البيت.

لن تكتفي بما فعلته في مكتبه. ستفعل أضعاف ما فعلت في وجه زوجته الباردة وابنته المغرورة.

ما ذنبهما يا ملك؟!

وما ذنبها في وجودهم أمامها. وحده أيقظ بداخلها هذا الجنون. جنون لا طريق أمامه سوى إسقاط الضحايا فليحتمل.

حين تركت سيارتها في المكان الذي يحجزه لها عمران بعدما أزاح عنه قطع الحجارة الكبيرة، ترجلت من سيارتها وهي تصيح:

عندما يعود الكلب الذي اسمه زيدان ويكون في بيته هو وزوجته وابنته أخبرني. هل تفهم؟!

لم يجبها.

الوحيد الذي تشعر أنه لا يكترث بثوراتها وجنونها. ولكن من يعلم. ربما كان هو الآخر يغزل لها مفاجأة وفخاً.

ستنال منه إن فعل، بل وعزة الله هي تتمنى أن يفعل. تقتلها قسوتها عليه هو وابنته.

تراهم ضعفاء وترى خسة في تجبّرها عليهم.

لو أنهم فقط يمنحونها سبباً، لمزقتهم كما مزقت وحيد منذ ساعات، وكما ستفعل مرة أخرى أمام زوجته وابنته.

حين دخلت المصعد واستدارت في مواجهة مرآته ورأت وجهها الجميل العاصف انفجرت في بكاء حاد. شيء في صدرها يسألها الرحمة ويرجوها الهدوء. شيء في أذنيها يتوسل إليها أن تهدأ وصوت في ضميرها يسألها: ألا يكفي ما حدث؟!

ألا يكفي. لماذا يطاردها الألم ولماذا لا تقاوم؟

هذا الجنون وهذه الثورات ليست قوة.

هي الضعف بعينه.

إلى متى. إلى متى ياملك؟!

أيّ شيء على الأرض في إمكانه إن يعيدها إنساناً ويقتل في داخلها هذا الوحش المجنون الذي يحطم ويؤلم رغم أنها تعلم علم اليقين أنه مثلها يحتضر ويموت؟

لا شيء يخفى في مدرسة. الأنباء في المدارس كالفيروسات والجراثيم في الحروب والأوبئة.

أهذا ما يُبكيها. أهذا ما يمزق صدرها؟!

إن الجميع سيتناقلون قصتها. الجميع سيحكون كيف سقطت في بهو المدرسة بعد خروجها من غرفة مديرها.

أهذا حقاً ما يجب أن يؤلمها أم إن الألم كله في الحدث الذي دار في غرفة المدير؟

كانت مروة على مكتبها ككل يوم تقرأ الملفات وترتب الأوراق والمستندات المطلوبة منها عندما أخبروها أن السيد "روي أرمسترونج" يريدها في مكتبه.

قليلة هي المرات التي دخلت فيها مكتبه ،فالرجل لا شأن له بموظفي الإدارة فجلّ عمله التلاميذ والمعلمون.

انقبض قلبها وهي تدخل إلى مكتبه لتجد ابنتها واقفة وإلى جوارها "علي إسلام" أحد أكثر الطلاب إثارة للمشاكل في المدرسة.

وقفت لحظات في ذهول وهي ترى والده يجلس على مقعد طاولة الإجتماعات الصغيرة ومعه السيد أرمسترونج الذي أشار لها بيده لتجلس معهما.

نظرت إلى عيني علا في ذهول كأنها تسألها أيّ قضية مشتركة يمكن أن تتورط فيها مع أحد مثل علي وتتطلب حضور والده واستدعاءها.

نعم سمعت وبوضوح ما قال. ورغم سقوط دمعاتها على وجنتيها بغزارة مما يعني أنها فهمت، إلا أنها عادت تطلب منه أن يعيد كلماته وببطء أكثر.

إحدى المشرفات ضبطت علا في حمام الصبيان مع علي نصف عارية حيث كانا يتبادلان قبلة محمومة.

محمومة؟! لا هو لم يقل محمومة بل قال "قبلة فرنسية".

كانت تهزّ رأسها تحاول أن تفهم، لكنّ الرجل استطرد يخبرهم أن المشرفة أمرت علا بارتداء حمالة صدرها وقميصها ومرافقتها وعلي إلى مكتب المدير.

هددها علي، وحين نهرته عرض عليها رشوة، بينما ارتدت الفتاة ملابسها وذهبت إلى فصلها بعدما دفعت بالمشرفة إلى الأرض.

عامل نظافة ينظف أحد الحمامات كان هناك وسمع كل شيء خرج من الحمام الذي كان يقوم بتنظيفه بعد خروج علي وساعد المرأة وأخبرا مدير المدرسة بكل شيء.

كان جسدها يرتجف وتتمنى لو تعلم كيف توقف دمعاتها. كانت من خلف ستار الدموع تنظر إلى وجه

ابنتها والسيد إسلام وابنه فلا تجد عليهما أدنى ألم أو خجل.

وحده المدير الأمريكي وضع كفه على أصابعها الراقصة في يدها وهو يردد أنه يعلم أنها حماقة مراهقين، لكن لم يكن من الممكن أبداً إلا أن يستدعي والد الشاب على العجل أو يستدعيها.

إسلام البدوى قال في غرور إنه سيعتذر للمرأة ويمنحها نقوداً تنسيها ما حدث، لكنه لا يرى ابنه مخطئاً فهو لم يعتد على علا أو يرغمها على شيء بدليل وجودها في حمام الصبيان، مما يعني ذهابها إليه بكامل إرادتها.

لا تذكر شيئاً آخر من كل ما دار سوى أنهم في النهاية طلبوا من علا وعلي العودة إلى فصولهما، وفصلهما لمدة ثلاثة أيام.

إسلام البدوي أعلن أنه سيأخذ معه ابنه إلى البيت ولن يتركه بقية اليوم، وسيرسله بعد انقضاء الأيام الثلاثة. وبقيت هي على مقعدها تنتفض.

حاولت ابنتها أن تستأذن وتعود إلى فصلها إلا أن الرجل أخبرها أنه سيتركهما معاً للحظات.

حين نهض عن مقعده تحاملت مروة على نفسها ونهضت عن مقعدها تحاول أن تخبره أنها تعتذر، أو أنها

بخير، أو أيّ شيء، لكنّ شيئاً كان يقيد لسانها وكلّ ما في جسدها عدا دموعها.

عندما أغلق الرجل باب مكتبه رأت ابنتها تتبعه وصاحت تأمرها بالبقاء.

ربما لم يخرج صوتها أو ربما توهمت أنها سمعته.

ابنتها لم تتوقف، وحين لحقت بها وهي تتأرجح على ساقيها أطبقت بكفها على ذراعها تصيح باسمها. استدارت تنظر إليها في تحدّ سافر كأنها ما فعلت شيئاً. كأن أمها لا تبكي أمامها وتتناثر.

وقفت مروة بعينيها على شفتي ابنتها الجميلة.

أسلمت هاتين الشفتين "لقبلة فرنسية" في حمام مدرسة؟ ومع من؟! علي إسلام؟!

كانت تطبق على ذراعيها في عنف وهي تنظر إلى صدرها. كان هذا الصدر عارياً بين كفيه؟

تخجل هي من الدخول إلى غرفة ابنتها إن كانت تبدل ملابسها.

استجمعت كل قوتها ورفعت كفها الأخرى تحاول أن تلطم بها وجه قاتلتها، إلا إن علا كانت أسرع فأمسكت بكف أمها وقالت:

هناك في الحسين يضربون بناتهم هنا لأ. أنا حرة. هل تفهمين معنى كلمة "حرة"؟!

خنجر في الروح لا في القلب.

تردد كلمات زيدان.

الحسين!

نفضت كفَّ علا وسقطت على وجهها وهي تكتم صوت صياحها تخبرها أن الحسين علمها الشرف والكبرياء.

الكبرياء الذي علمته هي لياسر، لهذا لم يجده أحد يوماً مع أحد زميلاته يبادلها قبلة فرنسية وهي نصف عارية في الحرم المدرسي.

كأنها ما صفعتها. كأنها لا تموت أمامها. ضحكت علا وهي تحرر ذراعها بكل قوتها تخبرها أن ياسر لم يفعل ما تقوله لأنه يفعل ما هو أسوأ على سلم التخديم مع بدرية...

"إبنة عمران"!

رآها تهبط من باص المدرسة الذي يحضرها كلَ يوم. رآها تهبط كأنها تلقي بنفسها إلى أرض الشارع.

لماذا يشعر أنها تكاد تسقط؟ نعم هي تكاد تسقط.

عندما رفع عينيه ينظر في وجهها رآه مغسولاً بالدمع.

لا بدَ أن للأمر صلة بكلمات ملك وتوعدها. ملك لا تعنيه في شيء، لكن مروة لها في قلبه شيء ولها عليه أفضال كثيرة.

نهض عن أريكته الخشبية وتقدم نحوها يسألها إن كانت بخير.

مخدوع هو الآخر في ابنته. ابنته تلتقي ولدها على سلم التخديم.

التي ظنتها ابنتها، لكن إن كان ولدها الذي ظنته رضع منها فضائل الحسين يغرر بطفلة صغيرة مثل بدرية فماذا بعد تنتظر؟

ابتسامة ساخرة ارتسمت على وجهها وهي تعاود التحديق في وجه عمران.

أما اشتهته هي نفسها يوماً؟ ألا تطاردها كفه في فراشها كلما نبض جسدها وتحركت أوتار عروقها؟

ملعون هو وحيد زيدان.

وحده عن سقوطهم جميعاً مسؤول.

خطت من جواره نحو مدخل العمارة، وفي طريقها تذكرت من جديد كلمات نادية شفيق.

لأنها ضعيفة يزداد القدر قوة عليها.

سمعته يناديها ووقفت تسمعه من خلف ظهرها يقول:

السيدة ملك تريدني أن أخبرها عند عودة الدكتور وحيد. تريدكم معاً جميعاً. كانت عيناها تتطايران شرراً.

استدارت تحدق في وجهه الأسمر الوسيم في ذهول. لماذا كل شيء ضدها اليوم؟ ربما لأنها كانت أضعف من كل الأيام. وسمعته يكمل:

ما بكِ يكفي. أشعر بكل ألمك منذ غياب الأستاذ ياسر. أرجوك توخي الحذر. هي امرأة شريرة لا رحمة في قلبها ولا عقل في رأسها!

لا تريد أن ترى علا وحدها، ولا تريد أبداً أن تفاجئها ملك أمام زوجها.

تريد زوجها فقط لقصة ابنته. وقبل أن تدخل بيتها بكفها مسحت بقايا دمعها وطرقت باب ملك في هدوء.

لم يكن وجه ملك هي الأخرى خالياً من آثار دمع واضحة على جنباته عندما فتحت لها.

حاولت مروة أن تبتسم لكن عاجلتها الأخرى بكلماتها قائلة:

يبدو أنك تجزلين العطاء لعمران. أخبرك؟ أين زوجك؟!

حركت فيها الكلمات خنجراً من خناجر كثيرة ما زالت مرشوقة في صدرها، لكنها ابتعلت صرخة ألم كادت تنطلق من فمها وقالت:

اسمعي. إبنتي تضيع. إبني سافر. والدى مات. زوجي لا يعنيني في شيء. هو ليس زوجي. لا أهتم لأي شيء فعله معك. لا أستطيع أن أمنعه ولا أريد أن أفعل. أريد أن أمنعك أنت عنه اليوم فقط. إبنتي تضيع. هل تفهمين ما أقول؟ تضيع.

كانت تنتفض وتبكي ويعلو بكاؤها أكثر وهي تشعر أنها عاجزة تماماً عن السيطرة على كلماتها.

تعلم أنها لا تهتم بها أو بابنتها. هي فقط لا تريد أن تنهار أمام امرأة في قسوة ملك، رفضت حتى أن تشكرها على ما فعلته معها يوم وصولها. لكن هي لا تعرف كيف توقف دمعها أو كلماتها. وعادت تكمل:

أقسم عليك برحمة أمك. طنط نادية كانت تحكي كثيراً عن حنانها وطيبتها. أتركيه اليوم. أرجوكِ. إبنتي تضيع... تضيع...

لماذا تشعر أنها تريد أن تضمها؟ لماذا تشعر ملك أنها تتمنى لو تأخذها على صدرها وتخبرها أنها هي أيضاً ضاع منها وحيدها وتفهم لوعة روحها؟

لكن أبداً. لن تستسلم لإنسان.

لا يخدعك إلا إنسان ولا يقتلك إلا إنسان تشفق عليه وتتمنى لو ضممته إلى صدرك.

في جنون صفقت الباب في وجهها، لا لتمنعها من الدخول أو الحديث، لكن لتمنع نفسها هي من ضمها إلى صدرها.

أغلقت الباب واستندت خلفه بظهرها وصوت بداخلها يحذرها من السقوط أمام دمع ومشاعر. وفي لحظة رأت وجهها يرتسم أمام عينيها.

"ريبكا"...

ذاك الوجه الرقيق الناعم الحاني. وجه قتل ملك وألقى بها ما يقارب الست سنوات في ظلمات المصحة النفسية. أخذت ملك تلوح بكفيها في الهواء كأنها تمحو ذاك الوجه الذي ارتسم أمام عينيها. لن تذكرها. أبداً لن تذكرها. ماتت ريبكا. قتلوها.

كأنها ترقص أو تترنح وهي تخطو نحو مقعد البيانو الذي رفعت غطاءه الأسود وبأصابعها. أخذت تنقر عليه موسيقى السيمفونية الخامسة لموتسارت في جنون.

كلما تسارع صوت الموسيقى عاد وجه ريبكا يرتسم أمامها في وضوح أكبر.

لماذا تعزف السيمفونية الخامسة بالتحديد؟ لأن ريبكا كانت تحبها. يوماً استأذنتها وهي تخبرها في خجل أنها تعشق هذه القطعة وتجيد عزفها.

تتمنى لو ترفع أصابعها عن البيانو وتصرخ، لكن شيئاً يقيد أصابعها ويجعلها تعزف بجنون أكبر.

أصبحت حياتها مع هشام واضحة المعالم.

تسافر كل شهرين عشرة أيام إلى والدها في أمريكا. عشرة أيام تذهب خلالها إلى مدرسة الفلوت لتقيم حفلاً صغيراً هناك.

تقف أمام جمهور أوتوا الذي أصبح يأتي خصيصاً لحضورها. كانت ملك في تلك الليلة تنزف ولا تعزف...

تنزف اضطراب مشاعرها مع هشام. تنزف تعلقها به ورفضها لتلك الآلية العجيبة التي يحرك بها أيامها وحياتها.

كل شهرين، عشرة أيام فيها ليلة. ليلة تشعر فيها أنها سيدة عصا الفلوت.

تنحني دقائق طويلة لرجال ونساء من صفوة سكان البلدة يصفقون لموهبتها. يصفقون لتميزها وليس أبداً لثيابها وجمالها وعطورها.

ليلة كل شهرين تكفيها لتعود كالمسحورة إلى منزل هشام مؤمن في قطر لتقيم دعوات العشاء والغداء وتراقبه يوقع عقوداً عقارية أكبر.

دوماً يطلب منها أن تترك شعرها طليقاً، ودوماً يريدها أن ترسم خطاً أسود على جفني عينيها العلويين ليظهر لونهما الأخضر كأنها حقل يتسع لرؤية عالم غريب أدمنته وكرهته حتى أصبحت لا تعلم كيف تغادر أسواره ولا كيف تُحكم على نفسها قيوده...

كلما علت أنغام عزفها شعرت بذكرياته ترتسم أمام وجهها بوضوح أكبر.

أصبحت حاملاً. جن جنون هشام تماماً كما جن جنونه في تلك الليلة التي قالت فيها لا.

أصبح وجهه باهتاً لا قطرة دم واحدة فيه. حتى أنها ظنت للحظة أنه عقيم لا ينجب.

دموعها تتطاير وأصابعها تتمزق على أصابع البيانو كأنها تولد وتموت مع كل صوت يخرج من تحت يدها.

علمت أنه أبقاها أكثر من عام من دون حمل. كان يعرف متى يجب أن يبتعد عنها ومتى يأخذها في ليال يثق أنه لا حمل فيها يمكن أن يحدث.

ليته أتقن اللعبة يا ملك. ليته أتقنها.

أخبرها أنها صغيرة وأنهما في بداية حياتهما. كاد يبكي وهو يصرح لها بأنه يكره أن يراها منتفخة تحمل كرة أمام جسدها. يخجل أن يصطحبها إلى الحفلات أو يدعو الناس إلى منزل سيدة تتحرك بصعوبة.

أطفأ فرحتها. سكب على سعادتها رماد تفاهة وأنانية ما كانت تريد أن تراهما تنطلقان من فمه ورأسه. ماتت فرحتها بأصابعه لكن لم تستسلم أبداً حين عرض عليها فكرة الإجهاض.

لم تقل حرفاً. أغمضت عينيها ومدت أصابعها تطفئ مصباح سريرها واستدارت تنام في هدوء.

حين خرج في الصباح التالي تركت كل شيء لها في بيته، كل شيء سوى عصا الفلوت، وركبت الطائرة وذهبت إلى والدها.

ارتمت بين ذراعيه وبكت دمعاً وحروفاً وقصصاً.

حين غسلت وجهها بالماء في الصباح التالي. حين جمعت شعرها الكستنائي فوق رأسها وارتدت ملابسها

البسيطة وخرجت إلى الشوارع علمت أي قفص مذهب كانت تحيا فيه.

لم تكن تعسة لكنها لم تكن حرة.

كانت تتجول في الطرقات وتفتح رئتيها للهواء وتقف أمام المحال كلما رأت ملابس أطفال وتبتسم. ليت أمها معها.

أصابعها تؤلمها. طال عزفها على البيانو. السيمفونية الخامسة تطاردها كأنها لعنة نزلت بها ولا تستطيع الإفلات من براثنها.

إلى أين؟! ومتى تتوقف عن العزف؟! إلى أين تأخذها الصور. إلى أين؟!

ما زالت ترى بوضوح زوجها عندما جاءها يطلب عودتها. ما زالت ترى والدها وهو يخبره أن ابنته لن تبرح بيته وتعود.

أخبره أنه لا يريد منه مليماً، وأن حفيده القادم الذي لا يريده هو جُلّ أمله ما دامت ملك تريده.

بكى هشام بين يديها كثيراً. ضمها إلى صدره طويلاً وكثيراً.

شعرت في تلك الأيام أنها تحبه، لكن ما شعرت أبداً أنه حقاً برغبته في عودتها معه كان صادقاً.

تركها في أمريكا. كان يزورها على فترات متباعدة خصوصاً في شهور حملها الأخيرة أو حين أصبحت كرة

متحركة كما قال يوماً.

كان يحادثها كل مساء ويهمس على الهاتف أنه يريدها، وأن الحب وحده من جعله يفكر في الإجهاض. الحب أناني. لا أريد أن يقاسمني فيك أحد.

من قال إن الحب أناني فهو يتحدث عن أي شيء إلا الحب. كانت تخبره وهي تبكي أن هذا الأحد هو هشام هو هي. فكيف من نفسه أو منها يغار؟!

جاء أدهم. ولد بين يديها هي ووالدها كأنه قطعة أخرى منها. عيناه الخضراوان، شعره الناعم، وبشرته الوردية.

جاء كأنه أمطار أرسلتها السماء إلى بستان كادت تموت أزهاره.

مندور وهي كانا يجلسان أمام سريره يراقبان وجهه النائم كأنهما طفلان جائعان وقفا أمام خبز ساخن خلف زجاج لا يملكان أن يكسراه.

جاء هشام. ضمَ أدهم إلى صدره وعاد به إلى يديها في هدوء.

أخبرها أنه يريد عودتها. أخبرها أنه أعدَ لها وله كلّ ما تحلم به أم صغيرة أو طفل رضيع.

خرجت معه لتناول العشاء بعد نوم أدهم.

أخبرته أنها ولدت مع طفلها وأن لحظات المخاض تلك جعلتها ترى حياتها معه.

أخبرته أنها تريد لأدهم أن ينشأ بينهما، وهي تعلم أنه أب رائع، لكنها أعلنت أنها لن تعود إلى تلك الحياة المجنونة. تريد أن تستمتع بوليدها. تريد أن تشعر أنها أم.

كان يستمع إلى كلماتها في هدوء كأنه يتفاوض على إحدى صفقاته. وكانت تعلم أنه يثق أنه سيحصل في نهاية الأمر على ما يريد.

أخبرته أنها ستذهب يومين للتدريس في معهد "بروكلين سنتر للموسيقى" في فرع الدوحة.

أخبرته أن سهرات كتلك لن تقام يومياً في بيتها، لكن إن شاء تكون مرة أسبوعياً سواء خرجا هما إليها أو أقيمت في المنزل.

لم تكن تشعر أبداً أنها تملي عليه شروطا... هي أبسط وأكثر وضوحاً من ذلك.

كانت فقط ترسم شكلاً لحياة جديدة لرجل وامرأة ما عادا مجرد زوج وزوجة بل أصبحا أباً وأمّاً.

وضعت كفها على أصابعه وهي تخبره أنها ستنسى رفضه لأدهم لأنها تعلم أنه لم يكن يعنيه وأن كل لحظة سيضم فيها الصغير إلى صدره ويتنسم رائحته ستجعله يدرك أن عالماً من الجمال أصبح بين يديه.

ناقشها طويلاً في موضوع عملها، لكنها أخبرته أن الموسيقى روحها، وبعد مولد أدهم أصبح تعطشها

للموسيقى أكبر ورغبتها في تعليمها أكثر عمقاً وإلحاحاً.

أخبرته أنها التقت مدير المعهد الأمريكي فى قطر في أيام حملها الأخيرة حين كان في زيارة إلى أمريكا.

أخبرته أنه رحب بها وترك لها حرية تحديد يومين أسبوعياً فهي لا تريد الابتعاد عن أدهم طويلاً.

في تلك اللحظة التي قالت فيها إنها ستحتاج إلى مربية له لمعت عينا هشام كما لم ترهما حتى يوم زفافها.

وضع كفه على يدها وهو يقول:

"ريبكا"...

تختنق ملك... لماذا ترى وجهها أمامها بهذا الوضوح؟ لماذا لا تستطيع أن تتحكم في أصابعها وتتوقف عن العزف؟ هي لعنة ريبكا... هي لعنة تلك اللعينة.

أصابعها تكاد تتمزق من الألم. طال عزفها، لكن وجه ريبكا أمامها كأنه محفور في مآقيها.

لماذا الليلة؟! لماذا الآن؟!

أعواماً لم تر وجهها. فلماذا الليلة؟!

تذكرت كلمات طبيبها وهو يقول: ولماذا لا يا ملك؟

إن جاءت لزيارتك أخبريها أنها هي من استحقت الموت. لا تهربي منها. يوم تواجهينها هو يوم الشفاء الكبير!

من خلف دموعها حاولت أن تصيح. حاولت أن تصرخ وتلعنها وتخبرها أنها وحدها من استحقت الموت. لكن لم تستطع.

الوجه الأبيض الآسيوي الجميل. الشعر الأسود الناعم الذي ينسدل على ظهرها من دون كسرة واحدة. تلك الابتسامة الناعمة الحانية وهي تمد يدها لتلتقط أدهم من على ذراعي ملك يوم عودتها إلى بيتها بعد عام من الرحيل.

كل شيء تراه الآن بوضوح.

أدهم بين ذراعيها وهي تنظر إليه ثم ترفعه في حنان لتضع على جبهته قبلة، ثم تقول في انجليزيتها الطليقة إنه أجمل طفل لأجمل أم رأتها عيناها.

أحبت ريبكا في تلك اللحظة. بل استدارت إلى هشام لتضع على وجنته قبلة وتخبره أنه أحسن الإختيار.

في هدوء سارت معها إلى الغرفة التي تمّ تأثيثها.

كأنك في محل ألعاب. سرير على هيئة "دونالد دك" الشهير ويخرج الفراش من تحت فمه وبين ذراعيه. ستائر الغرفة وجدرانها. الألعاب المصفوفة في عناية على جنبات الغرفة. الألوان البيضاء والزرقاء...

حتى سقف الغرفة المرسوم كأنه سماء مزدانة بالنجوم والكواكب تتدلى في خيوط شفافة لتتراقص في هدوء أمام عيني أدهم وهو نائم في سريره.

ابتسمت تخبرها أن السيد هشام اصطحبها عند تأثيث الغرفة، وقبل أن تلد ملك، وأنها سعيدة لأن اختياراتها أعجبتها.

كالمسحورة كانت وهي تترك لها أدهم وتذهب بين ذراعي زوجها إلى غرفتهما.

غرفة أدهم تقع بين غرفتيهما ولكل غرفة منهما باب يفتح على غرفة الصغير.

نامت بين ذراعي هشام تلك الليلة، ووحدها من ضمته إلى جسدها ومنحته نفسها كأشهى وأجمل مرات لقائهما، كأنها تشكره على عودتها بل تشكره على ريبكا.

كانت تريده بجنون وشوق رغم أنه أخذها مرات عديدة في بيت والدها، لكن في تلك الليلة كانت تريده أكثر من كلّ مرة. كانت تريد أن تعزف بين ذراعيه لحن عودة صاخباً، لكنه كان يضع أصابعه على شفتيها كلما تأوهت أو نادته إليها.

على وهج صدره الأسمر الشهي ضحكت وهي تحاول أن تخفض صوتها تخبره أن ريبكا ليست طفلة وهي تعلم أنها زوجة عادت إلى زوجها بعد حرمان.

ظننته يخاف عليها كشابة صغيرة قد تلتقط رغماً عنها صوت زوجين عاشقين، لكن علمت أنه يعلم أنها تسترق إليهما السمع وأنه يخافها ولا يخاف عليها!

سقطت أصابعها عن مفاتيح البيانو. سقطت أصابعها العشر كأن رصاصات مسمومة أصابتها جميعاً.

رفعت وجهها تنظر إلى الوجه الذي ما زال مرسوماً على نسائم الغرفة أمامها. نهضت في خطوات مترنحة عن مقعدها. لم تعد تخشاها. سترفع هذه الأصابع الميتة وتصفع بها وجهها. نعم تستحق الموت... تستحقه ألف مرة.

من خلف وجه ريبكا ظهر وجه أمها العجوز وهي تبكي، ورمت ملك بعينيها إلى قدميها البيضاوين ورأت الأم وهي تنثني على الأرض تقبل قدميها وترجوها أن ترحم ابنتها. حتى دموعها سكتت كما سكت عزفها المجنون ذاك.

ماذا تريد الآن... ماذا تريد أمها؟ أعواماً لم تر وجهيهما... أعواماً لم تتسللا من نافذة غرفتها في مصحة كاليفورنيا للأمراض النفسية ولم تخرجا من "الكانيولا" التي كانت في كفها لتحقن من خلالها بالمهدئات.

ظنتهما لن تظهرا أبداً في مصر. ظنتهما لا تعرفان أنها هنا.

هجرت أمريكا وتركت قطر وجاءت إلى موطن طفولتها، وبداخلها إيمان كبير أن وجهيهما ابداً لن يأتيا إلى هنا.

كانت ملك تتراجع في بهو البيت إلى الوراء، لا تستطيع أبداً ان تستدير وتمنحهما ظهرها.

لا تأمنهما. حتى الأم العجوز قد تسدد لها طعنة في الظهر.

لا يهمها الموت. سعت إليه كثيراً في المصحة. حاولت الإنتحار أكثر من عشرين مرة وما زالت لا تعبأ بالموت، لكن لن تموت أبداً بيدي إحداهما... أبداً.

كانت تخطو إلى الوراء حتى ارتطم ظهرها بنافذة الصالة الكبيرة وسقطت ملك لتضم ركبتها إلى وجهها وبكت في مرارة كبيرة.

أدهم؟!

لم تر عين طفل في بهائه. حتى أصدقاء هشام كانوا يضعون صورته على صفحاتهم الالكترونية.

حين بلغ شهره السادس كان مندور والدها قد زارها وزارته بصحبة أدهم أكثر من عشر مرات.

أصبح عصفورة قلبه وقلبها وقلب ريبكا.

كانت معها كلما ذهبت إلى أمريكا. كانت تقسم لها أنها لا تستطيع فراقه.

في ليالي الحفلات والدعوات كانت تؤدي دورها وهي هانئة. في أيام تدريسها بمعهد الموسيقى كانت تعود إلى أدهم بالشوق بالحنان... بكل شيء وأي شيء إلا القلق.

كانت تخرج به هي وريبكا وأحياناً بصحبة هشام.

لم تدخل يوماً إحدى الأسواق إلا والتفت الأعين حولها هي ووحيدها وحتى ريبكا.

أجمل فتاة آسيوية يمكن أن تراها العين.

في الشهر التاسع من عمر أدهم جاء مندور في إحدى زياراته. كان يقضي الوقت بأكمله مع الصغير ومربيته.

وحده أخبرها أن في عيني الآسيوية شيئاً تغير. أخبرها أنه رآها تبكي أكثر من مرة.

أخبرته أنها تشتاق إلى أمها وأنها ستقضي معهم شهرين بعد أن يحتفلوا جميعاً بعيد ميلاد أدهم الأول.

ضمت ركبتها إلى صدرها في جنون وهي ترفع عينيها تنظر في وجه ريبكا المرسوم أمامها.

تستحق الموت ألف ألف مرة... لو تركته فقط يكمل عامه الأول.

سافر أبوها بعدما ضمها إلى صدره في حنان يخبرها أنه سينتظر حضورها لإحياء حفل مدرسة أوتوا وسيذهب معها لحضور الحفل.

لماذا شعرت يومها أن شيئاً في مندور كان يبكي وهو يضم أدهم إلى صدره قبل خروجه إلى المطار، لكنه يبكي في كل مرة يودعه فيها، فلماذا تلوم نفسها على بكائه في المرة الأخيرة؟

أسبوع واحد فقط بعد سفر والدها. وجاءت تلك الليلة حيث أغلقت بيدها أزرار قميصها وهي تصيح من الألم عندما أطبق أدهم على صدرها بسنتيه الصغيرتين.

نعم شعرت بالغيظ في صوتها وهي تسألها ألا تفطمه. ظنتها غاضبة لألمها فضحكت تخبرها أنها تتمنى لو تفعل لكن هي من بحاجة إلى الفطام عنه. هي تستمتع بكل لحظة يلتصق أدهم بصدرها ويأخذ من صدرها أحلى ما وضعه الله فيها له.

نظرت إليها في حب وأخبرتها أنها يوماً تتزوج وتنجب وتعلم أيَ متعة أن ترضع الأم طفلها من صدرها.

نعم رأتها وهي تضع كفها على بطنها في تلك اللحظة...

نعم رأت شيئاً كالغضب أو الألم يرتسم في عينيها وهي تلتقط أدهم النائم من على ذراعيها لتضعه في فراشه، لكنها أبداً لم تحاول أن تفسر شيئاً.

ظنتها بذور الأوهام التي ألقاها والدها في رأسها.

قد تكون متعبة. قد تكون غاضبة. حزينة لأي شيء وكل شيء لكن لا شيء من هذه الأشياء له صلة بها أو بطفليهما معاً.

حين عاد ودخل إلى جوارها... حين تململت في فراشها وفتحت عينيها تنظر إلى صدره العاري لم تسأل

أبداً. في لحظة شعرت أنها تريده. تحسست ظهره الناعم بكفها وهمست تخبره أنها حقاً تريده.

لم يستجب جسده لها بسهولة أو سرعة، لكنها أبداً لم تفهم أن هذا كان بسبب خروجه للتو من جسد امرأة أخرى.

كانت تستمتع باستحضار رغبته فيها حتى استجاب.

حين سمعت نهنهات أدهم في الغرفة المجاورة كان هو يستبقيها وهو يطمئنها أن ريبكا ليست نائمة وستتولى الأمر.

غابت في نشوتها وأفاقت منها لتجد نفسها من دون وعي تنهض عن ذراعيه وتضع جسدها داخل قميصها وتخرج إلى غرفة أدهم.

هناك رأتها... رأتها ولم تفهم شيئاً... رأتها تحمل وسادة في يدها وتقف أمام فراش الصغير في ذهول.

صاحت تسألها إن كانت بخير، لكنها كانت تبكي في صمت. واستدارت ملك نحو فراش أدهم.

كان جميلاً كما هو لكنه ساكن لا يتحرك فيه شيء.

صاحت تسألها وحضر هشام، ونصفه الأعلى عارٍ، على صوت أسئلتها.

كانت ملك تحمل أدهم بين ذراعيها وهي لا تفهم، وكانت الأخرى تنظر إلى الرجل ملء عينيها الباكيتين.

كانت تصيح أنَ شيئاً في أدهم لا تفهمه.

كانت تركض وهو يركض خلفها.

إلى السيارة دخلت في جنون وهو خلفها حتى وهي تحمل طفلها بقميص نومها العاري وزوجها لا يرتدي سوى بنطال بيجامته. نظرت خلفها تنتظر ظهور ريبكا.

يجب أن تركض معهم إلى المستشفى... أدهم ابنها هي الأخرى.

لم ينتظر. قاد سيارته إلى المستشفى القريب في جنون وهي ما زالت تضمه إلى صدرها تحاول أن توقظه. كانت تدلك له أصابعه وتفرك قدميه الصغيرة بشفتيها حتى وصلا. والتقطه هشام من يدها وركض إلى داخل المستشفى لتركض خلفه.

لحظات... لحظات صغيرة تتحول فيها إلى ميت لا روح فيك ولا حياة.

"أدهم مات يا سيدة ملك".

مات مختنقاً.

في مكانها تركها زوجها. تركها وركض إلى أين؟ لم تكن تعلم.

لم تبك. لم تذرف دمعة واحدة. من دون حتى أن تستأذن الطبيب مدت يدها تلتقط هاتفه الذي سمعته يرن داخل جيبه. في هدوء قطعت الإتصال الوارد وطلبت رقم والدها في أمريكا، وبعدما فتح الخط

أخبرته أن يحضر وإن اضطر إلى استئجار طائرة خاصة... قالت له إن أدهم مات.

لا تذكر تفاصيل كثيرة سوى أنها رفضت دفن جثمان أدهم في قطر. عادت به هي ووالدها إلى كاليفورنيا وإلى جوار أمها دفن. دفنته وعادت مع والدها يستند إلى ذراعها وهي صامدة لا تبكي.

عادا ليسمعا معاً ويتابعا تفاصيل القصة.

ريبكا قتلته. بتلك الوسادة كتمت أنفاسه. شهوراً وهي صامدة لا ترتدي حتى الأسود. شهوراً وهي تتابع بنفسها إخضاع ريبكا للكشف العقلي.

لكنها اعترفت في هدوء... هكذا قتلته.

لم تقل في التحقيقات سوى أنه كان يبكي وأن أمه في الغرفة المجاورة كانت تتبادل الغرام مع زوجها، وأنها كانت متعبة فقررت في تلك اللحظة أن تسكته إلى الأبد.

لم تقل شيئاً سوى ذلك... وملك لم تقل شيئاً سوى أنها لن تهدأ حتى تراها على حبل المشنقة.

هشام كان حزينا ينهار. مندور بدا كأنه يحتضر... وحدها صامدة تتابع التحقيقات وتدقق في اختيار كبار محامي البلد ليطلبوا لها الإعدام.

متى ظهرت أم القاتلة... أو كيف جاءت ومن أحضرها إلى بيتها؟

لا تعلم... وجدتها يوماً أمامها تقف.

جاءت تجثو على ركبتيها... انحنت تقبل قدميها ترجوها أن ترحم ابنتها. أخبرتها أن لها خمسة أطفال هي أكبرهم. وحدها تنفق عليهم وعلى أبيها المريض. أخبرتها أن الفتاة تحبها وتتمنى لو تفديها بعمرها، لكنها لحظة فقدت فيها سيطرتها على نفسها.

كانت تشعر بدموع العجوز وهي تغسل قدميها ولا يتحرك فيها ساكن.

كانت انجليزية الأم ركيكة لكن عندما تتحدث أم عن وليدها لا يخطئ كلماتها أحد بأي لغة كان حديثها.

بقيت صامدة كما كانت في كل تلك الشهور... لا شيء أبداً فيها يتحرك سوى عقلها.

وحده كان يعمل في جنون للوصول إلى اللحظة التي تموت فيها القاتلة.

حين رفعت الأم ظهرها واستندت إلى ساقها تحاول النهوض، سألتها هل يعيد موت ريبكا أدهم إلى الحياة؟

نظرت إلى وجهها الأبيض الذي سكنته التجاعيد والشقوق... في عينيها الضيقتين الصغيرتين اللتين لا يصدق إنسان أن أنهاراً من الدمع كهذه في إمكانها الخروج منهما، رأت ملك ريبكا تطل منهما.

في تلك اللحظة وصل هشام إلى البيت... لم يفاجأ أبداً لرؤية العجوز، ولا هي أنكرته بل بدت أنها تعرفه

جيداً. من يدري؟ ربما بكت على قدميه هو الآخر...

أمسك بذراع العجوز وخرج بها بعيداً عن بهو البيت الكبير.

حين عاد كانت ملك كما هي على هدوئها نفسه.

كيف كانت تحيا طوال تلك الشهور؟ لا تعلم أبداً... كيف كانت تنام أو ماذا تأكل أو تشرب؟...

كل شيء سقط من ذاكرتها عدا مشاهد قصيرة صغيرة ومشهداً كبيراً بعد صدور الحكم بالإعدام على ريبكا.

لم يصدق هشام أبداً أنها تريد أن تشهد بنفسها تنفيذ حكم الإعدام. مندور نفسه حاول ثنيها بكل قوته وضعفه بكلماته ودموعه، لكن ملك كانت واضحة محددة...

أخبرت والدها أنها بعد التنفيذ ستسافر معه. سترتدي ثوباً أسود وتذهب إلى حيث ترقد أمها ويرقد أدهم...

كانت ترى بعينيها كيف ستنثني على قبرهما وتستجدي عينيها الدموع... كانت ترى بعينيها كيف ستخرج عصا الفلوت وتعزف على قبريهما أحلى ألحانها وأكثرها شجناً وحزناً...

في غرفة زجاجية وقفت تراقب الغرفة التي سينفذ فيها حكم الإعدام.

في تلك اللحظة دخل إليها أحد كبار مسؤولي السجن يحمل في يده مظروفاً. أخبرها، وهشام إلى جوارها، أن االسجينة أخذت عليه عهداً بتسليمها المظروف في يدها، وأنها طلبت منه أن يخبرها أن في طيات هذا المظروف ستجد "الحقيقة".

قبض زوجها على المظروف بيده وهو يردد أنه سيمزقه لأن ما فيه لن يكون سوى كلمات قاتلة مضطربة، لكن ملك في تلك اللحظة وضعت كفها على يديه وحرّرت منهما المظروف.

فتحته في هدوء في اللحظات ذات التي كانت ريبكا تقاد فيها إلى غرفة الإعدام.

كلماتها كانت قليلة لكنها واضحة...

قالت إنها تكرهها، وإنها كانت تتمنى لو قتلتها عوضاً عن أدهم... قالت إن هشام كان يتجول في جسدها قبل دخوله إليها بلحظات، لكنها كرهته... قالت إنها تذوب فيه عشقاً رغم كونه أرغمها على إجهاض طفلها منه.

كيف تنسى تلك الجملة التي قالت فيها:

سيدة ملك... قد لا يكون الذنب ذنبك لكن أردتك أن تعرفي معنى أن تفقدي طفلك لتنتقمي أنت لي من رجل هو حبيبي وسيدي لكنه وإن كان زوجك فهو ليس سيدك... أموت وأنا أحبه وأكرهك أنت وطفلك... من

قبري سأطاردك... في قبري لن أهدأ حتى تحضري وأريك وجه طفلي ورأس طفلك!

حين رفعت عينيها عن الورق كانت ريبكا تتدلى أمام عينيها مشنوقة، لكنها رأتها مفتوحة العينين رأتها في تلك اللحظة كما لا يراها أحد في الغرفة التي تقف فيها...

رأتها تفتح الباب وتدخل وتربت على كفها التي تقبض على الأوراق وتعيد عليها أنها ستأخذها...

كل شيء في رأسها اختلط. كل شيء في عينيها كان يغيب ويعاود الظهور...

حين ناداها هشام واقترب منها يسألها عن الأوراق، حين سمعت ذاك الرجل الذي أحضر لها الأوراق يهمس أن حضورها كان خطأ كبيراً...

استدارت تتمنى لو تصرخ في وجه زوجها تسأله عن الحقيقة، لكنها رأت ريبكا تحيط هشام بذراعيها وتأخذه إلى صدرها وتقبله على شفتيه...

غابت عن وعيها وسقطت وهي ما زالت تقبض على الأوراق بين أصابعها...

هكذا انهارت ملك... هكذا نقلوها إلى أحد مستشفيات قطر لتبقى فيها شهوراً لا تذكر منها شيئاً سوى وجه القاتلة وصراخها وهي تحاول أن تخفيه عن عينيها بذراعيها ومندور إلى جوارها يبكي...

لا شيء آخر تذكره سوى أصوات وهمهمات ووخز إبر طبية تقتحم عروقها وظلام تغيب فيه... لا شيء تذكره بعد هذا سوى صوت طائرة كانت تستلقي فيها على ظهرها ووجه مندور يرجوها أن تهدأ...

لم تكن تفهم شيئاً. لكنها فهمت ليس بعد أيام أو شهور بل بعد أعوام أنها انتقلت إلى أكبر مصحات كاليفورنيا النفسية التي تقع في "أورانج كاونتي".

خمسة أعوام من عمرها سقطت هناك... تفيق لتجد وجه ريبكا... تصرخ ويأتي طبيبها... يحقنها بالأدوية ولا تغيب كما كانت تغيب هناك، لكنها تصبح كالهائمة... تسمع كل شيء ولا تفهم شيئاً... ترى وجه ريبكا لكنها تعجز عن مقاومته...

دوماً يتسرب إليها صوت طبيبها يأمرها أن تواجهها... يأمرها أن تصرخ فيها وتخبرها أنها ماتت ولن تقترب منها... كان دوماً يقول:

"لا شيء هنا يا ملك... هل ترين؟! لا شي... هي قتلت طفلك وتم إعدامها".

أعواماً وهو يطلب منها أن تواجهها ولم تستطع...

وحدها ريبكا في العام الأخير قررت ألا تزورها... شهور تتجول فيها ملك في حدائق المصحة وتصحو وتنام والقاتلة لا تظهر، لكنها ما اختفت وحدها... غابت وغاب معها مندور.

شهوراً وهي تسأل عنه طبيبها فيخبرها أنه في رحلة عمل، حتى قارب العام على الانتهاء وهم يمنعونها من الاتصال به، حتى جاء ذاك اليوم الذي دخل فيه د. ديفيدسون إلى غرفتها وجلس يتحدث إليها.

في هدوء أخبرها أن والدها مات منذ شهور... مات وترك في حساب المصحة مبلغاً مالياً كبيراً... نصف المبلغ تبرع كامل للمصحة والنصف الآخر لعلاجها، رغم أن التأمين الاجتماعي يتكفل بمصاريف علاجها كمواطنة أمريكية.

كان يتحدث ببطء وهدوء، وكان يتوقع أن تعاودها نوبات جنونها، لكنها كانت هادئة... سكنها إيمان عميق بأن ريبكا غابت لأنها ما استطاعت النيل منها، ويوم تملكها اليأس أخذت مندور وغابت.

أخبروها أنها جاهزة للخروج والعودة إلى الحياة مرة أخرى.

كيف تنسى ملك يوم عودتها إلى مقر أبيها المغلق...

وضعت حقيبة ملابسها وذهبت إلى المدافن وانحنت تجلس إلى جوار القبور الثلاثة...

هناك بكت كثيراً وطويلاً... كانت دموعها تنساب في غزارة لا تصدقها عين ولا يقرها رأس... بكت حتى حل الظلام وعادت إلى بيتها وحيدة.

شهوراً وهي تتصفح ملفات والدها... باع كل شيء عدا البيت الكبير الذي نقله باسمها.

خمسة عشر مليون دولار في أحد البنوك باسمها... أوراق ومستندات في طياتها وجدت ورقة طلاقها من هشام مؤمن مصدقة من كل الجهات الرسمية.

لم يترك لها شيئاً من دون ترتيب لكنه تركها وحدها. وحدها بما بقي لها من عصبية تظهر إن تعاملت مع هذا الكائن الدنيء الذي اسمه "الإنسان"!

لم تعد شوارع لوس انجلوس تستهويها. اتصل بها معهد أوتوا للموسيقى كثيراً كي تعاود عزفها على عصا الفلوت لكنها ما استطاعت أن تنفخ فيها أبداً.

كأنها ما عزفت الفلوت يوماً... كأنها ما انحنت لها رؤوس ولا تمزقت من أجلها أكف من التصفيق...

كانت أحياناً تفتح عينيها وتبحث عن ريبكا وجسدها يرتجف، لكنها أبداً ما جاءتها. ربما مرات قليلة يعبر وجهها الباسم الذي رأته أول مرة ويختفي في ثوان... لكنه دوماً يأتي ويذهب في هدوء.

قررت العودة إلى مصر. قررت أن تبتعد عن كل تلك الأعوام التي سرقت منها والديها وطفلها.

صرخت صرخة كبيرة حادة. لم تكن حتى تتذكر أدهم أو تحاول أن تستعيد رائحته بين ذراعيها.

ظنت أنه لن يأتيها إلى هنا... حتى وهي تجلس على قبره... كانت تبكيه وتحادثه، لكن أبداً لا ترى وجهه.

لماذا جاء ومعه هذه الحقيرة؟

عادت صورة ريبكا ترتسم أمامها... ليس وجهاً بل جسد كامل.

شعرت أنها تتمزق من جديد. وللمرة الأولى في عمرها شعرت أنها لا تريد أبداً أن تتركها تقتلها.

تموت تحت عجلات سيارة أو بين أنياب كلب ضال ينهش لحمها حتى الموت، لكن أبداً لن تترك هذه الحقيرة تغتال أحداً بعد وحيدها ووالدها.

كانت ريبكا تخطو نحوها وهي ما زالت متكورة على الأرض. تخطو وعلى وجهها تلك الابتسامة الميتة الباهتة.

نهضت ملك في جنون تقاومها، وللمرة الأولى لا تغمض عينيها وتدفعها بعيداً عنها بذراعيها.

لم تكن وحدها من يتقدم نحوها. من عيني قاتلة ابنها كان وجه هشام يطل. كانت عينا زيدان الجائعتان اللتان رأتهما هذا الصباح تطلان.

في جنون كانت ملك تستدير حولها وتبحث عن كل شيء يمكنها أن تحمله وتلقيه في وجه الزاحفة نحوها وهي تصيح تخبرها أنها قررت أن تقتلها بيدها لا بقرار محكمة هذه المرة...

مقاعد ومزهريات ومنافض سجائر من الكريستال ألقتها في وجهها وتحطمت تحت قدميها.

كلما ألقت في وجهها بشيء رأت خطوط دمها تتفجر وتترنح أمامها لتسرع بإلقاء المزيد وتحطيم المزيد.

رأتها تترنح وتسقط على مقعد البيانو البعيد.

بدت في عينيها تموت لكنها أسرعت إليها... لن تترك قطرة من دمها الملوث تمس أغلى أشيائها.

لم تجد شيئاً آخر تعذبها أو تقتلها به... لم تجد شيئاً سوى عصا الفلوت الموضوعة على حافة البيانو في حقيبتها الجلدية.

لم تتردد. أمسكت بها وانهالت على رأس زائرتها وهي تصيح بصوتها الباكي المتقطع تخبرها أنها أبداً لم تعد تخشاها...

ما عاد لديها من تخاف عليه. كانت ترفع يدها وتسقط بعصاها على المقعد، وتراها تحتضر وتموت وفي الضربة الأخيرة اهتزت يدها وسقطت بعصاها على البيانو ورأتها تنقسم نصفين.

عادت تصرخ من جديد. حقيرة هي ريبكا... حطمت قلب ملك على ولدها ووالدها وماتت.

نعم هذه المرة ماتت لكن بعدما سرقت أغلى ما تبقى لها...

"عصا الفلوت"...

دموعها كانت تسبقها إلى الأرض حتى أنها ما باتت تعرف هل تمسح درجات السلم بماء هذا الوعاء أم بدمعاتها... لكن يجب أن تنتهي من مهمتها وتعود إلى غرفتها.

يجب أن تستذكر دروسها.

جرحتها هناء في المدرسة مجدداً وهي تخبرها أن أكثر من صديقة لها علمت بحقيقة والدها.

صرخت بدرية في وجهها تخبرها أنها وحدها ستعلن للجميع أن والدها "بواب".

لم تستطع أن تفعل... عادت إلى والدها... عادت لتسكب له الطعام وتجلس أمامه ترمى باللقيمات إلى بطنها ونهضت تخبره أنه يوم مسح سلالم المبنى الأسبوعي.

كان صوت صرخات ملك وتحطم الأشياء يتسلل إلى أذنيها، لكنها ما كانت تهتم. كانت تظنها صرخات قلبها خجلاً من عمل والدها. خجلاً من شوقها إلى ياسر. خجلاً من ضعفها وقلة حيلتها. الصرخات تعلو كأن أشياء كثيرة تتحطم. هي صرخات روحها أكبر وأعلى صوتاً. بل هي روحها تتحطم تحت أقدام قدرها.

لكن ما لبثت أن اعتدلت بظهرها وهي تسمع صوت مروة تصيح وهي تدق دقات سريعة عالية تنادي من بينها ملك.

ألقت بقطعة القماش المتسخة التي بين يديها وهبطت إلى الدور الذي يأتي منه صوت مروة ووجدتها تقف على باب ملك تطرق الباب في جنون وتناديها حين رأتها صاحت تطلب منها إحضار والدها.

في لحظة كانت داخل المصعد وجسدها يرتجف خلف ثوبها المبتل. لم تكن صيحات روحها. هناك أرواح أخرى تتكسر في هذا العقار الملعون.

حين وصلت إلى الدور الأرضي كان والدها على أريكته الخشبية خارج باب العمارة يجلس.

ركض معها إلى المصعد وحين وصلا كانت مروة ما زالت تصيح تنادي ملك.

لم يعد هناك صرخات أو أصوات تحطيم، لكن مروة كانت تدق الباب كالمجنونة، وحين رأت عمران استدارت تقول:

تحدثت إليها من ساعة تقريباً... كانت بخير. ربما كان معها من يؤذيها. أرجوك أن تكسر الباب.

أكسره أرجوك.

بعد لحظات من التردد طلب منها أن تبتعد هي وابنته وأخذ يلطم الباب بجسده مرات عديدة حتى

استطاع أن يكسر مزلاجه. وصاحت بدرية تطلب منه ألا يدخل لكن ما إن فتح الباب حتى رآها الجميع...

كانت ملك تجثو على الأرض وبين ذراعيها نصفي عصا الفلوت.

ركضت مروة نحوها تأخذها على صدرها وهي تحذر بدرية من شظايا الزجاج المنثور على الأرض.

عيناها مفتوحتان لكنها صامتة، واستسلمت في هدوء لذراعي مروة. عندما وضعت الفلوت بعيداً سقط رأسها على صدرها كأنها ماتت وصاحت مروة تقول:

إذهبي إلى الدكتور ناصر... أخبريه أن يأتي حالاً!

لم يفعل ناصر الكثير. هم فقط حملوها إلى فراشها وحقنها بمهدئ ووقف يتحدث إلى مروة يخبرها أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً... قد يكون انهياراً عصبياً وقد تكون نوبة لمرض لا يعرفونه وخصوصاً أن عصبيتها وعزلتها تنبئان عن شيء خفي.

طلب منها أن تكون حذرة فقد تؤذيها ملك، وأخبرها أنه سيرسل لها مع عمران رقم أحد أطباء الأعصاب من زملائه في المستشفى الذي يعمل فيه بعد أن يحادثه ويخبره عن القصة.

كان يتحدث معها كأنها أم ملك أو أختها، وفي طريق خروجه من البيت، وحين كانت تتبعه كأنه حقاً بيتها وكأن المريضة مسؤوليتها، أشار بيده إلى كل بقايا المعركة الكبيرة واستدار ينظر إليها هي وبدرية الواقفة مكانها قائلاً:

هذا الدمار لا يكون إلا من صنع مريض. توخي الحذر... إن انتهى مفعول العقار قد تؤذيكم أنتم لا الأشياء هذه المرة.

في هدوء نظرت مروة إلى وجه بدرية الباهت وابتسمت ابتسامة مريرة. هل حقاً سقطت هذه الجميلة

في الخطيئة مع ياسر؟ هل يفعل ولدها شيئاً كهذا في فتاة كان يبكي دفاعاً عن حقها في التعليم والحياة والاحترام؟ وإن حدث ما الذي يجب أن يكون؟

انتفض جسد بدرية وهي ترى عيون مروة تراقبها بذاك الألم، وشعرت كأنها تلومها فقالت:

ما سمعت شيئاً. كنت أمسح السلالم في الدور العلوي. سمعت لكن لم أفهم... هل هي بخير؟!

بذات الألم أجابتها قائلة:

التقطي من الحطام ما استطعت وأنا سأساعدك... عمران أرجوك أحضر نجاراً وليحضر معه مزلاجاً جديداً ليصلح الباب.

قبل أن يمضى عادت تقول:

إنتظر... سأحضر لك نقوداً.

في طريق خروجها إلى بيتها وجدت زوجها أمامها يطل داخل شقة ملك في ذعر وحذر وسألها:

ما هذا... ما الذي حدث؟!

بصوت خفيض لكنه جريح قالت وهي تعبر من جواره:

أنظر ماذا صنعت بملك... أضعتني وأضعت ابنك واليوم ضاعت ابنتك.

علا ضاعت يا وحيد... ضاعت!

ترى ما هي قصة ملك؟! هذا الوجه البهي الشهي الجمال ماذا خلفه؟

هذا الجسد الرقيق ماذا يسري فيه غير الألم مع الدم في عروقه...

ولماذا تحبها وتشفق عليها كثيراً... لماذا تقبع إلى جوارها في هذا السكون وتمسك بكفها بين أصابعها وتبكي...

على من تبكي مروة؟!

تبكي على امرأة كلما رأتها تلطم في وجهها الأبواب وتتهمها بالغباء وتتهم زوجها بالوضاعة والدناءة.

ربما لهذا تحبها. لأنها دوماً تأتيها بالحقيقة.

غبية كبيرة هي... حمقاء تدفن رأسها في الرمال... تحيا مع رجل هي أكثر من يعلم بدناءته.

تشتهي بواباً أسمر وتبكي لأن كفه ما زالت تتجول في رأسها وعروقها. حمقاء يوم ظنت وحيدها ملكاً فإذا به شاب يغرر بفتاة ظنتها أيضاً ملكاً.

علا تكذب. إن كذبت فلها الحق لأنها تعلم أن أمها غبية تصدق كل ما يقال لها وإن صدقت فهي حمقاء لأنها أحسنت الظن ببدرية وياسر.

رحم الله والدها وسكان حي الحسين. رحم الله ذاك الزمن الذي كان الحب والظن الحسن أسياده.

تهرب من العودة إلى بيتها ومواجهة ابنتها وزوجها، أم تراها تعلم أنها لن تصل إلى شيء؟ علا ستتهم مشرفة المدرسة بالكذب والافتراء، ووحيد سيصدقها، وربما اتهمها بالجنون لأنها لم تدافع عن ابنتها بل وقفت أمام مدير المدرسة ذليلة لأنها ضئيلة من حي الحسين جاءت... أم تراها هنا باقية لأنها حقاً تحب ملك... في لحظات كانت تتمنى لو تكون في جنونها واندفاعها. كانت تتمنى لو تصبح مثلها وتواجه وحيد بحقيقته وعلا وأيضاً بدرية وياسر لكنها اليوم بعدما رأت بعينيها هذه الثائرة على الأرض ودمعها يكسو وجهها علمت أنهما سواء.

كلتاهما في صدره قصة ألم... كلتاهما في عروقة ملحمة عذاب وخوف لكن إحداهما تصرخ والأخرى تحلم...

رحمك الله يا نادية.

الألم يشتد ساعده على الضعفاء. الألم دنيء إن لم نقاومه ونضربه في مقتل لحظة ظهوره ما تركنا حتى يطرحنا جاثين على الأرض حتى لحظة موتنا.

نظرت إلى الوجه الغافي. ليتها تفيق. ليتها تخبرها قصتها وتسمع قصة مروة.

ربما معاً يواجهان الألم لكن هي تخشى أن تفتح عينيها وتعود للصياح والمكابرة.

عادت تربت على كفها في حنان ثم استدارت تنظر إلى بدرية التي دخلت الغرفة بعد طرقات صغيرة تخبرها أنها قامت بتنظيف البيت وإعداد حساء ساخن كما أمرتها.

نهضت عن مقعدها ووضعت كفها على كتف القادمة وقالت:

سلمت يدك. اذهبي واستذكري دروسك. سامحيني عندما طلبت منك عدم الدخول. أنا أواجه مشاكل كبيرة مع علا وياسر والدكتور... سامحيني.... أنا أعتذر.

كانت عينا بدرية تتلألآن بالدمع وهي تسمع صوتها يشرح ويعتذر.

كل المساكين ترضيهم كلمة وإن سبقتها ألف صفعة.

نكست رأسها في هدوء واستدارت لتمضي في سكون.

بدأت الغائبة تستعيد شيئاً من وعيها، ونظرت حولها لتجد مروة تقول في لهفة وهي تجلس إلى جوارها وتمسك كفها:

سلامتك... حضرنا لك حساء ساخناً. هل أحضر لك قليلاً منه؟!

لم تفهم ملك شيئاً إلا بعد لحظات. نظرت بعدها إليها في دهشة وقالت:

لماذا تفعلين كل هذا من أجلي؟!

ابتسمت مروة ابتسامة صغيرة كسيرة وسكتت لحظات طويلة قالت بعدها:

لا أعلم... أشعر أن بك ألماً كبيراً... أشعر أنك وحيدة تائهة. تحتاجين إلى حب صادق... ربما أشعر أنك أنا؟!

كانت صور كثيرة تتحرك أمام مروة. صورة ولدها وشوقها إليه وغضبها منه. صورة ذراعيها الخاويتين منه. صورة ابنتها وهي تقف أمام مكتب مدير مدرستها بينما تتمزق عروقها وهي تستمع إلى قصتها. صور كل النساء اللاتي عرفهن زوجها. صورة رضوى زوجة أقرب أصدقائه. صورة عينيها وهما تتبعان كف عمران وتتمنى لو تمسّانها.

انتفضت من بكائها قائلة:

أحياناً... قد نمنح ما نعجز عن الحصول عليه... أشعر أني أحبك.

شهقت ملك ونظرت إليها بعينيها المتعبتين لتسمعها تكرر في هدوء:

نعم... أحبك يا ملك!

كل شيء سار تماماً كما توقعته.

عند عودتها في منتصف الليل كانت علا نائمة، ووحده وحيد دخل غرفة ياسر وأغلق خلفه الباب في هدوء.

كان التعب والدمع في عينيها واضحاً لا تخطئه عينا كفيف، لكن كان الاحتقار والازدراء سيداهما جميعاً.

لم يجلس لكنه في تعال كبير أخبرها أن جارتها المجنونة التي كانت تجثو عند قدميها اقتحمت عليه مكتبه لتكيل له السباب والصراخ. أخبرها أن الله أراد أن يكشف له حقيقة مرضها العقلي حتى لا يأخذ بحقها أيّ إجراء قانوني لتعديها عليه في عقر داره. عندما ابتسمت ساخرة عاد يكمل ويخبرها أنه سيذهب في الغد ليقيم المدرسة ويقعدها على رأس مديرها الذي صدّق افتراءات خادمة وعامل نظافة ولم يصدق ابنته التي بما يدفعه هو من جيبه لها يدفع المدير لهم رواتبهم.

تماماً كما توقعت... قبل أن يغادر غرفتها استدار يعيد عليها ما أخبرته وأخبرتها به علا عن علاقة ياسر بالفتاة التي تطعمها من نقوده وتستذكر لها دروسها في

بيته وعلى أضواء مصابيحه. كان رائعاً حين تحدث عن العدل قائلاً إنه لا يعفي ولده من المسؤولية، لكن ما عساه يفعل و"العِرق دساس"... جينات الحسين.

حين أغلق الباب سقطت دموعها في هدوء... ليس حزناً من كلماته ولا غضباً من ولدها، لكن حزناً على ابنتها.

علا ضاعت ولا تملك لها شيئاً.

رجت ملك أن تتركها تبيت لديها فهي تخشى أن تحتاج إليها ليلاً... لم تبتسم في وجهها ابتسامة واحدة لكنها لم تكن في قسوتها المعتادة.

في انكسار كبير شكرتها وطلبت منها أن تذهب إلى بيتها. حين انحنت على هاتفها تسجل عليه رقمها وتضعه إلى جوارها وتقسم عليها أن تطلبها في أي وقت إن احتاجت إلى شيء، رأت دموعاً هادئة تنزلق من عيني ملك الواسعتين أشاحت بعدها بوجهها ولم تقل سوى كلمة واحدة:

شكراً!

تركتها وقلبها يرقص من لهفته عليها وكلمة شكراً تملأ أركان رأسها.

تشعر أن كلمة شكراً من أحلى وأغلى كلمات الحب.

نعم أن ترى ما يفعله من أجلك إنسان... أن تشكره هو حب كبير ...

لا روح على الأرض ترفض أو تقوى على الحياة من دون تقدير أو ثناء.

قررت أن تزورها في الغد. لن تزورها بيد خاوية... لن تحمل لها زهوراً أو حلوى، ستأخذ لها شيئاً تعلم أنه قد يعيد إلى الجميلة ابتسامتها.

لماذا حقاً تهتم بها إلى هذا الحد؟!

لا تعلم، لكن تذكر جيداً كيف كان والدها دوماً يقول لها: "من يَمنح يُمنح ولو بعد حين".

هي في داخلها شوق إلى الحب والتقدير ولا تجد طريقاً للوصول إليه سوى أن تمنحه، ولا تجد أمامها من هو أكثر من هذه المهزومة حاجة إليه.

غداً تحمل لها شيئاً تعلم أنها ستحبه علّها تهمس لها بكلمة حب أو تقدير من جديد!

تألمت كاميليا كثيراً وهي تحاورها... أكثر من ثلاث ساعات وهي ترجوها أن تلين.

لكنها عنيدة تدافع عن وجهة نظرها باستماتة. في نهاية الساعات الثلاث سألتها كاميليا أيهما يُشترى بالآخر... زوجها وحبها وابنتها بالسفر والعمل، أم إن السفر والعمل يباعان بكل هذا؟

أجابت أن السؤال لا محل له من الإعراب، وأن كريم ذاته يعلم أنها أبداً لن تتخلى عن شركات والدها ولا تريد أن تفعل.

نظرت في عيني كاميليا وقالت في هدوء أنها لا تستطيع أن تكون مثلها مجرد زوجة وأمَ، وأيضاً لا تستطيع أن تكون مجرد موظفة أو مديرة في مكتب القاهرة.

أخبرتها أنها تحيا على ركوب الطائرة والتنقل، تستمد طاقتها وقوتها من اجتماعات الشركة هناك ومتابعة الأعمال هنا.

في غضب مكتوم سألت ندى لماذا يريد كريم بعد أكثر من عشرة أعوام أن يحولها إلى جارية؟

بكت الأم وهي تخبرها أنها تحبها. تحبها كما تحب ولدها، لهذا جاءتها قبل خروجها إلى المطار. رجتها أن تنجب طفلاً غير ياسمين. أخبرتها أن هذا قد يغيّر في الأمور أموراً.

العنيدة نهضت عن مقعدها ووضعت قبلة على رأسها وهي تخبرها أنها لا تريد أن تنجب. هي ابنة واحدة وكريم ابن واحد، فلماذا يطلبون منها هي أن تنجب أكثر من طفل؟ وهل الإنجاب شيء سوى تحويلها إلى جارية مقيدة برضيع يجب أن ترضعه وتهتم به حتى يصبح في عمر ياسمين؟

لم تفلح في الوصول معها إلى شيء. أخبرتها أنها إهانة كبرى أن تطلب منها الإنجاب وتهتم هي بالطفل القادم... قالت إنها ليست آلة للتفريخ تنجب لهم طفلاً يرضى به كريم وتلهو به كاميليا وزوجها.

هي إنسانة تملك حق القرار، وقرارها ألا تنجب سوى طفل واحد... وقد فعلت. قرارها الأكبر أن تبقى تتنقل بين مقر شركات والدها في دبي والقاهرة، وأنها حتى إن لا سمح الله ورحل والدها ستبقى تفعل ولن تغلق أحدها يوماً.

حاولت الأم لكن دون جدوى. نهضت الأخرى تخبرها باقتراب موعد الطائرة. ضمتها إلى صدرها في حنان وهي تهمس في أذنيها أنها تحبها وتحب كريم في

جنون لكن هو عنيد يقيم زوبعة كل فترة ثم تخبو زوبعته.

حين ابتعدت عن ذراعيها ضحكت تخبرها أن الرجال أطفال يلحّون في طلب الأشياء ثم ينسونها.

قالت في حسم إنها لن تفعل شيئاً لا تريده خوفاً على استمرار حياتها مع زوجها.

قالت إن ما يربطها به هو الحب. إن فشل الحب في جمعهما فهي لن تتحايل على بقائه بالأطفال أو الرضوخ لأوامره.

حسمت القضية بتلك الكلمات، كأنها تخبرها أنها ترى بوضوح تحذيرها لها من خروج كريم من حياتها، لكن كاميليا لا تشعر أبداً أنه سينسى هذه المرة.

تشعر أنه حقاً زهد زوجته رغم حبه لها. كره أنانيتها وبدأ يألف غيابها ويلقي بين الحين والآخر بكلمات لا معنى لها سوى أنه يفكر جدياً بإنهاء حياته معها.

تشعر برياح يأس تضرب جذور حبه وتمسّكه بزوجته وأمله في تغيّرها.

حتى ياسمين أصبحت هي أمها بينما أصبحت ندى هي تلك الزائرة التي تحضر محملة بالهدايا أو ذاك الرفيق الذي تسافر معه الصغيرة للتسوق والتجول في الإمارات أو أوروبا، لكنها دوماً تعود إلى ذراعي والدها وجديها.

شعرت، وللمرة الأولى بعد أكثر من عشرة أعوام زواج، أن اليأس أصبح أقوى من كل شيء... وهي تعلم ألا شيء يطيح رأس الحب والاستقرار إلا اليأس.

وعدت كريم أن تمرّ هي لاصطحاب ياسمين من مدرستها على أن يلتقوا جميعاً على طعام الغداء في بيتها.

لا تصدق للمرة الأولى منذ عشرة أعوام يخبرها أنه سيقضي هو وابنته ثلاثة أيام لديهم.

تنهدت بحرقة كبيرة. كيف لا تشعر ندى برياح اليأس؟

حتى الحب يقتله اليأس!

لم ينم ليلة في بيت والده منذ تزوج.

كيف لا ترى ولا تسمع نواقيس الإنذار والخطر. أحياناً تتمنى كاميليا لو تنتهي قصتها مع كريم، لكن رغم كل شيء هي تحبها. تحبها لأنها تعلم أنها هكذا خُلقت ولكن هناك أناساً ما خلقوا من أجلنا.

تأخر الوقت... تأخر الوقت... ياسمين في حاجة إلى أم وإن كانت زائرة. في حاجة إلى استقرار وإن كان صورياً والأهم أن كلاً منهما يحب الآخر.

تعلم أن وحيدها يحب زوجته وتعلم أنها هي الأخرى تحبه.

ربما كانت زوبعة ككل الزوابع وتمر... لكن يؤلمها أن ترى الأيام تلون شعرات وحيدها بالأبيض... لم يبلغ الأربعين وأصبحت لا ترى له ابتسامة إلا وأميرته بين ذراعيه.

أصبح يميل كثيراً إلى العزلة. حتى عندما يخبره والده بالحضور للمشاركة في عشاء أصدقاء يرفض، بل وجدته أكثر من مرة في غرفته يستمع إلى الموسيقى لأنه عند حضوره وجد سيارة صديق لعبد الهادي أو مجموعة من السيارات.

أصبح وليدها أكبر عمراً منها ومن أبيه.

أفاقت وهي تعود من أفكارها على حفيدتها تفتح باب السيارة وتضع قبلة على وجنتها صائحة:

أنَا كيكي... سأقضي معكم ثلاث ليال... هل تسمحين لفرح بالمبيت معي؟!

ضمتها إلى صدرها وهي تهز رأسها بالموافقة لتدير محرك السيارة وينطلقا.

الصغيرة لم تسأل إن سافرت أمها أم لا، كأنها تعلم أن الطائرة بيتها وبيت كريم وذراعاها ما هما إلا محطات استراحة قصيرة!

ما زالت تأتي إلى زاوية الكورنيش المهجورة. ما زالت تجلس وتدلي قدميها على سطح النيل. وما زال ياسر يحادثها مرة كلَ أسبوع. أخبرها أنه أصبح يعمل مساء في أحد المطاعم القريبة من سكن الجامعة الداخلي.

كان يجب أن تشعر بالسعادة وهو يحكي لها كيف يقف في مطبخ المطعم يعدَ الوجبات ويصفَ طلبات الزبائن وأكواب المشروبات الغازية على الصينية الخاصة به ليستلمها منه ساقي المطعم ويخرج بها إلى الموائد.

كان يجب أن تهدأ لأنه يعمل في مطبخ أحد المطاعم، فهو ليس فقط طالباً جامعياً ابن استاذ في الهندسة وثري يملك أحدث السيارات ويتعالى عليها وعلى والدها. هل هي سعيدة؟ أبداً...

شعرت بغصة كبيرة تسكن حنجرتها يوم أخبرها القصة. شعرت أنه يعلم عقدتها ويربت على كبريائها الجريح لأنها تبقى ابنة حارس عقار يسكنه وعائلته.

تمنت لو تصرخ على الهاتف وتقول إن هناك فرقاً كبيراً...

هو إن جرحه أحد أو أهانه ما زال في إمكانه بكل يسر أن يترك عمله ويعود ليدخل من باب المطعم الأمامي ويجلس على أفضل طاولاته ويطلب ممن أهانه أن يحضر له وجبة يتناولها.

أبوه يرسل له نقوداً... أمه تعمل وفي إمكانها أن تفعل.

لكن هي وأبوها يبتلعان الإهانات ويسكنان في غرفة تحت سلالم العمارة بأكملها. غرفة يتصدر أحد جدرانها باب خشبي يفتح على سلم تخديم السكان حيث يضعون قمامتهم ومخلفاتهم.

لم ينبس أحدهما بحرف يوم ركلت السيدة ملك سطل الماء بقدمها اعتراضاً على وجوده. إن طردهما الدكتور ناصر لن يستطيعا حتى دخول العقار لجمع ملابسهما وأشيائهما.

ما زال الفارق كبيراً أيها المهندس الشاب.

لكن كيف تغضب منه وتزهد وجوده في حياتها وهو من حياتها الحياة؟

رمت بعينيها إلى مياه النيل الحانية في حرقة كبيرة.

تغير النيل من دون وجوده إلى جوارها. أصبحت ترى كل هذه الأوراق والمناديل على سطحه. أصبحت تشتم بأنفها رائحة القمامة الملقاة خلفها في هذا الركن المهجور الذي نادراً ما تعبره سيارات جمع القمامة.

تغير لأن رفيق الزيارة غاب. معه كان كل شيء كما هو الآن وأيضاً مختلف عما هو الآن...

لا ليست صغيرة. في الصف الأول الثانوي لكنها أقتربت من الثامنة عشرة من عمرها، وفي الخمسين إن قاست عمرها باليتم والانكسار.

هو الحب.

نعم تحبه بجنون. هذا الصباح في المدرسة كانت إحدى زميلاتها تبكي وهي تتحدث عن حبيبها، وفي نهاية حديثها قالت إن أعنف حب وأقوى حب هو الحب الأول.

زميلتها أصغر منها بعام أو أكثر. زميلتها تتحدث عن حب بدأ منذ شهور أو عام على الأكثر. هي تتحدث عن حب بدأ مذ كانت تمسك يد أبيها في ذعر وهي قادمة من الصعيد لتبصر عيناها ياسر ويقفز قلبها من صدرها ويسكن جيب قميصه.

ماذا تريد منه؟ هو لم يقل لها يوماً إنه يحبها وهي لم تخبره يوماً أنها تفعل.

لا تريد شيئاً. فقط تريده أن يعود ويجلس إلى جوارها ليعود النيل أجمل. لا تريد سوى أن تكون معه في مكان واحد حتى إن... إن...

هزت رأسها في عنف... إلى أين تذهب أفكارها؟

إن تزوج؟! وما يعنيها إن حدث؟ هل حقاً جنت لتتخيل نفسها يوماً له زوجة؟

عمران دوماً يردد "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه".

تعلم قدرها وقدر أبيها جيداً.

أبداً لا تحلم بحب أو زواج... فقط تريده حولها.

يجب ان تعود. مروة طلبت إليها أن تصعد إليها بعد ساعة. لماذا تشعر أنها تغيرت معها؟ في أحيان كثيرة عندما ترفع عينيها عن الأوراق والكتب تراها تحدق فيها في دهشة كبيرة لا تفهمها بل تهرب منها وتعاود النظر إلى الأوراق والكتب.

طيبة مروة رغم كل شيء. من دونها، وبعد وفاة السيدة نادية، ما كان يمكن أن ينتصب ظهرها أبداً.

وحدها أخذتها واشترت لها ثياباً جديدة وتضع في كفها بعض النقود.

آه، وهل هذا وحده الدليل على طيبة مروة وحنانها؟

قد ترى السيدة أن ما تفعله معها ما هو إلا حسنات وصدقات.

ما يشهد بطيبة مروة حقاً هو ما فعلته مع الحسناء الشرسة في تلك الليلة.

كانت تضمها إلى صدرها كأنها ابنتها، ورغم هذا عندما تماثلت الأخرى للشفاء لم ترها يوماً تلقي التحية على مروة أو سمعت أنها زارتها أو شكرتها.

يوماً عبّرت لمروة عن دهشتها واستيائها من جمود ملك، لكنها وضعت كفها على ذراعيها وقالت إن اكثر من يسددون إلى صدورنا الضربات هم من منحناهم الحب والعون لكن نبقى نفعل لأننا نعامل الله وحده، ووحده هو يتولى مجازاتنا وإن كان من أناس آخرين.

لماذا شعرت تلك اللحظات أن مروة تخبرها أنها تنتظر من بدرية ضربة لقاء صدقاتها عليها؟

أبداً وحدها تتخيل، لأنها وحدها تعلم أنها تسرق منها وتخدعها وتخونها.

نعم تفعل...

ألا تحادث ابنها في الخفاء؟ أما كانت تلتقيه هنا وعلى سلالم التخديم في الظلام؟ أما كان ينفق عليها من مال أمه وابيه من دون رضاهما؟

مروة على حق.

الضربات لا تأتي إلا من هؤلاء الذين نمنحهم ونساندهم كأننا نفعل ليزدادوا قوة وتزداد ضرباتهم في نحورنا قسوة وشراسة.

كانت تنوي قضاء الساعة بأكملها هنا لكنها تململت في جلستها تلك... يقتلنا أن نواجه أنفسنا بحقيقتها.

استدارت بساقيها نحو أرض الشارع، وعندما وضعت قدميها ووقفت تستعد للعودة رأت ملك قادمة.

حتى هذا الركن المهجور لا تتركه لها أبداً.

أسرعت بدرية بخطوتها فهي لا تريد أن تأمرها بالنهوض أو الابتعاد كما فعلت من قبل.

ستمضي وحدها لكن التقت الأعين.

لم تر ذاك الجنون والقسوة، لكن ما رأت ترحاب أو حب، وأيضاً لم تستطع ألا تلقي عليها التحية وهي تمر من جوارها.

ركلت حجراً صغيراً بقدمها الشابة في غضب. ملك لم ترد التحية لكن لماذا ألقت هي عليها التحية؟

لأنها بدرية. لأنها ابنة عمران ولأن الأخرى هي السيدة التي تكور في يدها النقود وتضعها في كف أبيها.

هذه هي الحقيقة.

تابعت خطواتها في غضب رغم دمعات صغيرة تسربت من مآقيها، وقبل أن تعبر الشارع استدارت تنظر إلى حيث كانت تجلس لترى المغرورة واقفة تنظر إلى النيل وذات الحقيبة النحيلة بين يديها.

تكره أن تجلس في المكان الذي كانت تجلس فيه. ربما هي تنتظر أن تتطهر الحجارة من آثار جلوس ابنة خادمها عليها.

وتحلم بياسر؟! حمقاء غبية.

الحب قد يكون من حق الفقراء لكنه ليس أبداً من حق الخدم أو أبنائهم!

لم تقاوم دموعها... تركتها تنساب في غزارة على وجنتيها... ليت ساقيها في قوة دموعها وعنادها.

ليت ساقيها تخونانها فتركض خلف بدرية وتضمها إلى صدرها وتعتذر لها. لمَ لم ترد عليها السلام؟

لا تريد أبداً أن تعترف أمام هذه الطفلة بانكسارها، لكنها رأتها بعينيها على الأرض مكورة كقطة عبرت فوق جسدها حافلة كبيرة. بل هي بيديها الفتيتين من لملمت كل ما كسرته ملك بضعفها وجنونها ليلة زيارة ريبكا لها.

أغمضت عينيها على مزيد من الدموع. هل تعود ريبكا مرة أخرى وإلى متى؟!

هل ظلمتها؟ الدنيئة حرمتها الحياة ودفعت حياتها ثمناً لذلك.

أليس من المفترض أن هذه عدالة السماء؟ لماذا تطاردها إذن كل هذه الأعوام؟ لماذا لا تطارد هشام الذي خدعها وأجهض جنينها وخانها بزوجته وخان زوجته بها؟

أحياناً تتمنى لو تسأل عنه. تتمنى لو مرة واحدة تسأل هل هو حي أم ميت؟!

مذ سافرت على ظهرها غائبة بفعل ما حقنوها به إلى مصحة أمريكا لا تعرف عنه شيئاً.

تخشى أن تسأل عنه فتعلم أن ريبكا باركته بلعنتها أو حلّ عليه عقاب السماء، فيزداد خوفها وضعفها. وتخشى أكثر أن تجده سعيداً، وربما زوجاً وأباً، فيزداد جنونها وغضبها وكراهيتها لكل ما يطلق عليه جنس البشر...

ليس كل البشر... طبيب المصحة الذي أشرف على علاجها أعواماً كان يضمها إلى صدره ويبكي يوم غادرتها. بدرية التي لم ترد تحيتها رغم الكراهية الواضحة في عينيها كانت تكاد تبكي عليها يوم انهيارها. وهناك مروة...

تلك قصة أخرى.

إن نسيت بكاءها عليها تلك الليلة، فكيف تنسى كيف كانت تسمعها وهي شبه غائبة عن وعيها تتلو الآيات القرآنية وتمسح على رأسها؟ كيف تنسى ذاك الحساء الذي ما تركتها حتى ألقمتها إياه رشفة تلو الأخرى؟

حتى إن نسيت هذا، كيف تنسى هذا الذي تحمله في يدها؟

جلست على سور ركن مقياس النيل المهجور ونظرت إلى الفلوت...

طرقت مروة بابها بعدما بدأت تستعيد عافيتها وسيطرتها على نفسها، وحين فتحت لها وأفسحت

الطريق في صمت، دخلت. لم تجلس رغم أنها اشارت لها بيدها أن تفعل.

كيف تنسى أنها أخبرتها أن لا خبرة لها في الآلات الموسيقية، لكنها سألت مدرّس الموسيقى في المدرسة التي تعمل فيها فاصطحبها ليشتريا لها "فلوت" عوض ذاك الذي كسرته وهي تحاول أن تقتل به زائرتها...

لم تستطع أبداً أن تضم مروة لحظتها، رغم أنَّ كل عرق مرسوم تحت جلدها كان يصرخ ويستجديها أن تفعل.

لم تستطع حتى أن تشكرها... لكن خانتها دموعها فسقطت وهي تمد ذراعها وتلتقط هديتها.

مروة أشفقت على كبريائها من بكائها ومضت، لكنها قبل خروجها من الباب استدارت تقول:

"أتمنى لو أسمعك مرة تعزفين عليه".

آه ممزقة من صدرها... منذ متى لم تنفخ شفتاها في عصا فلوت؟

رفعت عينيها إلى السماء التي لم تكن تراها بوضوح من خلف دموعها وهمست "يارب".

تريد أن تفعل...

شيء في أصابعها خانها. شيء في أناملها زادت قوته، ورأت يدها تفتح الحقيبة الجلدية وتُخرج عصا

الفلوت، ومن خلف دموعها تمنت لو تذهب إلى جارتها الطيبة وتضمها... وتمر على بدرية وتعتذر لها.

تتمنى لو يأتي الصباح وتذهب إلى معهد "الكونسرفيتوار" تلتقي مديره وتخبره بخبرتها ورغبتها في تدريس الموسيقى لكن كيف تفعل وهي تعجز عن النفخ في الأداة التي برعت في العزف عليها؟

شعرت أن شفتيها تخونانها... شعرت بهما تنفرجان كأنهما على استعداد للنفخ.

كيف تذرف كل هذا الدمع؟ ورغم هذا تشعر أن شيئاً للمرة الأولى منذ مقتل وليدها بداخلها يبتسم.

فلتخنها يدها أكثر ولتخنها شفتاها.

هناك خيانات أروع من قصص الوفاء العظيمة.

تحركت بذراعها تحملها وتقترب بها من شفتيها، ونفخت... نفخت بهدوء ودموعها ما زالت تنهمر كشلالات نياجرا التي زارتها كثيراً مع أبويها.

هي تعزف من جديد... تعزف، رغم أنها بوضوح ترى وجه أدهم وهو على ذراعيها وشفتاه ترضعان من صدرها.

نعم تعزف رغم أنها ترى هشام بوضوح يبادلها الغرام وهو منذ دقائق كان يتجول في جسد خادمتها.

تعزف وهي ترى ريبكا تحمل تلك الوسادة التي قتلت بها حياتها وطفلها.

تعزف وتنفخ في عصاها كأن القدر وحده شاء أن ينفخ فيها من روح مشيئته!

هل عادت إلى الحياة؟! هل ماتت تلك القاتلة حقاً ولن تزورها أو تكتفي بأن تجيئها، كما تراها تحت جفنيها الآن، مجرد صورة قميئة لذكرى فاجعة انتهت وإن بقي الحزن بعدها العمر بأكمله؟

لا تعرف. لكنها تثق أنها تعزف وأن صوت عزفها جميل كذاك العزف القديم في أوتوا.

تثق أنها لا تريد أن تتوقف، وأن شيئاً يزحف على عروقها... شيئاً نسيت حتى أن تشتاق إليه... شيئاً كالابتسامة.

حين انتهت وسقطت ذراعها إلى جوارها بعصا الفلوت، حين مدت كفها اليسرى تكسح بها دمعها عن وجنتيها، سمعت تصفيقاً خلفها.

لم يكن تصفيق جمهور لكن كان تصفيقاً قوياً رغم أنه فردي. استدارت بعينيها المغسولتين بالدمع تنظر لتجده يقف بعيداً عنها يصفق بكلتا كفيه ويبتسم، ثم قال في هدوء:

كأنك بول ايكل أو كارمن يعقوب... سمعت Be still my soul من روندا لارسون نفسها، لكن أنتِ تعزفينها أجمل.

كيف عرف اسم المقطوعة، وكيف يعرف أسماء أفضل عازفي الفلوت في العالم، وكيف جاء، ولمَ وقف يسمعها ولمَ لا تثور عليه؟

ربما لأنها رأت في ركن عينيه دمعة صغيرة كأنه يخبرها أن عزفها أبكاه أو أنه ورغم أنه لم يكن يرى وجهها إلا أنه مثلها يبكي.

عادت بساقيها من على سور الكورنيش وخطت من جواره. لم يحاول أن يستوقفها، إلا أنها بعد خطوتين عادت تستدير نحوه كأنها قررت شيئاً... قررت أن تستسلم لكل الخيانات... شيء في صدرها أقوى منها يخونها ويأمرها أن تملأ عينيها منه.

هو أكثر من وسيم وأكثر من أنيق. لم يرها حين استدارت فقد كان يفتح سيارته الفارهة كأنه خجل من فعلته، حتى لسانها خانها وسمعت نفسها تقول:

شكراً.

رفع وجهه في ذهول لا يصدق أنها عادت تحادثه.

رأت بوضوح دمعته بعدما غادرت عينيه تتجول على وجنته. رأت ابتسامة حانية تطفو على وجهه المستدير الجميل وسمعته يقول وهو يتقدم نحوها:

ليس عزفاً من القلب بل هو من الروح... اسمحي لي أن اقدم لك نفسي:

كريم عبد الهادي!

عندما سألها عن عمران وأخبرته أنه يتوضأ حتى يصلي صلاة المغرب، رأته يمد يده في جيبه ويخرج منه ورقة من فئة الخمسين جنيهاً كورها ووضعها في كفها ثم قال:

إذهبي أنتِ إذن وأحضري لي قميصي من عند "المكوجي". سأنتظرك هنا.

في ألم أرخت بدرية رأسها وحاولت أن تعود بكفه إليه وهي تشكره وتخبره أنها لن تأخذ نقوده، وأيضاً لن تترك البوابة حتى خروج والدها.

أبداً ما ترك وحيد كفها ولا عرفت كيف تتخلص من يده. شعرت به يحرك أصابعه على كفها المخنوق بين أصابعه وهو ينظر في عينيها بشيء تدركه، لكنها رغم الألم والإهانة ترفض أن تصدقه. وسمعته يقول:

هل يجب أن أمنحها لأبيك وأطلب منه أن يمنحك إياها؟!

كادت تبكي وهي لا تعرف كيف تتخلص من كفه على يدها، وعادت تهمس في صوتها المختنق بالدموع:

أترك يدي... لا أريد نقوداً أرجوك.

عندما أطلق يدها نظر إليها نظرة جائعة وقال وهو يمضي نحو المصعد:

أنا والد ياسر.

شهقت وهي تتبعه بعينيها... ما الذي يعنيه بكلماته تلك، ولماذا يمنحها خمسين جنيهاً، ولماذا كان يقبض على كفها حتى أقشعر بدنها؟

في تلك اللحظة خرج والدها من غرفتهما حيث كان وحيد ما زال يقف على باب المصعد وناداه قائلاً:

إذهب وأحضر لي ملابسي من عند "المكوجي".

رأته هذه المرة يضع في يده ورقة بخمسة جنيهات التقطها، وعندما مر عمران من جوارها، وبعد دخول زيدان إلى المصعد، وقف ينظر إلى دموعها وسألها في لهفة عمَّ أصابها... نظرت إلى الورقة التي في يده وقالت في ألم:

لماذا تأخذ نقوداً؟! لماذا... هو رجل سيئ وزوجته تتكفل بالكثير.

ربت على كتفها قائلاً:

ومن أين تشتري لك زوجته ما تحتاجين؟ هي نقوده يا ابنتي... لا فرق. إذهبي وأحضري له ملابسه. لا أستطيع أن أترك البوابة والدكتور ناصر موجود في العيادة.

لمَ تذهب إلى "المكوجي"؟ تعلم وتثق أنه ليس في حاجة إلى الملابس. أراد إذلالها، وربما أراد إغواءها وإلا لماذا منحها هي ورقة من فئة الخمسين ومنح والدها ورقة من فئة الخمس جنيهات؟

وحيد يريد أن يذلها ويخبرها أنه والد ياسر.

هل أخبره ولده بشيء؟ أبداً لو أراد يوماً الحديث عنها سيفعل مع والدته، لكن حتى مروة في عينيها شيء تغير. شيء يتفحص وجهها كلما جلست أمامها. شيء كالدهشة يستنكر ويرفض ويندهش.

مضت في هدوء نحو ركن المقياس المظلم ووقفت تنظر إلى مياه النيل الداكنة.

شهور قليلة وينتهي العام الدراسي ويحضر ياسر. أخبرها أنه سيحضر فور انتهائه من الامتحانات. أخبرها أن زيدان سيعود معه هو وابنته إلى أمريكا في العام القادم.

وحدها أمه ستبقى.

ستمضي الشهور.

لا شيء يهدهد دموعها سوى اقتراب عودته، أو أن تغمض عينيها وتتخيله معها إلى جوارها هنا من جديد.

يجب أن تعود. يجب أن تمر على المكوجي، فلا بد أنه انتهى من فرد ملابس الدكتور. ستحاول أن تبتعد عنه قدر استطاعتها.

في طريق عودتها وجدت ذات السيارة التي تجدها هنا منذ أيام وبداخلها الرجل نفسه.

ماذا يفعل؟! ولماذا تشعر به يراقبها ويتبعها بعينيه؟ أحيانا ترى سيارات تقف في هذا الركن الهادئ، لكن دوماً بداخلها رجل وامرأة.

مرات كثيرة كانت تراهم ولا يرونها فهم دوماً مغمضو الأعين أو يتبادلان القبل.

ربما هو مثلها كانت له رفيقة اعتاد الحضور بها، وها هو يأتي ليجتر الذكريات.

يجب أن تسرع. لا تريد أن يغضب زيدان أو يحادث والدها ويصب عليه لعناته. أيضاً لا تريد أن تلتقي ملك فهي كثيراً ما تأتي في هذا الموعد.

تنهدت وهي تمر من جوار كريم عبد الهادي القابع في سيارته كأنها تبكي.

ركن مظلم متهدم الحجارة في كورنيش منطقة روضة القاهرة كان لها هي وياسر، لكن حتى هذا لا يتركونه لها.

تضيق الأرض في عيون الأثرياء والمدللين ولا يبقى لهم أمل سوى هذا المربع الصغير الذي يسكن إليه الفقراء والعشاق!

كيف في لحظة تطاردنا أفكار غريبة ضد كل أفكار أعوام عمرنا؟ كيف حقاً في لحظة يسكننا وجه غريب يطل في ثقة من رؤوسنا وصدورنا ويزيح بكفيه كل الوجوه التي عشنا ونعيش معها أعواماً؟

وكيف نبتسم لوجه الغريب ونبحث عنه ونحن حتى لا نعرف كامل ملامحه؟

كيف حقاً نتحول إلى سذج بعدما ظننا زمناً أننا فهمنا ووعينا واتعظنا؟!

مدت ملك يدها إلى محبس شعرها وأطلقته كأنها تحاول أن تمنح ذاك الوجه الفرصة ليتسلل خارج رأسها.

عادت تعزف على البيانو بأصابعها الرقيقة وشعرها الغزير يسقط على وجهها من كل جانب.

أسبوع منذ لقاء الغريب. أسبوع منذ صفق لها في تلك المرة الأولى التي عزفت فيها على الفلوت بعد انقطاع الأعوام وهو لا يفارق رأسها.

ماذا كان اسمه؟!

عادت تنقر بأصابعها في خفة على أصابع البيانو. لماذا تدّعي أنها نسيت... كريم عبد الهادي.

لم تر وجهه جيداً. الإضاءة في ذاك الركن ضعيفة، لكن حدقتيها اتسعتا حتى رأت دمعاته بوضوح.

أرسله الله ليشهد عودتها إلى الفلوت. أرسله الله ليصفق لها ويخبرها أن عزفها ليس من القلب بل هو من الروح.

كل يوم، وفي هذا الموعد تتمنى لو تذهب إلى المكان ذاته، لكنها في اللحظات الأخيرة تعود عن قرارها.

جنون أن تفعل. أيّ شيء على الأرض يجعلها تظن أنها حقاً ستجده هناك؟ ذاك الكريم أصبح مكانه هنا في رأسها.

لا تصدق أبداً أنها اتصلت بمعهد الكونسرفيتوار وحددت موعداً للقاء مديره، وفي داخلها أمنية أن يأتي يوم وتقف لتقدم حفلاً كذاك الذي اعتادت تقديمه في أمريكا علّها بين صفوف الحاضرين تجده.

لمَ يطاردها بهذا الجنون... لأنه صفق لها. لأنه عرف اسم المقطوعة التي عزفت. لأنه أخبرها أنها افضل من رورندا لارسون...

توقفت عن العزف، وبرأسها نفضت شعرها إلى الخلف. أيّ جنون أن تفكر في رجل لم تره سوى دقائق في ظلام يكسو كورنيش مقياس النيل؟

هي الوحدة... هو الفراغ لا أكثر...

في هدوء نهضت عن البيانو ودخلت إلى غرفة نومها، ورأت صورتها المنعكسة في مرآة دولاب ملابسها الكبيرة.

تعلم أنها أكثر من جميلة رغم زحفها نحو نهايات الثلاثينيات، لكن ما زال في داخلها نزف أسود يتطاير من حدود جسدها وكيانها.

من دون وعي التقطت جاكيت من الجلد البني وضعتها على جسدها.

إلى أين تخرج في جو ديسمبر البارد؟

إلى أين يا ملك؟

في قدميها وضعت سبادريل مغلقاً وجدته في طريقها.

ستذهب إلى الكورنيش. تريد أن تصيح في وجه نفسها وتخبرها أنها حمقاء غبية.

ذاك الغريب لم يعد ولن تجده... ذاك الغريب الذي يطرق رأسها صوته وتغزو عينيها صورته الشاحبة منذ أسبوع كان عابر طريق أرسلته الأقدار ليشهد لحظة عودتها إلى الفلوت.

انتفضت وهي تذكر عصاها... حتى هذه نسيتها. عادت تلتقطها من على البيانو.

ستذهب إلى الكورنيش. ستشهد عينيها وتسمع أذنيها أن العابر لا يعود...

العابر يمر لكنه أبداً لا يعود!

لم يستطع عمران أبداً، رغم تحاشيه إياها، سوى أن يسألها إن كات ستخرج بسيارتها. وهزت رأسها بالنفي، ثم عاد يحذرها ومن دون وعي أن السماء ترسل قطرات تحذيرية تنبئ عن مطر غزير.

لم تجبه بحرف واحد.

ليتها تمطر. الأمطار عشقها الكبير!

عبرت الشارع في هدوء والسماء توالي رسائلها التحذيرية القصيرة وهي تفتح رئتيها أكثر كأنها تستجديها المزيد.

كان شعرها حول رأسها وعلى كتفيها كما أطلقته لحظة عزفها، ووصلت إلى حيث اعتادت.

ركن المقياس المظلم المطل على النيل في أوسع وأكبر مساحاته.

ساخرة ضحكت وهي تنظر إلى السيارات القليلة المتناثرة هناك.

لا أحد.

كأنها تذل نفسها عادت تهز رأسها وتخبرها ألاّ أحد...

الغريب كان عابراً وموسيقاها عبرت أذنيه لحظة ونسيها.

ماذا تريد منه؟

ألا تكره البشر أجمعين... ماذا تريد من رجل لا تعرفه رأت في عينيه دمعة؟

فلتعترف هي تريد إنساناً... ليس كل البشر إنسانيين...

أليست مروة إنساناً وبدرية هذه الشابة الصغيرة ألا تراها إنساناً؟

هذا العمران الذي تتجاهله وتهينه أحياناً، ألا ترى فيه الإنسان الذي تبحث عنه؟

فلتعترف... الموسيقى والدمع عندها هما الإنسان.

ربما شيء آخر يكتمل به عند ملك مثلث الإنسانية.

ورفعت عينيها تنظر إلى مدينة القاهرة وهي تغتسل في الأمطار وفي دمعها وتمنت لو تصرخ.

ألا يوجد بين كل سكانها إنسان واحد يحلم بأشياء ثلاثة لا تعرف ملك كيف تهرب منها... الموسيقى والدمع والحب؟!

عادت بعينيها إلى السماء تنظر إلى الزخات الكثيرة التي بدأت تزداد غزارة وجنوناً. ومن أعماق روحها سمعت صوتاً يخبرها أن الغريب يذكرها وأنه يأتي هنا بحثاً عنها لكنه يوم ماطر. كان هنا بالأمس وربما في الغد يعود.

تمنت لو تخرج الفلوت من حافظته الجلدية وتعيد عزف المقطوعة نفسها، لكن كيف تعرضه لمياه الأمطار؟

شعرها بدأ يقطر ماء وهي ما زالت مرفوعة الرأس تستجدي السماء مزيداً من الأمطار ومزيداً من النسيان.

أدهم... يقتلها أن تتذكره ويقتلها أن تتخيل أنها تريد نسيانه.

كم كان عمره ليكون الآن؟

سبع سنوات. من يعلم ربما كان سيكون له أخت أو أخ. كانت تريد أطفالاً أكثر. وحيدة ملك، وحيدة وتمنت ألا يكون أدهم وحده.

أدهم؟! هل هو حقاً في السماء؟ هل ينظر إلى وجهها الشاخص بنظره إلى رب السماء؟

هل يرى كم تفتقده وكم تحبه... هل يبقى على عمره أم أنه عند ربه تراه يكبر؟!

كيف يجب أن تتخيله... كما حملته بين ذراعيها بعدما قتلته ريبكا أم كما ينمو بداخلها يوماً تلو الآخر؟

لمَ لا تموت هي أيضاً؟ لكنّ شيئاً واحداً يمنعها عن الموت...

الموت أن تنام والنوم ألا تتحكم في أحلامك.

ملك وهي على قيد الحياة تستدعي أدهم في عروقها كل يوم، لكنها تعبت... تشتاق إليه كثيراً يا رب.

ترى هل تلقاه لحظة تموت أم إنّ أعواماً وأجيالاً تمرّ بعد الموت وحتى لحظة القيامة وربما دخول الجنة.

الجنة؟! وهل تدخلها؟!

صرخة كبيرة من صدرها خرجت ومياه الأمطار تقطر من شعرها ووجهها كأن عينيها دخلتا في سباق عنيف عقيم.

أيهما أكثر؟!

دمعها أم المطر؟! قد يكون المطر أكثر، لكن وحده الخالق يعلم أن شوقها وحزنها وضياعها أكبر من كل أمطار السماء التي هبطت على الأرض بأسرها منذ خلق الله الخليقة وحتى قيام الساعة، وإن كانت في قبرها راقدة.

أدهم... يا أدهم!

أعواماً لم تسمع صوتها يناديه... لماذا في هذا المكان انفرجت شفتاها تصيح باسمه كما انفرجت لتنفخ في عصا الفلوت المهجورة؟

عادت تصيح باسم طفلها وشعرت أنها على وشك السقوط في انهيار جديد.

كل ما في جسدها يرتجف، وكل ما في عروقها من ربها يطلب الرحمة.

لن تسقط هنا أبداً. يجب أن تعود. ليت ساقيها تحملانها فقط حتى باب العمارة.

هناك تعلم أن عمران لن يتركها على الأرض. مروة رغم برودها معها ستحتضنها.

لمَ يرسل الله لها بشراً تحنو عليها وتقسو هي عليهم، ثم تأتي لتبكي وحدتها تحت السماء وتطارد صورة عابر سبيل.

ستعود... ستسقط إن شاءت لها الأقدار السقوط لكن بين أيديهم.

كأنه حلم... كأنه غيم كثيف يفصلها عن ذاك الصوت الذي سمعته.

حاولت أن تستدير لتتأكد. هو باب سيارة أغلق وتلاه صوت خطوات تركض نحوها.

لكنها تسقط... نعم تسقط ولا شيء بين شفتيها سوى ترديدها لاسم وحيدها.

حتى عصا الفلوت شعرت بها تهوي على الأرض، لكن ذراعين قويتين ضمتاها.

من خلف دموعها رأت وجهه. ليس وهماً ولا حلماً.

جاء كما أخبرها قلبها الجريح.

ابتسمت وأغمضت عينيها. هو من جاءت تبحث عنه ووحده من تسقط بين ذراعيه.

كريم عبد الهادي!

وضع يده على كفها وهي تلتقط إحدى قطع الحلوى وأخذها منها ليضعها بين شفتيها، ثم أخذ يتراقص بها في انطلاق في بهو البيت الأنيق. حاولت أن تفلت من بين ذراعيه وهي تضحك، لكنه بذراعه سار بها إلى جهاز الأسطوانات ووضع موسيقى هادئة وعاد يقول في مرح كبير:

راقصيني.

كان يدور بها في جنون وحب وسعادة رقص لهم قلبها، لكنها بعد لحظات قصيرة قالت وهي تعني كل حرف من كلماتها:

لا أستطيع... أنا عجوز... دع الرقص والإنطلاق حتى عودة ندى.

كأنها فاجأته بالاسم. كأنّ من قالت اسمها ليست زوجته، أو كأنه نسيها. خيّمت على وجهه لحظة صمت وهو يتركها تتحرر من ذراعيه، لكنه عاد يضحك قائلاً:

وهل على الأرض امرأة ترقص مثل كاميليا؟!

جلست على أول مقعد بجوارها وهي تلتقط أنفاسها رغم أن عينيها ما زالتا تراقبانه.

أسبوع واحد تغير فيه وحيدها كثيراً. أسبوع واحد قضاه بأكمله هو وياسمين معهم تبدلت فيه حاله. أصبح يغني وعاد يعزف على جيتاره القديم وها هو يراقصها كأنها في العشرين. هل حقاً حدث كل هذا لإقامته في بيتهم وعودته إلى غرفته و ذكرياته وموسيقاه، أم أن هناك ذاك الشيء الذي تخشاه وفي كل صلواتها تدعو الله ألا يكون؟

استدار كريم بعينيه يلتقط ابنته وهي تهبط سلالم البيت. كبرت... جميلة هي... وقفز سؤال مجنون إلى داخله يسأله أيَ النساء الثلاث أجمل؟!

فاجأه السؤال كأن السؤال ما خرج من رأسه هو...

صاحت ياسمين تسأله عن رأيه في ثوبها، ومدَ ذراعيه نحوها يطلب منها عناقاً، معلنا أنَ ما من رجل يقول رأيه في امرأة جميلة كما يقوله وهي بين ذراعيه. وابتسمت الصغيرة كما تبتسم دوماً وهو يدعوها إلى ذراعيه وبينهما سمعته يقول:

أحلى بنات الدنيا. وإن كان هناك من هي أجمل منك، أنت في قلبي أغلى، ومن روحي لروحي أقرب. هل تسمحين لي بأخذك إلى صديقتك يا أميرة؟!

ابتعدت عن ذراعيه وهي تخبره أن جدها بانتظارها حسب الاتفاق، وبقي كريم يتبعها بعينيه حتى غابت

وأغلقت دونها باب الفيلا. وأفاقه صوت أمه يسأل من جديد:

ألن تخبرني؟!

في دهشة سألها ماذا تريده أن يقول... وقالت:

هذا البريق في وجنتيك وعينيك. إن كان السبب بقاءكم هنا فلتبقوا إذن حتى عودة زوجتك.

ابتسم وهو ينظر إليها. تشعر به ويشعر هو بنفسه وبها. يشعر بابتسامته ويعلم أنها تتعمد ترديد اسم زوجته كثيراً كأنها تذكره بها.

لم ينسها لكنه سعيد...

وهل يلام سعيد إن ضحك أو عزف موسيقى واحتضن جيتاراً هجره رغم أنه ما فارق ذراعيه حتى تخرجه في الجامعة؟

رآها تجيب على هاتفها الصغير وتنشغل عنه بالحديث، فغاص في مقعده وتذكر من أسعدته رغم حزنه عليها.

إسمها ملك وهي حقاً تكاد أن تكون.

لم يصدق أبداً أن يجدها في تلك الليلة الماطرة. بعد أول ليلة رآها فيها ذهب ثلاث مرات في الموعد نفسه إلى ركن المقياس المظلم. كان يقف بسيارته ويبحث بعينيه عنها أو عن العاشقين الصغيرين اللذين ما فارقا خياله طوال الأعوام.

يوم سمعها تعزف على الفلوت كان يشعر أن روحها تنتفض في جسدها وتنفخ ما بقي فيها أو منها.

كان عاشقاً للموسيقى، لكن والديه وقفا في طريق حلمه زمناً، ومن أجلهما دخل الهندسة. ومنذ تخرجه منها ما وضع يده على جيتاره ولا رقصت أصابعه على البيانو.

شعر أنه خانهما وأنه يخجل من أن يلمسهما بيديه، لكنه بقي العمر يتابع الموسيقى ويستمع إليها.

حين سمعها تعزف تلك المقطوعة... حين صفق لها وتركته ومضت، شعر بالخجل، لكنها حين عادت تمنى لو يخبرها أنه أبداً لا يحاول أن يتودد إلى أنثى في جمالها. تمنى فقط لو ترى كيف أشعلت فيه بعزفها شوقه إلى جيتاره وحنينه إلى صباه.

حين رآها في المرة الثانية تقف ورأسها مرفوع إلى السماء، والأمطار تنهمر فوق رأسها وجسدها، خرج من سيارته لكنه لم يجرؤ أبداً على الاقتراب منها إلاَ حين وجدها تردد ذاك الاسم، وشعر بها تترنح كأنها قررت السقوط إلى جوار الفلوت الذي ركع تحت قدميها.

لا يعلم كيف أدركها بين ذراعيه، لكنه أدرك أنها تنتفض وتبكي وهي تردد ذاك الاسم.

خطا بها نحو سيارته. لم تقاومه. وحين عاد ليدخل من الباب الخلفي وجلس إلى جوارها وأخذ يمسح

بيديه وجهها ويرفع عنه شعرها بدأت تهدأ.

كالأطفال سألها عن اسمها، وكالأطفال قالت:

"ملك".

لم تغب عن وعيها لكن بقيت دموعها تسقط وهي تعتذر، وعلم أنها ما زالت تتذكر اسمه.

قالت: "آسفة يا كريم".

كم تمنى لو يأخذها على صدره، لكنه خشي أن تسيء فهمه.

هدأت فتركها على المقعد الخلفي وانتقل إلى مقعد القيادة وسألها عن بيتها.

حاولت أن تخرج من السيارة لكنه أقسم عليها ألا تفعل. استدار يخبرها ضاحكاً أنه يريد أن يلعب معها دور السائق وإن شاءت فلتمنحه أجره عند وصولها إلى بيتها.

حين أدار محرك السيارة قال لها:

غسلت روحي بموسيقاك. أنا جئت هنا ثلاث مرات أتمنى أن أجدك فقط لأشكرك. ربما أراد القدر أن أساعدك كما يومها ساعدتني.

كانت صامتة، لكنها كانت ترتجف. لم يكن بيتها بعيداً. شارع واحد يفصل سكنها عن ذاك الركن المظلم. حين وقف بسيارته أمام بيتها سألها في أدب بالغ هل تريده أن يرافقها إلى الداخل؟

لم يكن يعلم أبداً أن مفاجأة أخرى بانتظاره عند بيتها... تقدم حارس العقار وهو يراها تنزل من المقعد الخلفي في حذر منادياً بصوته "بدرية"... حين رأى من ناداها تذكر وجهها ووجه فتاها حين كان يأتي ليرقبهم لحظات لقائهم...

وكأنه رأى بدرية وحبيبها يوماً ليلتقي ملك في ذات المكان ووحدها بدورها تقوده اليوم إلى قصتهم من جديد.

بدرية هي ابنة حارس البيت الذي تسكنه ورآها تمدَ ذراعيها نحو ملك تسألها في حذر وخوف إن كانت حقاً تريد الاستناد عليها.

كان واضحاً أن الرجل وابنته يخافانها. حتى هي ترددت لحظات ثم رفضت أن تتكئ على ذراعيها.

استدارت نحوه تقول في هدوء أنه شكرها مرة وهذه المرة شكره هو عليها واجب.

بعينيه تبعها حتى دخلت مصعد البيت. بعينيه رأى بدرية وهي ترقبها بلوعة تخشى وقوعها كلما رأتها تترنح.

لم يستطع أن يقاوم. خطا نحو بدرية يطلب منها أن تصعد معها. أخبرها أنها كادت تفقد وعيها. سألها أن تخبر والدتها بما حدث لتعرضها على طبيب، لكنها أخبرته أن السيدة تحيا وحدها.

كريم لا يعلم أبداً لماذا سألها إن كانت متزوجة أم لا، لكنها أجابته بأنها لا تعرف عنها شيئاً.

اعتذر وهو يقول إنه أبداً لا يتطفل، لكن بدرية بحنان وألم أقسمت له ألا أحد يعرف عنها شيئاً.

حتى السمراء بدت في عينيه في حاجة إلى من يضمها ويمسح على رأسها. أخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة ومعها إحدى بطاقات عمله، وطلب منها أن تمنحها لملك في الصباح. قال إنه على استعداد لمساعدتها.

كيف ينسى تلك الدمعة المجروحة التي أطلت من عينيها الجميلتين وهي تنظر في كفه لتقول بعد لحظات إنها ستمنحها البطاقة لكنها لن تأخذ النقود.

من دون وعي ركضت عيناه بين وجهها ووجه أبيها الواقف يراقبه عن بعد، كأنه لا يفهم أن ترفض ابنة بواب ورقة مالية كتلك، لكنه اعتذر بكلمات صغيرة وعاد إلى سيارته في خجل كبير.

رغم حزنه على ملك وخجله من بدرية ودمعتها الجريحة طوال طريق عودته، إلا أنه كان سعيداً بلقائهما معاً.

طوال الطريق ولا شيء في رأسه سوى أنه، وللمرة الأولى منذ أعوام طويلة، يريد أن يطوي الطريق طياً ليصل إلى غرفته ويحتضن جيتاره ويعزف عليه.

لم يكن أبداً يصدق نفسه.

وحدها حركت فيه ذاك النائم الذي هجره كريم ونسيه.

طوال الطريق وهو يشعر أنه عنها مسؤول. عن تلك الدموع الكثيفة التي كانت تغادر عينيها في جنون.

ما الذي يبكي امرأة في جمالها وموهبتها؟!

هو أدهم من يبكيها.

طوال الطريق وهو يسأل نفسه من تراه "أدهم" يكون؟!

شيء في قلبها تغيّر. شيء في عروقها تشعر به يشتد عوده وتزداد صلابته. شيء في موسيقاها أصبح له روح رحيق منذ ذاك الصباح الذي طرقت فيه بدرية بابها وأخبرتها أنها، وقبل ذهابها إلى المدرسة، تريد الاطمئنان عليها. كانت ملك ما زالت منهكة من ليلة الأمس، لكنها حاولت أن تغضب عندما مدت الشابة يدها إليها بتلك البطاقة الصغيرة وهي تخبرها في خوف واضح عن قصتها.

حاولت أن تطلب منها تمزيقها أو إلقائها في صندوق القمامة الرابض أمام بيتها، لكن ما استطاعت أن تمنع تلك الابتسامة الصغيرة التي طفت على وجهها ليزداد بهاؤه وجماله.

حين أغلقت الباب عادت تقرأ البطاقة "كريم عبد الهادي" مهندس ومدير إدارة شركة الكاميليا للبناء والمشاريع الهندسية.

على مقعد البيانو جلست ووضعت البطاقة أمام عينيها وبدأت تعزف وعيناها تستعيدان كل لحظة تحت الأمطار وفي سيارته وبين ذراعيه قضتها.

أخبرها أنه جاء مرات ثلاثاً يبحث عنها. حين سقطت بين ذراعيه وسار بها نحو سيارته. حين دخل للجلوس إلى جوارها، وحين كان يكسح بكفيه دمعها عن وجهها ويعود إلى الخلف بخصلات شعرها الغارقة في مياه الأمطار كانت ترى عينيه بوضوح رغم توهانها وضعف الإضاءة.

لم يكن في عينيه جوع. ما زالت تذكر نظرات الجوع والاشتهاء التي حاصرتها زمناً.

كان في عينيه شيء كذاك الذي كانت تراه في عيني والدها، شيء كالذي هربت منه في عيني مروة، وأحياناً تراه يطل من عيني الصبية التي جاءت تحمل إليها بطاقته.

يجب أن تحادثه وتشكره. بدرية أخبرتها بما سألها عنه وعن وصاياه لها.

نعم ليته يأتي ويعتني بها. ليته حقاً يرعاها ويأخذها إلى الطبيب.

المال والزواج خذلاها... ربما الصداقة تعيد ترميمها من جديد.

ربما لأنك في الزواج والثروة تستأثر برجل لك وحدك، وبالمال أيضاً لك وحدك، تحدث الخيانة ويكبر الألم.

لكن أنت في الصداقة في إمكانك أن تحتفظ بأكثر من صديق، وأن يكون لصديقك أصدقاء آخرون سواك من دون أن تحزن أو تشعر بالخيانة إن ذهب شريكك إلى سواك أو هربت نقودك من حسابك الشخصي إلى حساب آخر.

يجب أن تساعد نفسها.

لماذا مع هذا الغريب من دون مروة مثلاً؟!

حادثته بعد ساعات وفي حزم ومن دون دلال قالت:

"صباح الخير أستاذ كريم. ملك مندور أريد أن أشكرك".

في نقاء صاح يخبرها أنه هو من يجب أن يشكرها مجدداً لأنها لم تتركه للقلق عليها.

صدقته وابتسمت. أبهذه البساطة نبتسم بعد أن نظن أننا لن نفعل يوماً؟

في نهاية حديثهما سألها في بساطة أن تقبل دعوته إلى العشاء. لم ترفض. ولمَ ترفض؟ نشأت في أمريكا واعتادت أن يدعو رجل امرأة إلى الطعام من دون أن يكون خلف الدعوة أيّ غرض دنيء.

توقفت عن العزف لحظة وهي تبتسم.

نحن بارعون في إيجاد الأعذار والمبررات إن أردنا شيئاً.

عادت ترقص بأصابعها على البيانو وهي تتذكر كيف ذهبت إلى لقائه. أخبرها أنهما سيلتقيان في أحد مطاعم "الفورسيزونز". علمت أنه اختار المكان لأنه أقرب نقطة إلى بيتها، ولأنها رفضت أن يمرّ عليها ليأخذها من أمام بيتها.

كان يظنها لا تملك سيارة.

ارتدت ليلتها ثوباً بسيطاً من الصوف الأحمر الداكن حين أطلقت لشعرها العنان على كتفيها. عندما وضعت شال الصوف الأسود الرائع على ذراعها أخبرت نفسها في ثقة أنها لا تتزين من أجل رجل بل هي ترتدي ما يناسب المكان الذي تقصده.

حين اختارا المطعم الإيطالي جلسا أمام النيل. ابتسمت تخبره أنها تحلم ببيت هادئ منفصل ويكون على النيل، لكن كل التجمعات السكنية في القاهرة هي أبعد ما تكون عنه.

ظل يراقبها لحظات، وقال إنه يرجوها أن تبتسم وتضحك أكثر فوجهها رغم جماله يضيء الكون إن سكنته ابتسامة.

تحدثا عن كل شيء. عن مصر وأوضاعها السياسية والاقتصادية الجديدة. تحدثا عن المشاريع الهندسية، وحددت معه موعداً لزيارة شركته والإطلاع على بعض

الفيلات المعروضة للبيع شريطة أن تكون إحداها على بحيرة اصطناعية علّها تؤنس غيابها عن النيل.

حدثها عن بدرية. أخبرها أنه اعتاد رؤيتها في ذات المكان الذي التقاها فيه. أخبرها أنه بقي زمناً يزور المكان ليراقبها هي وحبيبها.

في ذهول رفعت حاجبيها تتابع كلماته. هذه الصغيرة تحب. لكن كم مرة ذهبت إلى ذات المكان وكانت بدرية وحدها...

حين أخبرته بذلك قال إنه يعلم أنها فقدت حبيبها وأنه ما عاد معها يراه.

كان يتحدث وفي عينيه شوق إلى الحب، وألم على ضياعه من بدرية كأنها فقدت عيناً أو ذراعاً، وكأنها أيضاً ابنته أو أخته.

ابتسامة صغيرة هربت بعدها من النظر إلى وجهه الوسيم لتلقي بعينيها إلى النيل وهي تردد على نفسها في جوفها أنه صديق.

عاد الصديق يسألها عن عزفها وأخبرها في تصميم أن مصر بأكملها في حاجة إلى من هم مثلها.

الموسيقى ترقى بالشعوب يا ملك. هي هبة منحها الله إياها فلا تبخلي بها على وطنك وأبنائه المتعبين.

شجعها على الذهاب إلى الكونسرفيتوار. أخبرها أنه بدوره سيحادث إيناس عبد الدايم وبعض مسؤولي دار

الأوبرا من أصدقاء والده ليرى معهم كيف يمكن أن تقدم حفلاً للعزف على الفلوت.

برقت عيناها كما لم تبرقا وهو يقاسمها أحلامها، وأخبرته أن ليس الفلوت فقط ما تريد أن تقدمه. ملك تكتب الموسيقى وألفت أكثر من عشرين قطعة موسيقية خاصة بها وتنفرد فيها بالعزف إما على البيانو أو الفلوت.

كأنهما طفلان... كأنهما شقيقان على حبهما وصداقتهما منذ الأزل.

شيء كالحسرة في عينيه وعينيها أطلّ حين أخبرها أنه كان يتمنى لو تذهب معه في سيارته يوصلها إلى بيتها، لكنها ابتسمت وهي تعده أنها في اللقاء القادم لن تخرج إلا معه وتترك سيارتها أمام البيت.

البيت؟!

كيف تنسى ماحدث تلك الليلة عندما عادت إلى البيت...

كان عمران كعادته على أريكته الخشبية ينتظر عودتها ليخبرها عن المكان الذي حجزه لسيارتها.

حين أوقفت السيارة وخرجت منها نظرت للمرة الأولى إلى وجهه وابتسمت.

وسيم عمران هو الآخر... ابتسمت في وجهه ابتسامة كبيرة وقالت:

مساء الخير... هل أنت بخير؟!

ارتبك الرجل. ارتبك كثيراً وهو يسمعها تلقي عليه التحية ويرى ابتسامتها للمرة الأولى.

بعد لحظات أخبرها أنه بخير وسألها هل هي بخير وهل هي أفضل من ليلة الأمس؟

في بهو العمارة استدارت تنظر إليه قائلة:

الحمد لله. أنا بخير. هل تعلم إن كانت السيدة مروة ما زالت مستيقظة؟!

أخبرته مروة أن يشتري بعض الفلافل الساخنة مع الخبز ويحضرهما لها في بيت جارتها. كانت تضحك وهي تخبره أن ملك تشتهي هذا الإفطار.

تغير كل شيء في أسبوع.

نعم في أسبوع واحد فقط يا عمران. منذ تلك الليلة التي عادت فيها ليلاً.

لم يكن يصدق أبداً أنها يوماً تبتسم في وجهه أو تسأله عن صحته.

لكنها فعلت وها هي بعد أسبوع واحد فقط تفتح بابها صباح إجازة مروة من عملها لتتناولا الإفطار معاً كما كانت الأخيرة تفعل مع السيدة نادية.

هل تتغير الأشياء بهذه السرعة، وما الذي يغيرها؟!

كان كالمشدوه أمام مروة وهي تخبره من أين يجب أن يشترى الفلافل.

هي أيضاً تغيرت. لم يرها يوماً تحادثه بهذا الانطلاق والسعادة، كأن صداقتها مع ملك جعلت منها شخصاً آخر.

تنبه من أفكاره على صوتها تناديه قبل أن يدخل إلى المصعد، تذكره بألا ينسى أبداً أن يحضر لها حبات

الليمون.

حين همّ بدخول المصعد قالت:

عندما تعود وتستيقظ بدرية أخبرها أن تأتيني عند ملك. سنعد "زلابيا" وأعلم أنها تحبها.

غاب داخل المصعد وتنهدت مروة.

ما زالت رؤيته تحرك في صدرها شيئاً. ما زالت في أعماق أعماقها تتمنى لو تلمس كفه كفها بطريق الصدفة والخطأ.

فليلعن الله زوجها ألف مرة. قسوته ودناءته هما السبب.

في لحظة كانت تحمل صحن الفول الذي أعدته في بيتها، وبهدوء توجهت نحو الباب المواجه لها.

سعيدة لأن ملك جاءتها تلك الليلة وطرقت بابها وأخبرتها أنها حقاً تتمنى لو تصبحان صديقتين.

لم تشعر بالغضب أو الإهانة لأنها صدتها من قبل. ثم، وبلا مقدمات، جاءت تعرض الود. هي تعلم أن خلف هذا الوجه الجميل قصة حزن كبيرة كقصتها، وتعلم أيضاً أن طنط نادية لو كانت على قيد الحياة لجعلتهما صديقتين قبل اليوم .

ذهبت إليها وجلست معها أكثر من مرة طوال الأسبوع الماضي.

لم تحكِ لها شيئاً عن سبب انهياراتها، لكن كان واضحاً أن ملك تستعيد هدوءها.

على وجهها ابتسامة توردها وتضم مروة وتمنحها الأمل.

طرقت بابها لتفتح لها، وبلا مقدمات ابتسمت في وجهها وفتحت ذراعيها وضمتها إليها قائلة:

فول...؟؟ كيف يمكن أن أشكرك؟!

عندما أغلقتا الباب استدارت مروة تنظر حولها كأنها تتفحص جدران البيت. كل شيء كما هو لكن هذه الابتسامة وهذا الترحاب يجعلانها ترى كل شيء حتى جدران البيت، تغيرت كأن أحدهم قام بطلائها بلون في نقاء الياسمين وانطلاق العصافير.

إلى المطبخ دخلت وتبعتها تخبرها أن عمران سيأتي بالفلافل، وربما تأتي بدرية أيضاً ليعدوا جميعاً "لقمة القاضي" التي يجب أن تعدها الآن حتى تختمر ريثما تنتهيان من إفطارهما.

كانت ملك تخرج الأشياء لزائرتها في هدوء، وفجأة وضعت الأخيرة كفها على كتفها قائلة:

الله يدبر لنا الأمور. كنت في حاجة كبيرة إلى صديق يا ملك. بدرية ما زالت صغيرة، كما أن بداخلي منها غصة، وعلا بعيدة هي ووحيد كأنهما على آخر أطراف الأرض يقفان. منذ رحيل طنط نادية وأنا...

بدأ صوتها يتهدج بالدمع، لكن ملك قالت:

نحن جميعاً بداخلنا أحزان كبرى وصغرى... لكن أنت وحدك أكبر منا جميعاً. أنا أيضاً أحتاج إليك. كان والدي، رحمه الله، يقول إن أقدر الناس على الشعور بالألم هو من عرف الألم، وأكثر الناس وفاء هو ذاك المحروم من الحنان والوفاء!

ما زال يفكر فيها. ما زال كريم يستعيد هذا الأسبوع المختلف في حياته، وما زالت أمه تثرثر على هاتفها أمامه.

جاءته إلى مكتبه. تململ حين سألته عن أسعار الفيلات. أصابه الحرج. وبصدق شعر أنه يتمنى لو كان في إمكانه أن يطلب منها أن تنتقي ما شاءت وتقبلها هدية منه. لكن رغم ثرائه هو لا يملك أن يهديها فيلا ثمنها أربعة أو خمسة ملايين. بعد لحظات نهض عن مكتبه واقترح عليها أن يصطحبها إلى الكمباوند الكبير الذي يتناصف فيه والده مع أحد أكبر شركات البناء في مصر. أخبرها ضاحكاً أنه سيأخذها لتعاين بنفسها كل شيء.

في الطريق وفي سيارته أخبرها بشكل غير مباشر أن هناك منطقة مكونة من عشر فيلات فقط بنيت جميعها على بحيرة اصطناعية كبيرة. أيضاً أضاف في هدوء أنه يتمنى لو يستطيع اقتناء إحداها لكن أسعارها أغلى كثيراً من باقي فيلات كومباوند "الكاميليا".

أراد أن يخبرها أن الأسعار خيالية، لكنها كانت هادئة. حين عبرا بوابة الطريق الصحراوي مصر - اسكندرية

انطلقت تسأله عن سر الاسم، وضحك يخبرها أنه اسم والدته التي يحبها والده كثيراً لهذا أطلق اسمها على شركاتهم، وأيضاً على هذا المشروع الكبير، وأيضاً الأخير حيث قرر أن يترك بعده مكانه لوحيده كريم ويعود إلى ممارسة رياضة الجولف والسفر مع كاميليته التي يحبها كثيراً.

تنهدت ملك بحرقة وهي تخبره أن لا شيء... لا شيء أبداً يحرك عروقها سوى قصة حب تحيا وتستمر بين زوجين إلى نهاية الطريق.

حين دخلا الكاميليا لم تصدق عينيها. الأشجار رائعة منتقاة بعناية وحتى الأزهار التي انتشرت على جنبات الطريق ألوانها تثير الجمال والهدوء.

بعد أمتار قليلة أوقف سيارته ليدخل أحد المهندسين الذين حادثهم قبل حضورهما ليكون مرشدهما في المكان.

كان يشرح ويتحدث عن المساحة الكلية للمكان، وكيف قُسم إلى أجزاء. فهناك منطقة الياسمين ومنطقة الكلا وأيضاً منطقة عصفور الجنة.

بعدما عبرا جسراً صغيراً من أحجار البازلت رأت بعينيها لافتة أنيقة كتب عليها "فيلات الكاميليا". عشر فيلات بعيدة عن بعضها البعض تفصلها حدائق خضراء

شاسعة جميعها تقف على هضبة عالية تجري تحتها بحيرة كبيرة كأنها من الفضة صنعت.

أخبرها المهندس أن فيلات الكاميليا تتراوح مساحاتها من الألفين متر حتى الثمانمائة وهي أصغر مساحة.

خرجت من السيارة تنظر حولها بعدما أخبرته أنها تريد معاينة ما لم يتم بيعه منها جميعاً، وفي ضوء ما تراه تقرر وإن كانت تميل إلى أصغرهن مساحة فهي ستحيا فيها وحدها.

على إحداها استقرّ رأيها، وفي بهوها الكبير نظرت إلى رشيد تسأله عن سعرها، فأجاب وهو ينظر إلى كريم أنها تباع بستة ملايين لكن وحده المهندس عبد الهادي في إمكانه أن يقدم لها حسماً قد تصل نسبته إلى عشرة في المائة.

كان كريم يشعر بالحرج. صعب أن يصدق أن هذه الجميلة التي ترتدي ثياباً بسيطة في إمكانها أن تدفع ثروة كهذه، لكنها في هدوء أخذت تتجول في بهو المكان. كان أول ما رسمته مكاناً للبيانو الجديد الذي ستشتريه، وأيضاً مكاناً لبيانو طفولتها الذي لن تتركه في شقة الروضة حتى وهي تعلم أنها ستبقيها.

انصرف رشيد بعدما أخبرهما أن دوره انتهى ما دامت قد استقرت على فيلا بعينها. وذهب به كريم إلى

خارج الفيلا ليعود ويجدها في مكانها تنظر حولها وما إن رأته حتى قالت:

هذا المكان هنا... في مصر؟! منذ متى وسكان مصر يتحدثون بهذه الأرقام؟ وإن كان حقاً... بدرية وعمران وكل من هم مثلهما من أين جاؤوا وكيف... كيف يحييون؟!

طلب منها الخروج والتنزه في المكان ليريها بعض الفيلات التي تمت سكناها بالفعل. أشار لها بيده إلى السيارات التي تقف أمام كل واحدة منها، وأشار إلى "الجيتس كي" وكل سيارة، ثم قال في ألم:

هل تعلمين ثمن هذه الفيلا؟ خمسة عشر مليوناً. وهل ترين كم مليون أخرى ملقاة على بابها في صورة سيارة أو جيتس كي وكلوب كار؟ ملك... أنا أؤمن أنه كلما زادت قسوة وحدة الشيء في مكان ما لا بدّ وأن نجد نقيضه بنفس الحدة والقسوة!

كانت تنظر إليه باهتمام وإنصات جعلاه يكمل ويشرح لها أن الثراء إن كان فاحشاً ماجناً في بلد ما فلا بد أن نجد وفي ذات الوطن الفقر فاجراً ومجنوناً. أخبرها كأنه يحادث نفسه أو أمه أنه، حتى وفي البيت الواحد، إن دلل أحد الوالدين طفلاً بشكل كبير لا بد وأن يُفسد آخر وبشكل كبير... حتى الحب يا ملك إن كان

مجنوناً لا بدّ وأن يقابله إهمال كبير. لا توازن إلا على من رحم ربي.

ربما لهذا يأمرنا الله بالاعتدال والوسطية في كل شيء، حتى في إظهار عواطفنا. فكل شيء لا بدّ وأن له نقيضاً بنفس العمق وذات الجنون. حتى الأمل إن كان كبيراً جامحاً فلا بدّ أن يأساً مساوياً له يطل من أحد الزوايا.

كيف ينسى تلك اللحظة التي كان يتوقع أن تقول له فيها أي شيء تعقيباً على كلماته التي كان يشعر بها تتسلل من بين أضلاعه لا من لسانه، لكنها فاجأته بسؤال لم يكن أبداً يظنها تفعل وتسأله على الأقل في تلك اللحظة...

سألته:

هل أنت متزوج؟!

لمَ تردّد لحظات قبل أن يجيبها. لأنها فاجأته أو لأنه تراه نسي معها أنه زوج أو ربما تمنى، وهي تقف أمامه، لو لم يكن بالفعل زوجاً.

أرخى رأسه في سكون وأجابها نعم. هو زوج وأب لساحرة صغيرة تلهو بعروقه كيف تشاء.

هل كان حزناً ذاك الذي لاح في عينيها، أم دهشة، أم كلاهما معاً؟ لا يعلم. لكنه شعر بدقات قلبه تتسارع وهو يرقب رد فعلها على إجابته.

تأخرت هي أيضاً في الرد، لكنها بدت كأنها تلملم شيئاً تبعثر في صدرها وقالت في حنان:

ليتك تدعوني يوماً للخروج معك وعائلتك ونصبح أنا وأنت وزوجتك أصدقاء.

كم تمنى في تلك اللحظة أن يخبرها أن الرجل إن كانت زوجته صديقة حقيقية له لا يترك مكتبه ويطارد وجوه العشاق على كورنيش الروضة، أو يترك عمله ليصطحب امرأة مثلها لمعاينة فيلات ليست معاينتها عمله، ولا حتى جزءاً منه. تمنى لو يخبرها أن قصصاً كالتي بينهما، ومشاعر كالتي يخرجها لها من بين ضلوعه، لا وقت عند زوجته لسماعها وإن سمعتها فلا بدَ أن يليها اتهامات بالطفولة والإغراق في الرومانسية البعيدة عن أرض العقل والحكمة والواقع.

لكنه لم يقل شيئاً. قد يبدو ما يريد قوله تجريحاً لزوجته التي يعلم الله أنه يحبها ويحترمها وإن كانت غائبة عن مكانها.

كانت كلماتهما في طريق العودة أقل، لكن ملك بعد دقائق عادت تتحدث عن الفيلا وعن الزمن الذي تحتاج إليه للانتهاء منها وتأثيثها.

كأن معلومة زواجه خطيئة اعترف بها لها أو ذنب يخشى أن تعاقبه عليه بهجرها. كان يتحدث ببطء

وتردد في طريق عودتهما لكنها أخبرته أنها بدأت حقاً في كتابة السطور الأولى من قطعة كبيرة تعدها.

لماذا في تلك اللحظات تمنى لو يسألها ان كانت هي الأخرى زوجة... ليست حبيبة صغيرة، وفي جمالها لا يمكن أن تبقى حتى أوائل أو منتصف الثلاثينيات من دون زواج. لكن يخشى إن سألها أن تظن به ظنوناً لا يريدها أن تعبر رأسها.

أدار مفتاح جهاز الأسطوانات وهو يخبرها أن لديه تسجيلاً لبعض ما كان يعزفه على الجيتار. كان واضحاً أنها تصغي بكل حواسها، وكان حقاً يراقب نفسه بدهشة كأنه تلميذ صغير ينتظر تصحيح ورقة امتحانه ويتمنى لو يحصل على درجات ترضي معلمته عنه وتجعلها تمنحه قبلة وقطعة حلوى.

رآها بطرف عينيه تغمض عينيها عندما سمعت أحب القطع إلى قلبه. لا يصدق أنها انسجمت مع القطعة التي ترتجف أصابعه وهو يلعبها حباً وشجناً بها.

بعد انتهاء تلك القطعة أغلق الجهاز بإصبعه لتفتح ملك عينيها وهي تقول:

سمعت "زهرة اللوتس" أكثر من مليون مرة على الجيتار، لكن ليس أبداً هكذا. تماماً كما يوماً أنت قلتها. هو عزف الروح!

دمعة كانت تلك التي ترقرقت في عينيه وهو يسمعها تتحدث عن عزفه. تعرف أنها "زهرة اللوتس" تعرفها وتحبها ومن تحت أصابعه سمعتها... هو أيضاً بصحبتها سعيد كأنه وجد شيئاً طال عنه غيابه... كأنها كأس ماء بعد صيام دهر.

لو يعلم كيف يخبرها بسعادته بها... لو يعلم كيف يخبرها أنه لن يدعها تبكي مرة أخرى كيوم رآها وحادثها.

لو يعلم كيف يمحو ما فعله بها ذاك الأدهم الذي كانت تردد اسمه بجنون تحت المطر.

لم يقاوم كثيراً وخصوصاً عندما رآها تنظر إلى عينيه الدامعتين واستدار يقول من دون وعي:

من هو أدهم؟!

صاحت كاميليا في كريم وهي تمد ذراعها نحوه بهاتفها قائلة:

أين وصلت؟! تفضل حبيبتك تريد التحدث إليك.

كأنه ما كان معها طوال هذا الوقت... كان غائباً في ذكريات أسبوع بأكمله.

من حبيبته التي على الهاتف؟ ليست له حبيبة إلاها، لكنها عنه وعن أمه بعيدة. وتمتمت أمه:

ألم تسمع شيئاً؟! ستعرف حين تحادثها.

حين وضع الهاتف الصغير على أذنه صاح في حب وصدق:

ماما ثريا. يا حبيبتي. كنت أنوي زيارتك اليوم. أريدك واشتقت إليك وإلى المقطم.

ابتسمت وهي تعود إلى مقعدها تراقبه من جديد، أغلق الهاتف بعد لحظات وشعر كريم أن ثريا حبيبته وتوأم روح أمه وحدها أعادته من ذكريات أسبوع هو عنده بأيام العمر كله.

رأى السؤال على وجه أمه واضحاً، لكنها لم تقل شيئاً. تبادلا ابتسامة صغيرة كأن كلاً منهما فهم ما قاله الآخر.

كريم فهم سر حديث أمه الطويل وكاميليا علمت سر صمته وشروده الكبير!

كانت على ذات درجات السلم تجلس بعدما أغلقت معه الهاتف. شهور قليلة فقط ويأتي. أقسم لها أنها أكثر ما اشتاق إليه في مصر.

من خلف دموعها نظرت إلى الهاتف وهي تستعيد كلماته في رأسها. عندما قالت له وهي تبكي ضاحكة لا بدّ أنه اشتاق إلى أمه أكثر منها صاح ياسر يخبرها أن أمه تحادثه على "البلاك جاك" كل يوم ألف مرة لكن هي يحادثها دقائق تزيد شوقه كل أسبوع إليها ألف ألف مرة.

سألت كثيراً حتى عرفت أن البلاك جاك يأتي من هناك من أمريكا، ولكن حتى إن أحضره لها فهي في حاجة إلى كمبيوتر وأيضاً إلى اشتراك في شبكات الانترنت.

نصيبها منه سيبقى دوماً الفتات.

بظهر كفها مسحت دمعاتها... يجب أن تنهض من مكانها وتدخل قبل أن يستيقظ أبوها من قيلولته وتعيد هاتفه إلى جواره. يجب أيضاً أن تستذكر دروسها وتصعد للقاء مروة في بيت ملك لتراجع لها ما استذكرته.

في عيون مروة شيء غريب يخيّل لها أحياناً أنه من صنع خيالها، وتكاد تمسك به بين أصابعها أحياناً أخرى، لكنها دوماً تغمض عينيها خوفاً من مواجهة صدقه وبيانه.

أصبحت المرأتان أفضل حالاً بعدما أصبحتا صديقتين. ذاك الرجل الذي منحها بطاقته يوماً ووضعتها هي بين يدي ملك يمرّ كثيراً وربما يومياً إما لتذهب معه أو يعود بها إلى بيتها.

هو الحب!

تعرفه بدرية... تعرفه جيداً وتراه مرسوماً على خطوات الحسناء وابتساماتها التي بدأت تتكوَن على وجهها.

وهي الصداقة التي تسعد بها مروة، وأيضاً هو اقتراب عودة ياسر الذي جعلها أكثر هدوءاً وأقل حزناً عما كانت عليه.

في تثاقل نهضت من مكانها تخطو نحو غرفتهما وهي تتنهد في ألم.

وحدها يتيمة من دون حب أو صديق.

اختزلت العالم بأجمعه في ياسر وها هو نصيبها منه الأمل والفتات وكلاهما لا يزيدانها إلا ألماً وحسرة.

في لحظة كادت تفقد سيطرتها على نفسها. شعرت أنها ستلقي بنفسها على كتفيه وهما في طريقهما إلى سيارته. كان لقاؤهما مع مدير الأوبرا رائعاً.

الرجل أخبرها أن من يظن أن المصريين لا يتذوقون الموسيقى ولا يهتمون بها لم يصب الحقيقة أبداً.

ابتسم وهو يكمل حديثه مشيراً إلى أن أكثر الحفلات اكتمالاً للعدد هي حفلات الموسيقى لمن هم مثل عمر خيرت، أو أي كونسرت تستضيفه مصر، وأنه يسره أن يدرس طلبها ويحدد لها يوماً تقيم فيه حفلاً موسيقياً وخصوصاً بعد الاطلاع على أوراقها وشهادات خبراتها.

كريم جلس أمامها. وبين لحظة وأخرى كانت ملك ترفع عينيها كأنها تستمد منه القوة فتجده يبتسم فخوراً بها.

اتفقت مع مدير الأوبرا على أن تأتي إليه في الغد ومعها تسجيلات حية لعزفها في معهد أوتوا الشهير وأيضاً في أماكن أخرى متفرقة.

حقاً تضغط بقدميها على الأرض حتى لا ترمى بنفسها بين ذراعيه وتشكره.

حين دخلا السيارة سألته إن كان الرجل أبدى ذاك الترحيب الكبير فقط لأنه صديق والده؟ ضحك وهو ينظر إليها يخبرها أن الرجل وعشاق الموسيقى في مصر سيشكرونه يوماً لأنه وحده من شجعها على إتيان خطوة تأخرت.

أمسك بكفها بين يديه وقال:

لا شيء ولا أحد يصنع إنساناً سوى عمله وموهبته. أنا بك فخور. جميعهم يوماً عليك سيشكرونني!

حين ترك كفها تنهدت وتمنت لو لم يفعل وسقط قلبها في حيرته وألمه.

لماذا تريده أن يستبقي كفها بين يديه. أخبرها أنه زوج وأب. هو حبيب لامرأتين يذوب فيهما حباً... أخبرها أن زوجته تعمل خارج مصر وتقضي أوقاتها بين هنا وهناك.

ليلتها وفي فراشها بكت كثيراً لكنها في نهاية الأمر أغمضت عينيها وهي تصيح في وجه رأسها وعينيه أن كريم عبد الهادي صديق. ستنسى أنه رجل وأنها امرأة.

هما صديقان... هي في حاجة إلى يد صديق.

ألا تضم مروة إلى صدرها... ألا تضع يدها على كفيها وتربت عليهما في حنان كلما بكت وهي تخبرها عن شوقها إلى وحيدها أو غضبها وكراهيتها لزوجها؟ ألا تكاد ملك تبكي وهي تخبرها عن قسوة علا عليها؟

لماذا إذن لا تضم كريم أو تترك له كفها. كانت تُقبل كل أصدقائها وتضمهم إلى ذراعيها حين كانت في أمريكا. كان أصدقاؤها يقضون أياماً طويلة في بيتهم ومع والديها وتحت ناظريهما.

لأنها تعلم أنه ليس صديقاً فحسب. بداخلها له شيء آخر... لكنه بداخلها وحدها. هي في عينيه ليست إلا امرأة ضعيفة لحق بها قبل سقوطها على إسفلت كورنيش الروضة في ليلة ماطرة. امرأة أحب موسيقاها ويريد لكل من يحبون الموسيقى أن يسمعوها ويطربوا لها.

ملك مندور أيضاً عميلة ستشتري من والده فيلا ثمنها ملايين الجنيهات.

هو عنده أشياء كثيرة فلمَ تصرّ أن يكون عندها شيء واحد... شيء محرم مرفوض حتى منه هو نفسه؟ يجب أن تفيق... يجب أن تتمالك نفسها وتُحكم السيطرة عليها.

استدارت نحوه وقالت كأنها تهرب من قبيلة الأفاعي التي ترقص تحت جلدها:

هل تمرّ بي في الغد لأعطيك الأسطوانة أم آخذها إليه وحدي؟!

في حذر وألم واضح استدار إليها وفي صوت خفيض قال:

غداً لن أستطيع أن أكون معك. ندى تصل في الفجر.

كأن سكيناً اخترقت صدرها... كأن عاصفة ضربت عروقها. كادت تصرخ وتفتح باب السيارة وهو يركض بها لتلقي بنفسها خارجها. هل تريد أن تلقي نفسها خجلاً أم رفضاً لما سمعت؟

أغمضت عينيها بقوة كأنها تبتلع ذاك الخنجر وتنحني للعاصفة... بعد لحظات قالت في صوت لا تعرف كيف غادر فمها:

تصحبها السلامة... كل السلامة يا رب.

صمت كبير خيّم عليهما. كريم يتألم فهو يعلم أنها تريده معها عند عودتها في الغد إلى الأوبرا، وهي لا تعلم أنه لا يريد أن يكون في مكان بدونها. لكن ندى قادمة وأعدت أمه لهما حفلاً. حتى إن لم يكن هناك حفل. هي زوجته ويجب أن يقضي اليوم الأول معها.

ما الذي يدور في قلبه؟!

ابتسم كأنه من نفسه يهزأ... أهو حقاً لا يعلم؟! يعلم أنه يحب هذا الملك الجالس إلى جواره.

يحبها كثيراً لكن هي لا تراه إلا رجلاً ترحب بصداقته وفي حدود، فهي حتى يوم سألها عمّن هو الأدهم الذي كانت تردد اسمه رفضت أن تجيب.

لا ترى فيه سوى صديق يسعدها أن تكون إلى جواره، ويسعدها أن تستمع إلى حديثه وموسيقاه التي لم يعزفها بعد أمامها، وأيضاً هو رجل يشعر أنها تثق فيه ولهذا ائتمنته على شراء بيت من شركة والده. هو من سقط في الحب وحده لأنه حُرم منه زمناً.

لكن حتى صداقتهما هو بها سعيد. قضية الحب أزمته وحده. مرضه وحده فلمَ يريدها أن تتألم مثله؟

أفاق على صوتها يطلب منه أن يتوقف لحظات لتشتري شيئاً صغيراً تحتاج إليه.

حين غادرت ملك السيارة ضرب عجلة قيادتها بقبضته في ألم كبير.

كيف يحبها بهذا الجنون ولا تشعر به، وكيف يدّعي أنه ما زال على حب زوجته باق وأصبح يزهد حضورها وبقاءه إلى جوارها؟

الحب كشلال مياه جبار لا بدّ وأن يلطم كلّ ما في طريقه ويقصيه بعيداً عنه.

زهد ندى ويجب أن يتظاهر بحبها والتمسك بها، ويهوى ملك ويجب أن يتظاهر بأنه لا شيء وأنها لا شيء سوى صديقين.

أين ذهبت؟!

استدار ينظر بعينيه من زجاج السيارة ليجدها عائدة نحوه وهي تحمل في يدها باقة زهر كبيرة رائعة الجمال.

أهكذا تحتفل بنجاحها؟!

بالزهر والموسيقى... لو كانت زوجته هنا لنعتتها هي الأخرى بالطفولية والجنون.

مال بجسده يفتح لها باب السيارة، ومدّ ذراعه يلتقط باقة الزهر الكبيرة التي يضمها قماش أحمر داكن وشريطة بيضاء كبيرة وقال ضاحكاً:

أنا من كان لزاماً عليه أن يشتري لك الزهر ولا يتركك تشترينه لنفسك.

كانت ابتسامة صغيرة تلك التي رآها على وجهها لكنه سمعها تقول:

ليس لي... هو منك لزوجتك. عند عودتها يجب أن تجد رجلاً مثلك أحضر لها زهراً كهذا. هل لي أن أسألك صنيعاً؟! عدني أن تسعدها.

كان يشعر أنه يكاد يبكي وهو يرى دمعة صغيرة تلوح في عينيها، وهز رأسه بالموافقة كأنه لا يجد له صوتاً وسمعها تقول:

أسعدها أرجوك... أنظر ماذا فعلت مع غريبة عابرة وجدتها على الكورنيش تبكي. أنظر من أي طريق مظلم أخرجتني، وعلى أي بقعة ضوء وضعتني. كيف إذن بزوجتك... أم ابنتك... عدني أن تسعدها... أرجوك أن تعدني.

لم تقاومه ولم يفكر حين أمسك بيدها وانحنى بشفتيه يضع على كفها قبلة وهو يكمل:

لستِ غريبة يا ملك أنت...

قاطعته كأنها تصفع حلمها قائلة:

أنا وحيدة... أنت أخ وصديق، وأعلم انك مثلي لا أخت لك ولا صديق...

أدار محرك سيارته وهو يرمق الزهرات الحمراء التي انتقتها بعناية، ومن بينها كانت زهرات "الجيتس فيل" البيضاء المنمنمة تطل في خجل كأنها لا تستطيع الصمود أمام كل هذا الحب والجمال.

آه لو تعلم ملك إن كل هذا الحب يحمله لها في صدره.

لكن لا هي تعلم أنه يحبها ولا هو يصدق أن من الممكن أنها تحبه، ثم تحمل له زهوراً يأخذها إلى زوجته. لم يكن يعلم أبداً أنها وفي طريقها بالزهر إلى سيارته وضعت على كل زهرة منها قبلة ورسالة حب له وحده من دون رجال الأرض جميعاً!

ذهبت وحدها إلى اللقاء. تحادثت مع الرجل طويلاً، وأخبرها أنه سيبلغها قريباً بقرار دار الأوبرا بخصوص حفلها، واتفقا على أن يكون في نهايات الصيف.

تسكعت على المحال. تناولت غداء سريعاً في أحدها. عادت إلى بيتها منذ ساعات وعزفت كثيراً على البيانو. فعلت أشياء كثيرة لكن ما زال اليوم ثقيلاً لا يمضي وسؤال كبير أشد ثقلاً يجثم على صدرها.

الجو بارد. أكثر الأيام والليالي برودة مذ بدأ العام الجديد.

في هدوء دخلت غرفتها وألقت بجسدها على فراشها. فلتقرأ شيئاً أو فلتشاهد فيلماً أو برنامجاً... فلتفعل أيّ شيء لأن الشيء الوحيد الذي كان يجعل يومها يمضي من دون أن تشعر به هو الشيء الوحيد الذي يستحيل أن تفعله.

أمسكت بهاتفها بين يديها تنظر إليه... مجنونة! لو حادثها لسمعت رنينه... لماذا أصبح كل تفكيرها محصوراً فيه وحده؟

كيف كانت تحيا قبل أن تلقاه؟

هو لم يدخل حياتها إلا منذ أقل من شهر.

عاد السؤال يطل برأسه عليها... هل تستطيعين محادثته؟!

في جنونها هزت رأسها وهي تعاود التقاط هاتفها.

نعم تستطيع... هي يوماً لم تتبادل معه كلمة غرام واحدة حتى تعجز عن الاتصال به وزوجته إلى جواره.

هو يوماً لم يقل لها كلمة حب واحدة ليمتنع عن محادثتها عند عودة زوجته.

أليس صديقها؟! جميع أصدقائه يحادثونه إن عادت زوجته بل ربما كان من الأفضل أن تحادثه وتطلب إلقاء التحية عليها.

شيء أكبر منها يجعلها تعجز عن الاتصال به وهي تعلم بوجود نداه معه.

بأصابعها البيضاء الجميلة التقطت حافة غطاء فراشها وأحكمته حول جسدها. هي تنتفض برداً. ترتدي قميصاً من الصوف وبجوار فراشها مدفأة الزيت لكنها ما زالت تنتفض برداً.

أغمضت عينيها وفي ألم رأته. رأت صديقها في هذه اللحظة يأخذ زوجته بين ذراعيه ويمسح على رأسها بأصابعه التي نامت بينها أصابعها بالأمس.

لن تشعر أبداً بالبرد وهي على صدره. حاولت أن ترسم ملامحها.

أياً كانت لن تكون في جمال ملك... تعلم أنها إحدى أجمل نساء الشرق.

بذراعيها ضمت نفسها وهي ما زالت تنتفض. حتى إن كانت زوجته قبيحة يكفيها جمالاً أنها زوجة هذا الرجل. يكفيها جمالاً ان باستطاعتها أن تحادثه وقت شاءت دون هذا الخوف ودون هذا الذل.

انحنت من على فراشها تشد مدفأة الزيت نحوها. لا يمكن أن تكون ليلة الشتاء هذه تحت الصفر. لا يمكن أبداً أن تعجز مدفأة الزيت عن بث الدفء إلى هذا الحد.

ما يقتلها ويشعرها بهذا البرد هو عجزها عن الاتصال به. هو علمها أنه هو أيضاً لم يفكر في الاتصال بها أو حتى سؤالها عن لقاء الأوبرا.

في هذا الجو البارد هو لا يذكرها. هو بحب وعودة زوجته يتدفأ.

كأنها تلطم نفسها أبعدت غطاء الفراش عنها ونهضت تبحث عن شيء ترتديه. وبعدما أنهت تغيير ملابسها تركت غرفتها ثم عادت إليها بعد ثوان تضع هاتفها في جيب معطفها الصوفي في لهفة، وحملت عصا الفلوت وغادرت المبنى بأكمله.

حين عبرت الشارع نظرت إلى كل وجوه المارة حولها، لم تجد أحدهم ينتفض برداً. هي ليلة شتاء

عادية ككل الليالي بل تشعر أنها ربما أقل برودة من ليال كثيرة مضت.

الصقيع بداخلها وحدها. الصقيع هو شوقها إليه وغيابه عنها.

على كورنيش المقياس وفي ذات الركن المظلم جلست. ليس حباً يا ملك. فلتهدئي.

هي الوحدة... هي الحاجة... لن تحب زوجاً... لن تكون ريبكا أخرى.

اقشعر جسدها وهي ترى طيف ريبكا يرتسم على مياه النيل، وفتحت حقيبة عصاها الموسيقية وأخرجتها. اغمضت عينيها وأخذت تعزف بهدوء.

ليت موسيقاها تناديه... ليتها تنتهي من العزف وتستدير فتجده واقفاً خلفها إلى جوار سيارته كما يوماً وجدته.

تحبينه يا ملك... نعم تفعلين.

اعترفي... نحن لا نختار أن نحب لكن نختار أن نعلن الحب وهي لن تفعل. ستبقى العمر تتظاهر أنه ليس إلا صديقاً.

كانت دمعاتها تنحدر في هدوء وعيناها مغمضتان. بين جفنيها كانت تراه.

تراه و هو يبتسم. تراه وهو يحتضنها يوم كادت تسقط. تراه وهو يمسح دمعها ويعود بشعرها بعيداً عن

وجهها، وأيضاً تراه وهو يضم زوجته الآن ويقبّلها ويهمس أنه اشتاق إليها كثيراً.

كل شيء في جسدها كاد عن الحياة يتوقف حين سمعت تصفيقاً صغيراً خلفها.

جاء كريم. استحضرته بموسيقاها وشوقها إليه. ترك زوجته وجاء.

وحده الفلوت يفعلها.

في جنون استدارت تنظر بعينيها ولم تجده. حين هبطت بعينيها وجدت طفلاً أسمر ربما في العاشرة من العمر أو أقل يصفق لها وهو يحمل في يديه عصا تشبه عصاها.

ابتسمت وسمعته يقول:

نايك يختلف عن هذا الناي غير أني دون شك أفضل منك في العزف عليه.

رأته يضع الناي المصري القديم الذي ما زالت تذكره من طفولتها وتذكر كيف كانت أمها تركض نحو النافذة حين مرور بائع "البطاطا" كل ليلة ووقوفه في شارعهم ليعزف عليه.

من هنا أحبت "الفلوت" ومن هنا يوم هاجروا إلى أمريكا اختارت في مدرستها أن تدرس البيانو والفلوت.

رحم الله أمها. ما كان يسعدها شيء كما كان يسعدها أن تعزف لها الفلوت وما كانت تشتاق إلى شيء

سوى عربة البطاطا وعازف الناي ونادية شفيق.

في براءة الطفل الواقف أمامها بحثت بعينيها عن عربة بطاطا فلم تجد، وعادت تستمع إليه وإلى عزفه الرائع الحزين حتى انتهى. صفقت له كثيراً وعاد يقول:

أنا أفضل؟ اعترفي.

ابتسمت وهي تنظر إلى وجهه النحيل الأسمر وملابسه البسيطة التي لا يمكن أبداً أن تدفئه. وبدأ الصغير في نوبة سعال حادة انتفض لها قلبها لكنه بكلماته المتقطعة أخبرها أن هذا ما يحدث له دوماً كلما عزف على ناي والده.

حين هدأ سعاله قليلاً نظر إليها بعينيه الواسعتين قائلاً:

أنت من تسكنين ببيت عم عمران؟ كل الشارع يتحدث عنك. أنا محمد صديق بدرية.

أمسكت بكف الصغير بين يديها وسارت به في طريق العودة قائلة:

إسمي ملك. ونعم أسكن هناك. أرني بيتك. لا يمكن أن أتركك تسعل وتتجول بهذه الملابس الخفيفة.

صاح وهو يقفز إلى جوارها على صوت سعاله قائلاً:

أسكن خلفك. أمي هي المسؤولة عن الجراج الخلفي. والدي مريض لكن هو من علمني الناي.

مساكين أطفال مصر الفقراء. مساكين كل من هم مثلها. لا يجدون ذراعا تضمهم ولا يداً تصفق لهم إن ابدعوا أو تقيل عثراتهم إن سقطوا.

عند مرورها من أمام البيت كانت بدرية بجوار أبيها على أريكته الخشبية وحين لمحت ملك صاحت تقول:

أين ذهبت؟ ماتت أمك عنك بحثاً.

ركض الصبي في ذعر كبير من دون حتى كلمة واحدة لملك، وابتسمت وهي تدخل بهو العمارة، وقبل أن تختفي داخل مصعدها استدارت نحو بدرية قائلة:

غداً تأخذينني إلى أمه!

ضحكت كاميليا وهي تنظر في وجه ندى تخبرها أن بقاءهم جميعاً في بيتها أفضل وأجمل الحلول، ونهضت ياسمين عن طاولة الإفطار قائلة:

وصل الباص كيكي... باي.

وحدها كاميليا تألمت وهي ترى الصغيرة ترتمي بين ذراعي جدها وترسل قبلة لها ولوالدها. وقبل أن تغادر غرفة الطعام الكبيرة طلبت منها جدتها أن تقبل أمها. وابتسمت ندى في سعادة ابنتها تمنحها عناقاً جميلاً وقالت الصغيرة:

أين سنتناول غداءنا اليوم؟!

كانت تمسح على شعرها في حنان قائلة:

لست في إجازة. سآخذك إلى الباص وأذهب إلى عملي.

وضعت قبلة على وجنة زوجها وركضت خلف ابنتها ليتبعهما كريم بعينيه في وجوم. يحبها وذاب بين ذراعيها بالأمس لكن شيئاً في لقائهما كان مختلفاً. رائحة في أنفه كان يشمها وهي بين ذراعيه تجلده بالخجل.

حين هدأ الإثنان في فراشهما لم يتمالك نفسه. سألها في خجل هل غيرت عطرها؟ قبلت ذراعه واقتربت بشفتيها من وجهه وهي تجيب بالنفي.

كان يغوص بأصابعه في شعرها بحنان حتى نامت على صدره وأغمض عينيه في ألم.

زوجته لم تغيّر عطرها. عطر ملك مزروع في حواسه هو... كاد يهمس باسمها وهو مغمض العينين بين ذراعي زوجته العائدة من رحلة عملها.

يشعر بالألم والخجل رغم أنه بريء. هو يوماً لم يلمسها ولا يجرؤ حتى على تصوره لها حبيبة.

لم ينم أبداً ليلة الأمس إلا بعدما أمسك بهاتفه الصغير وأرسل لها رسالة قال فيها:

"ملك. كان يوماً طويلاً، لكن أرجو أن تكوني بخير وأن تكوني وفقتِ في موعد الأوبرا".

كلمات بسيطة لا شيء فيها، لكنه ما أغمض عينيه قبل أن يمحوها من على هاتفه.

الخطيئة تحدث قبل وقوعها في رؤوسنا وربما لهذا تتحول واقعاً بعدها.

تململ في مقعده وهو يحاول النهوض. سيذهب إلى مكتبه، وقبل حتى أن يفتح بريده أو يبدأ عمله سيحادثها ليلقي عليها تحية الصباح. لا يريدها أبداً أن

تشعر أن شيئاً تغير لحضور زوجته وعودتها. وأفاقه صوت والده وهو يقول:

هل هي ملك مندور تلك التي وقعت معي عقد الفيلا هي نفسها التي ذهبت معك إلى الأوبرا يا كريم؟!

كأنّ أحدهم ضبطه متلبساً بين ذراعيها. كأنّ أحدهم ضبطها تتجول في عروقه وتحكم السيطرة على رأسه وأفكاره. ارتبك لحظات وهو يحاول أن يفكر ما الذي يجب أن يقرّ به وما الذي يجب أن ينكره.

لماذا يشعر دوماً أن بينه وبينها أشياء يجب أن تنكر؟

هو وملك لا شيء سوى صديقين وفي صوت خفيض تائه التقطت كاميليا وحدها تشتته قال:

نعم... هي. أستاذ فلوت وبيانو في معهد أوتوا للموسيقى. أنا...

قاطعه والده قائلاً في بساطة موجهاً حديثه لزوجته:

سيدة رائعة الجمال كأنها لوحة زيتية، وأيضاً ثرية وموهبة كبيرة في الموسيقى. أخبرني د. عزام أنه اتفق معها على تنظيم حفل كبير لها في غضون شهور.

كانت حمرة خفيفة تطفو على وجهه... بريق قوي ساكن بدأ يشع من عينيه وهو يسمع والده يمتدحها.

لم يجد شيئاً يقوله لكنه سمع والده وهو ينهض عن مكانه يقول:

سأذهب إلى الشركة. لمَ لا تدعوها لزيارتنا؟ أريدك أن تعرفها إلى كاميليا. هل هي زوجة؟!

ألقى التائه بعينيه إلى صحنه وتمتم:

لا أعلم. أنا ما رأيتها إلا يوم جاءت مكتبي بحثاً عن فيلا وأرسلتها لك. ويوم ذهبت بها إلى د. عزام في الأوبرا.

حين غاب عبد الهادي رفعت أمه عينيها وقالت:

هي من غيّرتك. هي من أعادت ضحكتك وموسيقاك هل هي زوجة؟!

كأنه لا يستطيع أبداً أن يهرب منها، إلا أنه ابتعد عن عينيها حقاً. نهض عن مقعده وانحنى يضع على رأسها قبلة قائلا:

كابتن... تخلي عن منصب مفتش المباحث أرجوكِ. السيدة مجرد صديقة لا أكثر. لا تجمحي بخيالك كيكي.

بذراعيها استبقته إلى جوارها قائلة:

بالطبع لن أفعل. أنت زوج وامرأتك ألف ألف رجل يتمناها. أنت أب... أنت ولدى وابن عبد الهادي. هل تعلم ما يعنيه كل هذا؟!

لم تدع في صدرها قصة أو ذكرى إلا وحكتها لها. بل هناك مواقف وذكريات هي نفسها لم تكن تذكرها وتذكرتها وهي تفرغ لها خبايا صدرها.

بداية من قصتها مع حي الحسين حتى حياتها مع زوجها في أمريكا ودناءاته مع كل امرأة يتمكن من الوصول إليها.

كانت تحكي ودموعها تغسل وجنتيها، بينما ملك تسمع وقلبها أحد جناحيه يرفرف بين كلمات صديقتها والآخر ينتظر رسالة أو مكالمة من كريم، فهي لا تجرؤ أبداً على أن تبادره بشيء وهي تعلم أن زوجته ما زالت في مصر.

في نهاية حديثها نظرت مروة بعينيها إليها وقالت:

أي امرأة... إلى أي نوع من النساء تنتمي تلك المرأة التي ترافق رجلاً تعلم أنه زوج. لماذا يا ملك؟ ماذا تنتظر منه؟ وأيهما الدنيء... هي التي تمد يدها إلى ما تملكه سواها أم هو الذي يأخذها ويشعر أنه مشاع كالمرافق العامة؟!

انتفضت وهي تسمع كلماتها. ظهر وجه ريبكا أمامها من جديد وإلى جواره وجه كريم ووجه آخر بلا ملامح

لزوجة تقضي أياماً كل شهر بين ذراعي رجل يسكن عروقها دون وعي منها أو رغبة.

رغم بكائها ودموعها إلا أن مروة شعرت أنها ضربتها في مقتل. كان واضحاً أنها تنتفض وتتألم وفي هدوء اقتربت منها قائلة:

سامحيني. هل أنت زوجة؟!

ما زالت لا تستطيع أن تقص حكايتها. ما زالت تكتفي فقط باستسلامها للألم والذكريات وهذا الوجه الآسيوي الجميل الذي قتلها وقتلته.

أرخت رأسها لترى مروة دموعها في وضوح وهي تقول:

نعم... كنت زوجة وأيضاً كنت...

لم تستطع أبداً أن تقول أنها كانت أمّاً. صعب جداً أن تقول كانت ولم تعد. زادت رعشتها وهي تكمل:

عرفت الخيانة وعرفت كيف يكون ألمها. ربما لهذا بالغت كثيراً في تصرفي مع الدكتور وحيد.

مروة في ألم قاطعتها:

إن كانت كلماتك تخفيفاً عن كرامتي فأرجوك أن تكفيها. ما عاد الأمر يعني لي شيئاً. اعتدته واعتادني وإن كنت تقولين هذا تأنيباً وتعذيباً لنفسك فأيضاً لا تفعلى.

لو أن كل امرأة فعلت ما فعلته أنت لربما تغير الحال وخجل الرجال.

حاولت أن تلملم نفسها من أجل من فتحت لها صندوق أسرارها. اقتربت منها قائلة:

أؤمن أن العلاقة الزوجية إن أصابها شرخ فهو لا يداوى. من السهل جداً أن تشيرى بأصابعك إلى رجل وتقولين "كان" هذا الرجل زوجي، لكن من المستحيل أن تقولي "كانت" هذه ابنتي.

لا تفقدي الأمل مع علا. ستحيا وتموت ولا أم لها سواكِ. هل تريدين أن أحاول أنا معها؟!

بابتسامة ضعيفة واهنة أجابتها الجريحة قائلة:

قد يكون ما تقولينه صحيحاً، لكن إن كان كلا الطرفين يقرّ بوجود الآخر. هي ترفض بل وتكره أن تعترف أني أمها.

بلا وعي انتفضت ملك وهي تنظر بعينها إلى هاتفها الذي دق. من دون حتى أن تعتذر فتحت الخط وكيف لا تفتحه والطارق صديقها وأخوها وهي عاشت عمراً بلا صديق أو أخ.

سمعته يصيح قائلاً:

اشتقت إليك.

ارتبكت لحظة. شيء في عروقها استهجن الكلمة، لكن ألا يشتاق الأخ إلى أخيه؟ كأنه شعر بها تبتسم

فأكمل يقول:

لك عندي مفاجأة. بيني وبينك عشر دقائق عندما أصبح تحت البيت أحادثك.

نظرت بعد كلماته في حيرة كبيرة إلى وجه مروة كأنها تتمنى لو تتذرع بوجودها لتعتذر له أو حتى تسأله إلى أين؟ لكنها سمعت صوتها يعصاها ويجيب في همس:

دقائق وأكون في انتظارك.

لم تنتظر الجارة تبريراً أو شرحاً. نهضت وهي تبتسم. وأمسكت ملك بذراعها تحاول أن تشرح أو تبرر لكن مروة ضمتها إلى صدرها قائلة:

أخرجي. أنظري ماذا صنع بك الحب. جعلك أجمل وأهدأ وأيضاً جعلك صديقتي.

حب يحيينا ويجملنا هو حب يجب أن نحيا به ونتجمل له.

لماذا اضطربت حين رأته يتبادل الحديث مع كريم؟ لماذا ارتعشت خطوتها وفكرت ألا تذهب إلى سيارته؟ لكنه حين رآها تخرج من باب العمارة وتقف في ذاك الذهول ابتسم ابتسامة كبيرة وصاح كأنه يستدعيها إليه قائلاً:

ملك. لم أكن أعرف أبداً أنك جارة الدكتور وحيد زيدان.

لماذا ذابت ابتسامتها حين رأته، ولماذا فكرت في الابتعاد عن سيارته كأنه لا ينتظرها أو كأنها لم تخرج إلى لقائه؟

أرخت رأسها في هدوء وتقدمت وهي تحاول ان تبتسم قائلة:

نحن سكان العمارة الوحيدين.

لم تلق التحية بل هي حتى لم ترفع عينيها إلى وجهه، لكنها وقبل دخولها السيارة سمعته يقول:

ملك صديقة زوجتي وهي جارة عزيزة جداً.

أغلقت خلفها باب السيارة كأنها تتمنى لو تصفعه به على وجهه. لم تحبه يوماً وكلما رأته تذكرت يوم زارته في مكتبه وسقطت ليلتها في ذاك الانهيار الكبير.

دخل كريم إلى جوارها بعد لحظات وهو يبتسم. كأن دهراً مرّ على غيابها. فتح رئتيه يتنفس عطرها كأنه بنسائمها يعود إلى الحياة من جديد.

لم تحاول حتى أن تخفي غضبها من لقاء جارها وحديثه معه. أخبرها أنه هو من جاء إليه ونقر على زجاج سيارته. أخبرها أن شريك زيدان ومدير مكتبه صديق له، وأن زوجته ورغم أنها أكبر سناً منه ومن زوجته إلا أن ندى تحبها كثيراً. كان يحاول أن يتذكر إسمها وصاح بعد لحظات:

رضوى. سيدة جميلة ومحترمة جداً.

ابتسمت في مرارة. مروة أخبرتها أن زوجها على علاقة بزوجة شريكه التي تكبره بحوالي عشرين عاماً. في اقتضاب نظرت إليه قائلة:

هذا الرجل زوجته ملك لكن هو لا.

سكت فجأة عن الحديث. هم يعملون في مجال واحد ورغم نجاح شركة زيدان إلا أن نجاحه في تشويه سمعته الشخصية أيضاً كبير.

في لحظة شعر أنه يغار عليها حتى الجنون. لا يظنها سلمت من مجونه، لكن هي جارته وكما قال وحيد نفسه هي أعز صديقات زوجته. وكأنه يطرد صقور الغيرة عن رأسه قال:

فلننسه. اشتقت إليك كثيراً.

سافرت زوجته. من أجل هذا جاءها؟ لماذا تشعر بالإهانة؟! لانقطاعه عن رؤيتها طوال الأسبوع الذي كانت فيه ندى هنا. لكنه طلب لقاءها أكثر من مرة، وحدها رفضت. كانت تعلم أنه كان يطلب لقاءها فقط كي لا يجرحها. هي تثق أنه كان يتمناها أن ترفض.

اليوم، وبعد سفرها لم يطلب منها الخروج. في بساطة أخبرها أنه سيمر للقائها بعد عشر دقائق.

ليست غاضبة هي فقط حزينة وكأن الحزن رفيقها حتى بين ذراعي السعادة.

لن تحزنه هو الآخر... يكفيها أنه جاءها بعد سفر زوجته بساعات قليلة. هما صديقان بظروف خاصة لكن هما فقط صديقان.

ابتسمت وهي تستدير لتملأ عينيها من وجهه. كيف يسكن بين عينيها وشعرت أنها تكتشف ملامحه للمرة الاولى؟

شيء في عينيها كان يبحث عن شيء مختلف في وجهه.

تبحث عن آثار زوجته.

أرخت عينيها في خجل كأنها لا تطيق أبداً أن تتبع جنون قلبها ورأسها.

هذا الرجل الجالس إلى جوارها رجل تسافر زوجته وتتركه وحيداً. معها وجد صديقاً أحب صحبته

وموسيقاه. صديقاً يشعر أنه يحتاج إليه كما يحتاج هو إليه.

الأصدقاء لا يغارون أبداً من أزواج بعضهم البعض. وقالت في ابتسامة صغيرة:

إلى أين؟!

أغمض عينيه. لماذا شقّ السؤال صدره؟

إلى أين؟!

إلى آخر الدهر. لكن من دون كلمة أو اعتراف.

لم تُعد عليه السؤال وهو لم يجب. كانت تعيد معه اكتشاف الطرقات والمدينة، وحين وجدته يصعد بها إلى جبل المقطم صاحت تخبره أنها تذكر مكاناً كانت تحضر فيه مع والديها منذ عشرين عاماً لتناول العشاء.

فندق كانت تحبه أمها كثيراً وبلا وعي وضعت كفها على شفتيه حتى لا يقول. وحدها ستذكر الاسم وحدها ستستحضره وصاحت كأنها طفلة صغيرة:

"بيل إير".

ابتسم قائلاً:

كم كان عمرك عندها؟ أنا نفسي لا أدري إن كان ما زال على الخارطة. فلنمر عليه في طريق عودتنا معاً ونكتشف الإجابة معاً!

كانت ملفات الجبل جميلة في عينيها رغم أنها تعلم أنه لو قاد بها سيارته في مستنقعات وعشوائيات مصر

لرأتها كما ترى الآن كلّ شيء حولها.

وقف بسيارته في أعلى نقطة على جبل المقطم، وأمام بوابة فيلا صغيرة أنيقة تطل على كورنيش المقطم هبط ليفتح لها باب سيارته قائلاً:

أهلاً وسهلاً بكِ في دار البدر.

تبعته وهي تنظر حولها في سكون. حين عبرا باب البيت الخارجي استقبلهما رجلا أمن تحدث إليهما ليرحبا به في احترام بالغ، دخلا بعدها إلى دار البدر كما قال، وكما رأت تلك اللافتة الرخامية الأنيقة.

في بهو البيت رأت أكثر من شاب وشابة يتحركون في نشاط. وشرح لها قصة دار بدر.

أخبرها أنها فيلا لإحدى صديقات والدته التي عاشت فيها ربع قرن مع زوجها الذي كانت تحبه كثيراً.

عندما مات الرجل لم يترك لها شيئاً، فهما لم ينجبا، ولم يكن ذا ثراء كبير لكنه ترك لها أكثر من خمسمائة لوحة فنية رسمها بيده وجميعها لها.

رفع ذراعه يشير إلى جدران الفيلا العالية والتي علقت عليها السيدة جميع لوحات زوجها، وقررت أن تجعل من بيتهما مكاناً تلتقي فيه المواهب الحقيقية للرسم والموسيقى وتوفر لهم مكاناً يرسمون فيه ويتبادلون الندوات واللقاءات. كأنه نادٍ من نوع خاص

يفتح أبوابه كل يوم من الحادية عشرة حتى منتصف الليل.

أخبرها أن السيدة التي يتحدث عنها تكتفي بجناح صغير على سطح المبنى تحيا فيه، وما تأخذه من اشتراك سنوي من الأعضاء الذين تختار وحدها قبولهم هو ما تدفعه لصيانة المبنى وتجديده وأمنه.

ثريا منحته إحدى غرف الدار لتجري فيها ملك تدريباتها المبدئية وبروفاتها معه. وابتسم وهو يقول إنها الاستثناء الأول في بيت الفن، فهي الوحيدة التي تنال عضوية فيه من دون لقاء وامتحان.

أجرى مكالمة صغيرة من هاتفه يخبر فيها ثريا بوصوله، لتظهر بعد دقائق في البهو حيث كانت ملك مشغولة بمشاهدة اللوحات.

رائعة الجمال هي. كيف رسم لها زوجها كل هذه اللوحات؟ كل لوحة منها تبدو كأنها حكاية حب شهية.

استدارت نحوه وهو يناديها لتجد إلى جواره سيدة جاوزت الستين من العمر.

بلا وعي رفعت عينيها تنظر إلى إحدى اللوحات كأنها تقارن بين من تقف أمامها وبين من هي على كل الجدران مرسومة وابتسمت السيدة قائلة:

لا تحاولي. من في اللوحات تختلف.

تقدمت نحوها وهي تمد يدها قائلة:

أنت الحقيقة لهذا أنتِ قطعاً أجمل.

قاطعتها ثريا قائلة:

كان بدر رحمه الله دوماً يقول إن تحدثت الموسيقى أو قالت فرشاة الرسم فلا بدّ أن نتوقع معجزة.

كريم أخبرني أنك أيضاً معجزة. فلنذهب إلى الحجرة التي خصصتها لك ولتسمعيني شيئاً أرجوكِ.

أشارت ثريا بيدها إلى غرفة في نهاية البهو دخلوا جميعا عبر بابها المفتوح، لتجد فيها أريكتين وبيانو. وفي الركن المقابل مكتبة فيها الكثير من الكتب.

ابتسمت. ظنت أنها يجب أن تغضب لأن السيدة تخبرها أنها يجب أن تسمع عزفها لتقرّ وجودها، لكن حين رأت عيني صديقها تبتسم في ثقة كأنها تعلن فخرها بها... حين رأت تلك اللوحات المصطفة على حائط الغرفة في جمال، علمت أنها في حضرة عالم جميل لم تشهده يوماً حتى في حياة القصور التي عاشتها زمناً.

رفعت غطاء البيانو الأسود وبلا قصد أخرجت تلك الشريطة السوداء الصغيرة التي جمعت بها شعرها ليسقط على وجهها وكتفيها، وعادت تنظر إليه من جديد، وابتسمت ابتسامة أجمل. هو إلى عالم صديقة أمه أخذها. هو بكل الفخر والثقة يخطو إلى جوارها.

ما يحمله لها هو شيء جميل كبير. شيء يستحق أن تنسى من أجله تلك الصور القديمة التى تفتك بسنوات عمرها. ستعزف لهذه الثريا الجميلة الأنيقة لحناً لم تعزفه من قبل. وطارت أصابعها على أصابع البيانو.

اختارت شيئاً هي كتبته. قطعة قديمة مزدانة بألوان الفرح أيام كان للفرح عليها سلطان.

ما زال الألم يدق صدرها وما زالت الذكريات تطل برأسها عليها، لكنها عندما تنظر فى عيني ثريا ترى وجه امرأة منحتها الأقدار رجلاً رسمها ألف مرة ورآها أجمل ألف ألف مرة من حقيقتها.

كلما نظرت إليها وإلى كريم تعلم أنه فى حضرة الحب وحده نقتل الخوف ونواجه الألم ونتوقع فناً أشبه بالمعجزة.

صفقت ثريا كثيراً واستدارت نحو كريم تحتضنه فى حنان وتقبله قائلة:

نعم ما زالت هناك معجزات حقاً؟!

استدارت نحو الزائرة التى نهضت عن مقعدها فى فرح كأنها تلميذ صغير رسموا على جبهته نجمة. كأنها ما كانت أستاذاً فى الموسيقى يوماً، وكأنها أيضاً اعتادت صوتها يفاجئها بما لا تقر قوله يقول:

فى المرة القادمة أعزف على الفلوت؟! هل تأتين لحضور حفل الأوبرا؟!

ضمتها ثريا إلى صدرها قائلة:

شرط واحد يجعلني أفعل. أن تسمحي لي أن أتولى الحملة الإعلامية لملك مندور!

كل موظفى الأرض يسعدون بأيام الإجازة وينتظرونها إلا مروة. وحدها تبحث بعينيها عن يوم عودتها إلى مكتبها فى المدرسة قبل أن تقرأ تاريخ بداية الإجازة.

ادخرت من عملها كل ما استطاعت ادخاره. ليس كثيراً. فمنذ التحقت بالعمل وزوجها لا يمنحها قرشاً لشراء ثوب واحد لها. هي أيضاً لا تريد من قروشه شيئاً. لو عاشت عمرها بأكمله تترحم على نادية شفيق التي شجعتها على العمل لما شعرت أنها منحتها من صلواتها لها ما يكفي.

يوماً أخبرت وحيد أن عملها فى المدرسة وحده وفر له أكثر من ربع المصاريف التى يدفعها لأن جميع المدارس تمنح نسبة حسم عالية لأبناء العاملين فيها. بتهكم شديد سألها هل تريد الفرق؟!

عندما أجابته أنها تريد شيئاً من العرفان والتقدير أجابها أن العرفان والتقدير يمنحان فقط للزوجات أو للأمهات ولا هي بزوجة ولا هي أيضاً بأمّ.

لماذا تجتر دوماً الألم، لكن هل فى جعبتها من الحياة سواه؟ حتى ياسر حادثته وأخبرته أنها ستقوم بتحويل

ثمن التذكرة إليه ليأتي ويقضي معهم أجازة أعياد الميلاد والعام الجديد، لكنه أخبرها أنه لن يستطيع.

سيذهب مع معسكر من جامعته إلى كاليفورنيا. كاد يبكي على الهاتف وهو يخبرها أنه هو أيضاً ادخر ثمن تذكرة وكان يتمنى أن يحضر أو تذهب هي إليه أيام الإجازة العشرين لكن لم يكتب لهما اللقاء بعد.

بعد شهور قليلة يأتي في إجازة الصيف. عندها تستعد علا ووالدها لمغادرة مصر.

تنتظر سفرهم. يؤلمها أن تفارقها ابنتها لكنها ما عادت تحتمل حياتهم فى بيت واحد كالغرباء.

تراقب علا من بعيد. فى المدرسة تتبعها بعينيها. تخشى أن يتكرر ما حدث. تخشى عليها، لكن حتى وحيد أنذرها وعنفها لمراقبتها لها بعدما أخبرته ابنته.

كيف هو مغيب إلى هذا الحد مع ابنته. كيف لا يرى ما تفعله وكيف، وهي التي كانت تظن أن الرجل الماجن والمسمى "بزير النساء" عادة ما يفقد ثقته في كل النساء.

لكن هذا الرجل يرى علاه إلهة ويرى زوجته قطعة من الجماد.

أقام الدنيا وأقعدها في المدرسة بعد ذاك الحادث. اتهمهم بالغباء والتقصير والتآمر على ابنته.

أخبرها المدير أنه يأسف كثيراً للطريقة التى يفكر بها زوجها.

المدرسة تهتم بأبنائها وعلا أحد أبناء المدرسة فلمَ يتحاملون عليها أو يتآمرون.

فلتمض الأيام ولتسافر بسلام مع والدها. ما عادت أبداً تطيق أن تكون أمّاً مع وقف التنفيذ. كيف تمضي هذه الإجازة وحدها؟!

ملك مشغولة. أخبرتها أنها تجري بروفات كثيرة وكبيرة لأنها ستقيم حفلاً كبيراً فى دار الأوبرا المصرية.

أخبرتها أنها أيضاً مشغولة بمتابعة تشطيبات فيلا اشترتها، بالاضافة إلى انشغالها بعلاج الصغير الذي تعمل والدته حارسة للعقار الذي خلفهم بعدما فقد والده بصره وأصبح عالة عليها هو الآخر مع مرض الصغير ومسؤولية شقيقاته الثلاث.

لا شيء يأخذك من الألم سوى الحب والعمل.

ملك أصبحت فى مأمن من ألمها فهي تحب حتى الثمالة وتعمل حتى النخاع.

عشرون يوماً من الفراغ. عشرون يوماً من الألم. حتى بدرية ما زال فى قلبها منها غصة كلما تذكرت كلمات علا عنها وعن ذاك الحديث الساخن كما وصفته والذي كان يدور بينها وبين ياسر.

لمَ لا تكون علا كاذبة أو تبالغ أو قالت ما قالته فقط كدفاع عن نفسها فى ذاك اليوم المشين؟

مرات كثيرة حاولت أن تسأل ياسر. مرات كثيرة حاولت أن تسأل بدرية لكن ما وجدت كلمات... رغم هذا هي أبداً لا تنسى، وكل يوم تسأل نفسها ماذا لو كان الأمر حقيقة. إلى أي مدى أو حدَ وصل الأمر بينهما؟!

نفضت رأسها في ألم وهي تدلي ساقيها عن أريكة صالة بيتها.

إنها التاسعة صباحاً موعد استيقاظ صديقتها. ستذهب إليها لتناول القهوة معها.

لا تتمكن من دعوتها إلى بيتها. هي ترفض دخوله. حتى بدرية لا تدخله الا في الأوقات التي تعلم أن وحيد وابنته فى مكان ما، أو تذهب هي بها إلى ملك لمراجعة دروسها.

زوجة وأم وسيدة تعمل فى إحدى أكبر المدارس الدولية، وفي حقيقة أمرها لا هي زوجة ولا أم ولا امرأة ولا حتى لها بيت تستطيع أن تدعو إليه جارة أو ابنة بواب فقيرة تساعدها على دروسها.

فليأت الصيف وليذهب وحيد إلى أرض أميركته وليدعها تشعر أنها على الأقل سيدة بيتها.

التقطت حجابها ووضعته على رأسها ورأته يخرج من غرفته بكامل أناقته. نظر ساخراً إليها ثم قال:

إلى أين؟ إلى الجارة الحسناء؟!

هزت رأسها فى هدوء بالإيجاب وهي تسأله كخادمة أمينة إن كان يريد شيئاً يشربه قبل خروجه، لكنه كعادته لا يبرح مكانه من دون أن يلقي عليها رصاصة أو على الأقل حجراً صغيراً علّها فيه تتعثر فقال:

لا فائدة فيك أو منك. أنت مغناطيس لا يجذب نحوه سوى الحثالة.

بحدة نظرت إليه. بقسوة تمنت لو تقتله بعينيها لكنها أرخت رأسها ومضت وهي تقول:

وهل على الأرض حثالة سواي وسواك؟!

يقتله أن تجيبه. أمسك بذراعها يستوقفها قائلاً:

لست إلهة أنت أو صديقتك. فلتسألي جارتك عن زوجة عشيقها كريم عبد الهادي الذي يلتقطها كل يوم أو ربما يتمرغ فى فراشها ونحن نائمون، ويقبض عمران والد ربيبتك ثمن صعوده إليها. ربيبتك رفيقة ابنك. هو مستنقع كبير لو تعلمين.

في جنون استدارت نحوه تقول:

مستنقع؟! جارتي ترافق رجلاً له زوجة... ما الفرق بربك أخبرني؟ تبقى أفضل منك... هي ليست صديقة لزوجته. أنت تضاجع رضوى زوجة شريكك الذي يكبرك بربع قرن. تضاجع امرأة تقترب من عمر أمك.

ياسر يرافق بدرية؟ من شابه أباه فما ظلم. وهل يجب أن أغضب فقط لأنها ابنة حارس عقار؟!

ربما لأني إن فعلت أفعل من منطلق تخلفي ورجعيتي، لكن أنت أمريكي ديمقراطي. في أيّ شيء يغضبك هذا؟! ألا تنظر إلى ابنتك التي تضيع أو ربما ضاعت وإلى الأبد؟ الشيخ رفعت رحمه الله كان دوماً يقول:

إن كان رب البيت بالدف ضارباً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص!

للحظة تمنى أن يسحق ضلوعها ويطلب منها أن تغادر بيته ولا تعود. تمنى لو يخبرها أنها بعد شهور قليلة ستتسول مكانا تبيت فيه ولن تجد سوى ظل حذائه. ستقف ترجوه أن تذهب معه هو وابنته إلى بلاد الزنوج المضطهدين والهنود الحمر المذبوحين حين تعلم أنه باع البيت، لكن لن يفعل.

تلك مفاجأة يعدّها لها. لو كان يستطيع أن يطلقها لطلقها ألف مرة، لكنه أخطأ عندما جعلها أمريكية. لها الحق فى مطالبته بنصف ما يملك وهي فى عينيه لا تساوي قرشا واحداً.

انحنى يلتقط حجابها الذى أسقطته على الأرض وألقاه على كتفها ومضى نحو الباب قائلاً:

الجولة الأخيرة لم تأت... استعيني بحجابك وملك وبدرية.

كانت تنتفض وأجهشت في البكاء بجنون. حين أغلق الباب وذهب استندت إليه بظهرها. فلتمض الأيام، فليرحل هو وابنته. يشهد الله أنه ما عاد لديها شيء تفعله لأيَ منهما.

هل تحب صديقتها رجلاً متزوجاً حقاً؟! وهل حقاً قصة علا عن ياسر وبدرية حقيقة؟!

هل هن جميعاً آثمات؟!

اذن لا أحد أفضل منها ولا هي أفضل من أحد.

حتى هي بما تظنه مبادئ تجلد بها نفسها ما زالت فى ليالٍ كثيرة لا تهدأ أو تنام على سرير ولدها إلا وكفّ عمران تداعب خيالها وظمأها إلى الحب والتقدير!

أصبح محمد صديقها. مذ ذهبت مع ملك إلى زيارة غرفتهم فى جراج العمارة التى يسكن فيها وهما صديقان.

كانت تعرفه. تعرف كما يعرف كل قاطنو المنطقة قصة والده الذى أرسله مالك العقار إلى منطقة مصر الجديدة محملاً بأشياء لابنته التى تقيم هناك فعاد فاقداً بصره بعدما أصابه خرطوش أحمق فى إحدى مسيرات قصر الاتحادية.

لم يكن حتى مشاركاً فى مسيرة ولا يعلم طلبة معنى كلمة مسيرة. هو وزوجته تماماً كبدرية وأبيها حراس للعقار. الفارق الوحيد أن طلبة يجلس أمام باب الجراج ويعزف الناي هو وابنه الصغير. ثلاث فتيات أكبرهن فى السابعة وأصغرهن في الثانية من عمرها يتحركون حوله وحول زوجته.

الصبي هو الأكبر لكنه مصاب بداء فى صدره. يظنونه حساسية نادرة فى الصدر كما يقولون.

أم محمد التي لا يعرف لها أحد اسماً سوى هذا، أصبحت هى وبناتها مسؤولات عن تنظيف السيارات

وغسلها بعد إصابة طلبة. صاحب العقار لم يطردهم كأنه شعر بالذنب لفقدان طلبة عينيه.

حتى يوم ذهبت مع ملك إليهم لم تر ابتسامة على وجه السيدة، رأت فقط دموعها وهي تخبرها أنها ستتكفل بعلاج صغيرها أياً كان مرضه وتكاليف علاجه.

ملك ترسلها كثيراً إليهم بمظروف مغلق تعلم بدرية أن فيه نقوداً وتطلب منها أن تضعها فى يد الأم.

عرضت على طلبة أن يذهب معها إلى المستشفى، لكنه رفض تماماً وهو يخبرها أن كل قرش تدفعه له فلتمنحه لزوجته علّه يساعدها على الإنفاق على البنات الثلاث.

أصبحت بدرية صديقة لمحمد وعاشقة لملك.

لكن ملك تغيب كثيراً عن بيتها. مروة تأخذها إليه فى غيابها لتراجع لها دروسها.

لم تعد ترغب بالاستذكار. تكره المدرسة وكل من فيها. تكره كل شيء. تحاول أن تدرس وتحاول أن تنجح... دوماً تذهب إلى مروة فى موعدها.

إلى جوارها تشم رائحة ياسر. معها تنتظر كل مرة لو يدق الهاتف وتسمعها تحادثه. تعلم، لن تعرض عليها محادثته وتعلم أنها لن تجرؤ حتى على السؤال عنه، لكنها في كل يوم تذهب والأمل الكبير يحييها وتعود وأمل جديد في الغد على الحياة يبقيها.

تائهة بدرية. تائهة حتى الضياع. تحاول أن ترسم لغدها صورة فلا تجد. تحاول أن تضع ليومها حدوداً فلا تستطيع، وعندما تحاول أن تعلن أنها ابنة بواب فقيرة تتصدق عليها مروة بالملابس ونفقات التعليم يصيبها نزف كبير من الألم والخجل كأنها خائن دنيء يتلقى المعروف بيد ويسقي السم بيد أخرى.

حبها لياسر خيانة لأمه رغم أنها لا تريد منه شيئاً. بدرية حتى لم تصرح يوماً له بحبها أو يصرح لها.

هما صديقان. أليس من حقها أن يكون لها صديق.

ابنة الصعيد تتحدث عن صداقة مع شاب يتعلم فى أمريكا. تنتظر عودته كما تفعل أي عاشقة غاب حبيبها عنها. فليكن عشقها قضية قلبها ويبقى قلبها وقضيته حبيسي ضلوعها حتى الموت، فلمَ إذن تشعر بهذا الخجل والألم؟

أفاقها صوته من مدخل العمارة يناديها، ونهضت عن فراشها ترتجف من البرد والذكريات.

أحنت جسدها حتى تخرج من تحت سقف غرفتهم، رأته يقف يلوح لها وابتسمت تسمعه يقول:

أين السيدة ملك؟ أحضرت الناي معي.

أصبح بابها مفتوحاً لها ولهذا الصغير. لا تضحك ملك معهما لكنها أيضاً لم تعد أبداً بذاك العبوس. بل ربما تضحك كلما رأت محمد أكثر مما تفعل عند رؤية بدرية.

سمعته يقول:

سيارتها تقف فى مكانها. سأصعد إليها.

أمسكت بكفه وهي ما زالت ترتدي جلباب الصوف الذي اشترته لها مروة مع بداية هذا الشتاء وتوجهت به إلى المصعد قائلة:

قد لا تكون فى البيت. ربما خرجت في سيارة الأستاذ كريم.

ملك أخبرتها أن محمد في إمكانه الصعود إليها وقت يشاء. كيف تنسى أنها أكملت يومها قائلة أن هذا الإذن له وحده من دون أمه أو أبيه أو حتى شقيقاته الصغيرات. تماماً كما تسمح مروة لها بالدخول والجلوس في بيتها هي وملك بينما يقف عمران دوماً على الأبواب أو يعبر إلى المطبخ فى أحسن الأحوال لوضع مشتريات أو حمل أكياس القمامة بعد دعوات العشاء التى يقيمها زيدان من حين إلى آخر.

حين طرقا الباب وبعدما انتظرا لحظات ظنت أن ملك ليست فى البيت وتنهدت قائلة:

لابد أنها خرجت معه.

فى تلك اللحظة أطلت ملك وهى ترتدي روباً من اللون الفيروزي، وعلى رأسها منشفة شعرها. حتى بدرية لا تتمالك نفسها عند رؤيتها. دوماً هناك شهقة ترتسم

على ملامحها كلما رأت جمالها الذي بدا أكثر بهاء من أي يوم مضى. كان واضحاً أنها للتو انتهت من حمامها.

صاح الصغير:

أحضرت الناي من والدي وأريد أن أعزف لك شيئاً.

لماذا تشعر أن ملك ترى فى الصغير شيئاً لا يراه أحد آخر؟ ليس أبداً فقره ولا مرضه. هناك شيء يجعل عينيها تكادان تدمعان وملامحها ترتخي في حنان كلما تحدث إليها أو ظهر أمامها.

أفسحت له الطريق قائلة:

أدخل. تعال. أنا أيضاً أريدك.

قبل أن تعود إلى المصعد سألتها ملك عن دروسها وإن كانت ستأتي، إلا أنها أخبرتها أنها لن تفعل فمروة لم تحادثها ولم تخبر والدها بذلك.

ليست المرة الأولى التى يدخل فيها بيتها، لكنها المرة الأولى التى يأتي فيها حاملاً الناي بين يديه. خلعت منشفة رأسها ليسقط شعرها المبتل على كتفيها وقالت:

استرح قليلاً سأعد لك شيئاً تشربه. ما رأيك فى شيكولاتة ساخنة؟!

ضحك الصغير وهو يجلس على أقرب مقعد للباب وقال:

آكل شوكلاتة؟!

وعادت تضحك فى طريقها إلى المطبخ وهي تقول:
بل نشرب شوكلاته.

أخذ ينظر حوله فى ذهول. لا يصدق أن هذه المرأة الجميلة التي يتحدث الشارع بأكمله عن جمالها أصبحت صديقته. هو في بيتها وأحياناً فى سيارتها وأحياناً أخرى معها على الكورنيش، في ذاك الركن الذي تجلس فيه هي وبدرية كثيراً.

لا يغيظه منها سوى هذه الأدوية التى تشتريها له وتجعله يقسم أن يتناولها من دون انقطاع.

رآها تقبل وهي تحمل كوبين من الزجاج، وجلست أمامه تراقبه وهو ينفخ فى كوبه يتعجل أن يتذوق مشروب الشوكلاته وشردت برأسها.

لماذا تحبه؟!

لأنه يعزف الناي؟! لأنه يذكرها بطفل مات وكان من الممكن أن يكون فى عمر هذا الصغير الآن، وربما كان أيضاً سيعزف مثله لكنه كان سيعزف الفلوت كأمه.

رآها بعينيه تنتفض من الألم وصاح فى حب يقول:
ما بكِ؟!

لا تصدق. كلمة صغيرة قالها جعلتها تشعر أنها ما زالت تبحث عن الحب. ما زالت تتوق إليه، ليس من كريم عبد الهادي فحسب بل من كل البشر.

عندما يسألك أحدهم "ما بك" فهذا يعني أنه يهتم بك. يخاف عليك. يريدك بخير.

هذا الصغير يفعل. ونظرت إليه في امتنان كبير وهي تقول:

أعجبتك الشوكلاته؟!

عاد يمسك بالكوب بين أصابعه الصغيرة وارتشف رشفة ثم قال:

هل من الممكن أن أمنح أمي قليلاً منها؟!

ابتسمت في ألم. لا ينسى أمه حتى فى حضرة الشكولاته. وهل نسيت هي أدهم يوماً في حضرة كريم أو حضرة الفلوت أو هذا الصغير؟!

عاد يسألها نفس السؤال ونظرت إليه وأخبرته أنها ستصنع له "ترمسِ" كاملاً يأخذه إلى أمه وأبيه وشقيقاته الصغيرات.

سمعته يعزف على الناي. رائع عزفه. وعادت تحدق فيه كأنّ فكرة كبيرة سيطرت على رأسها لكنها لن تعلن عنها إلاّ بين يدي كريم عبد الهادي.

وحده من تعلن عن بعض خفايا صدرها بين يديه، لكن هو غداً يعود إلى الغياب. زوجته فى الغد تحضر لتبقى ملك وحدها أسيرة النفي والإقصاء!

ثقيلة هذه المهمة. ثقيلة حتى الاختناق.

أثقل المهام ليست أبداً التى يكلفك بها أو يفرضها عليك من هو منك أقوى.

أثقل المهام هي تلك التى يدعوك إليها قلبك وضميرك عكس هواك.

قبل رحيل بدر وفي أيامه الأخيرة وضع فى يدها مظروفاً صغيراً وأقسم عليها بالحب والوفاء ألا تفتح هذا المظروف إلا لحظة يبلغ فيها يأسها قمته. أخبرها أن لحظة موته لن تكون لحظة يأس. لحظة رحيله هي لحظة حزن سوداء لكنهما معاً يعلمان اليأس جيداً.

ضحك ضحكة ضعيفة وهو يقف بها على سور كورنيش المقطم، ووضع ذراعه حول كتفيها وضم رأسها إلى صدره وعاد يخبرها عن اليأس الذي عرفاه معاً حين علما أنه رجل عقيم لا ينجب.

اليأس الذي أعلناه معاً في هدوء ومن دون انفعال أو حزن عندما علما أنهما ابداً لن يصلحا الكون فالكون بين يدي الرحمن وهما مجرد ذرتين صغيرتين من ذراته.

هو ذاك الذي جعلهما معاً يجلسان أمام كاميليا وعبد الهادي يطلبان منهما معاً أن يسمحا لكريم بمناداتهما

بكلمة حرمتهما الأقدار منها، لكن بيأسهما يعلنان أنهما لن يستسلما.

اليأس ليس النهاية. اليأس أحياناً هو الخطوة الأولى فى طريق جديد بعد أن ندرك أن طريقاً مشيناه بلغ نهايته.

عندما رحل بدر كادت ثريا ترحل معه. بل وقفت على هذا الكورنيش الذي تطل عليه من خلف زجاج غرفتهما الآن أكثر من مرة، ورفعت رأسها إلى السماء كأنها تطلب من خالقها الإذن لها بأن تلقي بنفسها من على حافة الجبل وتموت.

الله لا يرضيه أن تتجول على قدمين وهي تحمل بين ضلوعها جثة لقلب ميت. الموتى يوارون الثرى.

لم تفعل. لم تستطع. ليس جبناً ولا حباً فى الحياة لكن في كل مرة كانت تنظر فيها إلى السماء تشعر أن الله يخبرها أنه يريدها أن تبقى على الأرض وإن حملت الميت الصغير أعواماً بين أضلعها.

يوم يئست من بكائها ومن قدرتها على دفن جسدها بقلبه الميت... يوم يئست من الموت وقررت الحياة، فتحت المظروف وقرأت الرسالة.

رائع بدر. أروع رجال الأرض جميعاً.

سطور قليلة أخبرها فيها أنه يشتاق إليها كثيراً. سطور أخبرها فيها أنه يثق أنه يسكن الجنة... لكن

تبقى الجنة في انتظار حورية جميلة وحدها تجعلها حقا "جنة".

أخبرها في رسالته تلك أنه حرمها من وجوده وحبه ولمساته وهو يعلم أن في ذاك موتاً لقلبها، لكن هو ترك لها أغلى ما لديه. ترك لها شيئاً يقسم عليها بالله أن تحافظ عليه وتسقيه وتطيل في عمره فهو من السماء يطل عليه ويضع على رأسه قبلة كل صباح ومساء.

ابتسمت ثريا وهي تقرأ تلك الكلمات. ظننت بدر يتحدث عن لوحاته التي رسمها على مدار عمره.

عندما عادت تنظر إلى السطور من خلف دموعها ذاك الصباح، وجدت بدر يخبرها أنه ترك بين يديها أغلى ما على الوجود وأجمل ما جادت به يد الله على الأرض... "هي"!

عنها كان يتحدث. يريدها أن تحيا ويريدها أن تبقى.

أياماً وهي تفكر. أياماً وهي تستعيد الحروف والسطور.

أدركت الحقيقة.

بدر لم يوصها بلوحاته. لم يوصها بالبيت أو أشجار الحديقة. أوصاها بنفسها لأنها إن بقيت، ومن حزنها ويأسها أفاقت، بقي كل شيء وهو يريد أن يبقى كل شيء.

أنت تحارب حتى اللحظة الأخيرة.

الفارس لا يلقي بسيفه أبداً حتى يتلقى الطعنة الأخيرة. يريدها أن تذهب إليه حورية وفارساً.

لا يريدها أن تلقاه ضعيفة مهزومة ملقاة من على رأس جبل وحده شهد لحظات حبهما.

مثلما رحل وهو يحارب حتى اللحظة الأخيرة، يريدها أن تبقى على الأرض تحيي ذكراه وتسقي أشجار الحديقة حتى الضربة الأخيرة.

هكذا يريدها، وهكذا يجب أن تحتمل الألم وتحقق ما يريد.

كانت في نهايات الخمسين يوم رحل، وفي بداية الستين من عمرها أدركت ما يريد.

التصقت بكاميليا أكثر. لجأت إلى عبد الهادي وطلبت منه أن يبني لها ملحقاً على سطح البيت ويجعل من البيت ما هو أشبه بغرف تجمع فيها ثريا هواة الرسم المتفوقين وفنانيه لإلقاء المحاضرات وإقامة المعارض وممارسة أعمالهم فيه.

كريم الذي كثيراً ما نام على فراشها هي وبدر كان معها بنفسه كل يوم يشرف على تحويل بيت بدر إلى دار للفن والموسيقى. مع كل لوحة يكتمل رسمها على أرض هذا البيت كانت تشعر أن حبهما يثمر طفلاً. مع كل ندوة كبيرة تقام في بهو البيت الكبير تنظر إلى التمثال الكبير الذي صنعته لبدر وتشعر أن ابتسامة

ترتسم على وجهه الرخامي وقبلة رائعة تطير منه إلى جبهتها.

وما زالت لا تريد أن تحيا. تريد أن تذهب إلى الجنة لتلقاه. لكنها كالفارس تدافع عن نفسها حتى اللحظة الأخيرة.

هذا هو عشق الفرسان!

اليوم يجب أن تفعل شيئاً آخر لا تحبه، لكن من أجل الوعود ستفعل. ستقتل بسيف الحق روحاً ولدت تراها تكبر على بلاط هذا البيت، ورغم جمالها ونقائها ليس من حقها الحياة.

تكره أن تفعل تماماً كما تكره بقاءها بعيداً عن الجنة، لكن لأنها تعلم أن الجنة لا يدخلها إلا الفرسان ستحمل سيف الحق وتهبط إلى هذه المرأة الجميلة التي تحضر وتطلب منها أن تخبرها الحقيقة.

حين أحضرها كريم منذ شهور... حين سمعت عزفها... حين توالى حضورها عشقتها ثريا لكن بالأمس كاميليا كانت على ذراعيها تبكي وهى تخبرها أن الرجل في العشق غارق وأن ندى بدأت ترتاب فى أمره.

كاميليا لا تعرف شيئاً عن ملك أو معرفة ثريا بها لكن هي تعرف وترى.

ما عاد في إمكانها أن تتجاهل أو تكذب على نفسها.

هما فى العشق غارقان.

عشق حقيقي صادق. لم تره يوماً يقترب منها، ولم ترها يوماً تضع أصابعها عليه وهذا ما يخيفها أكثر.

لو أن بينهما علاقة آثمة لاطمئنت.

علاقات الجسد المحمومة تموت بعد زمن، لكن هذا النوع من الحب أبداً لا يموت.

أخبرتها صديقتها أن كريم يذوي في الأيام التي تحضر فيها زوجته إلى مصر ويشتد عوده ليلة سفرها. وهنا ترى هي ملك تحضر في غيابه وتجلس إلى البيانو ساعات ولا تسمعها تعزف شيئاً، وحين يعود كريم يصدح عزفها في أركان الدار حتى تكاد ترى لوحات بدر ترقص وتتنفس على الجدران.

ساعات مرت على وجود ملك. دخلت إليها. ألقت عليها التحية وسألتها عن تطورات البروفات.

كانت واجمة زائغة العينين. حاولت ثريا أن تتحدث معها لكنها أشفقت عليها. صعدت إلى غرفتها لكن ستعود إليها. يجب أن تخبرها أن كريم زوج لامرأة، وإن كانت أخطأت فى اختيارات عملها وبعدها عنه إلا أنها امرأة رائعة وأم لفتاة تستحق أن ترفع ثريا سيفها من أجلها فى وجهها، بل ملك نفسها تستحق أن تتحرر من هذا الحب لتحيا.

مهمة ثقيلة أن تطلب من إنسان أن يقتل نفسه ليولد من جديد.

هل تفهمها ملك كما فهمت هي يوماً بدر؟

الفارس لا يشرح. الفارس يحارب ما دام يفعل من أجل الحق والعدل والحب.

هناك نغمات رائعة تتردد في رأسها. كتبتها على نوتة الموسيقى. فتحت غطاء البيانو وأغلقته عشرات المرات، لكن أصابعها أبداً لا تخضع لها. النغمات رائعة. بحس أستاذ الموسيقى تعلم. بحس خبرة الأعوام ونبض القلب تعلم، لكن أصابعها تعصاها.

تريد أن تعزف هذه النغمات غداً.

في حضرته وعند عودته. في حضرته فقط تعزف أجمل الألحان. في حضرته فقط تطلق سراح شعرها وتتسلل ابتساماتها من خلف هذا السياج الحديدي الذي تختبئ خلفه كلما غاب هو وحضرت زوجته.

إلى متى يا ملك إلى متى؟!

لطمت مفاتيح البيانو بقسوة ونهضت عن مقعدها. لا فائدة...

إلى نهايات العمر تعشق رجلاً يملك صندوقاً يخبئ فيه ابتساماتها ونغماتها وروحها وهي حتى لا تعرف إن كان يحبها أم هو فقط يلهو معها في غياب زوجته وسفرها.

في كل مرة يعود تسأله عن ندى، وفي كل مرة يخبرها أنها بخير وأنها في قلبه.

تموت عندما يخبرها أنه يحبها، لكن تعلم أنها تموت أكثر إن قال يوماً أنه لا يفعل.

سحبت حقيبة يدها ومضت نحو باب الغرفة. ما كان يجب أن تأتي، لكن في غيابه لا شيء يحييها سوى أن تكون في المكان الذي يجمعهما.

في غيابه هي إنسان مع وقف التنفيذ. هي ميت مع الشغل والنفاذ.

ثريا بملابسها السوداء الأنيقة. بشعرها الأبيض القصير المصفف، كانت تراقبها على باب الغرفة الكبيرة. تراقبها وهي تعلم أن عيني ملك الواسعتين الجميلتين تمضي باتجاهها ولا تبصرها.

نادتها باسمها أكثر من مرة، لكنها ما تنبهت إلا وهي أمامها كأنها فوجئت بمارد خرج لها من جعبة القدر. في هدوء سألتها هل تغادر؟!

وفي ابتسامة صغيرة ساذجة أجابت:

غداً إن شاء الله أكمل.

ابتسمت ثريا وهي تقول:

غداً تبدئين يا ملك. تبدئين لا تكملين. هل تسمحين لي بالتريض معك قليلاً على الكورنيش؟ أريد الحديث معك.

حين عبرتا الطريق الصغير الذي يفصل البيت عن الكورنيش كانت القاهرة بأكملها أضاءت مصابيحها وهي

تغفو تحت أقدامهما. ورغم برودة الجو إلا أن ملك كانت تخطو خطوات كبيرة واسعة بغيظ وألم لم تفق منه إلا على ثريا وهي تستند إلى سور الكورنيش في إجهاد قائلة:

لست مثلك. أنا امرأة تقترب من السبعين.

في خجل كبير وقفت إلى جوارها تمسك بذراعيها قائلة:

سامحيني. لم أنتبه.

بابتسامة حانية نظرت في عينيها. كان فيهما حيرة وألم. شيء تعرفه ثريا جيداً، شيء يجعل مهمتها أصعب وبحثها عن الكلمات أكثر مرارة، لكنها بخبرة الأعوام قررت أن تبدأ بكلمة نعرفها وننساها. كلمة تفتح الأبواب وأحياناً تغلقها على أرواحنا. من صدرها أخذت نفساً عميقاً تستعيد به سيطرتها على كلماتها قائلة:

إن قلت إني أحبك... هل تصدقين؟!

لم تنتظر أن تجيبها. تلك الدمعة التي أطلت في لحظة كانت تكفيها لتكمل كلماتها قائلة:

هناك أناس نعشقهم لجمالهم أو إبداعهم ونجاحهم. أيضاً هناك أناس نعشقهم لأنهم أحباب أحبابنا. لكن الحب الحقيقي هو ذاك الذي يبقى بعد غياب الأسباب جميعها.

أنا وكاميليا صديقتان منذ الطفولة، رغم أني أكبرها قليلاً. عبد الهادي وبدر أيضاً صديقا عمر وكأننا قررنا أن نتزوج صديقين.

عندما علمت أني وبدر محرومان من الإنجاب طلبت من صديقتي أن تعلم ابنها مناداتي كما يناديها.

هل تصدقين أني ظننتها لم تتجب سواه حتى لا أتألم أو حتى تتألم هي مثلي؟ أصبح كريم الابن المدلل لامرأتين ورجلين.

أحببتك ملك عندما أعدت لهذا الحبيب ابتسامته التي غابت عنه زمناً... أحببتك عندما عاد الدفء يكسو روحي كلما ضمني إلى صدره.

في البداية ظننتها الحماسة لموسيقاك وموسيقاه القديمة... لكن في إمكاني الآن أن أقول إني خلصت إلى أمرين.

سكتت ثريا لحظة واستدارت ملك تستجديها أن تكمل بعينيها.

أرخت رأسها وأكملت في صوت صادق وخفيض تقول:

الأمر الأول، إني أحبك حتى إن لم تعيدي لنا كريمنا القديم. أحبك وإن لم تكوني ساحرة الفلوت والبيانو.

الأمر الثاني، إني استحلفك بحق هذا الحب عليك أن تفهمي ما سأقول...

كانت تسمع بكل جوارحها، وكلما ذكرت ثريا اسمه انتفض قلبها وسقط من على جبل المقطم ولا يعود إلا وهي تقول اسمه من جديد.

في صوت عاصٍ كأنه يخشى أن يغادر حنجرتها، سألتها عن أيّ مشكلة تتحدث...

استدارت ثريا نحو الجميلة الحائرة ووضعت كفها على يدها قائلة:

ولدي ليس متحمساً لإبداعك ولا أنت تحبين إيمانه بك. القصة أنك تحببينه ملك وهو أيضاً يحبك.

طلبت منه أن يستحم ويرتدي الملابس التي اشتروها معاً وقد فعل وجاء يركض حتى لا يتأخر عن الموعد الذي أخبرته به.

بدرية شهقت عندما رأته. كان أنيقاً وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة وهي تتذكر أن مروة تتكفل بكسائها وها هي ملك تضع قدميها على ذات الطريق مع الصغير.

صاح يخبرها أنه سيصعد إليها، لكنها أمسكت بذراعه تخبره أن ملك فى الطريق إليه. كانت تحمل في يدها مظاريف كبيرة وكثيرة لكل الفحوصات الطبية التي أجراها في المستشفى بالأمس. منحتها إياها منذ لحظات وطلبت منها أن تنتظرها بالمظاريف إلى جوار سيارتها وتستبقي محمد معها عند ظهوره.

تنهد الصغير تنهيدة صغيرة سعيدة وصاح يلطم المظاريف بكفه قائلاً:

كل شيء فى ملك جميل إلا جنونها بالمستشفيات والأطباء. أرجوك دعينى أرى صورة صدري من الداخل.

حاول أن يلتقط منها الأوراق، لكن بدرية أخبرته أنه لن يرى شيئاً سوى قطع من البلاستيك الأسود، وأن

الطبيب سيشرح لهما معاً كل شيء في عيادته.

انحنت بدرية على أذنيه تهمس فيهما أنه أبداً يجب ألاّ ينادي ملك باسمها مجرداً، لكنه صاح يؤكد لها أنها هي من طلبت منه ذلك.

قبل أن تشرح له ما يجول في صدرها وأن هناك أناساً يسمحون لنا بأشياء لكنهم فى الوقت ذاته يرفضون أن نسمح نحن بها لأنفسنا ويتوقعون منا ألا نفعل، كانت ملك قد ظهرت أمامهم.

ترتدي ثيابها البسيطة الزاهية الألوان والتي رغم بساطتها تكاد تصيح كل قطعة فيها فرحاً بالتصاقها وقربها من هذه الجميلة.

عندما فتحت سيارتها ووضعت المظاريف بجوارها أشارت إلى الصغير بالدخول إلى المقعد المجاور لها لكنه صاح فى غضب:

لن أدخل يا ملك. ألا ترين أولاً كيف أبدو؟ ما عرفتني أمي بعد الاستحمام.

مهمومة هى بألف قصة. مهمومة بغياب كريم. مهمومة بحديث ثريا. مهمومة بسفر ندى هذا المساء وعودة كل شيء إلى سابق عهده. مهمومة أكثر بهذا الصغير الذي أحبته والذي أخبرها والداه أنه يعاني من حساسية في الصدر، لكن هذا الصباح عندما استلمت

صور الأشعة والتحاليل التي أصرت على إجرائها له لم تشعر أبداً بالارتياح لما فهمته من قراءة تقاريرها.

لماذا كلما نبتت زهرة على أرض أيامها القاحلة تهب عاصفة تهدد بالإطاحة بها؟ بل لماذا كل الزهر في أيامها مزروع على أرض لا تنقطع عنها الرياح والعواصف؟!

عاد الصغير يصيح في غضب واعتراض، ونظرت إليه من خلف دمعة تترقرق في عينيها تقسم له أنه أجمل من "جورج كلوني".

في ذهول دخل إلى جوارها وهو يتمتم:

تقصدين عم جورج مالك كشك السجاير؟!

لم تستطع أن تمنع تلك الضحكة الصغيرة التي تسربت من بين شفتيها، واستدارت تضع على جبهته قبلة. أدارت بعدها محرك سيارتها وهي تشرح له من هو جورج كلوني وتسأله من هو جورج الذي يعنيه.

تاهت منه ومن كلماته الكثيرة وأفاقت على صوت سعاله من جديد وتهدج أنفاسه بعد انفعاله بقصة جورج كلوني التي قصتها عليه وهي تؤكد له أنه من أكثر الرجال وسامة في السينما الأمريكية.

لماذا تتمنى لو كان كريم معها؟ لماذا حقاً تريده وهي في طريقها إلى طبيب القلب؟ تريد أن تشعر معه بالأمان... تريد أن يكون معها هناك بعدما أخبرها الدكتور طارق صفوت أحد أكبر أطباء الصدرية أن

القصة ليست حساسية بل هي شيء في القلب... القلب؟!

حتى قلوب الأطفال أصابتها العلّة ويطرق أبوابها الألم.

ما زالت كلمات ثريا تذبحها. ما زالت كلماتها هي والتي ألقتها وهي بين ذراعي تلك المرأة تثير في نفسها الشفقة والرثاء.

أقسمت لها أنه أخ وصديق... أخبرتها أنه وفي زيارة زوجته القادمة ستذهب معه إلى لقائها، وأنها قد تأتي معاصي الأرض وذنوبها لكنها أبداً لن تسمح بأن تسرق قلب أو حياة زوج وأب يحب زوجته ويعشق ابنته مثل كريم عبد الهادي.

السيدة ما قالت شيئاً. عندما رمت بنفسها بين ذراعيها ضمتها إلى صدرها بقوة وحنان وأخبرتها أنها لا تخاف منهما هي عليهما، تخاف من الحب لا من الخطيئة. ثريا عندما كانت على كتفيها تبكي أخبرتها أن سكين الحب أكثر قسوة من سكين الذنوب.

كذبت عليها؟! لا تعلم. لكنها تعلم أنها إن فعلت فهي على نفسها وروحها أيضاً تكذب.

ستفيق، لكن كانت تتمناه معها فقط وهي مع هذا الصغير في طريقهما إلى الطبيب.

تريده أن يقتسم معها الفرحة إن كان ما به شيء بسيط يمكن علاجه، ويمسك بكفها ويعينها على التفكير إن كان ما به شيء خطير يستدعي خطوات وإجراءات أخرى كبيرة.

لا تريده هنا من أجلها بل من أجل طفل صغير فقير مريض هو أمل أمه وعكاز والده الكفيف ورجل شقيقاته الثلاث.

أفاقت من جديد على صوته يسألها ضاحكاً:

هل حقاً اسم الطبيب عادل إمام أم إن الممثل هو في الأصل طبيب؟!

كم مرة التقط هاتفه وحاول أن يحادثها لكنه لم يستطع. في الشهور القليلة الماضية كان يفعل. كان وفي حضور زوجته يرسل لها رسالة يقول فيها صباح الخير، أو دعابة صغيرة، أو تحية مساء، لكنه هذه المرة لم يستطع... خجل كبير يجتاح روحه منهما معاً.

زوجته أصرت عند حضورها هذه المرة أن تجده هو وياسمينتهما الرقيقة في بيتهما. شعر بها تشعر أن شيئاً فيه تغير. في كل ليلة من ليالي زيارتها كانت تصر على الدخول إلى ذراعيه. في كل مرة يدق فيها هاتفه الصغير، وعلى غير عادتها، يشعر بها ترمي بأذنيها إلى شفتيه كأنها تسترق إليه السمع.

دخلت معه في نقاش طويل عن سر تحوله وبقائه هذه الشهور هو وياسمين في بيت والديه رغم أنه لم يكن يسمح لابنته ليلة بالمبيت خارج بيتهما.

سافرت منذ ساعات، وللمرة الأولى تقف على كتفيه تعانقه وتخبره أنها تحبه.

أين كان كل هذا العناق وكلمات الحب وليالي الغرام قبل مولد ملك في أيامه، وكيف أصبح هذا العناق بعد مولدها عبئاً يمارسه هو في خجل وسكون.

لم يصدها مرة، بل منحها من جسده وحنانه ما أرادت لكن ليس أبداً ما هو يريد.

فارق كبير أن تمنح لأنك تريد أو تمنح لأنهم يريدون.

لحظات كثيرة وطويلة تمنى لو ينثنى فيها على ركبتيه ويلقي برأسه على ركبتي زوجته ويخبرها عن امرأة أصبحت تسكن عروقه، ورغم هذا لا يعلم إن كانت حقاً تهواه... عن امرأة لا شيء يجمعه بها ولا شيء أيضاً يفصلها عنه.

تمنى فيها لو يبكي بين يديها ويطلب منها أن تساعده وتعينه على أن يترك ملك أو يتوغل أكثر في عروقها.

تائه ممزق عاجز حتى عن تفسير شوقه ولهفته إلى لقاء ملك وجبنه عند اللقاء.

عندما ضمته ندى فى طريقها إلى المطار منذ ساعات، وأخبرته أنها لن تغيب هذه المرة أكثر من أسبوعين.... حين رجته أن يبقى في بيتهما ولا ينتقل إلى بيت والديه، أخذها إلى صدره وهمس أنه حقاً يحبها لكنّ شيئاً في صدره أكمل الجملة ليصيح في أعماقه أنه أيضاً يحب الأخرى.

ألا يقولون إن القلب لا يهوى اثنين؟!

هي حقيقة. هو يهوى ملك يوم مات هوى ندى في قلبه بعد احتضار أعوام. ما يشعر به تجاه زوجته الآن

هو الخجل الذي، لرقتنا وطيبتنا، نتوهمه حباً.

لماذا إذن لم يحادثها؟ ذهبت الزوجة... والشوق إلى الحبيبة يقتله لأنه حتى منها يخجل. يشعر أنها أكبر مما يفعله بها. أكبر من ألا تظهر ولا تأتي إلا بعد غياب الزوجة. فلينس حبه وليتذكر صداقته لها.

ستبقى صديقة ورفيقة حلم وموسيقى.

فليسقط الحب ويضعه جانباً فهو مأساته وخطيئته وحده. لمَ يحرمها ويحرم نفسه الصديق والحلم والرفيق ما دام على التحكم في إغلاق بوابة العشق ما زال قادراً؟

وعاد يمدَ يده إلى الهاتف. وعاد يسقط يديه إلى جواره.

يخجل من أن يحادثها. يخجل أن تسأله ككل مرة هل سافرت ندى؟ ويخجل أن يقول للتو ذهبت إلى المطار.

حبيبته أكبر من أن يفعل هذا بها... هو أيضاً ليس صغيراً إلى هذا الحد. لو تشعر كم يشتاق إليها. لو تعلم كيف لا تغادر رأسه حتى وزوجته بين ذراعيه ويرتوي من جسدها رغم أنها ليست هي التى تبادله الغرام.

لم يعد يعلم ماذا يفعل، لكن هو في حاجة إلى هواء نقي. هواء فيه نسماتها وبقايا أنفاسها وموسيقاها.

أدار محرك سيارته. لا يعلم إلى أين يقوده هذا القلب الذي أصبح وحده يرسم له كل شيء حتى الطرق التي يرتادها!

لمحها بطرف عينيه وهي تنظر حولها وتتسلل نحو باب البيت. الحمقاء. تترك ضيوفها وتتسلل.

حتما رآها غيره الكثيرون. نظر حوله في هدوء وابتسامته الباردة الكبيرة لا تفارق شفتيه.

يعلم أين ذهبت، لكن لم يتخيل أبداً أن تترك ضيوفه وتذهب إلى الحمقاء الأخرى.

بابتسامة نسائية عريضة تقطر خبثاً، تقدمت رضوى نحوه وهي تسأله عن مروة، وصاح في سذاجته يقول إنها كانت هنا منذ لحظات.

أخبرهم وحيد أنها حملت صحناً من الحلويات إلى جارتهم وسيذهب ليتعجل عودتها بعدما طلب من رضوى أن تأخذ مكانها في الترحيب بالضيوف.

كان الغيظ يفجر في ضلوعه ألف ثورة عليها. ثلاث شهور وتنتهي علا من امتحانات الثانوية العامة ويرحل عن هذا البلد. حتى نساءه ما عدن يستهوين فيه شيئاً.

تاق إلى نساء بلا مكائد. نساء لا ينصبن الشراك ويوزعن الخناجر ويتصيدن النقود والهدايا والجنس.

حتى رضوى تجاوز جنونها حدود العقل. كأنها لا تهتم أبداً بكونها زوجة شريكه. كأنه لا يعنيها أن يعلم

زوجها أنها ترتمي بين ذراعي وحيد وتلعق جسده العاري بلسانها وهي التى قاربت الستين من العمر. تريد أن تأخذ منه كل شيء قبل سفره.

نساء العرب يرتكبن الخطيئة بعيون وقحة مفتوحة وعقل نائم مغمض العينين.

لم يكن ليدعوها هي أو زوجها هذه الليلة. سهرة الليلة من أجل "هند" فريسته الجديدة. زوجة حائرة تائهة في الأربعين، لكن عندما علمت رضوى من زوجها بأمر دعوة العشاء هذه أخبرته أنها قادمة وأنه ان لم يدع زوجها ستقلب على رأسه الأرض.

هند جاءت وهي بصحبة زوجها حضرت، ويحاول ألا يقترب من هند وتطارده رضوى في جنون ومروة الحمقاء تتركه وحده وتتسلل إلى جارتها.

زفر أنفاساً عصبية كثيرة وهو يقف على بابها ينتظر أن تفتح إحداهن الباب.

بعد حين فتحت ملك. كانت عيناها فى الدمع غارقتين لكنها شهقت عندما رأته.

شعر بسعادة كبيرة وهو يراها تبكي. لا بدّ أن كريم عبد الهادي لفظها كما يلفظ هو نساءه بعد أن يكتفي منهن... أم تراها لم ترق له...

ابتسم ابتسامة واسعة وهو يراها تقف أمامه ودموعها تبلل عينيها ووجنتيها. للحظة تمنى لو يسألها

هل انتهى منها كريم، وللحظة أخرى تمنى لو يبتسم في لهفة ويعرض عليها حبه من جديد، لكن هناك امرأتين ورجالاً فى الباب الذي خلفه، وبلهاء أخرى خلف ملك جاء من أجلها.

رأته زوجته من خلف جارتها وحين أصبحت أمامه قال فى غيظ:

هل نترك ضيوفنا؟!

حاولت ملك أن تعتذر... حاولت لكن هي بدموعها مختنقة وأيضاً بكراهيته واحتقاره مسكونة.

فتحت الباب وابتعدت عن طريق الزائرة وقالت في صوت خفيض:

إذهبى إلى ضيوفك... أعتذر... حقاً أنا آسفة.

نظرت إليه الزائرة في كثير من الألم وقالت وهي تعبر باب البيت في مرارة كبيرة:

ضيوف؟ رضوى أم هند؟ قمت بكل ما يتوجب عليّ فعله وتقديمه. ماذا تريد مني. إذهب إليهم. هم لا يشعرون بوجودي ولا يريدونه.

كانت ملك تسمعهما وهما يتناوشان، وكانت تراه وهو يقبض على ذراعها في قسوة لكن لا شيء فى صدرها سوى سكين مغموسة في حمم من نار تتجول في روحها.

أغلقت باب البيت دونهما وعادت تنظر في جنون حولها.

كانت كلمات الطبيب واضحة. طلب من ممرضة العيادة أن تأخذ محمد إلى خارج الغرفة وأخبرها أن الصغير ولد بثقب في القلب. كان يمكن علاجه لو تم التنبه له عند مولده أو في بداية حياته، لكن بعدما اقترب من الثانية عشرة أصبحت حالته لا رجاء منها. أصبح هناك فشل كامل فى عضلة القلب... لا شيء على الأرض ينقذه سوى زراعة قلب.

رفعت لحظتها رأسها في جنون وهي تخبره أنها ستجري له العملية. أخبرته أنها ستصطحبه إلى أمريكا وتجري له العملية هناك.

عادل إمام نكس رأسه في ألم وهو يخبرها أنه، وإن استطاعت أن تتحمل نفقات العملية التي تتجاوز المليون جنيه، فالصغير لن يأخذ أي أولوية في الحصول على قلب.

قال لها إن الأولوية للمواطن الأمريكى أو الصينى إن فكرت في الذهاب إلى الصين. أخبرها أن قائمة الانتظار طويلة لأبناء الوطن فكيف بالغرباء؟ الوقت لن يسعفهم... الطفل لن يطول به الوقت.

كادت تموت أمام مكتبه وهي تحاول وتحاول وهو في صدق يخبرها أنه كان يتمنى.

حين نهضت عن مقعدها ومدت يدها تلتقط الأظرف وتصافحه، سألته ككل الحمقى: "أما من أمل"؟!

وككل الحكماء قال لها "آسف. هو ميت مع وقف التنفيذ".

كيف ابتلعت دموعها في طريق العودة. كيف احتملت أسئلته ومداعابته. كيف وقفت به على محل لأرين لتشتري له الآيس كريم الذي وعدته به عند الانتهاء من زيارة الطبيب.

كيف وقفت بسيارتها على باب الجراج الذي يسكنه وكيف نظرت بعينيها إلى شقيقاته الثلاث وهن يلعبن بثيابهن البسيطة، وإلى أمه التى جاءت تشكرها وتخبرها ألا داعي كان أبداً للطبيب فهي حساسية ولد بها.

تمنت لو صرخت في وجهها. لو أنها يوماً حملته وهو رضيع إلى مستشفى أو طبيب لما تحول الثقب الصغير فى قلبه إلى ثقب كبير في قلبها المثقوب، لكن كيف تقتلها وهي تعلم أنه كل أملها بعد عاهة والده وفقرهم.

كيف تلومها وهي تعرف أنها لو فعلت وذهبت به رضيعاً إلى أحد مستشفيات مصر لربما ماتت الأم ومات وليدها على يدها من الانتظار والذل والإهمال.

عادت إلى بيتها وحدها. بهزيمة جديدة من الهزائم التى يلاحقها بها القدر.

أمسكت بهاتفها ألف مرة تريد أن تحادث كريم. لا سواه يناديه قلبها لكن ما استطاعت. ربما أخرت ندى سفرها. هي تعلم أنه كان سيحادثها إن سافرت فى الموعد.

ألقت بهاتفها على الأرض في جنون.

ليس من حقها أبداً أن تحادثه أو تطلب نجدته إن كانت تموت. ما زالت زوجته معه.

لم تجد أمامها سوى مروة. أخبرتها أنها تريدها لكن، حتى قبل أن تخبرها بأي تفاصيل، جاء زوجها يسوقها إلى خدمة ضيوفه.

رجل وامرأة في قلب ملك كلاهما عاجز عن منحها الحب والإصغاء إلا بعيداً عن شريكه وفى الخفاء.

محمد يموت. أدهم مات. أبوها وأمها وكل من أحبتهم وشعرت أنهم حقاً يحبونها ماتوا. حتى ريبكا التي قتلتها كانت يوماً حقاً تحبها.

اللعنة فيها وحدها. اللعنة التي تقتلهم اسمها ملك مندور. لهذا يجب قطعاً ألاّ تعلن حبها لكريم... لهذا يجب أن تبتعد عن مروة التي تركتها وتبعت زوجها كما تركها كريم وبقي مع زوجته. جميعهم يتركونها. حتى هشام مؤمن يوم كانت هي زوجته تركها وتبع خادمته التي قتلت وحيدها.

كل وتر في أوتار قلبها يستجديها أن تحادثه. كل خلجة من خلجات روحها تتوسل إليها أن تحادثه.

لكن هي لن تفعل. عندما تسافرزوجته. عندما يتذكر أنها أخبرته عن موعد محمد مع الطبيب سيفعل، وعندها ستدفن هذا الحب والاحتياج الكبيرين داخل ضلوعها وترحب به قائلة:

أهلاً أيها الصديق.

ركضت خارج البيت. لا تستطيع أبداً أن تبقى وحدها مع شبح الموت الذي تراه يقترب من طفل صغير فقير لا يعرف كيف يكتب اسمه لكنه عرف كيف يوقظ روحها ويضرم في عروقها حرائق الأمل والأمومة.

طفل صغير مثلها يطارده الموت ولا يملك أن يحاربه الا بعصا ناي يعزف عليها ألحان براءته وجهله.

إلى أين تذهب... إلى أين تقود سيارتها... ربما إلى امرأة لا زوج لها، إلى امرأة واجهتها بحقيقة ظنت أن ما من أحد سواها يعرفها.

إلى دارها التي جمعتها برجل رغم عشقها له إلا أنها توقن أن الموت أطهر من اقترابه أو اقترابها منه أكثر.

هناك دروب نسير فيها ونحن مغمضو الأعين وهناك دروب نتعثر ونقع ألف مرة ونحن نسير فيها بأعين مفتوحة وحواس يقظة تحت رأس شمس يوم صيفي.

كانت دموعها توالي سقوطها زخات تلو زخات. رأسها لا صور فيه سوى ما فعله بها القدر واغتالته منها الثقة والحب، لكنها رغم هذا تقود سيارتها ودون تفكير إلى جبل المقطم كأنها ولدت على طريقه.

من خلف دموعها الكثيفة هزت ملك رأسها في قوة فليمت محمد. ولتمت أمومتها مرتين إلا مبادئها.

نحيا من دون حب أو ثروة أو حتى عافية لكن نموت إن عشنا من دون مبادئنا.

لن تسقط أمام كريم وإن كان قلبها قرر عصيانها وسكناه. فليكن ولتحيَ أيضاً من دون قلب.

كانت ترفع يدها وتمسح ما استطاعت من دمعها وتكتم شهقاتها الصغيرة.

هذه هي الفرصة الأخيرة التي تمنحها لروحها. ستلتقي كريم بعد أيام الغياب وعودته من ذراعي زوجته. ستلتقيه صديقاً وإن خانتها عيناها أو ذراعاها غداً تعود من حيث جاءت.

إلى قبر أدهم ووالديها. هناك ستدفن هذا الحب.

بعينيها استدارت إلى النافذة اليسرى في سيارتها. ما زال على دار البدر أمتار كثيرة لكنَّ شيئاً في قلبها يدعوها لأن تتوقف هنا حيث وقفت هى وثريا منذ أيام.

توقفت وغادرت سيارتها وعلى حافة الجبل وقفت تنظر إلى القاهرة تحت قدميها.

خلف هذه الأضواء الكثيرة قصص حب مذبوحة وقلوب مشنوقة مثلها وربما أكثر بؤساً.

كانت ثريا تقف إلى جوارها هنا. حيث استحلفتها بالله وبكل ما هو عليها عزيز أن لا تقتل كريم وتقتل نفسها.

ارتمت على صدرها وأخبرتها أنه ما بقي في دنياها عزيز.

لماذا عندما نحب نختصر سكان الأرض جميعهم في وجه واحد واسم واحد، كل الأسماء والوجوه دونه تصبح لا شيء سوى حروف تعبر آذاننا من دون معنى أو قيمة.

نعم أحبت كريم. إن رأت ثريا الحب في عينيها وسمعته على أطراف أناملها وعلى أنفاسها التي تنفخ منها في عصا الفلوت فكيف إذن من الممكن أن تنكر؟

حب رائع نقى. أنقى من أنفاس رضيع غادر رحم أمه للتو وخرج على أرض الجنة.

لكن حتى الطهر والنقاء يجب أن نقتلهما أحياناً.

مدينة القاهرة كلها مضيئة تحت قدميها، لكن ما في قلبها من ظلام يكفي لأن يجعل من كوكب الأرض بأكمله حزمة سوداء معتمة لا قطرة ضوء أو رعشة روح فيها.

من خلف دموعها أطلقت آهة كبيرة مشتعلة... لمَ الحزن؟!

إن كان محمد بكل طفولته وبؤسه وتعلق أمه وأمل والده وشقيقاته الصغيرات فيه يموت، فهل يستحق حباً فى صدرها أن يحيا؟

لا مفرَ سوى أن تعود وتحزم حقائبها ومن حيث أتت فلتذهب.

لا شيء لديها تأخذه معها. جاءت بحقيبة شبه خاوية وستعود بها. ما تملكه ملك لا يوضع في حقائب. ما تملكه تتجول به فى صدرها مستيقظة كانت أم نائمة. خيبات وانكسارات وهزائم بلا حدود.

انتفض جسدها وهي تسمع صوتاً من خلفها.

فجأة رأت القاهرة تطفئ جميع أضوائها، وصوت خلفها يضيء فى ظلمات صدرها شموعاً ويعزف تراتيل.

هل تتوهم؟ هل تستدير لتتأكد وتقتل باليقين الوهم؟

هو ذات الصوت الذي سمعته وهي تتكسر على عصا موسيقاها تلك الليلة... هو صوت كريم.

كانت على كورنيش النيل تقف وهي على رأس المدينة بأكملها الآن تقف... لكن يومها كانت قضيتها أنها تبحث عن الحب واليوم هي منه تحاول الهرب.

هو صوته يناديها. تسمع اسمها من خلفها كأنها يوماً ما سمعته حتى من أمها وأبيها.

فلتستدر بدموعها... بألمها... بأنباء موت محمد القادم... بأنباء موت أدهم الذي ما زال فى روحها قائماً. ولكن كيف تفعل وقد يكون الصوت وهماً؟

الوهم هو الخلاص أحياناً.

سمعت اسمها من جديد كأنه ابتهال تائب... كأنه صلاة آثم يطلب من ربه الصفح. هل تريده حقيقة وهل تقوى على مواجهة الحقيقة أم تريده وهماً، وهل هناك عاشق بالوهم يكتفي؟!

الصوت يهمس باسمها وإن بدا لأذنيها خافتاً ضعيفاً. الدمع يتكور في عينيها كما تتكور أشجار الطرق فى مواجهة رياح يوم عاصف. تعلم أنه كريم، ومن سواه في لحظات الضلال يجدها ويناديها؟

ليس وهماً... وجدها... جاء مثلها إلى دار البدر. أرسلته الأقدار أو تسلطت ريبكا على أذنيه بفحيحها.

أيا كان ما أحضره وما جاء به، حبيبها يقف خلفها ويناديها كيف لا ترد إذن وأين الهرب؟

إما هو وإما السقوط عن جبل المقطم.

لا تمانع أن تسقط فوق مدينة القاهرة وتموت، فالمدينة مثلها اعتادت سقوط أبنائها وموتهم، لكن ما يضير الموت إن هي استدرات وملأت عينيها منه لحظات؟

بدمعها استدارت... بحزنها ويأسها وأنباء الموت التى تتلاطم في صدرها استدارت... فتحت عينيها على اتساعهما تتحقق من صوت مناديها، ورأته يقف بعيداً عنها وفي عينيه شبح دمعة ترقص، وحين رأت دموع ملك غادرت عينيه وسقطت في ألم.

كيف يذبحها إن رأت في عينيه دمعة رغم أنه أبكاها ألف مرة؟

همست باسمه كأنها تئن، وأغمضت عينيها إشفاقاً عليه من دمعها وإشفاقاً على قلبها من دمعته الصغيرة. لكن ما استطاعت الغياب عن وجهه طويلاً. عادت تفتح عينيها وتنظر إليه في لهفة... في عتاب... في شوق... في أشياء كثيرة ما عاد يهمها أبداً أن تحدد لها اسماً.

رأته يقترب منها، وحين أصبح أمامها... حين أصبح وجهه أمام وجهها سمعته يقول في ألم:

أصبح الهرب مستحيلاً.

انتفض جسدها في ألم.

هذا الرجل يلخص مشاعرها في جمل صغيرة إلى أبعد حد. كبيرة إلى ما لا حدّ له. "أصبح الهرب مستحيلاً".

شهقت بالبكاء وهي تنظر إلى عينيه. ماذا تقول وبماذا تجيب؟

هل تخبره عن موت محمد أم تخبره عن موت أدهم أم تراها عن موت ما "أصبح الهرب منه مستحيلاً" تتحدث؟

شعرت بذراعيه تتحركان، وشعرت برأسها وهو يميل بحثاً عن صدره. شعرت بأنفاسه وهي تحاول أن تنفخ فيها صبراً وأملاً. لكنها ما شعرت أبداً بصوتها عندما ارتمت على صدره وهي تهمس فى ألم:

لا مفرّ من الموت أبداً يا كريم!

حين خرجت بأكواب الشاي على يدها وقفت تنظر إليهما من مكانها.

لماذا جاء واصف؟! لماذا تناول الطعام معهم ولماذا يجلس الآن على الأريكة الخشبية؟ لماذا ينكس أبوها رأسه وهو يستمع إليه، بل لماذا كان واصف ينظر إليها تلك النظرات منذ عودتها من المدرسة حتى خروجه للجلوس على البوابة إلى جوار أبيها؟

تقدمت بدرية في خطواتها كأنها تعود إلى الخلف. إلى تلك اللحظة التى صفعتها فيها زوجته. ما زالت صفعة عمتها تلهب وجنتيها. مازالت الحمى من فراق ياسر تكوي أضلعها...

عاد بها عمران منذ أعوام بعد تلك الليالي وبقيت تشعر بلهيب الصفعة وذل شوقها إليه.

فارقها الحبيب. أصبح طالباً فى جامعة أمريكية وما زالت هي ابنة حارس العقار. ما زالت تحمل كوبين من الشاي تخرج بهما إلى زوج عمتها التي صفعتها على وجهها لأنها بكت وطلبت يوماً أن تعود.

حين انحنت تضع أكواب الشاى إلى جوارهما على الأريكة الخشبية نهض واصف من مكانه قائلاً:

لا وقت للشاي. هناك قطار يجب أن ألحق به.

بعينيها نظرت إليه في ألم. كيف نرسم في أعيننا حباً ليس له فى قلوبنا جذور. ما زالت تذكر قسوته عليها يوم حضر أبوها بوالدتها لتلقي العلاج في القاهرة وبقيت في بيته أياماً. كيف تمسك بكوب الشاي بين يديها وتمد إليه به يديها؟

سمعت والدها يرجوه أن يشرب الشاي قبل أن يذهب. سمعته يشكره لزيارته ويعده بالتفكير وسرعة الردّ. عاد الزائر ينظر إليها مبتسماً ابتسامة صغيرة قال بعدها:

قد أشربه من يدك كثيراً يا بدرية.

ابتعد وجلست هي إلى جوار والدها على أريكته الخشبية، وسمعته بعد تردد طويل يخبرها عن سر زيارة زوج عمتها. أخبرها أنه جاء يخطبها.

قال لها في خجل إنه يشعر أنها فقدت حماستها للمدارس، وإن مروة أخطرته أكثر من مرة أنها قد لا تنجح.

وضع كفه الكبيرة الخشنة على كفها الصغيرة الناعمة وقال شهادة الإعدادية تكفي وأنها فى السابعة عشرة وأنها وأنها وأنها...

أذناها تسمعانه بوضوح. رأسها يقر كل كلمة تخرج من بين شفتيه.

نعم ما عادت المدرسة تستهويها. ما عادت حتى تستطيع الاستذكار. هي تصعد إلى مروة فقط لتتنفس هواء بيتها علّ نسمة من أنفاس الغائب تتسلل إلى صدرها.

هي تدخل إلى ملك لتراقب وجهها كيف تحول وأصبح أجمل وأهدأ، وتتنهد في ألم. ليت ياسر يعود لتصبح هي أجمل من ملك.

محمد وحده أصبح صندوق أسرارها. يسير معها كل يوم إلى ركن المقياس المظلم. في بعض الأحيان يحضر عصا الناي ويعزف لها بعض الألحان التي تعلّمها من والده.

هو يعزف وهي تحكى له عن ياسر. اقتربت عودة الغائب. شهران من الزمان وتصبح أجمل من ملك.

في حدة صرخ يسألها ألا تسمعه؟!

في خجل وذعر هزت رأسها تقول إنها تسمع، لكن ما عساه يريدها أن تقول؟

عاد بألم يعيد عليها. جاء يخطبها لابنه الأكبر حسين الذي يريد أن يعمل في إحدى العمارات المجاورة لهم في الروضة. سيتزوجها. لم تعد صغيرة. في الصعيد من كانت فى السابعة عشرة كان لها إبن أو أكثر.

هو طيب حنون. هي نفسها لا يمكن أن تنسى كيف كان يحنو عليها أيام كانت في بيتهم. هو ابن عمتها. من

دمها وأرضها. أبوها يخبرها أنها إن وافقت سيتزوجها خلال أسبوع أو عشرة أيام، ومن الغد في إمكانها أن لا تذهب إلى المدرسة.

كأنها عادت من رحلة بعيدة تجولت خلالها على وجه ملك وفي هواء بيت ياسر. كأنها في لحظة أدركت ما الذي يتحدث عنه الجالس إلى جوارها.

عن رجل يأخذها بعيداً عن كل هؤلاء. عن رجل يأتي من الصعيد البعيد ليجعل منها زوجة بواب.

انتفضت بدرية في جنون وهي تقول "مستحيل".

انفرجت عينا عمران وهو يرى الذعر يكسو وجهها. ارتجفت مآقيه وهي تردد "مستحيل". انتصبت صورتها وهي تبكي يوم سفر ياسر. رآها من جديد وهي تكور منديل رأسها وتضعه في يده قبل أن يتعجله والده للرحيل.

ما هرب منه طوال الشهور الماضية هو الشيء الذي يجب أن يواجهه الآن. الأمر ليس وهماً.

غرر بابنته. بكفه الكبيرة الخشنة لطم أكواب الشاي لتسقط عن الأريكة، ونظر إليها في غضب قائلاً:

هل هناك شيء لا أعلمه يجمع بينك وبين ابن السيدة مروة؟!

كأن صاعقة من السماء ضربت رأسها وحواسها. انطلقت كالمجنونة تبكي وتقسم وتتحدث. المستحيل

أن يجمعها به شيء من هذا الذي يتحدث عنه. هو ابن سيدة تساعدها. سيدة تنفق عليها من الصدقات. سيدة تنفذ وصية امرأة راحلة كانت وصيتها أن تتعلم.

من هذا الذي يحدثها عنه؟ هو شاب أمريكي لن يجمعه بأرض مصر سوى زيارات يقضيها بين ذراعي عائلته ويعود من حيث أتى. وهناك يوم لا يعود فيه أبداً إلى هذه الأرض.

لماذا يظلمها؟! لماذا يستمع إلى واصف؟! هل نسي ما فعله بها وهي طفلة؟ كيف يأمنه عليها وإن كان ابنه إبناً لأخته، أخته التي صفعتها على وجهها؟

لماذا؟ ألأنها لا تستذكر دروسها كثيراً!! أم لأن مروة تريد لها التفوق... وهل هذه حقاً ذنوب!!

لا شيء يجمعها بياسر. هو اتهام لا ترضاه. هي ابنته... منه. هي فقط لا تريده أن يمنحها لبواب آخر ويلقي بها في غرفة أخرى تحت سلالم بيت آخر.

من عينيه سقطت دمعة وهو يسمعها تخبره أنها لا تريد أبداً أن تكون زوجة لبواب.

ربما كانت على حق. بواب واحد يكفي.

رأت دمعاته كما رأى دمعاتها، لكن في قلب كل منهما جرح ملتهب يقف بينهما. هو ينفطر قلبه على بكائها وهي تتمزق روحها من كل الحقائق التي أعلنتها ومن كل الأكاذيب التي على مسامعه تلتها.

نعم. هناك شيء بينها وبين ياسر زيدان. شيء حتى هي لا تعرف له اسماً أو وصفاً، لكنه وحده يقتلها كما أنه وحده دون أشياء الأرض جميعها، وحده يحييها!

هز رأسه يحييه عن بعد وهو يدخل سيارته. أصبحت رؤيته أمراً شبه يومي. لم يستطع أبداً أن يدير محرك سيارته ويمضي قبل أن يراها. تظاهر بالحديث على هاتفه الصغير حتى رآها تعبر باب العمارة ترتدي ثوباً فى لون قشرة البرتقال.

ليست جميلة. هي شهية كثمرة على شجرة تنادي لحظة القطاف. ماذا تريد من كريم عبد الهادي؟! ماذا تجد فيه؟!

لماذا ارتمت على أقدامه، وتخرج معه كل يوم ورفضته هو؟ كلاهما له زوجة وبيت وحياة... كلاهما ثري... بل إن عشيقها هذا يّتهم دوماً بالغرور والعزلة.

ربما عشقت غروره أو عشقت نفسها عندما أخرجته من عزلته المعروفة عنه في سوق رجال الأعمال والمقاولات.

دنيء هو إلى أبعد حد. لو كان لوحيد زوجة كريم ما كان ليتجول على أجساد النساء.

إلى أين يذهبان؟! ولماذا يذهبان ما زال فى نهاية اليوم يصعد إلى بيتها؟

يعلم أنه فى ليال كثيرة يعود بهذه الشهية ليلاً ويصعد بها إلى بيته.

أقل من شهرين وتحين ساعة الصفر.

سيفجر وحيد قنابله جميعها فى لحظة واحدة. بالأمس أقسم لناصر وجيه أنه وحده سيخرجها له من عمارة الروضة. أخبره في ثقة أنها ستذهب إليه تستجديه أن يشتري منها شقتها وتترك مصر إلى الأبد.

يحلم بتلك اللحظة التي يراها فيها تحمل حقائبها وتتجه إلى مطار القاهرة وتعود إلى أمريكا.

سيتركهما حطاماً. إحداهما بلا كرامة والأخرى بلا مأوى. فلتنهِ ابنته امتحاناتها ولتحزم حقائبها وتنطلق صفارة ساعة الصفر.

يكاد يرى بعينيه ذلَّ الحمقاوين. يكاد يسمع بأذنيه عويل ملك وبكاءها عندما يحمل إليها ندى زوجة كريم مع والدها منتصر سلام في تلك الأسابيع القليلة التى يقضيها هنا فى أجازة الصيف.

ستحطم كبرياءها وقد تحطم ملك بيتها وجدرانها كما كادت تفعل في تلك الليلة التي أحضرت فيها مروة لها الطبيب ليعلموا جميعاً بعدها أنها مريضة نفسية قديمة.

لن تحتمل أبداً زيارة سلام وابنته. لن تقوى على رفع عينيها حتى في عينى عمران حارس العقار. أخبر ناصر

بخطته. أخبره أنها حمقاء غبية وأيضاً لا حظ لها. تركت رجال مصر جميعهم واختارت رجلاً يعمل في مجال عمل زيدان ويعرف عنه وعن نفوذ زوجته المدللة الجميلة الكثير.

ناصر أيضاً يكرهها. لا أحد يحب هذه الحمقاء سوى زوجته لأنها أشد منها حماقة، ولأنها ستنال من الإذلال نصيبها هى الأخرى.

يكاد يشم بأنفه أشجار شوارع واشنطن وهو يتجول فيها بسيارته وحيداً يخلو المقعد المجاور له من حجاب مروة وصمتها واستعلائها عليه.

لن يطلقها أبداً. هو فقط سينتظر عودة ابنه إلى جامعته، فإجازته لن تطول أكثر من أسابيع ثلاثة. بعد عودته بأيام سيحزم حقائبه هو وابنته وعلى بوابة المطار، وبعد أن تضم ابنتها وتبكي، سيهمس فى أذنيها ويمضي هو وعلاه ويتركها وحدها تعود.

لن تجد عندها من تحتمي به. حتى ملك لن تكون هناك. يكاد يجزم أنها لن تكون هناك. وإن كانت فلن تكون إلا بقايا شظايا مكسورة فتتها أحذية سلام وابنته.

كل شيء معذ. كل شيء بتواريخه ومشاهده فى رأسه واضح. ياسر يسافر. سلام وابنته يحضران لضبط كريم وسحق ملك، وفي اليوم التالي يأخذ هو حبيبته

الصغيرة، وعلى بوابة المطار يسحق امرأة أخطأ يوم أخرجها من أزقة ما كان يجب أبداً أن تغادرها يوماً!

في الطائرة سيضم ابنته إلى صدره، وعند دخولها جامعتها سيفتح هو صدره لنساء أخريات لا يحملن من غرور ملك أو حماقة مروة شيئاً.

طلبت منها أن تأتي بكتبها وتلحق بها إلى بيت ملك. لم يبق سوى أيام قليلة على الاختبارات وأيام أيضاً على وصول ياسر.

بكت منذ شهور وهي تقسم لها أنها ستمزق نفسها بين الأوراق وسطور الكتب. طلبت من مروة أن تحادث أباها وتتعهد له بأنها ستنجح.

كانت كمن لدغته أفعى. أخبرتها ذاك اليوم أنها ستفعل كل شيء وأي شيء إلا الزواج بابن عمتها وهجر الدراسة.

مروة اشتمت رائحة حب فى ثنايا كلماتها ودمعاتها، لكن ما كان في إمكانها أبداً أن تردها خائبة. ما كان من الممكن أبداً أن تتركها لأبيها يسوقها إلى رجل يذبح فيها الكرامة كما ماتت كرامتها على فراش وحيد زيدان.

عمران؟!

ذاك اليوم رفعت عينيها ونظرت إليه. أعادت على مسامعه وصايا نادية شفيق.

تلت على أذنيه آيات الشيخ رفعت كامل وأحاديثه. استحلفته برحمة زوجته أن يرحم ابنته. أخبرته أنها

هي من تأخذها إلى ابن عمتها إن لم تنجح في نهاية العام.

كان ينظر إليها فى ذهول كأنَّ شيئاً فى رأسه يدور... بل هو شيء فى رأسها.

عندما انتهت كل الكلمات لم تجد شيئاً تضيفه سوى أنها أرخت عينيها ونظرت إلى كفه السمراء الخشنة الملقاة إلى جواره وهو يقف أمامها.

لا تعلم كيف ترقرقت عيناها بالدمع وقالت في سكون:

"من أجلي أنا لا تزوجها رغماً عنها. من أجلي انا يا عمران".

يبدو أن كل الآباء سواء.

تلك اللحظة، وعلى باب عمارة الروضة، لم يفعل شيئاً سوى أنه أغمض عينيه في ألم وقال ما كان والدها دوماً يردده:

"لو كانت ذكراً ما خشيت عليها. لا يهمني أن يضعوا في يدها شهادة. أريد أن أضعها في يد رجل!"

هي كلمات رفعت كامل رحمه الله يوم تقدّم لها وحيد.

كل الآباء سواء إلا زوجها. وحده رجل حين وضعوا في يده امرأة أضاعها.

لم تتركه يومها إلا بعدما أخذت عليه عهداً أن يمهلها حتى نهاية العام وظهور النتيجة.

منذ تلك الليلة وبدرية تذوب بين صفحات الكتب والكراريس.

هل حقاً يجمعها شيء بياسر؟ ألهذا كان بكاؤها وخوفها من الزواج بابن عمتها؟

أيام ويأتي وتتكشف كل الأمور.

لن تتركها للقادم. هو خطأ عظيم نهايته أليمة إن صحّ الأمر.

نهايته مروة أخرى ووحيد آخر وإن اختلفت الأسماء وتبدلت المقاعد!

أيام يجب أن تكثف فيها جهدها معها، فهي حتماً ستنشغل عنها قليلاً عند حضور الغائب الذي تشتاق إلى لقياه الروح.

يجب أن تذهب إلى بيت ملك فلا بد أنها في طريقها إلى الصعود.

علا بالداخل وأيضاً والدها وما زال محرماً عليها إدخال ابنة عمران في وجود أحدهما.

التقطت المفتاح وحملت الصحن الذي أعدته لها هذا المساء من "لقمة القاضي". ستضعه لها على مائدتها لتجده عند عودتها.

هي أيضاً مشغولة وتغيب عن بيتها كثيراً.

تحدد موعد حفل الأوبرا الذي ستقيمه. مروة سعيدة لأن وحيدها سيكون معها. لن يصدق أبداً أن السيدة التي سيصطفون أمامها على مقاعد دار الأوبرا هي تلك التي وقف قبل سفره يكاد يطردها من على بابهم.

غيّرها الحب وأعادت روحها الموسيقى.

مسكينة ملك. هناك لعنة كبيرة تطاردها. مرض محمد وموته المحتوم يغتال من فرحتها أميالاً لكن هي إرادة الله.

أحياناً تهمس الصديقة في أذنيها أن لا تحزن فلقد أرسلها الله لهذا الصغير الفقير لتحييه قبل أن يموت، ولتساعد أسرته بعد الموت.

الموت!

كلتاهما تدعوان الله في كل لحظة أن ينتظر حتى تتحقق آخر أمانيه هو أيضاً.

محمد يحلم بدخول الأوبرا مع ملك في ليلة حفلها الكبير.

وهي تبكي خوفاً أن يرحل قبلها، وتخشى إن حدث أن تعجز عن العزف، لكن مروة دوماً تؤكد لها أنه سيكون معها وسيبقى أعواماً بعد الحفل بل ربما يكبر ويشيخ ويشفى.

إن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

ملك من خلف دمعاتها تنظر إليها وتتمتم "يارب". وهي دوماً في تلك اللحظات تسأل كيف نؤكد ونجزم لمن نحب بأشياء نشك فيها وربما نعلم استحالتها.

الحب فعلاً يخرج من حنايانا كل شيء حتى الكذب الذي نكذبه ونكاد نقسم أنه الصدق بعينه.

سبع حقائب.

لا تصدق أنها في هذه الأسابيع اشترت ما تملأ به سبع حقائب.

متعة أن تشتري كل ما تقف عليه عيناك. بل المتعة الحقيقية أن تعلم أن في إمكانك أن تفعل.

اشترت أشياء كثيرة وهدايا ثمينة لياسمين ولكريم وأيضاً لوالديه. في أجازة الصيف سيأتي عيد زواجهما وأيضاً عيد مولد عبد الهادي.

لا تظن أبداً أن هناك امرأة على الأرض تحب عائلة زوجها كما هي تفعل.

هدايا كريم لن تسعده. ما تعلم أنه سيسعده هو شيء آخر. هو مفاجأة كبيرة تذيب جبال الجليد التي تشعر بها تكبر بينهما.

ستقضي شهرين من الصيف كاملين معه. هذا هو اتفاقها مع والدها. لن تعود إلى دبي إلاّ بعد شهرين كاملين.

أعدت من هنا من فرع الشركة رحلة لمدة شهر إلى جزر البهاماز لهما معاً.

على شواطئ البهاماز ستذيب جبال الجليد وتتحرر من كل لحظات الشك التى بدأت تنتابها في زوجها وأسباب برودته معها.

سيعودان من رحلتهما كيوم زفافهما. تعرف كيف توقظ في صدره كل ما يظنه هو غفل ونام.

أن تكون له... معه وحده... من دون حقائب، من دون سفر، من دون ترقب أو مشاحنات هاتفية ومواعيد اجتماعات.

تعلم جيداً أنها ستسترده، وحين يعود ستخبره وهي على صدره مجدداً أنها لا تستطيع التخلي عن صرح والدها الكبير.

ستخبره أنه ما زال في إمكانه أن يذهب معها إلى دبى. والده لا يحتاج إليه كثيراً. عبد الهادي مشاريعه ليست أبداً مشاريع منتصر سلام.

لن تفرض عليه العودة معها إلى دبى. لا أحد فيهما فرض يوماً شيئاً على الآخر، لكن هي فقط تجدد عرضها.

ما زال باب الحياة في دبي مفتوحاً وإن لم يرد أن يعبره فليس من حقه أن يغلقه في وجهها.

عادت تنظر إلى الحقائب في هدوء.

ستشتاق إلى هذا البلد. تحبها أكثر مما تحب الحياة في وطنها، لكنها هناك هذه المرة ستقضي شهراً كاملاً

قبل ذهابها إلى البهاماز. سيأتي والدها وتمضي الأيام وتسافر هي وزوجها.

كاميليا سيأكلها الفرح ببقاء ياسمين لديها. ربما يعارض العنيد قليلاً في ترك فتاته شهراً كاملاً من دون أن يراها، لكن قد تقنعه هي باصطحاب الصغيرة أسبوعاً وهي معهما إلى فرنسا ليزورا "يورو ديزني". هكذا تصبح فترة بقائها فى مصر أقل وعدد الطائرات التي ترتادها أكبر.

تعشق ركوب الطائرات. تعشق أبوابها. ذاك الباب الذي يغلق خلفها في مكان لتجد نفسها على أرض أخرى وهواء آخر بعد أن يفتح من جديد!

ليس مثلها. يعشق الاستقرار فى مكان واحد ليسترخي على نغمات موسيقى هادئة كأنها صلاة جنازة. لو كان فقط مثلها أكثر حيوية وركضاً وانطلاقاً... لكن رغم هذا تحبه. هو زوجها. حبيبها ورفيق دربها.

أغمضت عينيها والتقطت من صدرها نفساً عميقاً رأت معه كيف تتنفس ذاك الهواء الذي ينطلق من محركات الطائرة وهي تعبر بابها للدخول استعداداً للخروج على رمال جزر البهاماز وذراعيه تضمانها.

رأت أنفاسها الدافئة حول وجهه الحاني تشيع دفئاً يقتل رياح الثلج التي تعلم جيداً أنها تسكن أوصاله منذ

شهور!

في حنان بالغ طرق على باب غرفتها طرقات حانية وقال بصوته العميق:

سيدتي بإمكانك الخروج الآن.

لم تجبه ولم ينتظر. أسرع إلى صالة البيت وتسلل إلى المطبخ حيث تأكد بعينيه أن حرارة الفرن على أهدأ درجاتها، مما يعني أن الوجبة التي أعدها مفاجأة لها أمامها ساعة كاملة.

طلب منها أن تدخل غرفتها حتى لا تعلم أو تشتم ما طهاه لها. هي المرة الأولى التي يطهو فيها لها شيئاً. فتح النوافذ وقام برش زخات من قنينة العطر التي أحضرتها له.

عاد إلى صالة البيت وبعينيه ابتسم. كل شيء معد. ما بقي سوى أن تظهر ويجلس على أريكتها يراقب مفاجأتها له هو أيضاً. وعدته أن تسمعه القطعة الموسيقية التى انتهت منها.

كل القطع انتهت ملك من تأليفها والتدرب عليها في دار الأوبرا حتى هذه التي ستسمعه إياها وعدا الأخيرة والرئيسية التي أخبرته أنه لن يسمعها إلا في ليلة الاحتفال.

انتفض من أفكاره وهو يشعر بالأضواء تطفأ في صالة البيت واستدار كريم ينظر خلف ظهره حيث مفاتيح الضوء ليجدها تبتسم في خجل وهي تقول:

أريد العزف على ضوء خافت.

مد أصابعه وهو يكتم شقهة كبيرة تغادر صدره. يشعل "أباجورة" صغيرة بجوار الأريكة، وأخذ يرقبها وهي تخطو نحو البيانو.

بدلت ملابسها التي كانت ترتديها عندما أخذها من دار بدر. كأنها إلهة الجمال.

ترتدي ثوباً من الشيفون الأسود يقف أسفل ركبتيها، واسعاً لا يلتصق بجسدها لكنه يكشف عن ثوب آخر ضيق يعانق جسدها بلون زهرة مشمش استدارت واكتمل نضجها.

رفعت غطاء البيانو وأرخت عينيها تفحصه في خجل ثم أطلقت أصابعها ترقص في جنون على أصابعه الملونة.

تحب هذه القطعة كثيراً. كتبت حروفها الموسيقية في تلك الليلة التي حادثتها فيها "ثريا" عنه.

عادت من بين ذراعي اعترافها بحبها له وبكت حروفاً موسيقية لم تكتمل أبداً بل بقيت ناقصة حتى أكتملت خمس قطع أخرى سواها، واكتملت فقط في

تلك الليلة التي ضمها فيها على سفح جبل المقطم حين سقطت هى بين ذراعيه على صوته يقول:

"أصبح الهرب مستحيلاً".

ضغطت جفونها في شجن كبير وسمعت صوت نقرات أصابعها يخرج في آهات موسيقية لا تصدق هي نفسها أنها تعزفها.

بكت على صدره طويلاً تلك الليلة. لم تقاوم. همست، وشفتاها على عنقه، أنها حقاً تحبه، وأن الهرب غباء لكنها لا تستطيع أن تخون. كانت تبكي وترتجف على صدره وهي تردد أنها لن تكون ريبكا أخرى.

كان يضمها إلى صدره كما نضم يتيماً شهد لتوه مقتل والديه بعينيه وهي تنتفض. في لحظة استطاعت الهرب من ذراعيه.

وقفت على حافة سفح الجبل وأقسمت له بروح وحيدها أنها لا تعلم أين من هواه تهرب، لكن بخطوة واحدة إن لم يساعدها على مقاومة هذا الحب تنتهي القصة.

استدارت في تلك اللحظة إليه وهي ترفع إحدى قدميها كأنها تكاد تقذف بنفسها من على سفح الجبل تستحلفه أن يغيثها أو يتركها تموت.

ما زالت أصابعها تنقر على البيانو، وما زالت أنغام كنراتيل من السماء تخرج من تحت أصابعها، وما زالت

عيناها مغمضتين لكنها ترى تلك اللحظة وهو يصيح صيحة صغيرة حين رفعت ساقها تخبره أنها أبداً لا تمانع أن تموت إن كان الموت بديل الخيانة.

لم يقل سوى كلمة واحدة. جملة صغيرة سمعتها منه وهي تنظر إليه من خلف دموعها وجسدها يكاد يفقد توازنه بعد وقت قضته على ساق واحدة.

قال كأنه يستجديها: "لا تقتلي من أحببته"!

تعزف وتتذكر. أيهما أجمل وأيهما أحلى؟

هذه النغمات التي تخرج من تحت أصابعها أم تلك اللحظة التي قال فيها كلماته لترخي ساقها المعلقة في الهواء وتركض إليه لتسقط بين ذراعيه من جديد. استندت إليه ليعبرا سور الكورنيش وذراعه حول كتفيها.

تحدثت... تحدثت وهو يسمع من دون كلمة. أخبرته عن كل شيء... وجه ريبكا... رائحة أدهم التي خلت منها ايامها. رائحة المخدرات والمهدئات وأروقة المصحة النفسية. عينا طبيبها الملونتان والحسرة تملؤهما يوم أخبرها برحيل والدها.

كل شيء ورأسها على كتفيه ملقى. حين انتهت رفعت وجهها إليه وقالت: "عاهدني أن لا أكون ريبكا أخرى. عاهدني أن لا تتركها تقتلني مرتين... مرة يوم قتلت طفلي ومرة يوم أصبح مثلها. أنا أضعف من أن

أقاومك... أنا ما تنفست إلا دمعاً وما ضممت أعواماً إلا خيالاً... ساعدني وعاهدني ألا تتركها تعود إلى زيارتي أبداً"...

قاربت نغماتها على الانتهاء، ويجب أن تفتح عينيها لترى هل أحب قطعتها الموسيقية وهل شعر بها كما تشعر هي بها في كل مرة تلعبها أصابعها؟

فلتفتح عينيها وتملأ منه روحها كما فعلت تلك الليلة على سفح المقطم حين ضمها إلى صدره في قوة قبل أن تدخل سيارته وهو يقول:

قسماً بك في قلبي... قسماً بياسمين ورأسها عندي... قسماً باحترامي لندى وعشقي لك لن يكن بيننا شيء تخجلين أو أخجل أنا منه أبداً يا ملك!

لم يحنث بقسمه طيلة هذه الشهور. أصبحا لا يلتقيان إلا نادراً في دار البدر بعدما أخبرته بما دار بينها وثريا. أصبح يذهب معها إلى بروفات دار الأوبرا ويصعد معها إلى بيتها في كل مرة يلتقيان فيها. يشرب معها كوباً من الحليب المحلى بالعسل ويضمها إلى صدره ويذهب.

مرات بكت على صدره تستبقيه... مرات كثيرة تعرف أنها دوماً تأتي قبل موعد وصول زوجته من سفرها. مرات كانت تهذي على صدره تقسم عليه ألا يحادثها أو يزورها طيلة وجودها. في كل مرة كانت توصيه بها بل

في إحدى تلك المرات قتلت الكلمات على شفتيها وهي تتمنى عليه أن يقبل زوجته ألف قبلة على شفتيها لأنها شعرت أنها تشتهي لو معها يفعلها.

بكت كثيراً على صدره ذاك اليوم. كبرياؤها يقيد شفتيها وذراعاها توثقان ضمه.

عاهدها أن لا يمسها، وفي لحظات تتمنى لو لم يفعل.

لو تعلم كيف تخبره أنها تتمنى أن يفعل رغم يقينها أن فى حنث العهد موتها.

طارت أصابعها عن سطح البيانو بعد السطر الأخير وفتحت عينيها لتجده أمامه، ورفعت رأسها تنظر إليه لتسمعه يقول في ذهول:

ليس عزف بشر... لست بشراً...

عن مقعدها نهضت وإلى وجهه وعينيه نظرت. يتألم... تشعر به مثلها يتألم. مثلها جسده يناديها وشفتاه ترتجفان بحثاً عن شفتيها.

زوجته قادمة في الغد... ستبقى شهراً. قد لا تلتقيه إلا ليلة الاحتفال.

عاهدت ربها أن ترحل عنه بعد احتفال الأوبرا. عاهدت ربها أن تعزف له القطعة الأخيرة والرئيسية في حفلها وحقائبها مغلقة مستعدة للرحيل.

ما يضيرها لو قبلَها مرة واحدة. ما يضيره لو فعلها مرة. وما يضيرهما معاً لو كانت هذه المرة "الآن"

وليست ليلة الاحتفال.

قبلة واحدة تحيا عليها شهراً وقطعة موسيقية أخيرة تعزفها له ومن أجله ترحل بعدها عنه العمر.

بشفتيها زحفت نحو شفتيه. بشفتيها التقطت شفته السفلى وهي تهمس كأنها تخشى أن تسمع نفسها. لم تقل سوى كلمة واحدة صغيرة سقطت بعدها بين شفتيه.

ملك ما قالت سوى "أرجوك"!

كيف نضحك رغماً عنا؟! كيف تزغرد وجناتنا رغم إرادتنا. كيف ترقص العيون رغماً عن المآقي وتضيء الحياة رغماً عن العقول؟

لا تعلم. فى كل لحظة تزم بدرية شفتيها وتعقد حاجبيها لكن رغماً عنها تنفرج الشفتان من جديد فى ابتسامة وترقص كل خلجة في روحها. حتى الفرح أصبحنا نقاومه كالحزن والألم.

لماذا هو صعب عليها أن تعلن وقوعها في الحزن صعوبة إعلان سكناها بالفرح؟

لأن ما خلف دمعها وحزنها وسعادتها هو شيء ليس لها فيه حق ولا ترضى بقبوله عين ترى دمعها أو ضحكاتها.

في هدوء تسللت من أمام والدها القابع على فراشه، وانحنت تعبر الباب الضيق الذي يفصلهما عن العالم.

رسمت على وجهها شيئاً لا تريده. شيئاً كالجدية والتجهم. وما أن غادرت باب العمارة حتى أخذت من صدرها نفساً عميقاً وركضت في اتجاه الكورنيش. في اتجاه الركن الخاوي المظلم لمقياس النيل. وقبل أن

تصل إليه سمعت صديقها الصغير يناديها، واستدارت تنظر إليه. شهقت شهقة صغيرة ضاحكة كوجه قلبها.

كيف يبدو محمد بهذا البهاء رغم أنه لا يرتدي الملابس الأنيقة التى يرتديها كلما توجه لرؤية ملك! يرتدي ثيابه البسيطة التي يركض بها خلف سيارات الجراج الذي تعمل فيه أمه، لكن في وجهه بهاء لم تره يوماً عليه من قبل.

من دون كلمات اقترب منها. من دون كلمات، وللمرة الأولى، فتحت ذراعيها وضمته وفرحتها تصيح من الفرحة بإطلاق سراحها وقالت:

ياسر قادم... الليلة هو قادم.

إلى جوارها سار محمد في اتجاه ركنهما البعيد وهو يبتسم. لم يرها أبداً بهذه السعادة. لم يسمع صوتها أبداً بهذا الانطلاق. وقبل أن يفتح شفتيه بكلمة رآها من خلف سور الكورنيش ترفع كفها السمراء الرقيقة وتشير إلى السماء قائلة:

هو الآن يحلق فوق المحيط أو ربما عبره. ليتني سحابة في السماء لتعبرها طائرته. ياسر قادم... قادم.

رغم صغر سنه. رغم صدره الذي يؤلمه، إلا أنه يفهم أن ما يراه حب... حب كالذي يحمله لملك. حب كالذي ينتفض به صدره كلما وضعت حبيبته في فمه قطعة

حلوى، أو كلما وضعت عصا الناي بين شفتيه وقالت: "أعزف يا محمد".

لكنه صغير وحبيبته كبيرة. مع بدرية لا بدَ وأن الأمر يختلف وإن كانت الفرحة واحدة والتوهج واحد. الأمر يختلف.

هدأت الضاحكة وعادت بذراعيها من الهواء إلى جوار جسدها وسمعته يقول في حنان:

هل تتزوجين ياسر؟!

سكتت عيناها وشفتاها وهي تنظر إلى وجهه الصغير فى حيرة كبيرة عندما سمعت الكلمات. الفرحة تتوارى في ثوان.

بشيء كالألم شق صدرها، ومن خلف أمنية كبيرة تسكن صدرها لكن تعلم أنها الهذيان بعينه، رمت بعينيها إلى النيل وقالت:

وهل تتزوج أنت ملك؟!

على بوابات المطارات والمدارس تتدافع المجموعات في الخروج وتتزاحم مجموعات أخرى في الانتظار، لكن لا أحد من المجموعتين يرى وجه أو ملامح أحد إلا فرداً واحداً جاء من أجله.

مروة تقف وسط العشرات وترى عشرات الوجوه تخرج، لكن لا تبصر لوجه منهم ملامح ولا تسمع لهذا الضجيج حولها صوت.

تتمنى لو تزيح بكفها كل الوجوه فقط ليظهر وجه واحد ترتجف روحها لمجرد أن تتخيل خروجه رغم أنها ما جاءت ولا وقفت إلا من أجله وفي انتظاره.

وحيد إلى جوارها يثرثر وهو يخبرها أن كل الركاب تقريباً خرجوا، وعلا إلى جواره تضحك في إذني والدها تخبره أنه الآن لابد وأنه يساعد امرأة على حمل حقائبها، أو ربما يكوّن صداقة مع عامل أو موظف بسيط ولا يهتم بوقوفهم على سيقانهم فى انتظاره.

الأم تسمع وتفهم لكنها حتى لا تهتم بأن تجيب أو تعارض.

رأت ابنتها ترفع كفها تشير إلى داخل صالة القدوم وتصيح أنه يقبل عليهم. واستدارت الأم بجسدها كله

إلى حيث أشارت علا.

نعم... هو العائد!

هو الطفل الذي تنتظره على باب المدرسة ولا يهمك أبدا مئات الأطفال الآخرين الذين يتدفقون في الخروج.

هو العائد الذي لا يعنيك كم عائداً معه غادر الطائرة.

عاهدت نفسها ألا تبكي عند رؤيته. عاهدت نفسها أن تجفف بعناقه كل دمعاتها، لكنها تشعر أن دمعها نفسه يشتاق إلى رؤيته وهو يتقدم نحو بوابة الخروج.

من بين كل جموع المستقبلين تقدمت ووقفت حيث عبر بحقائبه ليقف أمامها وسقطت جفونه أحدها فوق الآخر كأنه ينقش صورتها على ماء عينيه.

تقدم وحيد يضمه ويبتعد به عن طريق المارة الخارجين، وجاءت شقيقته ومنحته عناقا سريعاً وقبلة، وخطوا جميعاً بعيداً عن الزحام ووحدها لم تتبعهم.

كأن قدميها تسمرتا حيث وقفت، وترك حقائبه على حاملتها لوالده وعاد يركض نحوها.

حين لمسها بأصابعه ارتجف جسدها وعادت تفتح عينيها فى خوف... ليس حلماً... هو المطار... هو العائد... هو حبيبها الوحيد.

نظر إليها من خلف دمعة سقطت على وجنتي رجل ما عاد طفلاً أو مراهقاً، ومدّ ذراعيه إليها فى حنان

لتسقط على كتفيه وهي تتمتم بشكر الله وحده. وحينما أراد أن يفعل من أجلها شيئاً لم يجد سوى كلمة يعرف أنه وإن مرّ الدهر عليه وعليها فهي حق لها وحدها من دون سكان الأرض أجمعين.

ضمها إليه بقوة شبابه وذراعيه ثم همس:

أمي!

بداية الأسبوع الثالث لها بين ذراعيه هو وابنتها. الأسبوع الثالث... لكن بدأ الملل يدب في أوصالها. تكاد تمسك بأصابعها الحسرة وهي تتسلل من عينيها كل صباح تتبعه يخرج إلى عمله.

تتمنى لو تضع نفسها في ثيابها وتذهب إلى فرع الشركة، بل أحياناً تتمنى لو تفتح حقيبتها وتلقي فيها بعض ملابسها وتعود إلى دبي.

تريد أن تدخل مكتبها. اشتاقت إلى رائحة أوراقها وحبر أقلامها وصوت ضجيج الهاتف ومنبه الاجتماعات.

بدأت تضيق حتى بذراعي ابنتها وعناق زوجها. لماذا لا تعلن فشلها في أن تلعب دور الجارية أو الحبيبة؟

تحبهم جميعاً، لكن لا تستطيع أن تكمل شهراً كاملاً تلهث معهم على موائد المطاعم وبيوت الأصدقاء وتعود ليلاً لتستلقي على كتف زوجها البارد.

ضمت ساقيها إلى صدرها بذراعيها. شيء في زوجها تغير... شيء في عينيه تشعر به يرجوها أن تذهب.

ما زال يحبها. يضمها كل ليلة، لكنها تشعر أنه هو الآخر اعتاد أيامه من دونها.

ليس هذا عيباً ولا زهداً، لكنها ما زالت لا تقوى أبداً على أن تفعلها.

كاميليا تموت إن أخبرتها أنها ستقطع إجازتها وتعود لممارسة عملها.

عبد الهادي يقيم دعوة على شرفها كل عدة أيام، ويعلن وهو يكاد يطير فرحاً أنها زوجة ابنه وأنها معهم باقية.

لماذا يرى البعض أن المرأة لا تكون امرأة أو زوجة إلا إن بقيت فى البيت؟ فى أسبوعين تشعر أن توهجها الأول يخبو وحتى حماسة عواطفها تبرد.

لم يجبرها أحد على قرارها. هي من اختارت أن تبقى. حتى السفر في الشهر القادم مع كريم تشعر أنه لن يكون كما تخيلته.

هي تريد طائرة. تريد حقيبة يدها الجلدية بأوراقها وملفاتها. تريد أن تعمل ثم تحب. تعمل ثم تعانق وتدعو إلى بيتها أصدقاء وعائلات.

إن كان العشق والمشاعر نبض قلوب البشر أجمعين... وحدها نبض قلبها وعشقها هو العمل. هو صوت محركات الطائرات.

بلا وعي أمسكت بهاتفها الصغير في يدها. ستخابر والدها. تعلم أنه سيعود إلى مصر في الغد. ستخبره أنها

ستذهب معه إلى الشركة للاجتماع قبل سفرها إلى البهاماز.

لا تريد أن تبقى في غرفتها تتنهد وتتألم، أو تشرف على الطاهي وتصحب ابنتها إلى بيوت صديقاتها. حتى زوجها وهي فى عملها ورحلاتها تراه أكثر شغفاً بها.

في عينيه شيء مبتور. في عينيه ملل وألم. تراه في أحيان كثيرة يتحسس هاتفه الصغير وينظر إلى شاشته وتكاد دمعة أن ترتسم على مآقيه.

عادت بأصابعها بالهاتف إلى جوارها. لن تحادث والدها، ستذهب إلى لقائه في المطار. وفي طريق عودتهما تعلم أنه سيمر بمكتبه.

لن تتركه يدخل شركته وحده. معه ستذهب إلى البيت، وفي مساء الغد تعود وتخبرهم أنها كأي مواطن، كأي إنسان، من حقه أن يقطع إجازته ويعود إلى العمل.

حبها وزواجها وأمومتها لن تسلبها أبداً هذا الحق وهي لن تقدمه بعد اليوم قرباناً!

حين أعلنت فرقة الأوبرا أنه الوقت لإجراء بروفة القطعة الأخيرة التي ستنفرد فيها ملك بعزف مقطوعة الفلوت التي ستختتم بها الحفل والتي لن يصاحبها فيها أي آلة أخرى سوى الهارب. رفعت عينيها تنظر إلى كريم بابتسامة صغيرة خجلى، ونهض عن مقعده في هدوء يخبرهم أنه في حاجة إلى إجراء مكالمة صغيرة.

يعلم أنها لا تريده أن يسمع هذا اللحن إلا يوم الحفل، ويعلم أنها من أجله كتبته، لكنه لا يعلم أبداً كيف يخبرها أنه هو أيضاً يحمل لها فى تلك الليلة مفاجأة كبرى. سيخرجها من جعبته بعد آخر لحن تعزفه ويسمعه هو للمرة الأولى.

فى هدوء تسلل إلى موقف سيارات الأوبرا حيث غادر المبنى الإداري الذي تجري في إحدى غرفه بروفة الحفل. تمّ فتح باب بيع التذاكر لحفلها وأخبرته أنه وفي ثلاثة أيام فقط تم حجز جميع المقاعد وما عاد هناك مقعد واحد خاوٍ.

ثريا وإعلانات دار الأوبرا على نشراتها وصفحات الجرائد ليست أبدا من فعل ذلك. المصريون في حالة

تعطش كبيرة إلى كل فن راقٍ. أرهقهم الإسفاف في السياسة والأدب والموسيقى.

شعب رغم الفوضى والعشوائيات... رغم الجهل والفقر، إلا أن في داخله ترمومتر دقيقاً يستشعر الجمال وينتظر ظهوره ويرنو إليه.

بألم نظر حوله في موقف السيارات الكبير، وعلى بروز عال خارج المبانى جلس وأرخى رأسه في هدوء بين كتفيه.

ملك منذ أيام وضعت بين كفيه ست تذاكر. أخبرته أنها تترك له تحديد الوقت المناسب الذي يراه هو لتحادث والديه وزوجته لتؤكد عليهم جميعاً تمسكها بوجودهم معها.

حينما أغلق كفه على التذاكر ونظر إليها تلك النظرة الحزينة ابتسمت كأنها تعي كل ما يدور في ذهنه. وضعت أصابعها الجميلة على ذراعه وقالت إنها تقسم بالله أنها تحب ندى وتريد حضورها وتعشق أن تراها تجلس إلى جواره هي وابنتها.

سقطت دموعها في حنان وهي تكمل كلماتها تشرح أن الحب عندما يكون كبيراً وعميقاً في قلب امرأة فهو يشمل رجلها وكل من لهم به صلة، فكيف إذن بزوجته وابنته؟

آه لو تعلم ما قرره... لو استطاع تلك اللحظة أن يخبرها، لكنه في مقتل كان سيضربها.

لم يستطع أن يقول كلمة. طوى التذاكر ووضعها في جيبه وضمّها إلى صدره في قوة وشعر بها تتفكك قطعاً صغيرة بين ذراعيه وهو يهمس أن ملك أبداً ليست أقل عنده من ندى أو ياسمين.

ليس قراراً مجنوناً أو أنانياً أبداً الذي اتخذه... ليست نرجسية أو جحوداً أن يقرر الزواج منها... ليست دناءة أن يقرر تطليق زوجته.

هو لا يترك زوجته ليكون معها، بل سيكون معها لأن زوجته تركته وحده منذ أعوام.

ليس حراماً أبداً أن ننقذ أرواحنا ونفتح لها شرفة تتنفس منها الهواء الذي خلقه من أجلنا الخالق.

منذ تلك اللحظة التي ضمت فيها ملك شفتيه بين شفتيها وبكت تقول "أرجوك" وهو يعلم أنه لن يتركها. منذ تلك اللحظات التي طالت فيها قبلتهما ورغم هذا لم تمتد يده نحو جسدها وهو يؤمن أن ما بينهما حب له الحق في أن يحيا، وما بينه وبين زوجته هو موت يجب أن يوارى الثرى.

منذ تلك اللحظة التي عادت فيها من رحلة شفتيه وبقيت تنتفض وتبكي فى جنون تعتذر وتقسم أنها لن تفعلها مرة أخرى، وهو يؤمن أن أقدارهما توحدت وأن

الخطأ الكبير هو استمراره في خداع ندى والحياة معها بقلب تسكنه امرأة أخرى وجسد يشتهي امرأة بعيدة حتى وهو يطارحها هي الغرام.

هي أكبر من أن يفعل بها هذا، وملك أضعف من أن يحمّلها كل هذه الأحمال وهو يعلم أنها بعد كل ما مرت به من أحداث مريرة لا تحتمل جرعة أخرى من الألم.

يريد أن يتزوجها. يريد أن ينجب منها. يريد لياسمين ابنته أخاً أو أختاً من هذه المرأة من دون نساء الأرض جميعاً.

ستتألم زوجته حين تعرف قراره، لكنه يشهد الله أنه سيفعل لأنها عنده أكبر من الخداع.

بل يكاد يجزم أنها لن تتألم كثيراً. أخبرته منذ أيام أنها ما عادت عن نظام حياتها القديم تطيق الانفصال.

أخبرته أنها حاولت لكن لا تستطيع. قالت وهي تئن "لا أحد يستطيع أن يعبث مع روحه وإن أطال وأجاد خداعها".

تمنى تلك اللحظة أن يخبرها أنه أيضاً مثلها. كما تريد العودة للسفر والرحلات واجتماعات العمل هو يريد السكنى إلى ملك. يريد التحرر من زواج ما بقي فيه من معاني الزواج سوى اسم وتاريخ وقطعة ورق صفراء قديمة.

ياسمين ابنته لها كل الحق فيه. في قلبه، ماله، ماضيه، وحاضره. لكن ليس لها الحق في أن تقتل حياة أراد الله وحده لها أن تولد في قلبه وقلب امرأة مات عنها كل من أحبتهم وشاءت الأقدار أن تحيا على يديه وبين يديه.

أبناؤنا لن يموتوا معنا، فلمَ نقتل أنفسنا من أجلهم قبل تواريخ رحيلنا؟!

أخبر ثريا بقراره. أخبرها أنه في صباح الحفل سيطلق ندى. استخرج لنفسه تأشيرة الدخول إلى الأراضي الأمريكية واشترى تذكرتي سفر. سيتزوج ملك ويسافر بها بعد أيام من الحفل.

أمه الثانية لم تقل شيئاً. أرخت عينيها في حزن وسقطت دموعها وهي تقول أنها لا تستطيع أن تقول كلمة عن ملك فهي تعلم كم تحبه، ولن تستطيع أن تقول كلمة عن ندى فهي علمت كم زهدها ما دام لسانه نطق بكلمة طلاقها، لكنها أخبرته أنها تريد أن تسأله عن كاميليا. عن عبد الهادي. عن ياسمين. وحتى عن منتصر سلام.

هل يستحق هذا الحب أن يقتل كل هؤلاء وهو يحبهم؟

ضمها إلى صدره وقال هل له هو أن يسألها إن كانت أمه أو ابنته أو أي منهما يرتضي له أن يحيا بجثتين فى

صدره؟! جثة ندى التي ما عاد يشعر بها، وجثة ملك التي يهينها بإبقائها في ركن مظلم لا تستحق أن تكون فيه.

هل يغفر الله نفسه أن يفعل بهما هذا، وإن غفر الله كيف يغفر لنفسه وكيف يتجول بين الجثتين باقي أيام عمره؟

نظر إلى عيني ثريا وقال في ألم كبير ندى أبكته كثيراً لكن ملك وحدها من بكى بين ذراعيها.

قال إنه يثق أنها وحدها تعلم قيمة امرأة يبكي رجل بين يديها.

منذ حضور سلام إلى القاهرة وندى معه كل يوم وهو مع ملك كل ليلة.

بعد انتهاء البروفات الليلية في دار بدر أو دار الأوبرا يصعد بها إلى بيتها. إما تكمل قليلاً من عزفها أو تجلس ويجلس إلى جوارها يتناولان شيئاً معاً وبيده يصنع لها كل كوب الحليب المحلى بالعسل ويضمها إلى صدره. هي تحدثه عن حبها وعن زوجته وابنته وهو يضمها في صمت. يعلم أنه إن أخبرها بقراره الآن ستنقلب الأرض على رأسها.

بعد احتفال الأوبرا سيخبرها أن حياته مع زوجته كانت حتماً ستنتهي يوماً، لكن شاءت رحمة الله أن

يحدث هذا قبل أن يصبح عجوزاً وحيداً يستجدي من ابنته زيارة أو عناقاً.

بعد الاحتفال قد تبكي عندما تعلم أنه في صباح اليوم ذاته طلّق زوجته، لكنه سيضمها إلى ذراعيه ويقسم أنها ليست زوجته منذ زمن.

إن وجدا في ذاك الوقت المتأخر مأذوناً سيتزوجها وإن لم يكن سيفعل قبل سفرهما معاً.

تستحق أن يفعل هذا ليس من أجلها لكن بها ومعها...

يعلم أنه سيتألم. سيبكي وهو يوقع ورقة طلاق زوجته، لكن أليست آلام المخاض وحدها الطريق لمولد حياة قد تضيع إن لم تمرّ بلحظات الألم تلك.

يحب زوجته. لكنه أحمق من قال إن الزواج عشق وهوى. الزواج شريكان يتشاركان في كل شيء. صديقان يكملان رحلتهما بعد أن يعجزا تماماً عن الحب والجنس والتسوق وإنفاق الثروات.

شريكان من فصيلة روح واحدة.

ندى من فصيلة بعيدة عن دمه. فصيلة فيها كرات لا تسبح إلا على طاولات الاجتماعات ونواقيس المطارات. هو وملك سيقرآن كتاباً ويستمعان إلى قطعة موسيقى ويغفو أحدهما بين ذراعي الآخر في رضا.

الحياة هبة من الله وهو لن يضيع هبته في حماقة الصبر والاستسلام.

كفاهم جميعاً شعور الذنب.

متى تأتي ليلة الاحتفال ومتى يأتي صباحه؟!

تعب من كل هذه الأحاديث التي يكررها على نفسه كل لحظة.

تعب من دمعاتها على صدره كل ليلة في بيتها وهي تقسم عليه أن يغفر لها جنونها به ويحتملها فقط حتى ليلة الاحتفال.

تعب من تلك اللحظة التي تأتي كل ليلة وهو يخطو نحو باب بيتها ليتركها وحيدة ويشعر بأصابعها تستنجد به وتستجديه البقاء، لكن رغماً عنها تبتسم وتقول "قبّل زوجتك وخذها بين ذراعيك كما أتمنى لو أفعل معك".

تعب أن يتركها تموت وحدها ليذهب ويموت ألماً عليها وخجلاً من امرأة تنام إلى جواره.

أقل من أسبوع ويأتي الألم الكبير. أقل من أسبوع وتأتي ليلة الاحتفال ولتتألم ندى وملك ووالده وابنته.

هو ألم المخاض الذي بعده يولد فجر ما عاد في إمكانه أن يخبئه في الظلام!

لم يشعر بها وهي تناديه، ولا شعر بها وهي تتقدم وتنثني على ركبتيها أمامه، لكنه شعر بكفها وهي ترفع به رأسه الملقى بين كتفيه في حنان.

فتح عينيه ونظر إليها وقال بصوت مبحوح:

هل انتهيت؟!

بذراعه أمسك بذراعيها ونهضا ليقفا أحدهما أمام الآخر ونظرت إليه ملك فى سكون كبير... عيناها غارقتان فى نشوة لحنها الأخير وعروقها غارقة في خوفها من الألم القادم.

ابتسامة صغيرة عبرت ملامحها وهي تهمس:

لا يا كريم... ما حانت النهاية بعد!

وضع أصابعه بين أصابعها وتقدما نحو سيارته البعيدة في موقف السيارات وهي تضغط أصابعها إلى أصابعه أكثر.

أياماً ويقام الحفل. أياماً ويسمع اللحن مع الجمهور الذي سيملأ قاعة المسرح الكبير. أياماً يأتى بعدها يوم الهرب الكبير.

في الصباح التالي للاحتفال ستهرب ملك إلى قبر أبيها وابنها. ستهرب من رؤية محمد وهو في طريقه إلى القبر. ستهرب من هذا البكاء الحاد الذي تبكيه كل ليلة يغادر فيها كريم بيتها إلى ذراعي زوجته وابنته.

ستهديهم جميعهم أحلى ما عندها تحت قبة الأوبرا وترحل.

لو أن ريبكا أصرت على العودة إلى بلادها وأفاقت من جنونها ما قتلت أدهم ولا قتلتها ملك.

أحمق من يقول إن المواجهة هي الشجاعة.

الهرب هو الخلاص أحياناً!

هل تعرف إناء العسل ذاك الذي وضعوه على قمة الجبل... ماذا لو أخبروك أنه من أنهار الجنة آت وأنه الإناء الأخير وأنه لك بعد أعوام عمرك جميعها التي قضيتها والحنظل وحده شرابك.

هل عرفته؟! هل أدركت قيمته ومعناه...

هل تعرف كيف يكون أن تتسلق إليه الجبل وأنت حافي القدمين. الشمس تأكل جبهتك والأشواك تدمي قدميك.

ما ترانا نفعل إن نحن وصلنا إليه... كيف نلعقه وكيف... كيف بالله بعد أن تذوقناه نتركه؟

يوم عاد ياسر كانت تنتفض خوفاً في غرفتها. ادعت أنها نائمة، وتحت الأغطية كانت تضم إلى صدرها ساقيها السمراوين وتنتفض.

لم تكن بدرية ترتعش خوفاً من لقائه بل خوفاً من عينيها وحدهما تفعل. كيف تخرج بهاتين العينين وتجلس إلى جوار أبيها على أريكته الخشبية تنتظر. كيف تلونهما بلون غير ألوان الشوق التي تكسوها تفعل... وكيف كيف تمنع دمعهما إن هما رأتاه... وماذا تقول لأبيها الذي يشك في شيء بها يجمعه تقول.

ما استطاعت أن تقاوم كثيراً. برعشتها من تحت غطائها خرجت. بقصائد عينيها ودموعها دلت ساقيها وعليهما تعثرت وإلى جوار عمران جلست.

كم مرة حاولت أن تسيطر على صوتها قبل أن تتحدث إليه... كم مرة جمعت كل قوى صباها لتسيطر على أصابعها وهي تمنحه كوب الشاي الأسود ذاك... لا تعلم. لكنها تذكر بوضوح أن أصابعها كانت ترتجف وأنه رأى رعشتها وهو يلتقطه منها حيث ألقت بجسدها إلى جواره في صمت تراقب إسفلت الشارع الأسود الذي ستطأه قدما حبيبها بعد دقائق.

تذكر كيف خرج صوتها مبحوحاً وهي تقول:

ألا تدخل... هل يجب أن ننتظر وصولهم من المطار؟ لم يطلب منك أحد أن تفعل.

متى تنسى كيف تنهد في ألم وهو ينظر إليها قائلاً:

أبعد كل ما تفعله من أجلك السيدة مروة لا نحمل لها حقائب ولدها؟!

استدار نحوها وأخذ رشفة من كوب الشاي وأكمل وهي تراه ينظر في عينيها رغم أنها أرختهما إلى الأرض قائلاً:

إن لم يكن من أجل ما تفعله فليكن من أجل أجرنا الذي نتقاضاه منهم.

كأنه سكب عليها كوب ماء بارد وضع بعده أصابعها على سلك كهرباء عار انتفضت عندما وضع كفه السمراء الخشنة على فخذها قائلاً في حزم:

هو عملنا. وهم أسيادنا!

ظنت دمعها يخونها لحظة رؤية الغائب لكنه هو الآخر كان يتعجل خروجه.

سقطت دمعة من عينيها حين سمعت كلمات والدها "هم أسيادنا" وظهرت في تلك اللحظة السيارة لينتفض جسدها واقفاً كأنه هو من يقودها لا هي.

لا لم يكن وهماً أو خيالاً... بدرية تجزم أنه إليقين.

كل من حضروا بصحبة الغائب كانوا ينظرون إليها مع أبيها يتفحصون عينيها وهي تحاول أن تخطو نحوهم.

حتى عمران شعر بعلا وهي تبتسم وتقول في سخرية:

عاد ياسر يا بدرية.

وحده والدها تقدم نحوهم يقول في حسم:

مرحبا به. نحن فى انتظاركم لنحمل حقائبكم ونرى إن كنتم في حاجة إلى شيء نشتريه أو نحضره.

حتى مروة كانت بعينيها تتفحصها وهي تمد كفها إليه قائلة:

حمداً لله على سلامتك.

لا تذكر أنها رأت ملامحه تلك اللحظة، ولا تذكر ماذا كان يرتدي أو يفعل، لكنها سمعته يتقدم نحو أبيها ويضمه إلى صدره قائلاً:

عم عمران... اشتقت إليك.

دمعة أخرى سقطت منها وهي تنثني بعيداً عنهم تحمل إحدى الحقائب التي أخرجها زيدان من السيارة.

تمنت لو ضمها هي إلى ذراعيه. تمنت لو قال إنه اشتاق إليها لكن هي حتى لم تره بعينيها بعد.

شعرت بكفه على كتفيها وهو يسرع نحوها يأمرها بأن تترك الحقائب فهي ثقيلة، وسمعت ضحكة ساخرة انطلقت من شفتي علا.

حقيبتان هو حمل إحداهما والأخرى حملها والدها وتركاها وحدها، وإلى مصعد البناية ومدخلها توجهوا.

تلك اللحظة فقط رفعت رأسها لتبصر ظهورهم. تلك اللحظة فقط استدار ياسر نحوها يصيح يأمرها بالدخول فلا شيء آخر أحضره معه.

في هدوء دخلت بعد أن تدلى رأسها من جديد وفي طريقها إلى غرفتها تمتمت:

تصبحون على خير!

كيف تمسي بدرية قبل أن تصبح ويصبح عليها الصباح... كيف ينام ياسر بعد لحظات في فراشه وهي تتلوى على فراشها وتكاد تصيح من الألم، ورغم هذا

بكل قوتها تحاول تجميد ساقيها وذراعيها لئلا يشعر عمران بما فيها ويكفيه ما رآه ورأوه جميعاً لحظة حضوره.

عند خروجه من حمام الغرفة حين ناداها تظاهرت بأنها نامت رغم أن ما مرّ من الوقت بعد عودته من حمل حقائب ياسر لا يكفي لكي تنام. تنهد الرجل في حرقة كبيرة وسمعته يستغفر الله ويلقي بجسده على الأرض تحت سريرها.

في تلك اللحظة سمعت صوته ينادي. وجدت نفسها تقف في منتصف الغرفة الصغيرة كالبلهاء تركض لتشعل ضوءها الباهت. هو حبيبها العائد من خارج الغرفة يصيح قائلاً:

عم عمران!

اعتدل الرجل ينظر إليها وأرخى عينيه في ألم.

حين اتكأ بذراعيه لينهض كانت هي تنحني لتعبر الحائط الذي يفصل غرفتهما عن مبنى الأسياد وهي تقول:

لا تنهض... سأرى ما يريد.

في تلك اللحظة رأته. في تلك اللحظة استعادت عيناها بصرهما وجف دمعهما لتراه.

هو ياسر. عام واحد جعله أكثر رجولة وشباباً ووسامة. ما عاد شاربه خطاً صغيراً يخطو في تردد

فوق شفتيه. حلق شاربه وذقنه. أهذه هي حقاً الثياب التي حضر بها؟

وقفت أمامه تترنح تقاوم أن تلقي برأسها على صدره، وكان هو ينظر خلفها كأنه يرقب خروج والدها. سمعته يهمس قائلاً:

ألتقيك في الصباح على سلم التخديم فور خروجه إلى السيارات.

لم تردّ. وما عساها تقول وسمعته يقول من جديد بصوت عالي النبرة:

لم أستطع أن أنام قبل أن أحضر هذه الهدية لعم عمران.

من خلفها سمعت أباها بصوت جاف غاضب يقول:

كنت معك منذ لحظات ولم تمنحني شيئاً... شكراً أستاذ... شكراً!

مضى القادم واستدارت تمنح ذاك الكيس الصغير الذي منحها إياه بين يديه في ذعر كبير.

ماذا لو كان بداخله رسالة أو هدية أحضرها لها؟

حين دخلا الغرفة ألقى بالكيس إلى الأرض وعاد إلى فراشه تحت فراشها، وبصوت مبحوح قالت:

ألا ترى ما أحضره لك؟! شيء جميل أن يذكرنا بهدية.

كيف يكبر أبناؤنا ونخجل منهم. نخجل من تأنيبهم وتأديبهم. ما عادت صغيرة ليجرحها بالكلمات. ما عادت طفلة ليرفع كفه ويمسك بعنقها كما فعل تلك الليلة التي سرقت فيها كسرة الخبز الساخن.

أصبحت شابة... شابة يفصلها عن الجامعة عامان. شابة وحدها السيدة مروة منعته عن تزويجها وإلا من يعلم... لربما كانت الآن تحمل طفلاً في أحشائها.

بطرف عينيه رأى يدها المرتعشة تفتح الكيس وتخرج منه كوفية صوفية. رآها تنظر بعينيها داخل الكيس. عن ماذا تبحث؟! هدية أخرى لها؟ وهل يهدي شاب مثل ياسر فتاة حمقاء تحبه شيئاً؟ كان صوتها ما زال مرتعشاً وأصابعها ممدودة بهدية الغائب نحوه. عمران لم يقل شيئاً... استدار بجسده ينام وهو يقول:

بدرية... الهدايا من الأسياد لا تحمل إلا الخزي والعار!

آه من إناء العسل حين تصل إليه. آه من إناء العسل حين تضع عليه حافة لسانك وتصيح: "كم طال الانتظار"!

في الثامنة صباحاً، وحين وقف أبوها يغسل سياراتهم، وبعدما وضع في جيب جلبابه قائمة مشترياتهم ركضت في جنون إلى سلم التخديم وهناك شهقت عندما وجدته يجلس. رفع الغائب عينيه وأخبرها أنه على حاله منذ نصف ساعة يتنسم ذكرياتهما.

جلست إلى جواره تخبره أنها لن تستطيع البقاء طويلاً. تشعر أن أباها يشك في شيء. في ألم أخبرها أن أمه أيضاً تفعل وعلا وأباه.

نهضت حتى قبل أن تعتدل في مجلسها، وأمسك بكفها يخبرها أنه سيخرج بعد لحظات لكنه سينتظرها في "ستاربكس" ليتناولا الإفطار معاً كيوم السينما ذاك.

كانت تسمعه وأذناها تتحسسان درجات السلم كأنها تشعر بوالدها يظهر أمامها. استدارت لتغادره لكنه كان بكفها ما زال ممسكاً. حاولت أن تنفض أصابعها من بين أصابعه لكنها سمعته يقول:

اشتقت إليك كثيراً.

شعرت بعروقها تسقط من جسدها حتى تكاد تلامس أصابع قدميها. نظرت إليه وعيناها تدمعان كأن لا شيء تعرفه سمراء مثلها سوى البكاء... البكاء في الحزن وفي الشوق وفي اللقاء.

بكفه أسقط منديل رأسها وابتسم وهو يلطم جديلة شعرها.

لا تذكر إن كان هو من ضمها أم هي من رمت بحيرتها وجنون حنينها إليه على صدره. تذكر فقط أنه ضمها بقوة لم تتخيلها يوماً فيه. تذكر أنه رفع وجهها بكفه وانحنى بشفتيه يعانق شفتيها.

قبَلها قبلة عمرها الأولى. وغابت... غابت بين شفتيه لحظات ثم أفاقت وهي تبكي من جديد... شفتاها تورمتا... كيف وأين تخبئهما من والدها ومن أمه ومن ملك؟!

حاولت أن تبتعد بشفتيها وحين فعلت نظرت إليه وتحسستهما بأصابعها.

نعم هما متورمتان. وفي جنون همست:

ياسر؟!

لم يدعها تكمل. عاد يصب بين شفاهها من إناء العسل، وعادت تتذوقه بلهفة لا تظن حتى الله عليها يعاقبها!

ذاك كان اللقاء الأول بعد عودة الغائب. وتلك كانت القبلة الأولى. تلتها لقاءات وقبلات. قبّلها حين أخبرته أنها نجحت. عانقها حين اعترف لها أنه أصبح مثلها يحب ملك. عانقها حين بكت وهو يخبرها أن الأيام تركض وأنه أوشك أن يعدّ حقيبته للسفر مرة أخرى.

عناق وقبلات ولقاءات صغيرة حذرة بعيدة عن ركن المقياس المظلم إلا فى تلك الدقائق التى يقف فيها محمد ناطوراً على باب العقار. ان رأى ملك نبههما على هاتفهما ليفترقا كلّ فى طريق.

ما الذي يجمعها به؟ أصبح من المستحيل أن تدعي أنها صداقة، ومن المستحيل أيضاً أن تقول أو يقول هو أنه حب.

شيء كبير في صدريهما يعلم أنه المستحيل، وهل منا من سمع يوماً عن حب يكمل الطريق بين الأسياد والعبيد؟!

لكن كيف لها أو له أن يمتنعا عن العسل وكيف لهما أن يلقيا بجرّته عن جبل الوهم ويحطماها قطعاً صغيرة تحت أقدامهما؟!

فى أوتوا بحيرة جميلة بالقرب من معهد الموسيقى. ستؤجر بيتاً صغيراً بالقرب منها. بيت والدها ستتبرع به بالاتفاق مع العمدة ليكون داراً للمسنين تقضي به آخر أيامها إن بقيت على قيد الحياة حتى تصبح منهم. ستقضي فيه نحبها كما قضت فيه طفولتها. حتى إن جن حبيبها بعد سفرها وذهب يبحث عنها لن يصل إليها.

ستعود إلى تدريس الموسيقى وستقضي بقية يومها تراقب البحيرة وترتب أفكارها.

جاءت هرباً من موت أدهم ووالديها وها هي ستعود هرباً من موت محمد وموت كريم وموتها. جاءت هنا هرباً من قصة ريبكا وستبقى أمام البحيرة تحارب وجه ملك مندور التي يوم عشقت عشقت زوجاً وأباً.

هل هي لعنة القاتلة حقاً أم تراها رسالة من خالقها يعلمها فيها أننا لا نختار من نعشقهم لكن نختار ما نفعله معهم.

ثلاثة أيام وتجلس على خشبة دار الأوبرا المصرية تعزف ألحاناً ما كانت رغم الألم لتكتبها أو تعزفها.

الألم قد يصوغ النغمات لكن الحب وحده يخلقها.

سيبقى حب كريم في عروقها. سيبقى على أطراف أناملها لتتكاثر من بينها ألحاناً وأنغاماً تعلّمها لطلابها وتغمد فيها جراحها.

كريمة أرض مصر. كريمة جداً معها. جاءت بخنجر واحد بين ضلوعها وتعود بخناجر كثيرة. جاءتها بحقيبة واحدة وتعود بحقيبتين وضعت فيهما كل ما لمسته أصابعه. حتى الكوب الذي يصنع لها فيه الحليب وتصر أن يأخذ منه الرشفة الأولى وضعته في إحدى الحقيبتين.

آه لو تستطيع فقط أن تطلب منه فى إحدى الليالي الثلاث القادمة أن ينام معها ليلة واحدة.

في ألم سقطت دمعة من عينيها. كيف تطلبها وكيف تشرح له ما تريد وكيف وهي تعلم أن امرأة أخرى ستقيم الدنيا وتقعدها إن خلا منه فراشها ليلة.

لا تريده أن يضاجعها. لن تأخذ منه شيئاً لا تملك فيه الحق. ملك تريد فقط أن تغفو على صدره وتنام. تريد أن تتنفس أنفاسه. تريد أن يضع رأسه على إحدى وسائدها لتأخذها معها وتنام عليها ما بقي لها من العمر.

تريد أن تطفئ مصباح الضوء وتنزلق على فراشها هذا وهو إلى جوارها وتغمض عينيها موقنة أنها في الصباح ستفتحهما عليه.

ثلاث ليال وتأتي النهاية.

كيف تكون الأيام هناك من دونه؟! لا جديد... من مات يا ملك مرة لا يضيره أن يموت مرات.

هذا اليوم يوم طويل... كل الأيام التى تسبق السفر والفراق طويلة.

وضعت كوب القهوة على صحنه والتقطت حقيبة يدها تفتحها. تريد أن تتأكد أنها وضعت فيها العشرة آلاف جنيه.

ثلاث ليال ستنقضي وتعود من حيث أتت لتحيا ليالي طويلة تجتر فيها كل آلامها وذكرياتها وسذاجة قراراتها.

مهماتها كبيرة ويجب أن تنهيها.

هناك طائرة في الصباح الرابع تنتظرها. طائرة سيغلق قبطانها خلف ملك الباب لتنظر من نافذتها الصغيرة إلى أرض جاءتها تبحث عن الحب والنسيان وعادت لا الحب انصفها ولا النسيان سكنها!

لم يصدق عينيه وهو يراها تغادر سيارتها وتتقدم نحوه وهي تبتسم. ألقى بقطعة القماش الصغيرة التي فى يده إلى الهواء وركض نحوها يصيح:

ملك يا أمي. ملك.

ما الذي أتى بها إليهم. هي ترسل بدرية لاستدعائه هو أو أمه. ما الذي أتى بها؟

كان شعرها ملقى حول وجهها الجميل وثوبها الأبيض حول جسدها. حتى ساقاها كانتا في حذاء أبيض من الدانتيل وتقفان على كعب من حبال سميكة. جميلة هي!

لو تعرف كم يحبها. لو تعلم كيف يدق قلبه كلما رآها وكلما ضمته إلى صدرها.

في لحظة وقف كأنهم إلى الأرض رشقوه. لن يسمح لها أن تضمه اليوم وإن شاءت. سيتسخ ثوبها الأبيض ورآها تفتح ذراعيها وصاح يقول:

لا يا ملك... ثيابي متسخة ثوبك أبيض.

إلى صدرها ضمته وعلى رأسه وضعت قبلة وهي تقول:

أيها الحبيب... الطهارة كلها في عناق من نحب.

كانت أمه تركض نحوها وهي تحمل أخته الصغيرة على كتفيها ترحب بها. آه لو تعلم كيف تجعل هذه المرأة تبتسم مرة واحدة قبل أن ترحل عنها وقبل أن يرحل عنهما هذا الصغير وتحرم مواسم الابتسام.

لكن من يسأل ومن يتمنى؟!

بعد رحيل أدهم عنها ما جعلها تبتسم سوى الحب.

ومن أين لزوجة ضرير معدم وأم لبنات صغيرات وطفل في لحظة قد يغيب أن تعلم معنى الابتسام؟

في خجل صاحت الأم في ولدها أن يحضر مقعداً للزائرة، لكنها طلبت أن تجلس إلى جوارها وجوار زوجها على مقعد الجراج الكبير.

استدارت تنظر إلى محمد وفي هدوء طلبت منه أن يذهب إلى بدرية ليحضر منها شيئاً تركته عندها ونسيت إحضاره.

ليس صغيراً إلى هذا الحد. كان واضحاً أنها تريد الانفراد بوالديه. هل تشكو منه لهم في شيء؟

ابتسامة واسعة أطلقها محمد وأطلق بعدها ساقيه للركض.

ملك تحبه ويعلم أنها يوماً لن تشكوه. فليكن ما شاءت أن تخبرهم به بعيداً عنه... لا يعنيه إلا أن يفعل ما طلبته ويعود إليها ليملأ عينيه وصدره منها ومن ثوبها وعطرها قدر ما يسمح له هذا الصدر العليل!

نعم... هناك موعد!

ابتسمت مديرة مكتب عبد الهادى في حنان. أياً كانت النساء إحداهن من الأخرى تغار لكن في حضرة جمال ملك وبهائها لا نملك إلا أن نبتسم.

لحظات غابتها. لحظات ليست طويلة سمعته بعدها يرحب بها ويدعوها إلى التوجه معه إلى مكتبه.

بنفسه خرج من مكتبه يرحب بها ونهضت عن مقعدها تصافحه فى حنان وخجل. لو يعلم هذا الرجل أنها بين ذراعي ولده تتبعثر كل ليلة هل تراه كان يفعل ما يفعله الآن؟

حين جلست إلى مقعدها أمام مكتبه، وبعدما طلب لها قهوتها، ابتسم يخبرها أن الأنباء عن حفلها أصبحت ملء الأعين والآذان. في خجل أخبرته أنها فى انتظاره هو وزوجته وزوجة كريم وياسمين أيضاً.

ابتسم في حنان وهو يراقب وجهها وصاح يقول:

سنأتي جميعاً. زوجة كريم تنام مبكراً فهي كما تعلمين في مكتبها كل صباح من الثامنة، لكن أعدك أن أحاول إقناعها.

أرخت عينيها فى ألم، وقبل أن تقول كلمة عاد يكمل ضاحكاً:

ليس من أجلك بل من أجلها أفعل. أريد لها أن تتحرر من سجن الأرقام والأفواج السياحية والآثار. لكن أطلب منك وعداً.

فى حيرة تجولت عيناها على وجهه وسمعته يقول:

نتناول العشاء جميعاً في البيت بعد انتهاء الحفل. لم تسمحي بأن نفعل قبل الحفل فعدينى أن نفعلها بعده.

هل تحتمل أن تجلس إلى طاولة الطعام فى بيتهم... هل تحتمل حقاً أن تراقب رجلها يجلس إلى جوار زوجته ووالديه يرحبون بها ويطعمونها ثم تعود إلى بيتها وحدها؟

إلا تلك الليلة... هي الليلة الأخيرة... تريد كريم معها... تريده وللمرة الأخيرة أن يضمها ويذهب بعد أن يحكم عليها غطاء فراشها لتنهض بعد خروجه وترحل من دون عودة. أفاقها صوته يقول:

ألا تقبلين الدعوة؟!

بعد لحظات من الصمت رفعت عينيها وقالت فى صدق كبير:

ما تمنيت سوى أن أجتمع بكم جميعاً ومع السيدة ثريا. سيد عبد الهادي في حضرتك وحضرتها وحضرة

كريم أتنفس رائحة عائلتي التي فقدتها بل من أجل هذا جئتك أطلب منك صنيعاً كبيراً.

في تلك اللحظة تقدم ساعي المكتب يضع أمامها فنجان قهوتها، ورأته ينهض عن مكتبه ومن خلف ظهرها تقدم ليجلس أمامها، وفي حنان رأته يضع كفه على فخذها يربت عليه وقال:

ملك... واسمحي لي أن أقولها هكذا. كريم يحبك. هو دوماً يتحدث عنك. أصبحنا جميعاً نحبك. ثريا يوم سألتها كاميليا لماذا لم تخبرنا بوجودك معها وتعارفكما ضحكت تقول إن من يعرفك تصيبه الأنانية ويتمنى لو يحتفظ بها لنفسه. مرات كثيرة فكرت بالتقرب إليك وطلبت من كريم وندى أن يقوما بدعوتك فهما إلى سنك يا أبنتى أقرب، لكن لكل شيء موعداً نشتهيه ولا نختاره. ماذا في إمكاني أن أفعل أخبريني.

تنهدت وهي تمد أصابعها تلتقط بها كوب القهوة. ومن صدر ذبحه فراق جاء وآخر آت شحذت نفساً عميقاً قالت بعده في صوت كأنه دخان حريق كبير:

سيد عبد الهادي... عدني ألاّ يعرف كريم شيئاً مما سيدور بيننا. ورأس حبيبتك كاميليا... هل تعدني؟!

رغم أنه لم يتردد في أن يعدها إلا أن قلقاً عميقاً ارتسمت خيوطه على ملامح وجهه، وبعدما منحها كلمته أكملت تقول:

كريمساندني كثيراً في موضوع الموسيقى. هو استشعر أني وحيدة لهذا فحنوه عليّ قد يجعله يظن قراري جنوناً. قررت العودة من حيث أتيت. لهذا أنا هنا. أريد إعادة الفيلا التي اشتريت وفي إمكانى التنازل عن كل ما دفعت إن كانت هذه قوانينكم. وأنا في طريقي إليك حادثت مالك العقار الذي أسكنه وأخبرته أن محامياً قديماً أعرفه سيحادثه في خلال أسبوع وينهى معه إجراءات بيع شقة والدي. لم أستطع أن أفعل هذا معك. أنت وولدك لكما عليّ فضل كبير، فكيف أرسل لكم محامياً وأوراقاً. لا أنوي العودة إلى مصر أبداً وحتى الموت.

كان يراقب وجهها وهو يتلون بالألم مع كل حرف تنطق به. كان يشعر أن حروفها لا تخرج أبداً من حنجرة أو شفتين... كان يراها تخرج من عروقها.

ربما لها الحق في قرارها. سكان مصر جميعهم يغادرونها فلماذا يتوقع من الزائرة أن تبقى؟ لها الحق أن تعيد الفيلا فثمنها كبير ولكن أن تتخلص حتى من بيت والدها فهذا له معنى كبير، وأن تطلب منه عهداً بإخفاء الأمر عن كريم فبأيّ شيء يمكن أن يفسر كل هذا؟

أشاح بوجهه بعيداً عنها لحظة ثم قال في ألم:

في إمكانك إعادة الفيلا واستعادة كل ما دفعته كاملاً عدا ما أنفقته على تشطيباتها ملك. ولكن هل في إمكانى أن أسألك سؤالاً واحداً؟

من دون أن تتحدث هزت رأسها بالإيجاب وجاءها صوته يقول:

من ماذا تهربين؟!

من دون وعي منها رفعت وجهها تنظر إليه في جنون. هل شعر بشيء أم تراها وحدها تظنهم لا يشعرون؟ حين التقت عيناهما... حين غاص بحكمة عمره الطويل في عينيها الخضراوين هزَ كل منهما رأسه في سكون.

ما عاد للإجابة أبداً حاجة... هناك أمور تنقش في أعيننا بوضوح وإن عجزت عن النطق عنها ألسنتنا!

صباح الخير يا حبيبي:

"أشرقت شمس اليوم الكبير. لم أتمنَ لو كان معي بدر يوماً كما تمنيت أن يكون في هذا اليوم. وأيضاً لم أسعد لغيابه عني يوماً كما أفعل اليوم.

يا ولدي الذي لم يسكن أحشائي. يا رائحة زوجي الذى مات بك أباً رغم أنه لم ينجب. ترفق بي وبأم ابنتك. لن أقول أجّل ما تريد تنفيذه إلى الغد، ولكن أرجوك لا تلوّن كل غد آت فى قلبها بالأسود. كيف أذهب إلى حفل ملك وأجلس إلى جوار أمك وأصفق طرباً وأنا أعلم أنك على جثة ندى تدلي ساقيك؟

أرجوك ترفق. تروَ ودعنا يوماً نجرب طعم السعادة من دون أن تتلون بخيوط الألم والحسرة."

لماذا لا يضع الهاتف عن يده ويكف عن قراءة السطور... كاد يحفظها بل هو فعل.

تتألم ثريا. يعلم أنها تتألم رغم أنها سعيدة من أجلك ملك لكن لا شيء عن قراره سيثنيه.

وسمعها تقول في صوت خفيض:

أريد أن أخبرك بشيء. هل لك أن تضع هذا الهاتف بعيداً عنك ولو لحظات؟

رفع كريم عينيه ينظر إلى وجهها الجميل في ألم. سيحرم من هذا الوجه رغم زهده فيه. رغم إيمانه الكبير أن فراقهما رحمة كبيرة لكل منهما إلا أنه يتألم. ليته يستطيع أن يخبرها إلى أين سيذهب.

يشعر أن تطليقه إياها من دون علمها خسة لا تصدر عنه، لكنه لا يحتمل أن يرى كبرياءها تذبح أمامه. لا يكرهها أو يعاقبها بل هو يكرمها. هي عنده أكبر من الخديعة. ولكن كيف يشرح وهل تفهم؟

في إصرار عادت ندى تقول:

كريم. هل تسمعني؟!

بابتسامة صغيرة مريرة نظر إليها يهز رأسه بالإيجاب وهو يفكر.

ترى أيهما أكثر أهمية، أن نسمع من يتحدث أم أن تكون لدينا الرغبة فى الإنصات إليه؟

وضعت كفها على فخذه وهي تقول في خجل:

هل تسمح لي أن أعتذر عن مرافقتكم إلى حفل صديقتك الليلة؟! هناك عشاء عمل تقيمه الشركة و...

وفي مرارة أكبر قاطعها قال:

بالطبع... على العكس أنا لا أرى لحضورك داعياً. أعلم أنك لا تحبين الموسيقى ولا الغناء. لا داعى للعناء.

شيء على وجه كريم هذا الصباح لا يريحها. شيء فى أنفاسه ليلة الأمس أيضاً لم تحبه وعادت تقول كأنها

تئن:

أما زلت غاضباً لإلغاء سفرنا إلى البهاماز؟ سفري إلى اليابان ليس عملاً عادياً بل هو إنقاذ لعقد مهم يكاد يضيع. بابا ما عاد على سفر المسافات الكبيرة يقوى. قد نفعلها في رأس العام القادم.

بصدق وألم لم تعرف ندى أيهما أكثر عمقاً فى عينيه، رأته يضم كفيها بين أصابع كفيه ويضع عليهما قبلة طويلة ونهض بها عن مقعدها ثم ضمها إلى صدره يقول:

أنا أيضاً أسافر خلال أيام.

انتفضت على صدره وهي تقول:

تسافر؟ وياسمين؟!

في مرارة كبرى ابتسم وهو ما زال إلى صدره في قوة يضمها. كأن ابنتهما مسؤوليته وحده أو كأنها استأجرته لها جليساً وقال في هدوء:

ستبقى مع كيكي عند تحديد سفرك إلى اليابان... هناك نشأت وهناك تعلم أن لا أحد سيتركها. الأمان في بيتهم!

ابتعدت عن صدره قليلاً وهي تقول في اعتذار:

أنت غاضب؟! أنا أنقذ كارثة.

كان يملأ من عينيها عينيه وهو يقول:

بقاؤك هنا... سفرنا إلى البهاماز لن ينقذ أبداً ما بات إنقاذه مستحيلاً!

عندما انثنى ذاك الصباح يوقع ورقة طلاقها كانت أصابعه ترتجف حتى أن مأذون المكتب شعر به وأمسك بكفه يقول:

يا ولدى... أنت تكره تطليقها وربك فى سمائه يبغض الطلاق. لا تفعل شيئاً تكرهه.

دمعة صغيرة انزلقت من عينيه وهو ينحني من جديد موقعاً قائلاً:

أنا أفعل لأني أحبها!

كانت تدور فى ثوبها وهي سعيدة به. لا تصدق أبداً أنها ترتدي ثوباً قيمته "ألف جنيه" عادت تدور به في سعادة كبيرة ثم التقطت منديل الحرير الأخضر الذي اشتروه مع الثوب ليكون حجاب رأسها بين كفها ونظرت إلى السيدتين في امتنان كبير وابتسمت ملك ابتسامة صغيرة تقول:

لا أقصد شيئاً ولكن ألا تخلعين حجابك هذه الليلة فقط يا بدرية وتذهبين معي إلى مصفف الشعر؟!

رقصت في عينى الشابة نظرة جنون، وتمنت للحظة لو تفعل. تصفف شعرها لينسدل على هذا الثوب وتجلس إلى جوار ياسر وأمه فى الحفل. التقطت مروة تلك النظرة المجنونة في عينيها وقالت كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة:

يقتلني عمران. فلنؤجل هذه الفكرة حتى تصبح عروساً. من يعلم قد نحتفل بزواجك أنت وياسر في ليلة واحدة.

كأن صواعق الأرض ضربت جسدها وعينيها الراقصتين. نظرت إلى مروة التى أرخت عينيها تكمل من دون اكتراث:

أياماً ونعلن خطوبة ياسر على ابنة أحد الأصدقاء. لن يتزوجا قبل انتهائه من الجامعة. ربما نقيم لكما حفلاً واحداً.

ملك صاحت تقول:

لم تخبريني؟! هو نبأ رائع في يوم كهذا.

مروة كانت تنظر بكلتا عينيها إلى فتاة كانت فى فرحتها ترقص وتدور، وفي لحظة أصبحت كتمثال شمع باهت وأغمضت عينيها فى ألم. هي لوحيدها عاشقة ورفضه لمشروع الخطبة الذي أخبره به زيدان يؤكد أنه بها هو الآخر مجنون.

في دهشة نظرت ملك إليهما معاً وعادت تنظر إلى وجه الشابة الذي غاب خلف سمرته في ألم واضح وقالت:

بدرية... ما بك حبيبتى؟

نهضت مروة من مكانها تربت على كتفيها قائلة:

إذهبي بثوبك ليراه والدك. إذهبى الآن.

حاولت الصغيرة أن تقول شيئاً. حاولت أن تستدعي خمسة حروف صغيرة تنقذها وتنقذ كرامة والدها وأرض صعيدها... خمسة حروف لو استطاعت أن تقولها لربما هدأت هذه النظرة التي في عين ملك وهدأت الرنة الساخرة المريرة في صوت مروة. لكنها التقطت

ملابسها التي جاءت بها ومنديل الحرير الأخضر، ومن دون كلمة واحدة خرجت وأغلقت خلفها الباب.

فلتمت الكرامة وليحترق الكبرياء... لن تقول أبداً كلمة "مبروك".

استدارت ملك تسأل وفي ألم قالت الأم:

بدرية وياسر بينهما شيء أخشاه وإن كنت لا أعلمه.

تدلى رأس ملك في سكون. ورفعت رأسها بعد لحظات تقول:

لا تتخلي عنها أبداً حتى بعد أن تتركي هذا البيت... هي يتيمة... أنا عليك أعتمد.

في حيرة نظرت إليها مروة. وأكملت الأولى تقول:

أنت أقوى مني ومنها. لن تتخلي عنها حتى تنهي دراستها ولا عن محمد حتى... حتى يموت... ستمنحينهما عنوانك الجديد. عديني يا مروة عديني.

فى ذهول عادت مروة تنظر إليها. هي تعلم أن زيدان سيذهب بابنته إلى أمريكا فلماذا تظنها تترك البيت؟ مسكينة هل تظنها أقوى وهي لا تعلم أنها أضعفهم جميعاً؟ وقالت في ألم:

لن أتخلى عنها وأنت لن تتخلي عن محمد. سنبقى هنا معهما يا ملك... سنبقى هنا معهما... أنا وأنت.

لن تخبرها الآن بقرارها. لن تخبرها الآن أبداً أنها في الغد وفي مثل هذا الوقت لن تجدها ولن يبقى منها

سوى رسائل تركتها لهم، وقروش للصغيرين، ولكن لماذا لا تخبرها مروة بمكانها الجديد؟ وقالت في إصرار:

هل تعودين إلى الحسين بعد تسليم الشقة إلى ناصر وجيه؟

كانت مروة لا تفهم، وبدأت ملك تصدق أنها حقاً لا تعلم. وعادت تسألها إن كانت قررت السفر مع زوجها وأبنائها والعودة إلى أمريكا.

كل شيء في هذه الحالة سيتغير مجراه. هي على مروة وبقائها في مصر تعتمد. عادت تستوضحها وتخبرها أن زوجها باع الشقة لناصر وجيه وسيستلمها بعد سفره هو وياسر وعلا. كانت تئن وهي ترجوها أن تخبرها أنها باقية في مصر كما أخبرتها دوماً.

نظرت إليها في بلاهة تسألها ألف مرة عن قصة بيع الشقة، وككل الأنباء التى تخصنا ونعلم أنها مباحة للجميع سوانا علمت النبأ القديم.

وحيد باع الشقة وسيترك ناصر يُعلمها ويلقي بها إلى الشارع. هل تأخذها ملك وكيف عندها تبقيها وهي عاشقة يزورها حبيبها كل ليلة؟

أغمضت عينيها في ألم كبير وصاحت ملك تسألها:

مروة... أما كنت تعلمين؟!

بابتسامة صغيرة مريرة قالت:

بلى والله كنت أعلم.

ثلاث نساء في بناية واحدة يبكين بكاء مريراً ولا تعلم إحداهن عن الأخرى شيئاً.

بدرية في غرفتها تئن وتكتم صوت أنينها حتى لا يسمعها عمران، ويقتله عليها الألم ويطيح برأسه الطيب عارها وسقوطها في غرام الأسياد كما قال لها يوماً.

ياسر سيتزوج ولمَ لا يتزوج؟ هل صورت لها بلاهتها يوماً أنه سيجلس في هذه الغرفة يطلبها من أبيها، بل أين كان سيجلس والغرفة لا مقعد واحداً فيها؟

أم كانت تظن الدكتور زيدان سيطلبها من أبيها وهو يجلس إلى جوارهم على الدكة الخشبية المهترئة؟

ما تراهم في بطاقة الدعوة يكتبون؟ عقد قران المهندس ياسر زيدان على السمراء الجميلة "ابنة البواب"؟!

فلتتمزق ألف ألف قطعة من البكاء والألم، ولتنهض من تحت غطائها وتأخذ حمامها وترتدي ثوباً أحسنت به إليها السيدة ملك وتذهب مع السيدات والسادة إلى دار الأوبرا المصرية وهي ترفع رأسها المبتور وتحاول أن تنطق تلك الحروف الخمسة علها تعيد ترميم أشلائها.

مع كل دمعة تكتمها الآن ستكرر "مبروك... مبروك أستاذ ياسر... مبروك سيدة مروة... أخذتني المفاجأة لحظتها ولم أبارك وها أنا الآن أفعل".

تئن بدرية... تتمزق... لن يذهبا إلى مقياس النيل... لن يجلسا على درجات السلم الحديدي... لن يضرب جديلتها بكفه... ولن تكفَّ عن ترديد الكلمة أبداً حتى موعد حفل ملك.

كلمة واحدة صغيرة قد تنقذ ما بقي من كرامة أبيها التي ذبحتها حين نسيت حقيقتها التي لن ينساها.

مروة أيضاً كانت تبكي في جنون. أهذا ما يعده لها وحيد... أم تراه القدر أراد في اللحظة نفسها التي رشقت فيها خنجراً في صدر بدرية أن يرتد إلى صدرها خنجر نصله أكثر حدة وسماً بيد ملك؟

لكن كلا الخنجرين حق... ياسر وبدرية لا يلتقيان. وحيد سيمزقهما معاً إن أعلن وحيده يوماً أنه يريدها.

أين تذهب؟! ملك لن تتخلى عنها. أخبرتها أن ما يبقيها مع وحيد أن لا مأوى لها. هل فعل وحيد هذا لتتبعه إلى أمريكا. ولا هذه تفعلها. لن تتوه في الطرقات. ستكتم دمعاتها وتفسد عليه مفاجأته. بل يكفيها أنها ما عادت مفاجأة. ما زال عندها رصيد يكفيها لأن تؤجر بيتاً بعيداً وإن كان غرفة واحدة. لن تأكلها كلاب الطرقات يا وحيد.

أصبح لديها ما إن رزق الله به إنساناً لا يضيع...

ابنة إمام الحسين لديها ملك مندور... لديها صديق!

حادثتها ثريا. كان صوتها حانياً هادئاً به مسحة ألم تعلن عن نفسها في ثقة كبرى. حتى كريم حادثها وأخبرها أن والديه قادمان وياسمين عدا ندى فهي تعتذر لاجتماع عمل طارئ.

حتى هو كان صوته مكسواً بالألم والضياع.

هل يشعران من دون وعي منهما برحيلها؟ رغم أن ألمهم جميعاً لو اجتمع مع ألم مروة وبدرية وحتى محمد بل وجميع سكان الأرض ما شكل خيطاً واحداً من خيوط شرنقة أحزانها، إلا أن ملك أبداً ما أرادت أن يحزن أحدهم هذه الليلة.

هذه الليلة للموسيقى والحب والوداع.

في هدوء نهضت عن مقعدها وفتحت خزانة ملابسها، وبيديها أبعدت بعضاً من ملابسها ليظهر رأس حقيبتها التي أغلقتها قبل ذهابها إلى مصفف الشعر.

ابتلعت دموعاً كادت تخونها... هذه الليلة لن تبكي... ليالي العمر القادمة كلها للبكاء!

ليست المرة الأولى التي تجلس فيها مروة إلى جوار ياسر وهو يقود سيارة زيدان، لكنها تشعر أن كل من معها تشتعل في رأسه ألف فكرة. ولدها شهق عندما رأى بدرية تخرج وهي ترتدي ثوبها الحرير الجميل الذي يكشف عن جزء من ساقيها للمرة الأولى منذ قدومها من الصعيد، لكن ماتت شهقة انبهاره لتلك النظرة التي دججته بها والتي تعلم مروة من دونه سببها.

محمد الذي يرتدي حلة رائعة كأنه في ليلة عرس، كان يجلس هو الآخر خلفها إلى جوار بدرية مشدوهاً مذهولاً لا يصدق أبداً أن ملك استأجرت سيارة تأخذ والديه وعمران إلى دار الأوبرا.

حاولت ملك كثيراً مع عمران ووالده أن يرتديا حلة ليدخلا بها إلى المسرح لكنهما أصرا على الرفض فأخبرتهما أنهما سيبقيان حولها في الكواليس. وحدها أمه أرتدت عباءة سوداء جديدة اشترتها لها، وحين وقف والده هذا الصباح يرجوها أن تعفيه من الذهاب سمعه يقول:

"سيدة ملك لمَ أذهب؟ لن أرتدى حلة رسمية فأجلس مع البكوات، ولا أنا مبصر لأراك أو أراهم".

يكاد يجن محمد كلما يتذكر كيف اقتربت حبيبته من والده ووضعت على رأسه قبلة وهي تقول:

الموسيقى لا تحتاج إلى بصر أيها الطيب... وجودك هو المطلب الأول والأخير لي عندك فهل تردني؟

من يرد ملك؟ من يردها ومن قدر ما يحبها قلبه الصغير يحبها؟!

سيراها على المسرح. هل تنظر إليه... هل يلوح لها بكفه... أبداً كفاه الليلة ليستا للتلويح أو التحية. كفاه الليلة للتصفيق لها.

يحبها... يذوب فيها عشقا وحباً... ليته كان أكبر قليلاً لاستطاع أن ينافس هذا الكريم الذي يزورها وتخرج معه كل ليلة. هل يجده هناك؟!

حتماً سيجده. يكاد يقسم أنها، وإن كانت مصر بأكملها كريم، حب محمد لها يبقى أكبر وأقوى لكنه في عينيها طفل.

ألا يحب الأطفال؟ ألا يعشقون؟!

بطرف عينيه اختلس نظرة إلى بدرية. جميلة هي الأخرى هذه الليلة لكنها حزينة كما أبداً لم يرها. بعينيها تنظر إلى ياسر بحزن وغضب.

لماذا ليسوا سعداء كسعادته... لماذا ليسوا في زهوه وسعادته؟ لأن أحداً فيهم لا يحبها مثله.

وصاح كأنه قرر أن يكشف السر الكبير... صاح بصدره المتهدج وقلبه المحتضر يقول:

بدرية... سيدة مروة... أستاذ ياسر...

استدارت مروة تنظر إليه في خوف. هل انتابته نوبة من نوبات سعاله ورأى في عينيها دمعة؟ لماذا كلهم يكادون يبكون؟ لا يهمه...

عادت تستوضحه ما به... وصاح محمد ضاحكاً يقول:

أحب ملك بل أنا أكثر من يحبها على الأرض بأكملها!

كم مرة وقفت على مسرح معهد أوتوا، وكم كان عدد المتفرجين وأساتذة الموسيقى والمتخصصين الذين جلسوا يستمعون إلى عزفها وموسيقاها؟

هذه المرة تختلف... هذه الأرض تختلف وهذه الرجفة التي بين ضلوعها أيضاً تختلف.

ألأنها لم تؤلف يوماً قطعة موسيقية من وحي الحب كما فعلت هذه المرة؟! أم لأنها ما عزفت يوماً على أرض وهي تعلم أنها تقف في حضرة الوداع والموت؟

كانت تجلس على أحد المقاعد في الكواليس ورأسها متدلَ بين كتفيها حين شعرت بجسده يقف أمامها ورفعت عينيها تنظر إليه لتسمعه يقول:

سيدة ملك... هل حقاً تريدين بقائي؟!

نظرت إلى عمران الذي يقف أمامها بجلبابه الأبيض النظيف وعمامة رأسه البيضاء، ونهضت من مكانها تنظر إليه، وفي اللحظة التي سمعت فيها ناقوس البدء يعلن فتح الستار قالت له:

أرجوك أنا أريدكم جميعاً معي في هذه الليلة.

كان الستار قد فتح وجمهور المسرح الكبير بدأ يصفق بحرارة لتحية الفرقة التي أخذت جميع

مقاعدها. وبين ستائرها الجورية وقفت ملك تراقب إيناس عبد الدايم بنفسها تتحدث عنها وعن تاريخها وتقدمها إلى الجمهور بكلمة صغيرة، رفعت بعدها ذراعها تعلن عن دخول ملك مندور إلى خشبة المسرح.

تقدمت في هدوء، وحين وقفت إلى جوار إيناس انسحبت لتتركها وحدها وخيّم صمت كبير على المكان. كأنّ كل من يجلس على مقعد كان يملأ ناظريه من حضورها.

كانت ترتدي ثوباً أحمر داكناً من الشيفون يقف أسفل ركبتيها، لا تفاصيل فيه سوى أنه يحتضن جسدها حيث جمعت شعرها بأكمله فى شينيوة رقيقة فوق رأسها ليظهر وجهها أكثر وضوحاً وعنقها أكثر طولاً وارتفاعاً. بنظرة سريعة رمت عينيها في الصف الأول. كان كريم يجلس إلى جوار والديه من جهة، ومن الجهة الأخرى ابنته. جميلة ياسمين... أجمل من كل ما رسمته لها من صور. إلى جوار كاميليا كانت ثريا تجلس في ثوبها الأسود وبطرف عينيها أحنت رأسها لهم كأنها ترسل تحية تقدير خاصة.

بدرية كانت تجلس إلى جوار مروة التي يجلس ياسر إلى جوارها ووقفت عيناها على وجه حبيب صغير تعلم أنها وإن بقيت معه فوداعه قادم وفراقه محتوم.

كان وجهه يتهلل ويتحرك في مقعده في جنون كأنه يريد أن يعلم أنها تراه.

رفعت رأسها قبل أن تسقط منها دمعة أو ترسل له آخر قبلاتها.

لم تقل كلمة بل استدارت في هدوء لتجلس على مقعدها أمام البيانو لتبدأ عزف أولى مقطوعاتها الموسيقية. كان عزفاً منفرداً على البيانو لقطعة لم تكن من تأليفها، بل اختارت أن يكون أول ما تقدمه مقطوعة يعرفها الجميع ويحبها. كانت أناملها تعزف في خفة سريعة، وشفتاها مصبوغتان بلون أحمر فاتح لا يكاد يظنه أحد سوى لون شفتيها اللتين أخذتا تنفرجان في هدوء.

هي أحلى وأبسط قطعة موسيقية عزفها بيانو يوماً، ورغم هذا ما زالت في القلوب تحيا.

اتسعت ابتسامتها وهي تردد على نفسها: أليس حقاً أبسط الأشياء أجملها وأكثرها قوة وتعقيداً، كهذه القطعة الخالدة التي اختارتها:

"Love Story"؟

كل قطعة في روحه كانت تسقط فوق الأخرى وهو يسمع مقطوعة "الفلوت" الأولى التي عزفتها ملك.

كانت تقف وحدها في منتصف المسرح الكبير بعدما خفتت الإضاءة جميعها عدا دائرة بيضاء كبيرة فوق رأسها. وشعر كريم لحظتها أن ملك ذاتها بدأت تختفي لتظهر تلك الروح التي تتملكها عندما تغيب خلف موسيقاها.

Be Still My Soul كيف ينسى؟! كان أول ما سمعه منها على مقياس النيل المظلم. بدأت الصور تركض بين جفنيه وهو يستعيد لقاءهما الأول، وحتى هذا الصباح حين انثنى يوقع ورقة طلاقه.

كان يغرق في صور ذكرياته معها ويعود لينظر إلى وجهها الهائم الغائب وهي تنفخ في عصا الفلوت ويشعر أن كل من في المسرح الكبير حبس أنفاسه كأنه يريد نقش نغماتها نقشاً على روحه وأذنيه. كان يتمنى لو ترخي رأسها وتلتقي عيناهما، لكنها كانت هي الأخرى تستعيد تلك اللحظات ذاتها التي جمعتها به. لحظة تلو الأخرى حتى هذا الصباح الذي أغلقت فيه حقيبتها استعداداً للرحيل.

حين انتهت من قطعتها الأولى على "الفلوت" وضجت القاعة بدويّ تصفيق هائل، بقيت لحظات منحنية في صمت كبير واستدارت لتمسك بين يديها بالميكروفون ثم رفعت رأسها وتحدثت إلى جمهورها للمرة الأولى حيث قالت:

"لم أحييكم عند دخولي لأني لم أجد كلمات تساوي شكري وسعادتي بوجودي هنا. لهذه الأرض رائحة تختلف عن أي أرض، ولأنفاسكم الطيبة، ولهذه القاعة رائحة لا تساويها رائحة أخرى. قد يسميها البعض رائحة حب لكني أسميها "رائحة أهل ووطن".

في خطوات صغيرة خطتها ملك نحو حافة المسرح أكملت تقول:

"على هذه الأرض أحياني الحب لأنه علمني أن أرضه ما زالت أرضاً للمعجزات وإن جاءت من دون أنبياء. اسمحوا لى قبل الفاصل أن أثبت لكم كلماتي".

سقط قلب ثريا في قدميها. إلى أين تتقدم ملك، ومن تناديه بذراعيها المفتوحتين؟ هل تفعلها وتطلب من كريم أو منها الصعود إلى المسرح؟

لكنها وقفت بعينيها على وجه الصغير، وبابتسامة جميلة أشرق معها وجهها ليصبح أجمل ألف مرة فوق بهائه وجماله، نهض محمد عن مقعده كأنه هو الآخر

مسحور بعينيها. صعد على درجات المسرح الجانبية وأمسكت به بين يديها لتقول مجدداً:

"علمني هذا الصغير أن الموسيقى كالحب تولد في الروح ولا تغادرها حتى بعد الموت. لنسمع معجزة لم تدخل باب مدرسة ولا جلست يوماً على مقعد دراسة".

لهذا إذن أخبرته أن يضع عصا أبيه في جيب حلته. حين أخرجها بكفه الصغيرة واستدار ليواجه ذاك الجمهور الكبير يراقب بساطة حاله الواضحة رغم أناقة حلته، انتفض قلبه المحتضر وهمس باسمها انحنت تضع على رأسه قبلة صغيرة صفق بعدها الجميع تشجيعاً له.

لن يخذلها ولن يخشى شيئاً. نظر بعينيه إلى كريم فى الصف الأول. سيثبت له ولملك أنه أكثر منه قوة ورجولة وجرأة.

كانت دوماً عندما تدعوه إلى بيتها تدربه على عزف قطعة يحبها، ونظر إليها كأنه يسألها وأومأت بعينيها كأنها تجيبه بالإيجاب عن سؤال عرفته.

عزف محمد على عصا الناي البسيطة التي تدور في شوارع مصر وحاراتها ونسترق لها السمع بآذاننا لحظات ولا ندرك كم هي معجزة أن يفعلوا، وكم هي معجزة لا ندرك نحن بهاءها!

حين انتهى من عزفه البسيط بعد دقائق، وحين صفق الجميع لذلك العزف الشجي الحنون، كانت هناك امرأة ترتدي عباءة سوداء وقفت تصفق ودموع غزيرة تسقط على وجنتيها.

أم لم تكن تعلم أن أسياداً وسيدات يصفقون يوماً لطفلها بهذا الحب وهذه الحرارة. أم لا تعلم أن طفلها الذي غاب في سعاله والستار يسدل عليه سيغيب قريباً عن عينيها إلى الأبد، لكن ستبقى صورة هذه اللحظة في رأسها وفي أذني أبيه حتى تحين لحظة لقائه لا في الأرض بل في السماء.

أسدل الستار على ملك وهي تحتضنه إلى صدرها في قوة وحنان تحاول أن تهدئ سعاله، ولا هي تعلم كيف يحبها ولا هو يعلم أنها ستغيب عنه في الغد كما سيغيب هو في القريب عن كل غد آت على الأرض!

عندما همّ كريم بالنهوض عن مقعده في الفاصل للتوجه إليها، أمسكت ثريا بيده وطلبت منه أن يتركها... همست في أذنيه أن ملك لا تحتمل رؤية أحدهم الآن فليتركها حتى نهاية الحفل. بعينيه رأى عبد الهادي ولده وهو يلتقط كفها ويضع عليها قبلة ويقول:

"آسف ماما ثريا... لم أستطع تنفيذ طلبك".

بعينيها رأت كاميليا تلك الدمعة التي طفت في عين صديقتها وتوأم روحها وهي تنظر إليه في ذهول ثم قالت في حسرة:

"ما طلبت سوى التأجيل لكن كيف ألوم عاشقاً إن تعجّل؟!"

قبل أن يسأل أحدهما أو يجيب الآخر، استدارت أعينهم جميعاً إلى محمد القادم من عند ساحرة الحفل وهو مزهو بنفسه حيث نهضت أمه عن مقعدها تضمه إلى صدرها ويبكيان معاً في نشوة كبيرة.

وحده كريم ذهب إليهما وبدرية تتبعه وخلفهما ياسر. حين مد يده إلى الصغير يصافحه رفع الشاب الصغير عينيه في ابتسامة كبيرة.

لم يعانقه أو يربت على رأسه كما فعل الجمهور الذي التقاه فى الطريق... هو يعلم أنه رجل مثله لكن خانته الطفولة ليقول:

هل كان أدائي رائعاً حقاً أستاذ كريم؟!

ابتسم فى حنان وألم وهو يقول كأنه يفهم ما يدور في أضلع الصغير وقلبه الضعيف قائلاً:

لماذا تحبك ملك إذن؟!

في تلك اللحظة كانت مروة تراقب وحيدها وهو يقف خلف بدرية. رأته يمسك بذراعها في قسوة لكنها ما سمعته يسألها عن سر جمودها وهربها منه ومن عينيه.

بدرية عانقت والدة محمد وألقت برأسها على كتفيها في راحة كبيرة. أنت على صدر من هم مثلك تسترخي لأنك تعلم أنهم منك وأنت منهم!

حين حان وقت اللحن الأخير الذي تختتم به ملك حفلها، بعينيها البهيتين نظرت إلى كريم وحده وقالت:

"إليكم اللحن الذي ما سمعه أحد سوى أنا والرقيقة "منال محيي الدين" عازفة الهارب...

أنا أهدي هذا اللحن إلى رجل أحياني بعد موت طويل. رجل وحده جاء بي إلى هنا. ورغم هذا سأعود وحدي من دونكم ودونه.

أهديه اللحن الأخير".

سكتت لحظة وتهدّج صوتها بالدمع لتهمس مجدداً باسم لحنها.

"لأني أحبك"!

غابت الأضواء جميعها. حتى ملك ما عاد من الممكن أن يراها أحد من الجمهور. كانت هالة بيضاء تضيء وجه عازفة الهارب التي أخذت بأصابعها تداعب أوتاره في حنان وقوة. كانت النغمات تنساب ناعمة حنونة شجية ثم تعلو وترتفع كأن رياحاً تضرب أناملها وأوتارها ثم تتكسر من جديد.

كان اللحن رائعاً، هادراً، استمر "الهارب" فيه دقائق ثم خفت صوته في النهاية ليبدأ ظهور صوت "الفلوت"

في أنغام هادئة تعلن عن مولد حياة جديدة تعزفها ملك "صولو".

غاب الضوء عن "منال" والهارب وظهرت ملك تحت دائرة ضوء أخرى وقد فكت مشابك شعرها وسقط شعرها على كتفيها وغابت ملامحها فى حضرة سلطان عصاها، وأخذت تنفخ في عصاها كأنها تولد وتموت.

لم يكن لحنها طويلاً لكنه كان عميقاً كتجارب العمر. حزيناً كالنهايات... دافئاً كأذرع من نحبهم!

لأني أحبك أعزف... لأني أحبك أحيا ولأني أحبك سأقتل الحب وأموت... هل يفهمها كريم؟! هل حقاً يرى ماذا بروحها صنع وماذا هي بذات الروح من أجله ستفعل؟!

هدأ اللحن... هدأ وفتحت عينيها لتراه من خلف دمعاتها يصفق مع كل من نهضوا عن مقاعدهم يصفقون في حرارة وإجلال وحب.

لم تستطع أبداً أن تنحني لهم. شعرت أنها إن فعلت تسقط أمامهم على ركبتيها وهي في ناظريه تريد أن تكون على قدميها واقفة حتى اللحظة الأخيرة.

أسدل الستار، وحين أخبروها أنهم يجب أن يفتحوه من جديد فما زال الجمهور يصفق ما استطاعت أبداً أن تفعل. هي بخطوات هادئة وعصاها بين يديها دخلت ما بين كواليس المسرح ورأت طلبة يجلس على مقعده

ودمعات غزيرة تسقط من عينيه. لم تقاوم... ضمته إلى صدرها وهمست:

لا تخش شيئاً... يموت كل شيء ويبقى الله معنا حياً لا يموت!

كان لقاء سريع بينهم جميعاً. ضمتها كاميليا إلى صدرها وهي تخبرها أن كل من التقاها كان على حق حين عاد وهو يذوب فيها عشقاً.

إلى صدرها ضمت هي عبد الهادى في حنان تشكره على حضوره، وبصوت تائه عاد يكرر عرضه بدعوة العشاء إلا أنها، ومن جديد، أعتذرت لكن زوجته أمسكت بذراعها تخبرها أنها ستقيم على شرف نجاحها بعد أيام احتفالاً كبيراً، وابتسمت ملك تهز رأسها بالموافقة.

حين استدارت نحو ثريا بعدما عانقت مروة وبدرية رأت في عينيها خليطاً من زهو وفرح وحزن وانكسار... تلومها لأنها أهدته لحناً أم تلومها لأنها ما زالت تحبه؟

حين ضمتها انتفضت على كتفيها، وشعرت ثريا بريح فراق قادم، لكنها كذبت شعورها وهمست في أذن ملك أنها رغم كل ما كان أو سيكون تحبها كما لا يعرف الحب أحد...

من على كتفيها فتحت عينيها لتراها تقف إلى جواره وهي تبتسم. كانت تحمل في يديها باقة كبيرة من زهر "التيوليب الأبيض" وابتعدت عن ثريا وتقدمت نحوها.

رفعت كفها ووضعتها على شعرها النحاسي الناعم وقالت:

الياسمين منك يغار... هل تعلمين كم أحبك؟!

ابتسمت الصغيرة وتلألأت عيناها. لا تصدق أن الجميلة التى كانت تصفق لها هي ووالدها منذ لحظات تخبرها أنها تحبها كثيراً، ومدت يدها بباقة الزهر إليها حيث ضمت الزهر إلى صدرها لتسمع ياسمين تقول في عفوية الأطفال:

قال "بابا" أنك تحبين التيوليب الأبيض...

رفعت رأسها إلى كريم كأنها تشهده على الكلمات، إلا أن ملك أكملت في حنان:

لك أب رائع... وحده له الفضل في كل ما رأيت وسمعت... ولأنه طيب ورائع أهداه الله أحلى زهرة في الأرض... أنت.

وحدها الصغيرة تقدمت نحوها وألقت بنفسها بين ذراعيها، وشعرت ملك أنها تضم كريم وأدهم ومحمد وكل من جمعها بهم الحب والفراق معاً.

استبقتها على صدرها لحظات حين كانت تحاول الابتعاد وأغمضت عينيها في سكون.

أنت بين أذرع الأطفال تعلم ما هو الحب وكيف هو النقاء.

صافحت كريم وضغطت قدميها على الأرض حتى لا تسقط على كتفيه.

أخبروها أنهم في انتظار لقائها بعد تحديد الموعد، وأخبرتها ثريا أن إيناس عبد الدايم تطلب منها حفلاً شهرياً وأنها ستدعوها إلى الحفل ليتناقشا في هذا الشأن.

ابتسمت ملك تلك الابتسامة التي نضعها على شفاهنا حين لا نريد شيئاً سوى البكاء!

في بهو العمارة التقى سكانها العائدون من الحفل الكبير. قبلتهم جميعاً إلا مروة التي غابت طويلاً بين ذراعيها. وبعدما عانقت بدرية سمعتها تستدير إلى مروة تقول في صوت هادئ:

يبدو أن أيام الألم في هذا العقار انتهت... قريباً نحتفل بخطوبة الأستاذ ياسر وأيضاً خطوبتي لابن عمتي... ستأتي أيام كلها أفراح.

ياسر لم يغب في دهشته سوى لحظات، قال بعدها وهو ينظر في عيني أمه:

أنا لن أتزوج...

بابتسامة هادئة ساخرة أجابت بدرية:

إن لم تفعلها هذا الصيف ستفعلها العام القادم حين تأتي... بدأت مواسم الأفراح.

جذبت مروة ولدها من كفه وتقدمت هي وإياه ليدخلوا مع ملك في مصعد البيت ونكس عمران رأسه في ألم يقول:

زواج ياسر لا يعني أبداً أن تتزوجي بل يعني أنك من الوهم تفيقين!

ماذا يبقى بعد الاحتفالات... ماذا يبقى بعد أن يصفق لك الناس ويحملون لك الزهر والهدايا ويلتقطون معك الصور ويطلبون توقيعك على دفاترهم الصغيرة كأنهم يأخذون منك اقراراً بوجودك معهم؟

هم بنشوة لقائك ومتعة ما قدمته لهم يذهبون، ويعود مبدع الحدث وحده وحيداً كسيراً كما كان.

حين وضعت زهرات التيوليب في إناء الزهر المملوء بالماء على رأس البيانو الأسود وجلست على مقعدها تراقبه في ألم حاولت أن ترسم بسمة صغيرة على وجنتيها.

كيف نعتني بالزهر... نقبلّه ونسقيه ونتنفس عبيره، وبعد أن يمنحنا كل ما عنده ويذوي نجمعه وبأيدينا نلقي به مع قمامتنا.

أهذا حقاً ما يصنعه الإنسان بكل ما يمنحه العمر والجمال؟!

أخبرها أنه آت، لكنها لم تكن تعلم أنه سيأتي ومعه شيء كبير يحمله بين يديه.

حين فتحت بابها كان كريم يقف أمامه ويحمل بين ذراعيه صندوقاً كبيراً من الورق. رغماً عنها ابتسمت ومن منا، أياً كان حزنه، لا يبتسم في وجه الهدايا؟

أفسحت له الطريق ليدخل ويضع صندوقه على طاولة طعامها واستدار ينظر نحوها.

ما زالت فى ثوبها الأحمر لكنها تقف حافية. في عينيها كعينيه حزن طاغ لا أحد منهما، رغم الشوق والفرح، يخطئه أو حتى يخفيه. من دون أن يفتح لها ذراعيه تقدمت نحوه وألقت بنفسها على كتفيه قائلة:

ماذا لديك لي؟!

حين ضمها وأغلق ذراعيه شعر أنه يبكي على صدرها. ما زال مشهد الصباح يبكيه. حين قبّل ابنته منذ قليل فى موقف سيارات الأوبرا وطلب منها أن تبيت لدى والديه ضمه أبوه إلى صدره يسأله إلى أين يذهب وقد انتصف الليل همس فى أذنيه قائلاً:

"طلقت ندى هذا الصباح".

انتفض بين ذراعيها وهو يتذكر كيف غابت ملامح والده في الدهشة والألم.

لم يقل أحدهم كلمة... أخذ الرجل زوجته وحفيدته ومضوا في سكون.

شعرت ملك بانتفاضته على صدرها فابتعدت تقول فيما استطاعته من مرح:

إرنا ما عندك أيها الوسيم.

كان الصندوق أنيقاً تلتف حوله شريطة عريضة من اللون الأحمر الذي تسكنه دوائر بيضاء صغيرة كثيرة. وجذبت الشريطة ورفعت غطاء الصندوق ونظرت بداخله ليقف كل شيء فى جسدها ورأسها عن الحركة.

ابتسم كريم وهو يراقبها تمد أصابعها التي أحيت آمالاً وزرعت ابتسامات بعزفها في أرواح كثيرة عليلة منذ ساعات.

هو ثوب عروس أبيض أنيق أخرجته بكفها وهي بعينيها من خلف دمعها تستجديه تفسيراً...

في صوت خفيض يقطر عشقاً وألماَ قال:

لأني أحبك!

لم يكن مستغرقاً في النوم... ما زالت ليلة الأمس تدور في رأسه، ما زال وجه ابنته وهي تعلن خطوبتها إلى ابن أخته يطمئنه ويقلقه.

إعلانها لاقتراب زواجها يعني براءتها من أي شيء مشين بياسر يجمعها، لكن ذاك الذعر الذى كسا وجه الشاب ونفيه السريع للقصة وصمت أمه ما زال يقلقه.

حاول كثيراً أن يتحدث إلى بدرية لكنها بدلت ملابسها وقالت: "الصباح رباح".

كان يشعر بها وهي تتلوى على فراشها، بينما هو يدعي النوم كما تحاول أن تدعيه.

غابت ابنته في النوم منذ ساعات وهو ما زال في فراشه يحاول أن يستغرق في النوم.

هي السادسة صباحاً فليحاول أن ينام هذه الساعة قبل أن يأتى موعده مع غسيل السيارات.

حين استدار بجسده مرة أخرى على الوسادة سمع طرقات خفيفة على باب غرفته وانتفض في ذعر.

لا أحد أبداً ينحني ويدخل حتى الباب ليطرقه. إن أراده أحد يناديه أو على الهاتف يطلبه.

ومن تراه دخل العقار في هذا الوقت؟!

يجب ألا تستيقظ بدرية فلقد عانت كثيراً حتى تنام.

وضع قدميه في بلغته ونهض يفتح الباب وخرج من تحت سلالم البيت ليجدها تقف بعيداً. إلى جوارها حقيبة سفر وصندوق من الورق وضعته على الحقيبة. في ذهول قال:

إلى أين؟!

تقدمت نحوه وهي تبتسم ثم مدت يدها إليه بمظروف أبيض صغير قائلة:

في الصباح تمنح هذا للسيدة مروة بيدها.

بعينيه استدار ينظر من خلف زجاج الباب العتيق ليجد سيارة أجرة تنتظرها وعاد يقول:

إلى أين؟! متى تعودين سيدة ملك؟

فتحت حقيبتها وأخرجت هاتفها الصغير وهي تقول بصوت باك متهدج مزق أوصال قلبه:

امنحها هذا أيضاً... أرجوك يا عمران.

مدت كفها تصافحه للمرة الأولى وقبل أن تمس كفه ضمته إلى صدرها وبكت تقول:

أحبك وأحب بدرية وأضع ابنتك وابني أمانة بين يديك.

ابتعد عن صدرها وهو يكاد من الدهشة والألم أن يموت ثم قال:

ابنك؟!

انثنت ملك تحمل صندوق ثوب عرسها وهي تقول:
نعم... محمد!

ماذا تريد هذه الحمقاء؟! منذ متى توقظه يوم إجازته لتخبره أن الإفطار جاهز؟ سألها إي إفطار فلم تقل سوى "إنهض... الجميع على المائدة في انتظارك"!

وضع وحيد قدميه في نعل البيت وخرج بعدما غسل وجهه ليراها تجلس على رأس مائدة البيت وحولها ولداه.

تقدم نحو المائدة في دهشة كبيرة وهو يراها مليئة بكل ما يحبونه جميعاً. أمام ياسر كان هناك صحن "الشعيرية بالسكر" وأمام علا كان هناك "كريب بالمربى" وأمامه هو "بيض العيون".

جلس يمد يده إلى الخبز الساخن وقال ساخراً:

تحتفلين بنجاحها؟!

بشوكتها دقت مروة على صحنها الخاوى تقول:

بل بهزيمتك احتفل.

استدارت نحو ابنتها تقول:

لأني أحبك احتملت أن يخونني والدك وأن يحمل النساء إلى بيتي وآخرهن رضوى التي هي فى العمر أكبر مني ومنه. لأني أحبك ياسر احتملت ما لا يحتمل

إنسان. لكن اليوم ملأ كل منكما بما يريد صحنه. أنت ببدرية... وعلا بحلم التحرر والسفر.

هذا الرجل باع البيت للدكتور ناصر وجيه لأجد نفسي إما ككلب ضال أتبعه معكم إلى أرض لا أحبها وإما في الطرقات أهيم وحدي.

ورغم أن صحني وحدي خاوٍ من الحلم والنقود والعزيمة، إلا إنّ قلبى بالإيمان الذي أورثني إياه إمام الحسين عامر. ما عدتم أطفالاً ولا عاد لي عليكم سلطان... قلبي أصدر فتواه... أنا راحلة.

نهضت مروة عن مقعدها تمضي نحو الباب وركض ياسر خلفها يقول:

سأذهب معك.

ضمته إلى صدرها في حنان تقول:

لا تخف... سأعود. عند ملك نلتقى... دعنى فقط أتنسم هواء القرار ساعات.

قبل أن تفتح باب بيتها استدارت تنظر إلى وجه زوجها الغارق في الغيظ ووجه ابنتها الغارق في الحيرة وقالت:

طلقنى وحيد ولا تخش شيئاً. أتنازل لك عن كل شيء فقط اعتن بإبنتك فهي ضحيتنا الكبرى.

إلى منطقة الحسين ستذهب. إلى الصلاة في المسجد الذي قضى والدها أعواماً يخطب في الناس على منبره ويحدثهم عن الحب والرحمة ستذهب.

ستعود إلى صديقتها حتى تتدبر أمرها.

قبل أن تصل إلى باب البيت رأته ينهض عن أريكته الخشبية ويمد يده إليها بمظروف أبيض وهو يقول:

رحلت السيدة ملك وتركت لك هذا.

لم تنظر إلى يده التي وضعها داخل جيب معطفه ليخرج لها شيئاً آخر، بل أسرعت تفتح المظروف.

قرأت أول سطورها لتسقط على الأريكة الخشبية في ذهول. شعرت أنها عن وعيها تكاد تغيب لكنها تمالكت نفسها ونظرت إليه وقالت:

امنحني كفك.

على كف عمران استندت لتمضي في شارع الحاسب وحين عبرت من جوارها سيارة أجرة خاوية كصحنها أشارت لها ودخلتها قائلة "مسجد الحسين".

على مقعد السيارة الخلفي عادت تنظر إلى أول السطور وأغمضت عينيها على آهة جريحة كبيرة...

"هو الفراق يا حبيبتي!"

لوالديك بعد رحيلهما رائحة دوماً تهب عليك في أشد أوقات أيامك دونهما ظلمة.

لكأن الملائكة حين يشتد حزنها عليك تأتيك بروحيهما ليرميا عليك رائحتهما فيشتد عودك وينتصب ظهرك من جديد.

بعدما أنهت مروة صلاتها استندت بظهرها إلى أحد أعمدة المسجد الكبير لتشعر برائحة كامل رفعت تملأ صدرها وأوصالها، وتذكرت ما كان يردده "إمنح ثمنح ولو بعد حين".

كل ما حاولت أن تمنحها إياه نادية شفيق وضعته ملك بين يديها وذهبت.

في ألم أخرجت من حقيبتها الرسالة وفتحتها لتقرأها من جديد.

هو الفراق يا حبيبتى.

هل تذكرين قصة "طنط نادية" رحمها الله التى قصصتها علىَ كثيراَ... هل تذكرين كيف قالت إن الألم جبان... إن نحن أظهرنا له قوتنا هرب وإن نحن سقطنا أمامه ازداد شراسة ودناءة؟

وعيت أنا الدرس أكثر منك...

كان من الممكن أن أستسلم لهذا الحب الكبير وأسقط أمام ضربته الأولى لروحي وقلبي لكنه ما كان ليكتفي. كان بعدها سيضرب مبادئي وطهارتي.

ما كان ليتركني إلا وأنا وحيد زيدان آخر أو ريبكا جديدة. قررت الهرب من هذا الحب. الهرب ليس ضعفاً في بعض الأحيان. الانسحاب قوة وحكمة عندما ندرك أن بقاءنا لن يفعل شيئاً سوى سقوط مزيد من الأبرياء!

إن لم يكن الحب ألماً وخنجراً في الخاصرة ما عساه يا مروة إذن يكون؟!

في البيت تجدين توكيلاً رسمياً بالبيع والشراء لنفسك وللغير ومعه تجدين شيكاً بمبلغ يكفي محمد وبدرية حتى تطمئني على كلّ منهما.

إن هزمك ناصر ببيعه البيت وابتعدي عن لعنة محب وجيه التي حَدثتك عنها طنط نادية فأنا أصدقها.

ما عاد أمر البيت يهمني.

أنا أستأمنك على محمد حتى يموت وعلى بدرية حتى تواجه حبها وعلى نفسك حتى تأخذي بيدها.

أنا لا أهرب من موت الصغير فالموت يسكنني... أنا من تشييع الجثث اكتفيت!

سيحادثك كريم على هاتفي...

له في البيت رسالة وله فيه "بيانو أمي"... وعصا أعاد حبه لي روحي لأنفخ بها فيها من جديد!

لا تحزني أبداً لفراقنا يكفينا أننا التقينا وعلمنا أن الأرض ما زالت بالحب والصداقة وحدها تستنير وتحيا!

حين عبرت باب البناية كان على أريكته يجلس.

حزين عمران... بل هو أكثر حزناً من ذاك اليوم الذي ماتت فيه زوجته وجاء بابنته طفلة صغيرة تختبئ في ثنايا جلبابه.

حزين لرحيل ملك... كيف كان يكرهها ويتحاشى رؤيتها أو حتى المرور إلى جوارها وكيف تمزق قلبه وهو يراها تمضي وهى تحمل ذات الصندوق الذي رأى السيد كريم يصعد به إليها.

وكيف؟! كيف يجزم أن ما بينهما شيء طاهر رغم أنه يقضي معها ساعات في بيتها؟

تماماً كما يجزم أن ابنته تحب ياسر ويحبها لكن لا شيء يشين أو يجلب العار بينهما.

ألا يحب هو السيدة مروة؟ نعم... يحبها... يحلم بها كل ليلة وأيضاً لا شيء بينهما.

هو وابنته بينهما وبين الخطيئة كلمة اسمها "السيد" وأخرى اسمها "السيدة".

حين بكت هذا الصباح على مقعده هذا وقالت "امنحنى كفك" تمنى لو يضمها كما ضمته ملك وكما يتمنى لو يعانق بدرية معها ويخبرهما أنه يعلم أنهن

طاهرات وأنه بالروح يشتري سعادتهنّ لكن رحلت ملك فهل ينتظر رحيل مروة أو بدرية؟!

عادت تناديه للمرة الرابعة وهو غارق في أفكاره ورفع رأسه إليها متنبهاً فقالت:

سأذهب إلى النيل قليلاً...

أمسك بذراعها بين يديه وقال:

لن تتزوجي إلا من يريده قلبك... ياسر ليس لك وأنت لست أبداً لابن صفية. أنا معك حتى تجدي من لا أقول ولا تقولين له سيد فلان... هل تفهمين؟

رآها تهتز... رآها تميل نحوه. لماذا لا تعانقه ولماذا يخجل أن يفعل وإلى متى؟!

ابتعدت بدرية وسقط هو على أريكته الخشبية. لم يخبرها عن رحيل ملك. حين تعود سيضمها إلى صدره لتعلم أن لها كتفاً تلوذ بها وتحتمي.

حين يرى ياسر سيجلسه إلى جواره ويخبره أن الحب حلم لكن الحياة تبدأ عندما نصحو من الأحلام!

لن يخجل من الحديث معه. إن كان يحبها سيعده أن يعدّها له لتليق به، وإن كان يخجل منها ومن الجلوس على أريكته هذه فليبتعد عنها.

لن يخجل أبداً... لن ينتظر حتى تخرج ابنته يوماً بحقيبتها هاربة كالسيدة ملك أو تسقط باكية كالسيدة مروة.

سينفذ وصية ملك له... أوصته بابنها وابنته.

وأغمض عينيه في ألم.

ليست بدرية فقط التي لا تعلم... محمد أيضاً ما زال لا يعلم برحيلها عنهم.

أغلقت الطائرة أبوابها واستدارت ملك بعينيها تنظر إلى مقاعد الدرجة الأولى.

لا أحد سواها.

فلتبك إن شاءت... لن يراها أحد.

حين ارتفعت الطائرة وحلقت فوق سماء القاهرة وضعت أناملها على صندوق ثوب عرسها وأغمضت عينيها... يقتلها الشوق إليه ولكن نحن لا نموت أبداً مرتين!

رأته بين جفنيها... رأت كريم يطرق باب بيتها ويدخل بعد أن تفتح له مروة.

تراها تشير له بيدها إلى البيانو حيث وضعت هي رسالتها له وبجوارها زهرات التيوليب وعصا الفلوت.

تراه ينظر إلى مروة وقبل أن يقول كلمة واحدة... تخرج ودمعاتها على وجنتيها لتتركه وحده.

تراه يتحسس بأصابعه الحانية عصا الفلوت تماماً كما تحسس جبهتها ليلة الأمس... تشعر بأنفاسه وهو يحمل رسالتها بين يديه... تراه يفتحها بعد أن يقبّل الحروف بعينيه كما قبلّها ليلة الأمس.

تراه ملك بوضوح يفتح عينيه في ألم كبير وهو يقرأ رسالتها وأصابعه ما زالت تتحسس هديتها إليه كما تتحسس هي الآن هديته إليها. تراه يحبها وتراها تحبه ويغيب كل شيء والحب وحده يبقى.

كريم:

ومتى كان صدق الحب ونقاؤه يكفيان لاستمراره وبقائه؟!

لا تبحث عني فلن تجدني وإن اشتقت حقاً إليّ ستعلم لحظتها أني لم أبتعد ولم تبتعد.

أنا في حناياك سأحيا وبين أضلعي أقمت لك متكأً.

أخبر ياسمين أن فتاة صغيرة علمتها أمها يوماً العزف على هذا البيانو تهديه لها، وحين تكبر قليلاً أخبرها أنك وحدك أحببت هذه الفتاة وأحياها حبك وسيبقى يزهر ويثمر بعد الأعوام.

نحن لم نفترق.

نحن فقط قررنا ألا نلتقي!

كانت بدرية ما زالت على النيل تجلس.

نعم تحبه... تريده لكنها تحب عمران أكثر... تحب كبرياءها أكثر... وتحب مروة أكثر.

ما عادت طفلة لتعاند بحياتها. إن كان ياسر يحبها فليعلم أنها يوم وطأت هذا الشارع بقدميها كانت وستبقى حتى يوم خروجها من الحياة... ستبقى "ابنة عمران".

لن تتزوج حسين ابن واصف... بل لن تتزوج على الإطلاق إن كان عليها أن تختار بين رجل وبين الحقيقة.

غاب ياسر عاماً ولن يضيرها أن يغيب أعواماً.

جاءها صوته يناديها... هو يبكي... استدارت في جنون وعبرت بساقيها سور الكورنيش المتهدم وهي تراقبه يصيح ويبكي راكضاً باتجاهها.

يبكي في مرارة كبيرة ويصيح:

هل رحلت حقاً؟!

صدره لا يحتمل هذا الصراخ والركض والبكاء... ركضت نحوه تعبر الشارع الصغير تصيح تسأله عمَن يتحدث.

وقفت أمامه وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه وتحاول أن تهدَأه وعاد يبكي في جنون قائلاً:

ألم تخبرك؟! أما كنت حقاً تعلمين؟! أمي كانت تعلم... تركت لنا نقوداً كثيرة... ما عساي بها أفعل؟ أنا أريدها... أحبها... كيف تتركني وترحل؟!

كان يسعل في جنون ويبكي في جنون أكبر، وبدرية تساقط دمعها وهي تخشى أن تسأله لأنها تعلم أنّ لا امرأة يبكيه غيابها سواها.

حاولت أن تهدَأه كثيراً... حاولت أن تخبره أنها قد تعود، لكنه كان يصيح يخبرها أن السيدة مروة هناك والسيد كريم أيضاً هناك.

جميعهم في بيتها يبكون.

شهقت وهي ترى ياسر يعبر الشارع نحوهما. كان واضحاً أنه كان يركض بحثاً عنها وخوفاً عليه.

حين أصبح أمامها رفع الصغير وجهه وهو يصيح من جديد:

هذا ياسر اسأليه... كان معهم... سمعت السيدة مروة تخبره أنها أبداً لن تعود.

حين التقت عيناهما أرخى الأول عينيه في ألم وهزَّ رأسه وهو يقول:

نعم... ملك لن تعود.

عاد محمد يبكي من جديد إلا أن بدرية أمسكت بيده وضمته إلى صدرها وقالت في ألم:

لا تبكِ أرجوك.

لمَ البكاء؟!

جميعنا أحببناها... ملك جاءت لتعلمنا كيف أنَّ الحب يغير الأشياء ويبقى وحده لا يتغير.

هي في قلبي وقلبك وقلب السيد كريم... أنفاسها على هذا السور القديم. أنظر أسفل قدميك سترى وقع خطاها.

إن أعياها الفراق وعادت ستجدنا على عهدنا وإن غابت ورحلت... ما الفرق؟!

جميع من أحببناهم وأحبوّنا إما أن نرحل يوماً عنهم أو هم عنا حتما يرحلون!

للتواصل مع المؤلّفة:

Websit: www.noorabdulmajeed.com

Facebook:Noor-abdulmajeed

Twitter:@ noorabdulmajeed

E.mail: noor4corners@yahoo.com

بقلم د. جلال أمين

فرحت برواية "صولو" مثلما فرحت برواية سابقة للمؤلفة نفسها، وهي رواية **أحلام ممنوعة**. ولكن الروايتين، رغم جمالهما، تتميز إحداهما عن الأخرى تميّزاً واضحاً في الموضوع والأسلوب.

في هذه الرواية لاحظت اجتماع ثلاث صفات يندر أن تجتمع: الموهبة والشجاعة والحكمة. الموهبة تظهر أولاً في إتقان فنّ الحكي، مما يضمن للرواية استمرارَ تشوّق القارئ لقراءة المزيد، من أول صفحة إلى نهاية الرواية، ولكنها تظهر أيضاً في فهم عميق لكثير من المشاعر الإنسانية، مع تعاطف حقيقي معها. أما الشجاعة فتظهر في اقتحام موضوعات صعبة وحساسة، تتعلق بأدق هذه المشاعر وأكثرها خصوصيةً. وتظهر الحكمة في ما تعبّر عنه المؤلفة من حين لآخر، أثناء تعليقها على تطور أحداث الرواية، من تأملات ونظرات رصينة للحياة والفراق والموت، ورفض الاستسلام لليأس، وتفاؤل بإمكانية تحقيق مستقبل

أفضل حتى في أشد الظروف صعوبة وأكثرها مدعاةً للإحباط.

أسلوب الكتابة في هذه الرواية جذاب للغاية، ويقترب أحياناً من الشعر. بل لقد ذكرتني بعض المقاطع من الرواية بعزف قطعة موسيقية، إذ يتكرر حكي نفس الواقعة أحياناً، المرة بعد الأخرى، كما تتكرر النغمة الواحدة، ولكن في صورة مختلفة بعض الشيء، في كل مرة عنها في المرات السابقة، أو تحتوي على إضافة صغيرة إلى ما كانت عليه من قبل.

الرواية تصف مشاعر أكثر مما تروي من أحداث، ومشاعر الحب والعطف فيها كثيرة ومقنعة، وإن كانت مشاعر الكراهية موجودة أيضاً ومقنعة بدورها. ولكن الرواية تنتهي نهاية مؤثرة جداً لا ينتصر فيها الحب ولا الكراهية، بل تنتصر إرادة التحرر من العبودية ومن الاستسلام لهذه العاطفة أو تلك.

الرواية تأسرك بجمالها وصدقها، وبرقة تناولها للعلاقات الإنسانية. وهي، وإن كانت تحكي قصصاً وثيقة الصلة بواقع اجتماعي وثقافي معين، تتجاوز هذا الواقع إلى أفق أوسع وأرحب، مما يجعلها جديرة بمكانة متميزة في الأدب العربي الحديث.

21/8/2013

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

ماتت بياضة، وانتقل زوجها عمران وابنتهما بدرية من ملاوي في الصعيد إلى القاهرة.

في بناية جلّ شققها فارغة، عمل عمران ناطوراً. جرح يده فداوته مروة, زوجة المهندس وحيد. منذ تلك الحادثة بات عمران يقف على حافة بين ضميره وبين تعلّقه بمروة. أما بدرية فباتت حياتها مرتبطة بياسر، تنتظر عودته من المدرسة كل يوم ليجلس معها على الدرج الخلفي ويلقّنها اللغة الإنكليزية.

بثّت بدرية في سكان البناية طاقةً إيجابية. كانت السبب في خروج نادية، مالكة البناء، من حالتها النفسية الصعبة بعد موت زوجها وابتعاد ابنها. باتت بدرية الروح التي تنبض باسمها العمارة التي غمرها الحزن لفترة طويلة.

قيل في الكتاب

«الرواية تأسرك بجمالها وصدقها، وبرقة تناولها للعلاقات الإنسانية. وهي، وإن كانت تحكي قصصاً وثيقة الصلة بواقع اجتماعي وثقافي معين، تتجاوز هذا الواقع إلى أفق أوسع وأرحب، مما يجعلها جديرة بمكانة متميزة في الأدب العربي الحديث».

د. جلال أمين، كاتب وناقد مصري

نبذة عن المؤلف

كاتبة وروائية سعودية. شغلت منصب مسؤولة تحرير مجلّة «مدى» السعودية. لها حالياً مقال أسبوعي «شهد الكلام» في مجلة " كل الناس ".

كتب أخرى للمؤلف

" اريد رجلا"